

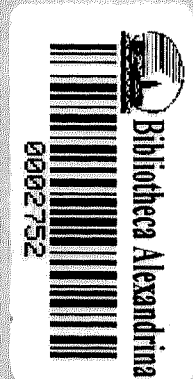
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT

عبدالكريم الخطيب

النبي محمد

دار الفكر العربي

دار الفكر العربي





عبد الكريم الخطيب

لمعهد الدراسات والبحوث الإسلامية
مكتبة الإسكندرية

رقم التصنيف: 297.63

ن . ح . م . خ

رقم التسجيل: 71001

الرسالة

إنسان الإنسانية
ونبي الأنبياء

الطبعة الثانية



١٩٧٤

General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الطباعة والنشر

دار الفكر العربي



في سنة ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٠١٤ م

رقم الكتاب: _____

رقم المجلد: _____

دار القرآن والعلوم
صاحبها: محمد عبدالرازق
١٤ كنيسة الأرمين من الجيش
تلفونه ٩٣٤٠٩٤

سُمُّ الرُّسُلِ الرَّحْمِ

أشهد لقد ظلمت نفسي ، إذ أقدمت على هذا العمل ، بعد أن ظلمت سنين
كثيرة أتميه ، وأحاذر الإقدام عليه !

فإن الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم - وإن يكن طلبه النفس في كل حين ، ورغبتها
في كل حال - فقد كان الهمس به ، والتخافت فيه أحب إلى قلبي ، وأرضى لمشاعري
وأروح لنفسي ، ... إذ كنت أدع لخواطري الانطلاق في معاني السيرة النبوية
وجانها ، إلى المدى الذي تقدر عليه ، دون أن آخذ نفسي بمنهج ، أو أقف بها
عند مورد . بل كان لها أن ترود كل منهج ، وترد كل مورد ، وتنتقل من حال
إلى حال كما ينتقل النحل بين ألوان الزهر ! !

° ° °

ولا أدري ماذا حدث حتى انتقل هذا الحديث الهامس الخافت من سيرة
الرسول ، الذي كان يذني وبين نفسي ينساب في مسارب النسيم ، ويسرح بين
حنايا الصدر لا أدري كيف انتقل هذا الحديث الهامس الخافت ، إلى هذه
الصورة المسموعة المقرورة في هذا الكتاب ، الذي يجده القارئ بين يديه ؟ ؟
فلقد كنت حريصاً أشد الحرص على أن أظل قارئاً أو مستمعاً لسيرة الرسول
صلى الله عليه وسلم دون أن أكون مقرئاً أو مسمعاً لها يوماً من الأيام !

إنني أعرف حق المعرفة جلال هذا المقام ، وأقدره قدره من الاحترام والتوقير ،
كما أعرف حق المعرفة ما ينبغي لسيرة الرسول الكريم من حرمة وتعمون من
أن يباح حماها لسكل من يقول بعلم وبغير علم ، ولسكل من يرتاد حماها بزاد
أو بغير زاد !

فليس كل من عرف طرفاً من سيرة الرسول ، وضم صدره على حبه والولاء
له ؛ بقادر على أن يمرر مناعره وأحاسيسه . وأن ينتقل ما بنفسه من معاني
الجلال والعظمة التي تميز عليه من جلال النبوة وعظمتها إلى كلمات مسموعة

مقروءة ، وأن ينفض ما بصدوره من مشاعر الحب والولاء على الأسطر التي يسود
بها صفحات ، ثم يجعلها كتاباً في السيرة ١١

ولو كان ذلك مما يقع في الإمكان ، أو لوقع جاء مجيء الرضا والقبول لأخرج
كل مسلم كتاباً عجباً من أعماقه ؛ في تلك السيرة الكريمة ، ولكانت هذه الكتب
آية الآيات فيما تحمل من معاني الحب الصادق ، التي ضمت عليها صدور المسلمين
للنبي الكريم ١

ولكن ما في الصدور شيء ، وما تستطيع أن تحملها الكلمات من هذا الشيء -
شيء آخر ١١

فكيف إذا كانت المعاني من السمو والكمال ، وكانت المشاعر من الصدق
والعمق على هذا النحو الذي يجده من يطوف بحصى النبوة ، ويطلع أنوارها ؟؟
إن ما تأخذ الكلمات هنا من هذا الجلال ، وما تحمل من تلك المعاني لا يكون
إلا كما يأخذ القلم من ماء البحر ، وإلا كما تمسك اليد من شعاع الشمس ، أو تلتقط
العين من ضوءها ١

• • •

فإذا ما مهيت هذا الموقف ، وأخذتني منه رهبة ، فليس ذلك إلا لأنني أعرف
للبوقف جلاله ، وأقدر خطره ، وخطر العثار فيه ١

إن العثرة هنا بقاء مشهورة ، تملظ بها الشفاه ، وتشرع لها الأقلام ، ويكثر
من أجلها الطعن والتمال .. فلا يقال للعاثر لعمراً ، ولا تقبل منه معذرة .. ١ إذ
كان ذلك العثار محمولا عند أكثر الناس على أنه تطاول على مقام الرسول ،
وتجديف عليه ..

وقد يحسن الظن عنده بعض الناس فيخفر الزلة ، ويثبيل من العثرة ، وإمكانه
لا يخلى صاحبها من الرمي بالجهل أو الاستخفاف .. وقد يشتم بعض آخر فيسوق
التهم ويرمي بالكفر والإلحاد ،

وقل في الناس من يقع على الزلة هنا فيلقاها بالسامح والصفح ، ويجهد لها في

باب الثفران مدخلا ، حين ينظر إلى الأمر بعينه معاً ، وحين يرى الحسنات
والسيئات جميعاً !

* * *

وعذيري عند نفسي من هذا الموقف الذي سقته إليها ، أو ساقنتني هي إليه -
أفني نسحت لها ، ودعوتها إلى الريث والمهل فيه ، فطاولات معها الأيام ، ولويت
زمامها عن هذا القصد من أطويلا ، لعلها ترضى من سيرة الرسول بما أريد لها
الرضا به ، وهو أن تعيش فيها وحدها ، وأن تلتقي بها على غير مشهد من أحد !
وأكثر من هذا ، فلقد تالفت بها ، وترفقت في صرفها ، فلم أَدعها تهيم في
كل واد ، وتسقط على كل مرعى ، حين صرفتها عن وجهتها تلك ، وأخذت
عليها الطريق إليها - بل قدمت إليها زادا عتيداً طيباً ، وهو أن تلتقي مع صحابة
رسول الله وخلفائه الراشدين ، وأن تعيش معهم في السر والعلن ؛ تتحدث إلى
الناس بما تشاء من حديث عنهم ، إن كانت تشتهي الحديث إلى الناس في هذا
الباب ، وتحصر عليه .

وقد كان !

فأرخت لنفسي العنان لتجيا في سيرة صحابة الرسول ، وخلفائه الراشدين ،
وأن تأخذ الوضع الذي ترصيه لتتحدث بما تشاء من صور الحديث : مقروءة
أو مسموعة !

وكان ذلك - فيما بدا لي أول الأمر - سياسة ناجحة فيما أودت ، إذ سكنت
تلك النوازع التي كانت تطلع بها على نفسي بين الحين والحين ، وتصرخ بها في
أعمق لي يكون لي في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً !

وفعلا .. كاد يقع التصالح بيني وبين نفسي على هذا الموقف ، وأمسكت بالقلم
لأبدأ بسيرة الخليفة الأول ، أبي بكر ، رضى الله تعالى عنه !
وهنا ألقت النفس إلى خاطراً غريباً ، وهو أن أبدأ بسيرة الخليفة الثاني
عمر بن الخطاب ، !

فسألنها: ولم عمر؟ أترأه يفضل أبا بكر، ويقدم عليه؟
قالت: مالك ولهذا الظن؟ ولم تحمل الأمر على المناضلة، والتفاضل بين
خلفاء الرسول؟

قلت: وبم يفسر هذا... بيني وبينك على الأقل؟
قالت: إن ما اجتمع بين يدك من سيرة «عمر» يصلح أن يكون كتاباً،
يقروه الناس، وربما كان القلم هنا أسرع وأطوع في تصوير الحقائق التي تريد عرضها
أما «أبو بكر» فإني أرى أن سيرته لم تكتمل لديك ولم يبلغ عندك ما تريد منها!
وخيل لي أن هذه نصيحة ناصح، ومشورة أمين!
فأقبلت أكتب سيرة «عمر» فكتبتها، وأخرجتها كتاباً بين أيدي الناس!

* * *

وأشهد أني حين كنت متوفراً على الكتابة في سيرة «عمر» كنت أكاد أئب
وثباً، لا بلغ خاتمة الكتاب، حتى ألتقي لقاء مباشراً مع سيرة الرسول، وأفرغ
جهدي كله في الحياة معها، وإعلان الحديث عنها، ومجاهرة الناس بها!
وإذ ذاك عرفت السكين الذي كادته نفسي، وانكشف لي سر التدبير الذي
دبرته، حين ألتقت لي بهذا الخاطر الذي حملني على البدء «بسيرة عمر»!
فقد كانت سيرة «عمر» عندي خير آذن يأذن لي بالدخول إلى السيرة
النبوية، ويمهد لي الطريق إليها، ويفتح كنوز الجلال والعظمة المحجبة في
أنوارها!

فلقد وجدت في سيرة عمر ريح النبوة، نفاذ الشذى، فواح الطيب!
ووجدت في عمر العظمة الإنسانية، والكمال البشري، النامي في ظلال
النبوة: المتضئ من مشكاتها.

فكان ذلك إغراء قوياً لي بالتطلع إلى موطن العظمة، وإلى مصدر الإشعاع!
وليس ثمة شك في أن سيرة صحابة رسول الله وخلفائه الراشدين، لا تنكشف
جوانب العظمة فيها، ولا تتجلى مطالع الأنوار منها حتى ترد إلى المصدر الذي
أفاض عليها ما أفاض، من جلال وعظمة، وإشراق!

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي النور الكاشف الذي ترى فيه مغارس النبوة ، ويستدل به على ما في مجانها الطيبة من ثمر طيب !

* * *

وبعد :

فإذا عذرت لنفسى بالكتابة في سيرة الرسول ، والمعالجة بالحديث في تلك السيرة المباركة الطيبة - فمن يؤذرنى عند الناس إن وجدوا زلة أو عثرة ؟؟
حسبى أنها كانت نية خالصة ، أردت بها إرواء نفس متعطشة إلى أن تحيا مع الناس في أكرم حديث ، وأطيب سيرة .

وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

فاللهم تقبل هذا العمل ، واجعله صلاة وسلاماً دائماً على نبيك المصطفى وحبيبك المجتبي ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين ؟

المؤلف

القاهرة في : ٣٠ رجب سنة ١٣٨٣ هـ

٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين
وعلى آله وصحبه ومن امتدى بهديه . وسلك سبيله إلى يوم الدين .
وبعد :

فهذه الطبعة الثانية من كتاب « النبي محمد ، إنسان الانسانية ونبي الانبياء ،
نعود فنلتقي مع أولياء الله وأحباب رسوله ، والمتأسين بسيرته ،
وقد كنا ونحن على فية تقديم هذا الكتاب للمرة الثانية بين أمرين :

الأمر الأول : أن نعيد صياغته من جديد ، وأن تدخل عليه ما دخل على
مشاعرنا من أنوار الهدى النبوي ، وما اكتسبته به أبصارنا من أضواء سيرته
المباركة الطيبة ، التي تجدد بها الحياة كلما تقيأت ظلالها علينا ، وكلما هبت أنسامها
الطاهرة في أجوائنا .. وكان ذلك من شأنه أن يجعل من هذا الكتاب كتاباً جديداً
ربما اختلط به الأمر على من قرأه في صورته الأولى : حين يرجع إلى فصل من
فصوله . أو باب من أبوابه .

والأمر الثاني : هو أن نقدم الكتاب كما هو ، وأن نجعل هذا الذي زودتنا
به السيرة النبوية المباركة من زاد جديد ، كتاباً آخر يلحق بهذا الكتاب ، ويكون
مكمله .

وقد أثرت الأمر الثاني . وها هو ذا الكتاب في صورته الأولى ، لم نزد عليه
إلا بعض العبارات التي نراها لازمة لتوضيح معنى أو استيفاء فكرة .

نسأل الله أن ينفع به ، وأن يثبنا عليه ، وأن ينزل منزل الرضاء والقبول من
صاحب السيرة . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى
يوم الدين .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

القاهرة في : جمادى الأول ١٣٩٦ هـ
أبريل ١٩٧٦ م

المؤلف

صلوات .. وإبتهالات الكلمة الطيبة

« ضرب الله مثلاً

« كلمة طيبة .. كشجرة طيبة ..

« أصلها ثابت .. وفرعها في السماء ..

« تؤتي أكلها كل حين .. بإذن ربها ..

« ويضرب الله الأمثال للناس . لعلمهم يتذكرون » ا

° ° °

» محمد .. » محمد .. » محمد ..

يا للكلمة الطيبة .. المباركة ..

ويالروعة جرسها .. وصفاء لحنها !

من جوهرها الكريم يصاغ الكلام الطيب .. وتولد الكلمات الحسان !

محمود ، وأحمد ، وحمد . ومدح !

فأى إلهام . وأى تدبير ، وأى قدر اصطفاك — أيها الكلمة المباركة

الطيبة — لابن عبد الله اسما ، ولخاتم النبيين سمة وعلياً ؟!

وأى إلهام ، وأى تدبير ، وأى قدر حفظك — أيها الاسم النبيل — في

ضهير الحياة تلك القرون السكيرة المتطاولة .. لم ينطق بك فم ، ولم يكتس

بجلالك وليد ؟!

حتى إذا وضعت آمنة بنت وهب وليدها اليتيم ، وملأت عينها من قسرات

وجهه الوضوء ، وثغره الباسم ، وجبينه المشرق - أحست أن وليداً آخر

يتفلت من صدرها ، وينطلق إل فيها .. وإذ لسانها يتحرك ، وشفهاها

تتصادحان بنغم وادع ، رقيق .. محمد .. محمد .. هذا هو وليدي .

وذلك اسمه .. وإني لأرجو أن يحمد ، وأن يكون محمداً ! !

فحمد . . . الكلمة الطيبة المباركة .
ومحمد . . . النبي الأبي . . . مبعوث السماء بالهدى ودين الحق . . .
محمد . . . كلمة . . . هي سيدة الكلام ا
ومحمد . . . إنسان . . . هو سيد الأنام ا

o o o

ويلتقي البظيمان :
الذات . . . والكلمة ا
المسمى . . . والاسم ا
فيشهد التاريخ معجزة الحياة . . . المعجزة الخالدة . التي تخلقت من كلام .
وجرت على لسان ا

* * *

فلقد تفجرت من الكلمة ينابيع الحكمة ، وصورت آيات البلاغة والفصاحة
فيجتم لبلاغتها البلقاء ، وينخرس لفصاحتها الفصحاء .
ولأول مرة في حياة البشر . تكون الكلمة آية ، وتصبح الآية معجزة
خالدة ، تهجدى الناس على مدى الأجيال ، وتطاول الأزمان ا
ولأول مرة في حياة الرسل تكون معجزة الرسول في فمه . . . كلمات تجرى
على لسانه . فتعزها الوجوه ، وتنخرس لها الألسنة . . . ا
« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ا . . . وادعوا
من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . »

o o o

و محمد ا
كم أنت موفورة الحظ أيها الكلمة المباركة الطيبة ا
إنك أبدأ في قلب كل مسلم ، وعلى لسانه ، وملء فمه وسمعه ا
فمن يوم أن ولد ابن عبد الله وأنت نور يبدد الظلام ، وهدى يدفع الضلال .
وحق يدمغ الباطل . . . وإذ أنت رحمة راحمة حيث ضمك قلب ، أو تحرك
بك لسان ا

ومن يوم أن ولد ابن عبد الله ، وأنت تستأثرين بالمكان الأول ، في مقام
الذبيوع والانتشار ، بين الكلمات الحية العاملة في الحياة . . .
لقد اختصك الله - أيتها الكلمة الطيبة المباركة - بهذا الفضل الفدق ، فجعل
ذكرك عبادة ، وصلاة ، ودعاء !

وكان مما فضل الله به عليك - أيتها الكلمة المباركة الطيبة - أن جمع بينك
وبين اسمه تعالى ، وجعل الإيمان به لا يتم إلا ولك نصيب فيه ، وذكر معه !
فالصلاة على « محمد » في شريعة الإسلام مرضاة للرب . . . مذكورة للذنب .
والشهادة برسالة محمد ركن من أركان الإسلام . . . لا يكمل إلا بها ،
ولا يقبل إلا معها !

في كل أذان تتردد كلمة « محمد » ، وفي مفتح كل صلاة تذكر كلمة « محمد » ،
وفي التشهد من كل صلاة ، وفي مختم كل صلاة تذكر كلمة محمد !

إن أدنى ما يجب على المسلم أن يذكره من كلمة « محمد » لا يقل عن عشرين مرة
كل يوم في مقام الصلاة المفروضة . . . أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقف المسلم
بها عند حد أبداً ، والزيادة فيها زيادة من خير ، واستزادة من رحمة ورضوان .
إن أى كلمة قد تعيش في الناس زمناً ما . . . يطول أو يقصر ، ولسكنها
لن تحيا مع الناس حياة ملازمة أبداً . . . ولن يرتبط مصيرهم بها في كل حين !
بل تدور معهم دورة ثم ينتهي دورها ، وتختلفها غيرها من الكلمات . . . وهكذا
دوايك . . . تولد كلمات ، وتموت كلمات ، شأنها شأن الكائنات الحية ، من إنسان
وحيوان ونبات .

أما كلمة « محمد » فقد عاشت ، وستعيش في الناس أبداً الدهر !
لأنها تكسب كل يوم السنة جديدة تهتف بها ، وتستقبل كل وقت أهلاً
وأنصاراً ، يجتمعون عليها ، وينضون تحت لوائها . . .
لأنها كلمة مباركة طيبة . . . تؤق أكلها كل حين بإذن ربها . . .
مانطق بها مؤمن بالله إلا ارتفع في الملاء الأعلى ذكره ، وزاد في ميزان
الخير خيره !

ذلك هو بعض محمد ، الكلمة . . الكلمة التي انقسمت إلى ابن عبد الله
الوليد . . اليتيم . . النبي . . الأمي . . رسول رب العالمين !

أما محمد ، الذوات .. ذلك اليتيم الفقير الذي عرفته ، مكة ، وليدأ ، وعرفته
البادية رضيعاً ، ثم استقبلته مكة غلاماً ، وشهدته نبياً مرسلأ ، يحمل في فمه دعوة
الحق ، يؤذن بها في الناس : « أن آمنوا بربكم . . وشهدت قومه يلقونه بالسوء ،
ويرمونه بالنحر والأذى ، ورأته يلقى ما يلقى في صبر جميل .. لا يبرم ولا يضجر ..
وإن ضجرت لذلك الأرض ، وضجت السماء ! .. ثم نظرت إليه في أسى وحرن
وهو يهاجر إلى المدينة ، حاملاً معه رسالته ، طالماً بها في هذا الأفق الجديد من
آفاق الجزيرة العربية .

— أما محمد ، هذا الإنسان الذي عرفته الحياة ، وعرفه الناس ، فما أجد
الكلمة التي تحمل بعض مشاعري لهذا الإنسان العظيم . . الإنسان الذي شاعت
إرادة الخالق أن يكون مبعوثه إلى الناس كافة . هدى ورحمة للعالمين !

غرق أعرابي في لجج الليل المتضاربة في صدر الصحراء العريض ، وضلت
في ناظريه معالم الطريق . فوقف متقيداً بالحيرة والذهول ، لا يدري إلى أي
اتجاه يتجه . ولا إلى أي منصرف ينصرف ! ونجأة طلع القمر فلأ الصحراء
بوجهه المشرق الوضئ ، وللبست الموجودات حلة زاهية من النور الفضي الرقيق !
وتطلع الأعرابي إلى القمر ، وقد ملأت الفرحة كيانه ، واستبده الهجب به ..
وجمدت الكلمات على لسانه فما يدري ماذا يقول . . ؟

إنه يود لو أن القمر منه دان قريب . . إذن لضمه إلى صدره ، واحتواه
بين ذراعيه وغمره ثمناً وضمناً !

أما والقمر أبعد من أن ينال ؛ فإنه لا بد من أن ينفس الأعرابي عن تلك
المشاعر بما يقدر عليه من صور الكلام !

فعاد يتطلع إلى القمر من جديد ، ويملا عينيه من نوره المتدفق ، وجعلت

شفتاه تحتاجان ببعض كلمات هامة حاملة .. هي خفقات قلبه ، وذوب مشاعره !
لإنها كلمات أشبه بتغريدة طائر ، أو قصيدة شاعر !

ماذا أقول فيك !

أأقول زادك الله جمالا ؟ فأى جمال بعد هذا الجمال ؟
أأقول زادك الله علواً ؟ وأين ؟ وهل وراء السماء سماء ؟

ثم سكن الأعراب في صمت بليغ !

وما موقف هذا الأعرابي من القمر في حاله تلك يكون شيئاً إلى حال من يقف
من رسول الله موقف المطالع لسيرته ، الدارس لرسائله ، المتأمل في دعوته ،
المتابع لهذه الدعوة ، والمتابع لأنوارها في الحياة ، وفي أجيال الناس ؛ عصر الأثر
عصر إلى يوم الناس هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم !

إن الذي يقف من سيرة هذا الرسول الكريم موقف المتأمل المنصف ليجده
أنه أمام ظاهرة رائعة من ظاهرات الوجود ، لم تشهد الحياة من قبل شيئاً لها ،
ولم تقع العين على مثلها ، فيما يطلع في الوجود من ظواهر وعجائب !

إنسان من الناس .. ولد لأبوين كما يولد سائر الناس ، ثم لم يتلق من الحياة
إرثاً من الملك أو الفنى كما يتلقى بعض المولودين ، وإنما كان الذى تلقاه هو اليتيم
والفقر ، منذ استقبل الحياة ، بل من قبل أن يستقبل الحياة !

هذا الوليد .. اليتيم .. الفقير .. ماذا تظن به ؟ وماذا تقدر له مع الأيام ؟
لو جرت الحياة به على طبيعتها لكان مصيره إلى الضياع في دنيا الضائعين من
اليتامى والفقراء ، في عالم البادية ، وفي كثف الصحراء !

ولو أحسنا الظن بالحياة في شأن هذا الوليد اليتيم الفقير لما بلغ بنا الظن فيه
إلى أكثر من أن يكون فتى من فتيان قريش .. يقطع أيامه ولياليه في معاقره
الخمر ، ولعب الميسر ، وفي منازلة النساء ، ومخاللة الثمان .. ثم يذهب به الأمر
في شيخوخته إلى أن يكون شيخاً من شيوخ قريش ، يأخذ مكانه بين رواد
الندوة ، يستمع إلى ما يدور من أحاديث الجد والهزل فيها ، ثم تطويه الأيام
فيما طوت من سادات قريش وصماليكها !



ولكن الذى جاء من هذا اليتيم الفقير كان على غير هذا كله .. كان شيئاً لم يقع فى حسابان أحد ، ولم يدر فى خلد إنسان ! وأحسبك تنتظر أحداثاً مفاجئة .. وعجائب مذهلة ! كلا !

لم تتغير طبيعة الحياة من أجل هذا اليتيم الفقير .. كل شيء يجرى فى مجراه المقدور له .. فلم تهبط عليه ثروة مفاجئة تقبّل بها حاله .. ولم يتحول فى قرينش شيء عما عهد فيها من خير وشر ، ومن جد وهدو ، ومن رشاد وغى ، ولم يتغير وجه الصحراء وما يعلوه من جدب وجفاف ، وما يتعاور عليه من زمهرير الشتاء ، وسموم الصيف !

لقد ظل كل شيء كما عهدته الناس .. اليتيم على يتمه وفقره .. وقرينش على عهدا فى صحوها ، ونومها ، والحياة على سيرها ، فى نهارها وليليها ! تجرى الحياة ، ويجرى الناس معها ، وكأن لم يكن شيء قد دخل عليها وعليهم ، يوشك أن يبدل سير الحياة ، وأن يعدل موقف الناس فيها . وينير أوضاعهم منها !

على حين أن هذا اليتيم الفقير كان يمنع حياته فى رفق ، وعلى مهل ! فهو يصدق القول حيث يكذب الناس .. وهو يؤدى الأمانة حيث يخون الناس ! وهو يعف عن الخبز حيث يتهافت عليها النيب والنبان ، ويمزف عن اللهو حيث يتهالك الرجال والنملبان .. وهو يحقر الأوثان ويزوى وجهه عنها حيث يتخاشع لها قومه ، ويسعون إليها مصعبين ومحمدين !

كل ذلك وما لإليه من الشمائل الحلوة ، والصفات المكرّمة كان يجرى فى وداعة ورفق ، دون أن يثير فى الناس ضجة ويحدث فى الحياة هزة .. لأن ذلك كله كان يجرى عن طبيعة لا تكلف فيها ، ويصدر عن فطرة سليمة لا صنعة معها ! ومن هنا كان إحساس الناس بتلك الصفات فى محمد إحساساً قوياً راسخاً ، واقعاً منهم موقع اليقين ، لأنه دخل عليهم فى هوادة ورفق ، وتأدى إليهم يوماً بعد يوم ، وحالا بعد حال ، حتى نضج واستوى ، كما ينضج ويستوى النظم الحلوى فى الثمر الطيب ، والعنبر الذكى فى يافع الزهر !

(محمد) .. الصادق الأمين

(محمد) ... العف الزيه

(محمد) ... العاقل الرشيد

(محمد) ... البر الرحيم

(محمد) ... الزاهد العابد

هذا بعض (محمد) فيما عرف الناس منه ، وهو بعد في فباعة الصبا . وفي
مبعة الشباب ؛ قبل أن يبلغ عمر الرجال ، وقبل أن يتلقى دعوة السماء ، ويؤذن
بها في الناس : أئى لكم رسول أمين .

• • •

ولقد تسأل ويسأل الناس :

من أين لهذا اليتيم الفقير بهذا الأدب العالى الرفيع ؟

ومن أين له بهذه الأخلاق المجتمعة على الفضل والنبيل ؟

لأنه قد يتهيأ لإنسان أن يستقيم على خلق فاضل حيناً من الدهر . . . ولكن
هيات أن يستقيم عليه العمر كله على درجة واحدة من سمو ، دون أن يميل
أو يتحدرا !

وهيات أن يجمع بين اثنين أو ثلاثة من الصفات الفاضلة على هذا المستوى
العالى ، وأن يمسك بها جميعها فى قوة وفى استقامة دون أن تهتز ، ويتصرم
عقدما !

فأئى لهذا اليتيم الفقير أن يربى نفسه هذه التربية ؛ وأن ينشأ هذه النشأة
التي لم تقح لأحد فى قومه ؟ وكيف لهذا الفقير اليتيم أن يحوى الفضائل
الإنسانية كلها ، ويمسك بها جميعها ، فى قوة وفى استقامة ، على جميع الظروف
وفى كل الأحوال ؟

أسئلة ظل الناس سنوات غير قليلة ينتظرون جوابها ، كما رأوا محمدأ ،
أو جلسوا إليه ، واستمعوا منه !



سعى إذا جاءت أنباء السماء تحدث عن أن «محمداً» هو النبي المرسل إلى الناس بالهدى، والمبعوث فيهم بالرحمة. تذهبوا إلى أن لهذه العلاقة بين «محمد» وبين السماء صلة بتلك الصفات التي اشتمل عليها، وهذه الأخلاق العالية التي تفرد بها، وبدأ الناس يعيدون النظر في «محمد» على ضوء هذا الإحساس الجديده الذي دخل عليهم من دعوته: أنه رسول رب العالمين!

والناس - بين مصدق ومكذب بنبوة محمد - . . وقد تغيرت نظرهم إليه منذ ذلك اليوم الذي لبس فيه ثوب النبوة، وطلع على الناس به .

فالذين آمنوا به وصدقوه ازدادت هذه الصفات في أعينهم سمواً وقداسة، وبدأ لهم «محمد» من خلالها إنساناً يحيا في الناس بحسده، ويحيا في الملأ الأعلى روحه . . إنساناً هو وحده بين الناس جميعاً الذي يملأ الفراغ . . بين الأرض والسماء . . بين الناس والملائكة!

وأما الذين أخذتهم العزة بالإثم، وأعمى الحقد أبصارهم، وطمس الحسد على قلوبهم فإنهم استكثروا أن يكون ذلك الشأن العظيم لمحمد وحده من بين سادة قريش وعظماؤها! فجعلوا يرمونه بالسحر والكهانة، وينسبون هذه القوة الروحية التي اشتمل عليها، وملأ بها قلوب الناس هيبة - ينسبون هذه القوة إلى قوى السحر والكهانة، لال أمماد السماء ورحمة الرحمن! . . إنهم لم يستطيعوا أن ينكروا هذا الواقع الذي تشهد به الحياة كلها، وهو أن «محمداً» ليس على شاكلتهم، وإنما هو إنسان نسيج وحده بين الناس . . ولمكنهم مع هذا أبوا أن يضيفوا هذا الذي بان به «محمد» عليهم، وتفرد به بينهم - إلى الله وأن يقرروا لمحمد بما فضل الله به عليه، إذ جعله مبعوثه إلى الناس بالهدى ودين الحق!

• • •

لأنه تدبير السماء بلا شك!

ولكن ماذا يدري الناس من أمر السماء وتدبيرها في شريعة محمد، وفي تشيئته تلك الذنأة الربانية؟

إن ذلك لم يكن عن معالنة ومجاهرة ، حتى أن « محمداً » نفسه لم يكن يعلم من أمر ذلك شيئاً إلى أن آذنه الله بما اختاره له ، حين نزل عليه جبريل في غار حراء ، بأول نبأ من أنباء السماء ! وقد بلغ الأربعين من السنين . . . عندئذ عرف « محمد » أن بينه وبين السماء شيئاً ، وأن هذا الشيء صائر به إلى خير . . . وخير كثير !

أما قبل ذلك اليوم الذي اتصل فيه محمد بالسماء فإنه : لم يكن يدرى من أمر نفسه أكثر من أنه واحد من آحاد قومه ، قد ارتبط مصيره بمصيرهم في زمانهم ومكانهم . . . لا يستطيع أن يغير من واقع القوم شيئاً ، وإن يكن قد بدا له من حياتهم ما يكره ، وإن يكن قد حجز نفسه عن أن يدخل عليها ما كره من حياتهم وما أنكر من أمرهم !

• • •

بهذه الأخلاق الكريمة الرضية ، وبتلك السيرة الطيبة القويمة عاش « محمد » في قومه وبين أهله !

ومن أجل هذه الأخلاق الكريمة الرضية ، ومن أجل تلك السيرة الطيبة القويمة أحب الناس « محمداً » وأحبه من قلوبهم مكان الإعزاز والإكرام . . . فحيث كان « محمد » ارتفعت إليه العيون تملأه ، حيث تجد الراحة والرضا في هذا الإنسان الذي يعيدش في الناس أشبه بالنسمة العطرة في الهواجر اللالفة !

قطع « محمد » من عمره أربعين عاماً قبل البعثة لم تجرب عليه كذبة ، ولم تعلق به شائبة ، ولم يتحرك لسان بكلمة سوء .

كذلك أمضى « محمد » حياته كلها قبل البعثة بين قومه . لم يقع بينه وبين أحد منهم شر ، ولا قامت بينه وبين إنسان عداوة ، على كثرة ما كان يقع بين الناس والناس من شرور ، وما كان يقوم من مشاحنات ، في تلك الحياة التي كل ما فيها أو أكثره قائم على العداوة والشحناء !

يا سبحان الله !

كيف يسلم إنسان يعيدش في تلك المواطن التي يترامى فيها أهلها بالشر الذي

(م - ٢ - النبي محمد)



يوقد في النفوس ليران العداوة ، ويؤجج سمير الشر ، فيلتهم ما بين الناس من
أواصر القربى ، وأسباب الحب والمودة ؟
فاللون الغالب في هذه الحياة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام هو لون
الدم الذي يسيل ظلمات السيوف وعوالي الرماح . . فما يستطيع لإنسان في هذه
البادية أن يتوقى الشر ، أو يأمن بمبادرة الأحداث ، في أية ساعة من ليل
أو نهار !
إن القوم هناك قد فرغوا لأنفسهم ، وشدوا عزائمهم كلها إلى الحرب
والطمأن . . وآمنوا جميعاً بسلطان القوة ، وأسلبوا وجودهم ووجوههم لهذا
السلطان . . فمن لم يكن ذنباً أكلته الذئاب !
هكذا كان الشر بادياً صارخاً مطلقاً على الناس من كل أفق ، طالماً عليهم
من كل وجه . .

وشهادة القرآن الكريم عن هذه الحال أصدق شهادة . . حيث يقول جل
شأنه — منبهاً العرب إلى النعمة التي جاءهم الإسلام بها ، فنزع عنهم لباس الخوف
وخلع عليهم خلع السلام والأمن — « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً
فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار ،
فأنقذكم منها . . (١) » !

نعم ، كيف يستطيع لإنسان أن يدفع عن نفسه هذا الشر المحيط به من كل
جهة . وأن يسلم من هذا الأذى المتدفق إلى الناس من كل صوب ؟؟ إنه لا يمكن
في مثل هذه المواطن النارقة في الشر والعدوان أن يكف المرء بده عن الناس ،
ويحبس لسانه عنهم ، ليسلم منهم . وينجو من أذاهم . فما أكثرهم ما يكون هذا
الموقف العف التظيف داعية إلى الهزم والسخرية من لاخلق لهم ، أولئك الذين
لا يقيمون وزناً لخلق كريم ، ولا يحفلون بأصحاب الخلق الكريم . وما أكثر
ما يفرى الحلم والاحسان وكثيراً من السفهاء ، بالتطاول والسفاهة ، إذ يحسبون
هذا الموقف تعالماً وتعالياً أو جبناً وعجزاً . . وعلى كلا الحالين ، فإن هذا الموقف

(١) سورة آل عمران : ١٠٣

يُذِيعُ للسفهاء والضلال فرصاً للتحرش بأصحاب الاستقامة والجد ، ويفتح لهم طرقاً إلى النيل من المستقيمين الجادين ، ليخوضوا معهم في الإثم والضلال كما خاضوا ، حتى لا يكون في المجتمع من يشهد سفههم وضلالهم ، وهو عن السفه والضلال بمنزل ١

والعجب في أمر « محمد » مع قومه هؤلاء الذين عاش معهم في عزلة روحية ، وفي هجرة نفسية — أنه مع هذا لم يحدث بينه وبينهم ما يثير شراً ، أو يبعث عداوة ، أو يدعو إلى قطيعة . .

فلقد كان « محمد » مع هذا الاحساس الذي يعمش به في قومه آثر لإنسان في قريش عند قريش . . . أحبه العقلاء لعقله وكمال ، وهابه السفهاء لجلال حلمه ، وكمال عقله ، وعظمة نفسه ، فلم يكيدوا إله بكيد ، ولم يقفوا له في طريق ١ .

على أن هذا العجب من تلك الحال يرتفع ، ويصبح أمراً مألوفاً ، واقعاً مع منطق الحياة ، ومجريات الأمور فيها ، إذا عرفنا أن الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة التي لبسها « محمد » منذ نشأته الأولى لم تكن ثياباً مستعارة أو حلياً زائفاً ، وإنما هي بعض نفسه ، وطبيعة من طبيعته . . . فهي — والحال كذلك — سمة من السمات الذاتية في « محمد » ، أشبه بملاح وجهه ولون جسده ، ثم هي مع هذا الارتباط الوثيق بينها وبين صاحبها — تبدو للتوسم فيها شيئاً فريداً في الكمال والتمام ، لا يرى في غير « محمد » ، ولا يقدر على الوفاء له ، والحفاظ عليه ، بلا وهن ولا انتكاس غير « محمد » ، ومن أجل هذا كان الذي يرى محمداً في صفاته العالمية تلك لا يوى شيئاً غريباً ، وإنما يرى إنساناً سورياً ، زانه الخلق الكريم ، كما يزين الوجه الصبوح صاحبها ١

ويحدث الذين أسعدهم الزمان بمناجدة الرسول أنه ، كان على الله عليه لو سلم إذا التفت التفت معاً ، وإذا مشى مشى مثني تقليماً (١) . .

لأنه كيان واحد . وليس أوصالاً ممزقة يحويها جسد ، ويشتمل عليها إهاب ١ كما يرى ذلك في أكثر الناس ١

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض جزء أول من ٥٧

إذا التفت التفت معاً ، ا

طبيعة متجانسة . تؤلف بين أعضاء الجسد ، وكما يؤلف النغم الموسيقى بين
عديد الألوان من الألحان ا

كذلك شأنه صلى الله عليه وسلم فى صفات السكال التى اشتمل عليها . .
لنمها أشبه بالصفة الواحدة ، تعمم جميعها متساندة ، متفاهمة . . للحق ،
والعدل والاحسان .

وهكذا الشأن فيما بين ذاته وصفاته . . فليست صفاته شيئاً دخيلاً عليه .
إنها بعض ذاته ، وإنما لى المستوى الذى تنقطع دونه الأمانى والاطماع ممن تطعمهم
همهم فى مساماته ، أو تنزع بهم أمانتهم إلى التشبه به .

ومن هنا سكنت فيمن عاصروا محمدًا ، - قبل البعثة - دواعى
الحسد ، وانقطعت أسباب العداوة والبغضاء ا إذ لا يتحاسد الناس فى الميئوس
منه . ولا يتباغضون ا ا

ويتلقى محمد ، دعوة السماء أنه رسول الله إلى الناس ، وحامل كلماته إليهم
بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون .

وما أن يصدع محمد ، بأمر زبه ، ويؤذن فى قومه : أنى رسول الله إليكم -
حتى تغلى مراحل الحقد والحسد ، وحتى تتصدع صدور كثيرة ، فتلقى إلى محمد ،
بكل ما فيها من حنى ، وبغضة . وشر ا ا

فماذا جد فى الأمر؟ وماذا فى محمد ، مما لم يعهد القوم فيه من قبل ا ؟
إنه الصادق غير المكذب ، .

وإنه الأمين غير المتهم . .

وإنه الطيب الذى لا يخبث أبداً . .

وإنه الرشيد الذى لا يهتر أبداً . .

وإنه الجاد الذى لا يهزو . والمستقيم الذى لا ينحرف ا

فماذا عداها بدأ ؟

أن جاءهم رجل منهم على فترة من الرسل يدعوهم إلى الهدى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور — أفكروا ماضيه فيهم ، وتذكروا لحاضره معهم ! أن كان الرسول إنسانا بشراً يقوم بالسفارة بين الله والناس ، تمتلئ القلوب ضغناً ، وتفيض النفوس حسداً .

إن القوم قد استكثروا على « محمد » اليتيم الفقير أن يكون مثل السماء على الأرض ، وسفير الله إلى الناس ! .

أفرغت الدنيا من أصحاب الجاه ، والرياسة حتى لا تجد السماء غير هذا اليتيم الفقير ، تجعله سفيرها إلى الناس ، وحامل كتابها إلى العالمين .

إن كل ماعرفوا من صفات الكمال في « محمد » لن يرشحه لهذا المنصب الخطير ، ولا يقيمه على رأس هذه الجماعة التي لاتأخذ الحياة إلا من جانبها المادى ، ولا تحسب حساب الناس إلا به . .

« وقالوا : لولا نُزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ (١) أَمْهُمْ يَتَسَمَّوْنَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ لَنْ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ سُلْخَرِيًّا ، وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٢) » .

وهب « محمدًا » الرجل الأول في قريش ، فإن ذلك لا يخرج به عن أن يكون بشراً ! .

وأنى لبشر أن يطول السماء ، وأن يعرف الطريق إليها ، وأن يأخذ ويمطى معها . ذلك إن يكن فلتقع الواقعة ، وليكن بطن الأرض خير من ظهرها ! ! « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً

(١) القرينان : مكة والطائف ، والرجل العظيم الذى يزعمونه في مكة هو الوليد بن المغيرة ، وفي الطائف عروة بن مسعود .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .



رسولا ١» (١) . . . « وقالوا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ١١» (٢).

* * *

« أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ » .

هيات . . . هيات !

« إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله . . . » (٣).

« فاصدح بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » .

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكْبُرْ ، وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجُزَ

فَاهْجِرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ، وَارْتَبِكْ فَاصْبِرْ » .

وهنا يجمع « محمد » من كيانه رصيد أربعين عاما من الشرائع الطيبة التي احتواها ، ومن الأخلاق الكريمة التي اشتمل عليها . . . من الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، والصبر ، والرضا ، والقناعة ، والرحمة ، والحنان ، والحب ، فيضمها جميعاً إليه ، لتسكون له رداءً وسنداً ، مع ما تمده به الشهامة من قوى وأمداد . . . فإنه في وجهه عداوة صارخة ، وفي مواجهة عدو مغيب محقق ، وفي قوم قد جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . . . وهو مطالب أن يسمعهم كلمة الله ، وأن يقيم الحجة عليهم . ثم هو حريص أشد الحرص على أن يستنقذهم من العمى . وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بما يحمل في قلبه الطيب الرضی من خير وعطف ومودة :

« لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم ، حريصٌ عليكم ،

بالؤمنين رهوفٌ رحيمٌ » . . . « إن تمحرن على هُدَاهُمْ ، فإن الله لا يهدي من

(١) سورة الإسراء آية ٩٤ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧

(٣) سورة المنافقون آية ١ .

يُضِلُّ وما لهم من ناصرين . . . إنك لا تهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء .

« وما أرسلناك عليهم حفيظاً . . . إن عليك إلا البلاغ » .

« اللهم اهد قومي . . . فإنهم لا يعلمون »

ومن قلب منعم بالحسرة^١، مخنوق بالأسى . لهذا اللجاج في العناد ، ولهذا الإصرار على الضلال الذي تقيم^٢ عليه قريش ، وتؤذى نبيها من أجله ، حتى لتنوشه رماحها ، وتتماوره سهامها^٣ يوم أحد فتدعى جهنم ، وتكسر رباعيته - من هذا القلب الرحيم الكبير تفيض معاني الأسى والحسرة مزوجة بالإشفاق والرحمة ، مصورة في تلك الكلمات الرقيقة : « اللهم اهد قومي . . . فإنهم لا يعلمون » .

يا رسول الله !

يا نبي الرحمة . . . !

ماذا يقال فيك في مقام المدح والثناء — وكل مقاماتك مدح وثناء — بعد أن زكك السماء ، وقال فيك رب العالمين : « وإنك لعلی خلق عظیم » .

وأى كلام يبلغ صفتك ، ويحلى حقيقتك . وقد منحك الرحمن صفتين من صفاته : الرأفة والرحمة ، فقال فيك جل شأنه : « بالؤمنين رؤوف رحيم » ، !

فلا مدح ولا ثناء بعد أن خلع عليك ربك حلال المدح والثناء !

إن كل قول يقوله المادحون بعد^٤ هذا ليس وصفاً لذاتك ، ولا تشخيصاً لصفاتك ، وإنما هو تسبيح وتمجيد ، وصلاة ودعاء يجد فيه القائلون سعادة ورضى ، ويقبسون منه نوراً وهدى ، ويستمدون منه مضاءً وعزماً !

فإذا وقفت ببابك أقبس من أضواء سيرتك ، وأنشق من عبير هديك ، وأنهل من موارد فيضك وفضلك ، فانما هي وقفة صلوات وتسليمات عليك ،

استجابة لما أمر الله به المؤمنون في قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على
النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ، وسلموا تسليما » .
فلا مدح ولا ثناء إلا فأنك فوق المدح ، وفوق الثناء .
ولسكن . .
صلوات ، وتسليمات . .
ورحمات ، وبركات . .

الباب الأول الاسم.. والمسمى

« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ »
« قرآن كريم »

هل هناك علاقة بين الاسم وصاحبه ! بمعنى أن دلالة الاسم تتحقق في المسمى ، وتفسر في صفاته ، وفي سلوكه في الحياة !

والذي يطلب الجواب على هذا السؤال لا يمكن أن يقع عليه في مقررات علمية ثابتة ، إذ لم تخضع هذه الظاهرة لدراسة علمية منظمة بعد ، وغاية ما عرف الناس من وشائج القربى بين الاسم والمسمى إنما كان عن ملاحظات شخصية لأحوال فردية ، تصدق أحياناً ، ولا تصدق في كل حين !

على أن الذي يعنى بالتمعق في دراسة هذه الظاهرة ، ورصد النتائج التي تلوح من خلال هذه الدراسة — يقع على كثير من عجائب الاتفاق بين المسميات والأسماء ، وقل ألا ينكشف للتأمل في اسم ومسماه شيء من التطابق والتوافق بينهما ، حتى ليكاد يعد ذلك من قبيل الخطأ في التأويل للحالات التي لا تتضح فيها علاقة بين الاسم وصاحبه ، استناداً إلى الحالات الكثيرة التي تبدو فيها تلك العلاقة واضحة أشد الوضوح ، لا تحتاج إلى كثير من النظر والتأمل !

وعلى أي ، فإنا — كما قلنا — لا ندخل هذه الظاهرة مدخل الحقائق المقررة ، أو النظريات المحققة ، وإنما نعدها من الأمور التي تنطوي على حقائق جديدة بالبحث عنها ، والوقوف على أسرارها .

وقد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان هناك علاقة أو شبه علاقة بين الأسماء ومسمياتها فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتتضح على ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟



والأسماء مباحة للناس جميعاً ، ميسرة لهم أعظم اليسر ، لا يتكلفون لها ثمناً ، ولا يبذلون من أجلها شيئاً . فلذلك لإنسان أن يتخير لنفسه أو لولده ما شاء من الأسماء ، غير مضيق عليه ، ولا مطالب بحساب ، لما يختار ويؤثر من أسماء . . . فلم يعدل كثير من الناس عن الأسماء الكريمة الطيبة إلى أسماء كريمة مشوهة ؟ ولم تشيع فيهم هذه الأسماء الكريمة الثقيلة لفظاً ومعنى ؟ ؟

ونددع الجواب على هذا السؤال الآن إلى أن ننتهي من حديثنا عن العلاقة التي قلنا إنها قائمة بين الاسم والمسمى ، وأن نعرض لذلك بعض الشواهد المعتمدة على الملاحظة والتجربة !

يقول ابن قيم الجوزية : « لما كانت الأسماء قوالب للمعاني ، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينهما ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض ، الذي لا تعلق له بها . فإن حكمة الحكيم تأتي ذلك ، والواقع يشهد بخلافه . . بل للأسماء تأثير في المسميات . وللمسميات تأثير بأسمائها في الحسن والقبح ، والحفة والثقل ، والطاقة والسكينة . . كما قيل .

وقل أن أبصرت عينك ذا لقب

إلا ومعناه — إن فكرت — في لقبه

« وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه يريد أن يكون حسن الاسم ، حسن الوجه . . . !

« وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة . .

« فقد رأى — في منامه — أنه وأصحابه في دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب طاب . . فأوله — صلى الله عليه وسلم — بأن لهم العاقبة في الدنيا ، والرفعة في الآخرة : وأن الدين الذي اختاره الله لهم قد أرطب وطاب (١) . .

(١) تأول الرسول الكريم : عقبة بالعاقبة ، ورافع بالرفعة . . وجعل العاقبة في الدنيا ، والرفعة في الآخرة لأن عقبة جاء في النطق قبل « رافع » وكذلك الدنيا تجيء قبل الآخرة .

« وتناول - صلى الله عليه وسلم - سهولة أمرهم يوم « الحديبية » من مجيء سهيل بن عمرو إليه (١) . . فقال : « سهل الله أمركم . . »

« وكان - صلى الله عليه وسلم - يكره الأمانة المنكورة الأسماء ، ويكره العبور فيها . كما مر في بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومخز ، فعبدل عنهما ، ولم يجوز بينهما (٢) .

« وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم « عاصية » وقال : أنت جميلة (٣) .

« وغير - صلى الله عليه وسلم - « حزن » - جد سعيد بن المسيب - وجعله « سهلاً » فأبى صاحب الإسم وقال : « السهل يوطأ ويمتن ، (٤) .
وسمى - صلى الله عليه وسلم - « حرباً » سلباً ، وسمى « المضطجع » المنبعث ، وأرضاً عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بني الرشدة (٥) .

ويقول ابن قيم الجوزية أيضاً : « ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقراءة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وبين الأرواح والأجسام - عبر العقل من كل منهما إلى الآخر كما كان إياس بن معاوية (٦) ، وغيره ، يرى الشخص فيقول : ينبغى أن يكون اسمه كيت كيت ، فلا يكاد يخطئ . . . »

و ضد هذا ، العبور من الاسم إلى مسماه ، كما سأل عمر بن الخطاب رجلاً عن اسمه ، فقال : جمره ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ! قال : من ؟ قال : من الحرقه ! قال : هنالك ؟ قال : بحرة النار ؟ قال فأين مسكنك ؟ قال : بذات

(١) سهيل بن عمرو هو الذي نذبه قريش ليقى النبي وهو على جيش المسلمين في الحديبية قرب مكة ، فعقد معه صلحاً .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٧ .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) ابن أبي داود .

(٥) صحيح البخاري - وسنن أبي داود .

(٦) يضرب به المثل في الذكاء ، ونفاذ البصيرة .



لظى . . قال : اذهب ، فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك (١) ،
فغير عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها . .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واسمها « يثرب » لا تعرف
بغير غدا الاسم ، غيره « بطيبة » لما زال عنها ما في لفظ يثرب من العثرب ،
بما في معنى طيبة من الطيب استحققت هذا الاسم ، وازدادت به طيباً آخر ،
فأثر طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيباً إلى طيبها . .
ويقول ابن القيم أيضاً :

« ولما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ويستمدعيه من قرب ، قال النبي صلى
الله عليه وسلم لبعض قبائل العرب ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده : « يا بني
عبد الله . . إن الله قد حسن اسمكم ، واسم أبيكم » .

« فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وما فيه من المعنى
المقتضى للدعوة ؟

ويأخذ ابن القيم من الواقع العملي للحياة شاهداً حياً على ما بين الأسماء
والمسميات من علاقة التجانس والتطابق . فيعرض مشهداً من مشاهد القتال
بين طائفتين من الناس . . الأولى مؤمنة ، والأخرى كافرة . . تدور بينهما
الحرب فتنتصر الأولى وتنهزم الثانية .

والذى يقع في نفس المشاهد للمعركة ، أو المستمع لآخبارها أن المعركة كانت
بين الإيمان والكفر ، بين المؤمنين والكافرين . . وأن النصر الذى أحرزه
المؤمنون إنما كان بما فى قلوبهم من قوة الإيمان الذى ثبت أقدامهم ، وملا
قلوبهم حية وقوة !

ولكن ابن القيم ينظر فى ظلال هذه الواقعة فىرى فيها إلى جانب الإيمان
الذى كسب به المؤمنون المعركة دلالة أخرى من شأنها أن تكتب لأصحابها
النصر والغلب . . تلك هى دلالة الأسماء . . التى أدلت بتصويبها هذه المعركة ،
فكان النصر فى جانب الأسماء ذات الدلالات الموحية بالقوة والعزم ، وكان
الاندحار للأسماء ذات الدلالة الدالة على الضعف والخوار !

(١) موطأ مالك .

يقول ابن القيم : وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر (١) . . كيف اقتضى
القدر مطابقة أسماءهم لأحوالهم يومئذ . . .

« فكان الكفار . شيبية ، وعتبة ، والوليد . . ثلاثة أسماء من الضعف ،
فالوليد له بداية الضعف ، وشيبية له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : « الله الذي
خالقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً
وشيبية » ، وعتبة من العتب — أى اللوم — فدلّت أسماءهم على عتب يحمل بهم ،
وضعف يناههم .

وكان أقرانهم : « عليا » و « عبيدة » و « الحارث » (٢) رضى الله عنهم . .
ثلاثة أسماء تناسب أو صافهم ، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحارث
فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حرث الآخرة (٣) .

* * *

وسواء أكان هناك تلازم خفى بين الاسم ومسماه بحيث يمثلان معاً حقيقة واحدة
أم لم يكن . . فإن الذى لا شك فيه أن للاسم موحيات تقع فى النفس عند
ذكرها لاسم من الأسماء أو كلمة من الكلمات . . . فكلمات النجاح والنصر ،
والغنى والسعادة ، والشباب ، تبعث فى النفس رضى ، وتشجيع فى القلب غبطة
وروحاً ، على خلاف أضدادها من كلمات : الإخفاق ، والهنينة ، والفقر ،
والشقاء ، والهرم ، فإنها تشيع فى النفس اقتباساً ، وتبعث فى الصدر وحشة
وكآبة !

(١) يشير ابن القيم إلى المبارزة التى وقعت أول معركة بدر ، فقد نذبت قريش بمبارزة
ثلاثة نفر ، هم : شيبية ، وعتبة ، والوليد ، فتصدى لهم ثلاثة من الأنصار ، فأبت قريش
منازلتهم ، وقالوا نريد من ينازلنا من قومنا ، فندب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة : على ،
وهزمه ، وعبيدة بن الحارث .

(٢) المشهور فى كتب السيرة أن الثالث هو حمزة رضى الله عنه وقد جعل ابن القيم
هبيده بن الحارث اسمين . هما : عبيدة ، والحارث . . ولهذا أغفل ذكر حمزة .

(٣) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٩ ،

ولذلك حين نسمع اسم سعيد ، ومحمود ، ومحمد ، وحسن ، وغيرك حين يصطك سمك بأسماء .. حرب ، وغضبان ، وأعرج ، ومجنوب ونحوها . . فإنه يلتصق من الأولى روح من ريحها الطيب ، على حين يهب عليك من الثانية ريح بارد ثقيل ، قد يثير قشعريرة تسرى في كيانك كله ، وتملاً نفسك هما وكدرًا .
وليس هذا شأن الأسماء ، والكلمات وحدها بل هو الشأن كذلك في المسموعات جميعها من أصوات وألحان . . فهديل الحمام ، وزقزقة العصافير غير نعيم الغريبان والبوم والفرق بينهما كالفرق بين موسيقى الأفراح والموسيقى التي تصحب الجنائز ، وتمشي في مركب الموت .

وليس هذا أيضاً شأن المسموع من الأصوات والألحان وحده ، بل هو شأن المنظور من كل شيء . . فالمنظر الحسن الجميل يبعث في النفس ألواناً من مشاعر الحسن والجمال ، على خلاف المنظر الشائم القبيح ، فإنه يلقى إلى الناس صوراً مفزعة مزعجة . .

وقد جاء توجيه النبي الكريم : « إذا أبردوا إليّ بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه » . . جاء هذا الترجية جامعاً لاختيار ما يحسن في السمع والنظر .

وننظر بعد هذا فيما كان لنبي الإسلام من حظ إلى سلام موفور في اختيار الاسم اللائق به ، وبالرسالة التي فدته السماء لها .

فقد بشر به عيسى عليه السلام باسم أحمد ، كما يقص القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » .
وإذا كانت نسخ الأناجيل الأربعة التي في أيدي الناس اليوم قد خلت من هذه البشرية على هذا الوجه الصريح ، فإن ذلك لا ينقض ما جاء به القرآن الكريم في الآية السابقة . . إذ القرآن هو الحجة القائمة على مافي السكتب السماوية ، لأنه آخرها ، وضابط محكمها والمهيمن عليها ، وفي هذا يقول الله تعالى :
« هو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه » . . وهيمنة القرآن على السكتب السماوية السابقة إنما تجيء من هذا الوجه الذي أشرنا إليه ، وهو أنه آخرها والضابط لها ، كما تجيء من وجه آخر ، وهو أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما من التجريف ، وللتبديل ،

مألاً يجعل الأطمئنان ليهما أمراً مسلماً به ، إذ أن الأناجيل ذاتها قد تعددت ، واختلقت فيما بينها ، وهي على رغم تعددها - اختلافها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام .. وإنما هي روايات تتحدث عن سيرة المسيح ، رواها عنه بعض حوارييه ، أو من اتصل بحوارييه أو سمع منهم ، وفي هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل الساموي ، كان السيد المسيح يضمونها عظاته ووصاياه ، وإذن فالأناجيل التي ذكرت سيرة المسيح ، تختلف في تشخيص شخصية المسيح ، وفي تناول مواقفه باختلاف الكتاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونضجوا عليها من عواطفهم ، ومن ألوان ثقافتهم ، ما جعل هذه الأناجيل تختلف ذلك الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان في تفكيره ، وفي تصوره للأحداث .

وقد جمع العالم المسيحي « فابري سيوس » أكثر من خمسة وسبعين إنجيلاً ، وطبعها في ثلاث مجلدات ، وكشف عن أوجه الخلاف بينها .

غير أن المعمول به الآن في الديانة المسيحية أربعة أناجيل هي : « متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا » حيث استقر العمل بها في أول القرن الثالث .

وليس من ههنا دراسة تاريخية محققة للإنجيل الساموي ، أو الأناجيل التي إجماعاً محدثة عنه

ولما الذي نقف عنده هنا هو أن القرآن الكريم قد ذكر آية صريحة تذكر على لسان السيد المسيح تلك البشرية التي أعلنها في بني إسرائيل مبشراً بمولد نبي اسمه « أحمد » . « إن رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ثم لا نجد هذه البشرية صريحة تلك الصراحة في الأناجيل الأربعة التي اعتمدها المسيحية . وإنما الذي إجماعاً فيها إشارات يمكن أن تقول — في شيء من التعسف والعسر — لتؤدي معنى يفهم منه ظهور نبي عربي يأتي من بعد المسيح ، موضوعاً بصفات الحمد . فمثلاً في إنجيل

يوحنا . (إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الرب ليصليكم
البارقليط آخراً ليكتب معكم إلى الأبد (١) .

وفي هذا الانجيل أيضاً : متى جاء البارقليط الذي سيرسله إليكم الرب ، هو
روح الحق الذي من عند الرب ينبئ ، فهو يشهد لي ، وتشهدون أمتي أيضاً ،
لأن معكم من الابتداء .

وتفسير كلمة « البارقليط » في القاموس العبري ، بكلمة الحمد ، أو كثير الحمد .
ولعل أعجب ما في هذا الأمر الذي يبلغ مبلغ المعجزة أن يجيء عيسى مبشراً
بذي يأتي من بعده اسمه « أحمد » ، ثم يظل هذا الاسم في كتاب مكنون لا يمسه
أحد ، حتى يجيء صاحبه « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فيلبسه ، ثوباً من أثواب
الحمد التي خلعها الله سبحانه وتعالى عليه .

يقول القاضي عياض :

« فهو — أي النبي — أحمد الحامدين ، وأحمد المحمودين ، ومعناه الحمد
يوم القيامة ، ويعتبه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده . . . يحمد فيه الأولون
والآخرون بشفاعته لهم . وسمى أمته في كتاب أنبيائه بالحامدين (١) ، فحقيق أن
يسمى « حمداً » و « أحمد » .

« ثم في هذين الإسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته فن آخر .. هو
أن الله جل اسمه حمى أن يسمى به أحد قبل زمانه » .

أما « أحمد » الذي أتى في الكتاب ، وبشرت به الدنيا ففتح الله تعالى بحكمته
أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف
القلب أو شك . وكذلك « محمد » أيضاً ، لم يسم به أحد من العرب أو غيرهم ،
إلى أن شاع تبيل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده أن نبياً سيبعث اسمه « محمد » ،
فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ، و « الله
أعلم حيث يجعل رسالته » ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعى النبوة

(١) انجيل يوحنا اصحاح ١٤ آية ١٥ .

أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحققت السمات (١) له صلى الله عليه وسلم ، ولم ينازع فيهما (٢) .

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى اختار لنبيه « يحيى » عليه السلام الاسم الذي سمي به ، فقال تعالى : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » ١

فقد حفظ الله سبحانه وتعالى اسم « يحيى » من أن يسمى به أحد حتى جعله سبحانه اسماً لنبيه الكريم « يحيى » عليه السلام ١

كذلك حمى الله سبحانه اسم « أحمد » أن يسمى به أحد حتى كان النبي الكريم « محمد » هو الذي يتخلع عليه هذا الاسم الكريم .

على أن هناك آية معجزة من آيات الإعجاز فيما أراد الله سبحانه لنبيه « محمد » من تكريم بهذا الاسم الكريم ، فقد أعلن اسمه على لسان عيسى عليه السلام قبل مولده بنحو ستة قرون ، ثم ظل هذا الاسم في أفواه الخواريين ، وفي صحف الإنجيل ، دون أن يخطر ببال أحد أن يسمى به ابناً من أبناءه على عادة الناس في تسميتهم على تسمية أولادهم بأسماء النبيين ، والتقدميين ، وأهل الفضل والخير من الناس ، عسى أن يسميوا من بركة أصحابها شيئاً ، أو أن يكون لهم من اسمهم الطيب نصيب .

و « أحمد » في ذاته اسم جميل ، سمح ، حلوا النغم ، عذب الجرس ، يفري بالتسمي به ، حتى عند من لا يحسن العربية ولا يعرف مدلوله الذي يدل عليه . فكيف ظل هذه القرون دون أن يتفق لإنسان أن يقع عليه أو ينتفع به ؟ إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن الله قد آثر نبيه بهذا الاسم الكريم ، واختصه به ، وجعله على أفواه الناس ، إرهاباً بمولد النبي الذي سيحمل هذا الاسم ، وبشرى بين يدي بعثته . وفي ذلك آية للمستبصرين من أهل الكتاب الذين يعرفون صفات هذا النبي الأُمي ويجدون مكنوياً عندهم

(١) السمات : هما الاسمان : أحمد ، محمد .

(٢) « الشفا » للقاضي عياض جزء ١ ص ١٩٠ .

في التوراة والإنجيل، ثم تصرفهم عنه قوة علوية، وتعتقد ألسنتهم عن أن تتعامل به، وتجعله علماً لإنسان من الناس .

و (محمد) اسم علم، وهو منقول من صفة .. من قولهم رجل (محمد) وهو الكثير الخصال الحمودة، والمحمد في لغة العرب هو الذي يحمد حمداً بعد حمد، مرة، بعد مرة (١).

قال السهيلي: لم يكن محمداً حتى كان أحمد .. حمد ربه، فنياه — أى جملة نبياً — وشرفه، فلذلك تقدم اسم (أحمد) على الاسم الذي هو (محمد)، فذكره عيسى ابن مريم باسمه (أحمد) (٢).

وانظر بعد هذا كيف اختار الله لنيه هذا الاسم الطيب «محمد» فسماه «أحمد»، قبل أن يولد. و«محمداً» بعد أن ولد .. فهو الحمد لربه، الحمد من عباده .. حمد ربه على ما أفاء عليه من فضل، وما أسبغ عليه من نعم، وحمده الناس بما جاءهم به من الحق، وما هداهم إليه من الإيمان، فهو حماد الله، «محمد» محمود من الله ومن الناس .

وبهذا كان النبي مهديين الإسمين جامعاً لصفات الحمد كلها .. فهو الحمد الحمد الحمود، فإذا كان بعد ذلك من يحمد الله فهو من حمد «أحمد» يعترف، وعلى هداه يهتدى، وإذا كان بعد ذلك في الناس من يحمده الناس فهو لما يحمد به «محمد» تبع، ولما يثنى به عليه تابع ومقتد .

ثم انظر في ذات «محمد» نفسه، وكيف كانت الحمد كلها مجتمعة إليه في أكل صورها، وأجل أوضاعها . فما كان من خلق كريم محمود فهو في «محمد» على أوفى صورة وأتمها، وما كان من فعل طيب محمود، فهو في «محمد» على أجمل حالة وأحسنها .

(١) نهاية الأرب للتويرى جزء ١٦ ص ٧٥ .

(٢) الروض الآف السهيلي جزء ١ ص ١٥٦ .

وليس يجمع هذه الصفات الكريمة اسم أتم وأعدل من اسم محمد ، فقد يكون في أسماء : أمين ، وصادق ونبي ، وعظيم ، وطيب ونحوها ما ينبئ عن صفة أو أكثر من الصفات الطيبة التي إن صدقها مستها ، أو صدقت هي في المسمى بها كان ذلك دلالة على انصاف صاحبها بالصفة التي تدل عليها دون أن ينسحب ذلك ، إلى غيرها من الصفات : حمداً ، أو ذمماً . . فالمسمى بالأمين ، إن طابق الاسم فيه المسمى ، كان نصيبه من الصفات الطيبة صفة « الأمانة » ، وقد يكون له إلى جانبها صفات أخرى لا تحمد كالجن أو البخل ، ونحوها . . وكذلك قل في الصادق ، والنبي ، والعظيم والطيب ، وما شابه ذلك من صفات . . فقد ينال الإنسان منزلة النبل أو العظمة بصفة كريمة أو أكثر دون أن يكون من لوازم ذلك أن يحوى الصفات الطيبة كلها . . أما « المحمد » فلا يكون على تلك الصفة حتى يجمع الجاهد كلها ، وحتى تكون كل أقواله وأفعاله على الوجه الذي تحمد فيه عن كل الناس ، وفي جميع الأحوال ، وإن يكون « محمداً » من جمع أكثر المحامد ثم فاته بعضها أو القليل منها .

فإذا نقول بعد هذا في ذلك التوافق بين محمد « الذات » ومحمد « الاسم » الذي سميت به تلك « الذات » ؟ .

قد يقول قائل : وماذا في هذا التوافق ؟ ولم لا تكون الصفة وحدها هي التي جمعت بين « محمد » الوليد وبين هذا الاسم « محمد » ؟ حتى إذا تألق « محمد » وعلا ذكره في الوجود كان كل شيء مهما صغر ، وكل حدث مهما ضؤل ذائماً أي شأن . . له تقدير وحساب ، تكثر دلالاته ، وتتعدد مفاهيمه ، ما دام قد اتصل بالنبي ولا بس حياته ؟ ؟

ونقول : إن في ظاهر ذلك القول شيئاً من الحق . . ولكن ليس على إطلاقه في كل ما يتصل بالنبي . .

حقاً إن عظمة العظيم تلقى على كل شيء اتصل به ألواناً وظلالاً تجعل له في مشاعر الناس مكاناً غير مكانه الذي له ، فيبدو صغيره كبيراً ، وقليله كثيراً ، وواضح غامضاً ، وقرينه بعيداً . .

ولكن ليس ذلك على إطلاقه - كما قلنا - إذ هناك في حياة العظيم أمور هي في ذاتها رائعة ، معجبة ، مذهلة ، معجزة . . لا يختلف عليها الناس ، ولا تتباعد بينهم شقة الخلاف إن اختلفوا !

وهنا في تسمية « محمد » بمحمد لا يمكن أن يكون ذلك وليد الصدفة بحال أبداً ذلك أن اسم « محمد » لم يكن من الأسماء المعروفة الشائعة يوم مولد النبي . . وأن الذين تسموا بمحمد كانوا أفراداً . . قيل لإنهم خمسة ، وقيل لإنهم سبعة . . وكلمهم كانوا في عصر النبوة وبين يديها ، وقد أدرك معظمهم الإسلام فمن أين لآمنة بنت وهب أن تقع على هذا الاسم ، الذي ربما لم يكن قد طرق سمعها ، أو جرى على لسانها من قبل أن تتحرك به شفتاها ، حين اختارته اسماً لوليدها اليتيم ؟

ثم لو فرض أن اسم « محمد » كان من الأسماء المعروفة عند العرب ، فإن الاتجاه إليه لم يكن من الأمور المنتظرة في شأن هذا الوليد القرشي ، الهاشمي . . إذ أن ضخامة الأسماء ، في لفظها ، وفي مدلولها . كان لها الشأن الغالب في تسمية المولودين من أشرف قريش . . مثل : حنظلة ، ومرة ، وأسد ، وفهر ، وغالب ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد اللات ، وعبد مناة . .

وما أشبه ذلك من الأسماء التي تلقى في قلوب سامعيها الرعب ، والفرع ، وتكسو منهاها هيبة وقوة - وقد أشرنا من قبل إلى موقف « حزن » جد سعيد ابن المسيب من الاسم الذي أراد الرسول أن يسميه به وهو « سهل » ، فأبى ، وقال : إن السهل يوطأ ويمتن ، : فكان المتوقع لوليد آمنة بنت وهب أن تتخبر له إسماً من تلك الأسماء ذات الإشعاع القوي النفاذ إلى مواطن الإرهاب في الناس !

فكيف تنفذ الصدفة بين هذه الحوائل جميعها ، وتحمل إلى ذلك الوليد اليتيم هذا الاسم الفريد اليتيم من بين هذا العديد من الأسماء المنصوبة في قائمة أشرف العرب وأبطالها ؟ ثم كيف تظل هذه الصدفة ذلك الزمن الطويل - والصدفة لحظة عابرة . تجيء خلسة وتذهب خلسة - كيف تظل هذا الزمن الطويل محتفظة للنبي بهذا الاسم الذي سمي به ، دون أن يرحضه عن مكانه لقب ، أو دون أن تشاركه كنية ؟ وما أكثر الألقاب والسكنى : . . وقل أن يكون في العرب من

لا يكون له كنية أو لقب ، أو كنية ولقب معاً . أو عدة ألقاب وكنى ! تغلب على اسمه فلا يكاد يذكر على لسان ؟

كيف يظل « محمد ، هو » محمد . . لا كنية ، ولا لقب حتى يكون هو الذى يكتنى نفسه « أبا القاسم » . . بعد أن ولد له مولوده « القاسم (١) » . كيف يكون للصدقة هذا التصرف المتمكن من الأحداث ، الممتد مع الزمن الجارى على الحكمة والمنطق ؟ كيف وشأن الصدقة أن تكون خلصة خاطفة ، وأن تجيء على غير حساب ، وأن تمنع بغير تقدير . هكذا خبط عشواء ؟ إن يكن ذلك شأن الصدقة فإذا تركت للتدبير والحكمة ؟ وأين تكون مواقع أفضال الله . ومنازل رحمته ؟ وأين آيات تدبيره وحكمته ، فيمن يصطفى ويختار من عباده ؟

وأكثر من هذا .

فإن الفرعين الزكيين اللذين ولدا « محمدا ، قد أراد الله لهما اسمين كريمين يليقان بهذا النبى العظيم الذى سينسب إليهما . فأبوه « عبد الله ، وأمه « آمنة . والدين الذى جاء به « محمد » هو دين العبودية الخالصة لله : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، والشريعة التى يدعو إليها « محمد » شريعة أمن وسلام : « يا أيها الذين آمنوا ادخوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » .

فالعبودية والأمن هما اليدان السكريمتان اللتان قدمتا محمداً إلى الإنسانية ، وأطلمتا شمسهما على هذا الوجود !

وأكثر من هذا أيضاً فإن اسم المرأة التى أرضعته يدخل فى هذه الظاهرة التى نتحدث عنها . فاسمها « حليلة » ، وموطنها « نجد » وقومها بنو « سعد » ! ولنا أن نقول إن محمداً قد رضع الحلم من حليلة ، إلى ما أفاض عليه ربه من فضله ، وأذاقه من رحمته ! وأن شأنه وشأن شريعته العلو والإسعاد .

(١) والقاسم : صفة من صفات النبى .

وإذا كان من الجائز أن يسلم اسم الأب أو الأم أو الموضع من ضلالات أسماء الجاهلية وشناعاتها ، وسوء موردها ومصدوها ، فإن مما لا يمكن أن يكون إلا بتدبير أن تسلم لهذه المسميات أسماءها جميعاً ، فيسلم اسم أبيه ، واسم أمه ، واسم مرضعته ! ، ثم لا تكون بحيث تخلو من العيوب والمقايح ، بل تزين بأحسن ما يمكن أن يزين به اسم من صفات ، ويجمع إليه من خير .
ومن عجب أن تسكون هذه الأسماء . . عبد الله ، وآمنة ، وحليمة ، أسماء غير شائعة ولا غالبة ، ثم يجتمعن على نسق !

وقليل جداً في العرب - قبل الإسلام - اسم « عبد الله » ، فما عرف العرب العبودية الخالصة لله ، حتى عند من عرف منهم أن للعالم إلهاً هو الله ، بل كان ولاؤهم ، وعبوديتهم للأصنام التي عبدوها من دون الله . فضافوا أنفسهم إليها وقالوا : عبد العزى ، وعبد اللات ، وعبد مناة ، وعبد ود ، وقد كان أقرب شيء إلى عبد المطلب إذا أضاف ابنه « عبد الله » هذا إلى معبود ، أن يضيفه إلى صنم من تلك الأصنام . . أما أن يضيفه إلى « الله » ، فذلك أمر لا يعلم تأويله إلا الله . . !

وكذلك اسم أمه « آمنة » ، بنت وهب ، واسم مرضعته حليمة السعدية . . كان أقرب شيء إليهما من الأسماء ماشاع بين العرب الجاهليين : كعفراء ، وخنساء ، وأم الهيثم ، وما شابه تلك الأسماء . . ولكنه فضل من الله الذي شمل النبي من قبل أن يولد ، وبعد أن ولد ، واصطفى للنبوذة . . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

وبعيد أننا نلتبس هنا من دلالات الأسماء على مسمياتها شيئاً يضاف إلى جلال النبوذة ، أو يزيح قيامها على أصول ثابتة وطيدة من الحق والعدل والخير ، فإن ما نقيمه السماء ليس في حاجة إلى شيء يدعمه أو يسنده !

ولسكن الذي نلتبس من هذا التوافق المطرد في اجتماع الأسماء الطيبة الزكية كلها للنبي في شخصه ، وفي أبويه ، وفي مرضعته - الذي نلتبس من ذلك هو تلك العناية الصمدانية التي سمت حمى الرسول أن يطوف به طائف سوء ، أو يلم

بن طيف نبيث ... إنه حمى النبوة العظيم ... وإنه لني حماية الله ورعايته
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

• • •

ونجيب الآن على السؤال الذي اقترضناه آنفاً .. وهو : إذا كان هناك
علاقة ، أو شبه علاقة بين الأسماء وسمياتها ، فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى
أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتندمج على
ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟؟

ذلك سؤال يدور في نفس أى إنسان يقف على هذه الظاهرة ، ويعلم من
أمرها شيئاً .

والأمر ليس من السهولة واليسر كما يبدو لأول وهلة . إن الأمر في ظاهره
مطلق إطلاقاً تاماً ، بلا قيود ، ولا حدود .. يتناوله المرء من قريب ، كما يتناول
الطراء برئتيه ، أو يفترف من النور بعينيته .. فما على الإنسان إلا أن يقصد أى
اسم يريد ، فيحرك به شفتيه ، ويسمى به من يشاء ، فإذا الإسم ملك له ، وإذا
المسمى محكوم بهذا الاسم مستظل به !

هذا ما يبدو في ظاهر الأمر ، ولكن الواقع يشهد لخلاف ذلك .. فحين
تستعرض أسماء الناس ، أو « أعلامهم » نجد عجباً عجباً ... فهناك كثرة كثيرة
من الأسماء الجافية ، أو الموحشة ، أو المستقبحة ... قد ألقاها الناس على أبنائهم
وكأنهم تحت سلطان قاهر حملهم عليها ؛ حتى ليبدو أن الناس لو خاوا وشأنهم
لما جرت هذه الأسماء على ألسنتهم ، ولقروا منها فراراً ..

فإنك لتجد في الناس من سمي ابنه . مشحوتاً ، أو شحاتاً ، أو مسروقاً .
أو حابساً ، أو كلباً ، أو حماراً ، وليس بينه وبين الأسماء الجميلة — في ظاهر
الأمر — حاجز أو حائل .

ولكن الأمر على خلاف هذا .. إن الحياة تفرض على الأحياء أن يشغلوا
كل جانب فيها : الحسن والقبيح . والسهل والوعر ، والخصب ، والجذب ، حتى
تحتفظ بتوازنها ، فلا يرجح جانب ويخف جانب ، فتضطرب ، وتفسد ،



ولو كان للناس أن يتمالقوا من غير أن تصكهم هذه الخيوط غير المنظورة التي تمسك بهم — لكانت وجوههم جميعاً واحدة ... ولاختاروا الحسن منها وهجروا القبيح ، ولعمروا السهل ذون الوعر ، وأفرسوا في الخصب دون الجذب ، ولما رأينا أماً تسكن الصحراء أو تعيش بين الثلوج أو في الأدغال؟

وليس ذلك شأن الإنسان وحده ، بل إنك لتجد عالم الحيوان محكوماً كذلك بهذه القوة الخفية ، ومشدوداً بتلك الخيوط غير المرئية ... فهناك طيور تعيش في القفر ، لا ظل ، ولا ماء وليس بينها وبين الماء والظل إلا أن تفرد أجنحتها وتنطلق إلى هذا النعيم الذي حرمت منه ، فتبليته فن غدرة أو روحة من غدواتها أو روحاتها!

وأكثر من هذا ، فإذا نرى « العصافير » مثلاً في المسكان الواحد ، في البلد الواحد ، بعضها يغشى الدور ، ويخترق الأبواب والنوافذ ، ويتعرض للهلاك في سبيل التقاط حبة أو فتاة خبز ، على حين يسكون على رمية منها مخازن الحبوب في العراء ، وفي مواطن الحصاد والدرس ، يغشاها كثير من هذه العصافير ، وينال حاجته منها من قريب!

ولا تسأل: ما هذا؟ فذلك تقدير العزيز العليم ... الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

ولا نجد بدأ من أن ننقل هنا نظرة من نظرات « الجاحظ » النافذة في هذا الأمر ، فإنه لم تغفل منه ملاحظة هذه الظاهرة ، ولم تغب عن باله في دراساته للحياة وللأحياء!

يقول الجاحظ :

« واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم .

« لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مخيرين (١)

(١) في الأصل مجبرين وهو تصحيف .

في الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ،
وفي هذا ذهب العيش وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء (١) .

« ولم يكونوا مسخرين بالأسباب ، مرتبهين بالعلل لوغبوا عن الحجامة
أجمعين ؛ وعن البيطرة والقصابة والدباغة (٢) .

« ولكن كل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم
فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق ، أو خرقاً ، قال له :
باحجام ا .

« والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك ا
ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة ، والحجامة ، والبيطرة
والقصابة .

« ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ؛
لما جعل واحداً قصيراً ، وآخر طويلاً ؛ وواحداً حسناً والآخر قبيحاً ؛
وواحداً غنياً ، وآخر فقيراً ، وواحداً جاهلاً وآخر مجنوناً ؛ وواحداً ذكياً ؛
وآخر غيبياً .

« ولكن خالف بينهم لينتبرهم ؛ وبالاختيار يطيعون ؛ وبالطاعة يسعدون ا
« ففرق بينهم ليجمعهم ؛ وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم
على المشيئة .

« فسبحانه وتعالى .. ما أحسن ما أبلى . وأحكم ما صنع وأتقن ما دبرا
« لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة . ولو رغبوا
بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ؛
ولبطل أصل المعاش .

« فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء ا

(١) التواء : الهلاك .

(٢) كانت أمثال هذه الصناعات والحرف مما تأباه النفس العربية .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعلمهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ،
ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأوصار إلا أوسطها .

• ولو كان كذلك لتناحروا على طلب الواسط ، وتناجروا على البلاد
العليا ، ولما ربحهم بلد ، ولما تم بينهم صلح !
• فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة !

• وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى القياقي ،
وساكني السهل إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الوب
إلى المدر — لأذاب قلوبهم لهم ، ولألق عليهم فرط النزاع ...

ثم يقول :

• وليس على ظهرها — أي ظهر الأرض — إنسان إلا وهو عجب بعقله ،
لا يسره أنه له ما غيره . ولولا ذلك لمازوا كدأ ، ولذا بر حسدا ! .
• ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه محسود
في شيء !

ثم يصير الجاحظ إلى ما نحن فيه من الأسماء والمسميات فيقول :
• ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسما واحداً ، وكنية
واحدة .

• فقد صاروا — كما ترى — مع اختيار الأسماء المختلفة إلى الأسماء القبيحة ،
والألقاب السمجة !

• والأسماء مبذولة ، والسماعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق
متخللة .

• ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون
بالذي دبره الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

• فيبجان من حبيب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً ، وحبيب إلى آخر أن
يسميه شيطاناً ، وحبيب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحبيب إلى آخر أن
يسميه حمارة .

و لأن الناس لو لم يخالف بين علمهم في اختيار الأسماء ، و جاز أن يجتمعوا على شيء واحد ، كان في ذلك بطلان العلامات ، و فساد المعاملات (١) ، .
هذا ، و لا يدع أعداء الإسلام و نبي الإسلام وسيلة يتوسلون بها إلى الظن في رسول الله - صلى الله و سلامه عليه - إلا أن مسكوا بها ، و لو غرقوا في الزور و البهتان . .
و حتى لقد نازعوا في اسم رسول الله صلى الله عليه و سلم . و جعلوا ينسجون حوله من الأوهام و الضلالات ، ما يشيرون به الغبار في وجه الشمس ليحجبوا أعضائنا و هيئات هيئات !!
و لقد كان من جرأتهم على الحق أن ادعوا أن النبي الكريم لم يكن اسمه أول الأمر محمدآ ، بل لقد سماه جده عبد المطلب و قثم ، و رووا في هذا تلك الأسطورة المفضوحة ، .

يقول المستشرق : « إميل در منقم » :

وهنا نذكر أن الاسم الأصلي للنبي محمد هو « قثم » ، ثم لم يلبث هذا الاسم أن عدل عنه بعد ولادته بوقت قصير أو حين بعثته - إلى محمد ، الذي هو لقب نبوي أكثر منه أن يكون اسماً !!

و يعلن الأستاذ عادل زعير على هذا بقوله :

« هنا أغرب ما انتهى إليه المستشرقون ، و أول من ذهب إلى ذلك ، سبرنجر ، مستنداً إلى ما جاء في باب تسمية الرسول ، من « السيرة الحلبية » ، نقلاً عن كتاب : « الإمتاع » : أنه لما مات قثم بن عبد المطلب ، قبل مولد النبي صلى الله عليه و سلم بثلاث سنين ، وهو ابن تسع سنين ، حزن عليه أبوه حزناً شديداً . . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه و سلم سماه « قثم » حتى أخبرته أمه آمنة ، أنها أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فسماه محمداً ، ثم يقول الأستاذ زعير : « فمن هذه الرواية البادية الوضع ، والتي تدل أقل نظرة إليها عند قبولها على علاتها - على أن عبد المطلب عدل عن اسم « قثم » إلى اسم « محمد » بعد ولادته بدقائق معدودات .
و تابع ، هرشفاد ، و سبرنجر ، على رأيه ذلك ، ولم يلبث كثير من المشركين أن وجدوا في هذا فتحاً جديداً لهم ، و بلغ بهم من التعسف و التجني ما صار ينعم

به . أن ما ورد في القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد ، وذلك رداً على الحجة القائلة : إن أمر الرسالة ما كان ليستقيم ، لو عدل بعد الرسالة إلى اسم محمد .

وفي القرآن الكريم ، وإذ قال عيسى ابن مريم ، يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، ونفساً على الإسلام ما كان من اشتغال كلمة البارقليط ، اليونانية التي وردت في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ، والتي يدل معناها على (محمد) .

ونقول : إن ما استبدل به المستشرق «سبرنجر» ما نقله من بعض الرويات المدسوسة في كتب السيرة ، ينطق بالكذب والتلفيق :

فأولاً : ما قيل من أن عبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ولدوله اسم « قثم » ، وأنه لما مات هذا الولد حزن عليه ، ثم لما ولد لأمته بنت وهب ومحمد ، سماه « قثم » ، إحياء لذكرى ابنه الميت ، وذلك بعد ثلاث سنوات من موته - هذا القول يكذب بعضه بعضاً . إذ كيف ينتظر الأب ثلاث سنين حتى يولد « محمد » ، ليسميه « قثم » - أفا كان في أبناء عبد المطلب من يولد له ولد خلال هذه المدة ؟ وكيف وكان له عشرة أبناء ؟

وثانياً : إذا كان عبد المطلب قد سمي حفيده محمداً « قثم » ثم عدل عن ذلك بعد أن علم من أمه أنه قد أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فعدل عن ذلك وسماه محمداً - إذا كان ذلك كذلك فكيف يحفظ هذا الاسم المقترح ، الذي لم يشع في الناس ولم يكن إلا حديثاً عابراً بين عبد المطلب وأمته - كيف يبقى له ذكر في الحياة بعد هذا ؟

أما القول بأن رسول الله قد ظل يحمل اسم « قثم » ، إلى أن كانت البعثة : فكان ذلك الاسم لقباً تنوياً له . على حين ظل اسم « قثم » ، هو العلم عليه - فإن هذا القول تكذبه الشواهد كلها ، ولو أن ذلك كان له أثر من الصحة لما كان حديث قريش إلى النبي إلا بهذا الاسم « قثم » ، ولما عدلت عنه أبداً ! ! فهل كان شيء من هذا ؟

« سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم . »

• • •

نعود بمد هذا ، فنقرر أن الاسم الذي سمي به النبي ، والاسم الذي يشبهه عيسى قبل مولده ببضعة قرون . هذا الاسم ليس مجرد اسم ، وإنما هو دلالة من دلالات النبوة ، ومعجزة من معجزاتها . .

فقد سمى الله اسم « أحمد » ، أن يسمى به أحد قبل النبي ، ثم سمى اسم « محمد » ، أن يظهر إلا بين يدي النبوة ، وألا يتسمى به إلا ببضعة ففر من العرب ، طمعوا أن يكون أبناؤهم النبي المنتظر ، الذي أظل زمانه ، وبدت تباشير مبعده ، ثم سمى الله كذلك من سمى بهذا الاسم أن يلعنوا النبوة أو يدعيها لهم أحد !

ولو أراد أتباع « محمد » ، الذين آمنوا بشريته ، وعرفوا حقيقة نبوته ، وشاهدوا عن قرب أنوار السماء تفيض عليهم من فيهم . . لو أنهم أدوا أن يتخيروا له الاسم الذي يروونه جديراً به ، مناسباً لجلال النبوة وعظمة النبي ، لما وجدوا أعدل ، ولا أكرم ، ولا أنسب من اسم « محمد » . !

فسبحان من له الخلق الأمر ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن
إليه يرجع الأمر كله ! . .

« أألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين . »

الباب الثاني

النبوة . . والنبي

هل النبوة ضرورة إنسانية :

نازع كثير من الناس - قديماً وحديثاً - في أمر النبوة . . وهل هناك ضرورة إنسانية تدعو إلى أن يقوم في الناس أنبياء ورسول يستفرون بين الله وبين الناس ، حاملين إليهم وصايا السماء وشرائعها ؟

والناس في هذا مذاهب وشيع :

فالمؤمنون بالشرائع السماوية يعتقدون أنهم إنما أخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله . . وأن هذا الرسول إنسان من بينهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنما اختاره الله منهم ليحمل إليهم شريعته .

وأما غير المؤمنين بشرائع السماء فلا يتصورون أبداً أن يكون بين إنسان من الناس صلة بالعالم العلوي ، لاختلاف الطبيعة في كل من العالمين : الأرضي والعلوي . . هذا إذا صح - عند القائلين بهذا الرأي - وجود للعالم العلوي . . أما الماديون فلا يعترفون أصلاً بوجود للعالم العلوي . أو عالم الروح . وإذن فالرأي عندهم في رسل الله هو الإنكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، والله أيضاً !!

* * *

ولانريد أن نقف طويلاً عند هذه الآراء المتخالفة في شأن الرسل ، وفي طبيعتهم ، وفي الضرورة الإنسانية الداعية إليهم ، وفي إمكان اتصال الإنسان بالمالأ الأعلى إذا دعته السماء لنحل رسالتها إلى الناس !

لأنريد أن نتقف طويلاً هنا ، حيث أن لنا وقفه في هذا الشأن عند الحديث
عن الرسالة المحمدية !

ولكن أريد أن أعرض - في إيجاز - وجهة نظر المؤمنين بالرسول والمنكرين
لهم ، لنجعل من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن نبوة النبي الأعظم: محمد بن عبد الله ،
عليه صلوات الله وسلامه !

ولا حديث لنا مع المؤمنين برسول الله وأنبيائه في هذا الأمر ، فذلك هو
إيماننا وعقيدتنا . . وإنما نتقف معهم صفواً واحداً في وجه المنكرين للنبوات ،
على اختلاف مذاهبهم وتعدد آرائهم . . ولا حديث لنا أيضاً مع الماديين الملحدين
الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالإله الخالق ! إذ أن الحديث في
شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس لا مسامح له إلا في ظل الإيمان
بالله ، عند الذين يؤمنون به ! وإنما حديثنا مع أولئك الذين يعترفون بوجود
الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم لا يتصورون قيام رسل بين الله والناس . ولا يرون
داعية تدعو إلى نبي أو رسول يحمل إلى الناس وصايا السماء !

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم
الأمر في شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيخ هذه المهمة النبيلة ، التي
قام عليها أنبياء الله ورسوله .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون إلى هذا الأمر نظرتين متباعدتين:
نظرة تحقر الإنسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيواني كسائر الحيوان . .
لا يعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، وسلالة من سلالاتها . . فهو -
والأمر كذلك - مقضى عليه أن يمينا حياته في هذا الركب ، أو في هذا القطيع ،
دون أن يدعى لنفسه شيئاً يتغير به وضعه . ويعزله عن المجتمع الحيواني ، في هذا
الكوكب الأرضي !

تلك هي نظرة الفلاسفة المشائمين الذين نظروا إلى الحياة بمنظار أسود فأروا
الوجود كله بجلال بالأسود ، ورأوا الإنسان دودة غارقة في أكوام من التراب .
وفي بحار من الأوحال .

وكثير من الفلاسفة الأقدمين آمنوا بالله ولسكنهم لم يؤمنوا برسول الله ، ولم يرضوا لإنسان أن يلتقى بالملا الأعلى ويتعامل معه ، وكان هؤلاء الفلاسفة الذين يذهبون هذا المذهب قد نظروا فيه إلى أنفسهم . فحين وجدوا أنهم وهم الفلاسفة ، وأكمل الناس عقلاً - لم ترفههم عقولهم إلى الملا الأعلى ، ولم تمنح لهم الوصول إليه .. فكيف يكون ذلك لإنسان ليس له عقل الفيلسوف ولا فلسفته ؟

يقول ابن تيمية عن هؤلاء الفلاسفة : « والمتفلسفة من اليونان والهند منازل عن وجود كمال الجنس - أى الجنس البشرى - ، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء ، فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء ، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم ، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء ألبتة (١) » .

وقد عاشت هذه النظرة التى تمسك بالإنسان أن يرتفع إلى ما فوق هذا التراب - عاشت فى أجيال الناس جيلاً بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة فى عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين .

يقول نيتشه : « لا تريد ملكوتاً فى السموات . فتحن بشر .. تريد ملكوتاً أرضياً » .

نحن بشر ! أى نحن من دواب الأرض . لا ينبغي أن نرفع أبصارنا إلى السماء ، ولا أن نجاوز هذا الملكوت الأرضى !

فالإنسان فى مفهوم هذه الفلسفة السوداء محكوم عليه أن يظل فى هذا الوضع الدليل المهيمن فى الحياة ، كائناً تريبياً ، ليس فيه قيس من العالم العلوى . وليس هو كما تحدث عنه الديانات السجارية خليفة الله فى الأرض ، والموعود بالعودة إلى العالم العلوى الذى خرج منه !

ويقول نيتشه ، أيضاً : « إذا كان الله قد خاق الإنسان : فإنما خلقه قرداً يلهو به فى أهديته الطويلة » !

(١) النبوات : لابن تيمية ص ٢٥ .

هذه هي إحدى النظرتين اللتين تنظر بهما الفلسفة المؤمنة إلى الإنسان وهي نظرة تستكثر على الإنسان أن تكون له صلة بالسماء ، وأن يكون في الناس من يطول يديه إلا الأعلى . ويتعامل معه .

أما النظرة الأخرى فهي على خلاف النظرة الأولى في تقييمها للإنسان . . . وفي تقديرها للرسالة السماوية . . . ومن ثم كانت هذه النظرة ذات شعبتين : شعبة تحلق بالإنسان ، وتجاوز به قدره ، وتراه في مستوى يستغنى به عن وصاية السماء ، وعن تدبيرها لحياته ، وتوجيهها لسلوكه . وتصحيحها لعقيدته . . . فلا ضرورة إذن لمبعوث من السماء يحمل إلى الناس شريعة ، ويقوم لهم ديناً . . . وحسب الناس في هذا أن يقوم فيهم قادة ، ومصالحون ، وفلاسفة . . . منهم ولأبيهم . . . من الأرض وفي الأرض !

وشعبه أخرى ترتفع بمقام الرسالة ، فتري أن الإنسان مهما يبلغ من العلو والصفاء فلن يكون له أن يحمل رسالة سماوية عن طريق الاتصال المباشر بالله أو ملائكته !

فإذا كان من الحتم أن تنزل على الناس شريعة سماوية فليكن الذي يحملها إليهم مبعوثاً من العالم العلو . . . ودعوى من يدعون أن المسيح هو الله ، أو هو ابن الله ، قائمة في ظل هذا الإحساس الذي يتدافع في صدور الذين يرفعون مقام الرسالة عن أن تتناولها يد إنسان من الناس ، أو أن يستأثر بهذا الشرف العظيم واحد منهم . إنها أكبر من أن يستقل بها فرد ، وأعظم من أن يختص بها إنسان !

ولهذا تتحول بعض الرسل عند بعض الناس عن طبيعة غير طبيعة البشر . . . وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . . . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . . قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ ، وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الإنساني في (٤ — النبي محمد)

وواجهه دعوى الرسل . فيقول سبحانه وتعالى في قوم صالح : و قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا لئن لم نإذن لفي ضلال وسعر ! أألقي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر (١) . . . ويقول جل شأنه في فرعون وقومه : و قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٢) . . . ويقول سبحانه في قوم نوح : ولئن أطعتم بشراً مثلكم لإنكم لخاصرون (٣) . . . ويقول جل وعلا في كفار قريش : و أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لسحر مبين (٤) . . . ويقول سبحانه : و قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً (٥) . . . ويقول سبحانه وتعالى : و لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون (٦) . . .

بشرية الرسل :

لو وقع للناس ما يتمنون من أن يكون الرسول ملكاً لما استقام للناس معه أمر ولا صلح بينه وبينهم شأن . . . إنهم سيقنعون به ، ويذهلون عن رسالته ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : و ما منع للناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا (٧) . . . وكيف يطمئن للملائكة مقام بين الناس ؟ إن الملك لا يمكن أن يظهر للناس في أية صورة غير صورة الانسان إلا كان مبعث فئنة للناس . . . إنهم سيبتدافعون إليه تدافع الفراش إلى ضوء الصباح ، يدور حوله في لهفة مجنونة لي أن يسقط نصيباً وإعياء .

كذلك لا يستقيم أمر الناس إذا جاءهم الرسول ملكاً في صورة إنسان .

- | | |
|--------------------------|------------------------|
| (١) سورة القمر ، ٢٤/٢٥ . | (٢) سورة المؤمنون ٤٧ . |
| (٣) سورة المؤمنون ٣٤ . | (٤) صورة يونس ٢ . |
| (٥) سورة الفرقان ٢٦ . | (٦) سورة الأنعام ٩ . |
| (٧) سورة الإسراء ٩٥ . | |

لأنه لا يغير عما في نفوسهم شيئاً من أمر الرسول البشرى ما دام الملك يلقاهم في صورة آدمية . . فإنه في حالة تلك إنسان ، برونه رأى العين في صورة بشرية ، ولا تختلف عما ألفوا من صور الآدميين . . وبهذا كان رد القرآن على هذا المقترح النجى الأحق . . ولو جعلناه ملكاً لجهنم رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ، (٢) أى أنه لو جاءت الملائكة رسلاً إلى الناس لما جاءوا إلا في صورة بشرية ، لأن مجيئهم في صورتهم الملكية لا يجعل لهم بين الناس مكاناً يطمئنون فيه ، ومجيئهم في صورة بشرية لا يجعل لهم عند الناس شأنًا غير شأنهم مع الرسل الآدميين . وإذن فلا معنى لأن يكون الرسول ملكاً مادام لا يمكن أن يجيء إلا في صورة بشرية

وأنت ترى الثغرات القرآن إلى تقرير بشرية الرسل واضحاً في هذا الأسلوب المنجى - في موقف الخصومة والجدل . . وهو موقف واحد هنا ، يقف فيه الكفار المعاندون موقف المنكر على الرسول أن يكون بشراً ، وأن دعوى من يدعى من الناس - أياً كان - أنه رسول ادعاء لا يقبل . . وكان من صميم القرآن في دفع هذا الضلال ، وكشف المستترين به ، أنه جعل القضية قضية جدية يمكن النظر فيها . والاستماع إلى دعوى الخصوم عليها . . فلم يلقها من أول الأمر بالكمة الحاسمة ، وأنها ضلال مكشوف ، لا يستأهل الوقوف إزاءه ، والنظر فيه . بل بسط لهم القرآن مجال القول ، وأراهم أن لقضيتهم شأنًا ، وأن عليهم أن ينتجوا آذانهم لسماع الحكم فيها . . لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، نزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ، (٢) فإنه قادر على أن يبعث إليهم ملكاً . . ولسكن هل يمكن أن تستقيم حالهم معه ؟ هل يجرؤ أحد أن يقول نعم ؟ فإن قال ستميه أحق ، نعم ، قيل له : على أية صورة يلقاك الملك ؟ أعلى صورته النورية ؟ إنك لن تراه ؟ ولن تتعرف إليه ، ولن تأخذ شيئاً عنه ! أم على صورة بشرية ، يخاطبك بلسان بشر ومهيئة إنسان ؟ قد يمكن

(١) الأنعام آية ٩ .

(٢) الإسراء آية ٩٥ .

أن يكون هذا . . . ولكن من يدلك على أنه ملك في صورة إنسان ؟ هو كما يبدو لك إنسان ، لا فرق - في ظاهر الأمر عندك - بين الإنسان الملك ، والإنسان الرسول ، وإذن فما يدخل عليك من أمر الرسول البشر سيدخل عليك من أمر الرسول الملك . . وهذا ما يكشف عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

الله يصطفى من الملائكة رسلا . ومن الناس :

لهذا اقتضت حكمة الله أن يبعث إلى الناس رسلا من الناس حتى يكون بين الرسول ومن أرسل إليهم إلف وأنس . فلا يجدون في رسولهم شيئا لم يألفوه . . على خلاف ما لو جاء الرسول إليهم في أية صورة غير صورة الإنسان . . لأنه حينئذ سيكون مبعث عجب ودهش ومثار فتنة وابتلاء ، أضعاف ما يقع لهم من الرسول الإنسان . . ولهذا أنكر القرآن على المشركين أن يعجبوا من أن يبعث الله فيهم رسولا منهم : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس . (١) » ، ولهذا كان فيما آمن الله سبحانه وتعالى به على الأمة البرية أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم . . حرىص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . (٢) « وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوه عليه آياته ويذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٣) » . وكذلك كان فضل الله على الأمم السابقة . كل رسول جاء إلى أمة كان منها ، ولبسانها . . « وما أرسلنا من رسول إلا لبلسان قومه ، ليبين لهم » (٤) .

صفوة الخلق :

وإذا كان الرسول بشراً فما ظنك أن يكون في الناس ؟

- (١) سورة يونس : آية ٢ . (٢) سورة التوبة : آية ١٢٨ .
(٣) سورة الجمعة : آية ٢ . (٤) سورة إبراهيم : آية ٤ .

أتراه واحداً من آحاد الناس لا امتياز له في عقل أو خان؟ أم تراه إنساناً
فانكا جباراً ، مالا قلوب الناس فرعاً ورعباً ؟ أم أنه متخاذل ضعيف يلقى من
الناس الذل والهوان ؟

وكلا . . فإن الرسول ليس إلى هؤلاء ، ولا أولئك !

إن الرسول قبل أن ترشحه السماء لحل الرسالة ، وقيل أن يلقى الناس بها ،
ينبغي أن يكون فيه أمارات ودلائل تشهد له برجاحة العقل ، وكال الروءة ،
والعفة ، وحسن الأحذوثة بين الناس ! فلا يعرف الناس منه قبل بعثته فيهم
إلا ما يحمدون ويكبرون !

هكذا رسل الله في أقوامهم . . خيار من خيار . . لم تجرب عليهم كذبة ،
ولم تظهر فيهم ريبة . . وما تكذيب قومهم لهم ، وتطاوهم عليهم بعد الرسالة
إلا عن حسد واستكبار ، وإلا عن شقاق وعناد ! وقد كشف القرآن الكريم
عن شهادة ثمود في نبيهم صالح ، وهي شهادة — على رغم ما واجهوه به من عناد
وتحد وإعنات — لم تستطيعوا إنكارها ، لأنها أكبر وأظهر من أن تنكر . .
« قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا (١) » أي قد كنت قبل رسالتك
موضع أمل ورجاء لما ترى فيك من الخير والصلاح .. فلما جاءهم يدعوهم إلى
الهدى ويبلغهم رسالة ربه أنكروا ما كانوا قد عرفوا منه .. !

وقريش . . مع النبي الكريم . . كان عندها الصادق الأمين . . فلما جاءته
دعوة السماء أنكروا ما عرفوا .. ولهذا يهزبه الله سبحانه وتعالى بقوله : « فأنهم
لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، . . ويقول له أبو جهل :
(والله لا تكذب بك ، ولكن تكذب ما جئت به) . !

إن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول المختار لهذه المهمة الجليلة خلاصة
الإنسانية وهاماتها ، في كل عصر ، وفي كل مكان تبرز فيه شمس النبوة وتتألق
أنوار الرسالة . . فيكون النبي أو الرسول هو الرجل الأول في السجال الإنساني

بين قومه ، ويكون هو الإنسان الذي تتمثل فيه كالات الجنس البشرى لعصره ،
وتجتمع فيه كل فضائله !

والرسول بهذه الصفات التي اجتمعت له جدير بأن يكون صلة بين السماء
والارض ، وسفيراً بين الله والناس !

لانه لا بد أن يكون الرسول الذي يوكل إليه لإبلاغ رسالة سماوية إلى الناس
على أكل صورة إنسانية ، وأتمها في ظاهر وباطن معاً ، كي يتقبل الناس دعوته
ويستجيبوا لما يدعوهم إليه !

وشتان بين أن تسمع الكلمة الطيبة الرشيدة من إنسان تعرف فيه الطهر
والتقوى ، وتجرد في سيرته وسلوكه الآثار الطيبة لهذه الكلمة الطيبة التي يلقاك
بها ، ويدعوك إلى الاستماع إليها ، والاستجابة لها — شتان بين هذا وبين أن
تجيء إليك هذه الكلمة ذاتها على لسان إنسان هازل عاجز ، لا ترى في حاله
ما يحملك على احترامه وتوقيره . . لانه لن يكون لكلمته هنا ثمن . ولا أثراً
لأنها كلمة — على ما بها من حسن — مينة ، فتمتد ما فيها من حرارة وحيوية ؛
حين انطلقت من هذا الكيان الخرب ، كما تنطلق القذيفة الفاسدة من المدفع ،
لا تبلغ غاية ؛ ولا تصيب هدفاً !

والرسول هم حملة الكلام الطيب كله إلى الناس . . على السننهم تجري الحكمة
والموعظة الحسنة ، فثمر ثمرتها الطيبة في العقول ؛ وفي القلوب ؛ لما يجد
الناس في هذه الكلمات من ريح النبوة ؛ وما يذوقون من شميم شذاها الطيب
الطهور !

لأن في كيان رسل الله قوى روحية تشيع في وصاياهم وتشريعياتهم القوة
والنفوذ إلى أعماق النفوس ؛ فتملك ناصيتها ؛ وتأخذ بزمامها !

وأظهر دلالة يستدل بها العقلاء من الناس على صدق الرسول ؛ ويفرقون
بينه وبين أدعياء النبوة من السكمان والمشعوذين أن الرسول لا يدعو الناس
إلى فضيلة من الفضائل إلا كان قائماً عليها في كل أطوار ؛ حياته قبل النبوة وبعدها ؛
ولا ينهى الناس عن رذيلة من الرذائل إلا كان بجانبها ؛ عروفاً عنها ؛ في كل

حال من أحواله . . وبهذا يراه الناس قد وافق فعله قوله ؛ وصدق خبره خبره !

وواقع الحياة يشهد لهذا الذي نقول به . . فصادفت دعوة من دعوات الإصلاح في أي مجال من مجالات الحياة ؛ الاجتماعية ؛ أو السياسية ؛ أو الفكرية حطاً من النجاح إلا بمقدار ما في الداعين إليها والتأمنين عليها من صدق ومن إخلاص ؛ يراه الناس في هذا التوافق بين مدلول الدعوى وسلوك الداعي ؛ وعلى عكس هذا ما يصادف كثيراً من الدعوات من تفسخ وانحلال ؛ أو من انعكاس واضطراب ؛ وإنما هو بما يكون بين مفهوم الدعوة وبين القائم عليها من فجوات وخلخلات ، يأخذ فيها كل من القول والعمل طريقاً غير طريق صاحبه .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى هذا الخلق الذي يخالف فيه المرء بين قوله وعمله . . فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا . . لم تقولون ما لا تفعلون ؟ . . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (١) .

وإذا كان الخلق على تلك السمعة من الشناعة في حال الإنسان الفرد ؛ وفي خاصة نفسه ؛ فما ظنك به إذا كان هذا الخلق في إنسان ينصب نفسه لدعوة عامة ؛ يبشر بها في الناس ؛ أو يحملهم عليها ؛ إنه لشناعة محسدة ؛ وبلاء غليظ !

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدر رسوله « محمد » فعزله عن جماعة الشعراء ؛ وودع عنه هذه القرية التي كان يرميه بها كفار قريش ؛ وهو قولهم إنه شاعر ؛ لما رأوا في القرآن من جلال وروعة لم يجدوا لها تفسيراً لما يتلو عليهم الرسول من كلام الله ؛ إلا أن يسميتموه إلى « الشعر » الذي هو غاية ما عرفوا للكلام من تأثير وسلطان على النفوس . . فكان رد القرآن على هذا بقوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ ذي قوة عند ذي العرش مكين ؛ مطاع ثم أمين ؛ وما صاحبكم بمجنون ؛ ولقد رآه بالأفق المبين ؛ وما هو على الغيب بضنين » (٢) ؛ وفي قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر ؛ قليلاً ما تؤمنون ؛ ولا بقول كاهن ؛

(١) سورة المنافقون آية ١ .

(٢) سورة التكوير آية : ٢٤/٢٢ .

قليلًا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين^(١) . وفي قوله سبحانه : « وما علمناه الشعر ؛ وما ينبتني له ؛ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين^(٢) .

ورفع مكانة النبي عن مواقف الشعر والشعراء إنما هو لما يغلب على الشعر من خيال هو في الحقيقة صورة كاذبة للواقع ... ولما يغلب على الشعراء من جرمهم في حياتهم على غير ما تنطق به ألسنتهم من شعر ... : « والشعراء يتبعهم الغاؤون .. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون .. وأنهم يقولون ما لا يفعلون^(٣) ... والأفدياء لا يقولون إلا ما يفعلون . فما ينبتني لبي أن يكون شاعراً ؛ لأنه يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر .. والشاعر محمول على أن يترضى مشاعره ؛ بما يخلط بين الجد والهزل ؛ وبين الحق والباطل ؛ والهذى والضلال : « والشعراء يتبعهم الغاؤون .. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » ! بل إن الشاعر في أصدق أحواله وأعدلها إنما يذبح شعره من خيوط الخيال ، إذ كان واقعاً دائماً تحت تأثير وجدانه ، ونداء مشاعره ... وهيات أن تسلم الحقائق — إذا تحكمت فيها الوجدان ، وتسلمت عليها الشعور — من أن تتغير معالمها . ثم هيات أن يأخذ الشاعر نفسه بما يقول ، أو يجرى في حياته على ما أوحى إليه شياطين شعره . إنه يعلم أن ما يقول من شعر ليس إلا أمانى وأحلاماً ، إن صح بعضها في حال ، فلن يصح أكثرها في معظم الأحوال ، ولهذا قيل : « أعذب الشعر أ كذبه » .

• • •

(١) سورة الحاقة آية : ٤١/٤٣ .

(٢) سورة يس آية : ٦٩ .

(٣) سورة الشعراء آية : ٢٢٤ - ٢٢٦ .

الباب الثالث

المعجزة... والإعجاز

ومع ما في الرسول من صفات نفسية، وروحية، وعقلية يعرف بها في قومه، ويأخذ بها المسكان الأول فيهم، فإنه يتطالب دائماً بآيات وبراهين تثبت دعواه التي يدعيها بأنه رسول من عند الله، يحمل إلى الناس كلمة الله!

ولهذا كانت رسل الله تزود دائماً بالمعجزات القاهرة التي تجيء إلى الناس على غير ما ألفوا، وتخرج عليهم بما لا يستطيعونه، أو يجدون له تفسيراً، إلا أن يذهب إلى الله، ويحسب شهادة على صدق الرسول، وتأيد دعواه!

المعجزة:

فالمعجزة حدث فريد يجري على غير مألوف الحياة، ويخرج على ما بين الأسباب والمسببات من تلازم!

وقد ذكرت السكتب المقدسة كثيراً من المعجزات التي أجزاها الله على أيدي الرسل، كطوفان نوح، وناقة صالح، وعصا موسى، وكلمة عيسى في إحياء الموتى، وهي معجزات مادية تقع في مجال الحس والمشاهدة! وتقوم الشواهد على عجز الناس عن مجاراتها. والوقوف إزاءها! فتخرس الألسنة، وتخضع الأعناق؟ ومع هذه الحجة القاهرة التي تنطوي عليها المعجزة، فإن اللجاج يذهب بالناس، أو بكثير منهم إلى التهرب من الواقع، والاحتباء وراء التهم المنقطة، والمعاذير التافهة، لينخلصوا من هذا الموقف الذي انكشف فيه أمرهم، فأسقط في أيديهم، ولم يكن لهم من سبيل إلا الإيمان أو الفرار!

ويعصور القرآن الكريم بعض هذه المواقف المتهافئة المتخاذلة التي يقفها



المكابرون المعاندون في وجه المعجزات القاهرة التي لا يحجدها إلا الصنفاء السفهاء من الناس !

فهؤلاء بنوا إسرائيل مثلاً . . لقد رأوا من المعجزات ما يتطابق الحيوان ، ويحرك الجباد . . العما يلقيها موسى من يده فإذا هي ثعبان مبین ، ويضرب بها البحر فينقلب ؛ فإذا كل فرق كالطود العظيم ، ويضرب بها الحجر فتنفجر منه عيون الماء . . اثنا عشر عينا ، بعدد أسباطهم الاثني عشر .

لقد رأوا كل هذا بأنفسهم رأى العين ، ومع هذا فقد ظلت غيرم الشك تحجبهم عن الإيمان بالله ، وبرسوله . . فكانت قوتهم تلك الآثمة التي حكها القرآن عنهم في قوله تعالى . « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جمرة . . فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون (١) .

فأى عناد بعد هذا ! وأى لجاح في الضلال والزيغ بعد هذا الضلال والزيغ ؟

ومن قبل كانت دعوة نوح إل قومه ، وحثه عليهم بحيث لا يستطيعون لها دفعا ، فكانوا إذا دعاهم إلى الإيمان بالله جعلوا أصابهم في آذانهم كي لا يسموا فيؤمنوا ، ودخلوا في ثيابهم كي لا يروا فيثأثروا . .

يقول الله سبحانه على لسان نوح : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ، واستكبروا استكبارا (١) . . . لأنه الفرار من هذا النور الذي يطلع عليهم من فم النبي الكريم ، فلا يجدون دفعا له إلا هذا العمل المحبول : « جعلوا أصابهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم » .

ويذكر القرآن الكريم ما كان عليه بعض كفار قريتين من العناد والإصرار على الكفر والإقامة على مشاقة الرسول مهما تكن الآيات والمعجزات التي تساق إليهم . فيقول سبحانه وتعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون (٢) .

لأنه العناد واللجاج فيه ؛ ولأنه الكبر والتمسك به ، والحرص عليه . وإن

(٢) سورة نوح آية : ٧ .

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ .

(٣) سورة الحجر آية : ١٥/١٤ .

يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الفسى يتخذوه سبيلاً (١) .

امكانيات المعجزات :

تقف بعض المذاهب الفلسفية من « المعجزة » موقف الشك أو الإنكار ، وكثير من الفلاسفة لا يسلّمون بإمكانها ، وإن كانوا يؤمنون بالله ، ويهتفون بالخالق المبدع لهذا الوجود !

وحجة الفلاسفة أو الفلاسفة على إنكار المعجزة أو الشك فيها حجة داحضة مترافة ، لا تستند إلى حقيقة علمية . ولا تعتمد على شهادة من واقع الحياة ، أو من صحف التاريخ !

« المعجزة » عند المؤمنين بالمعجزات حدث خارق للمادة ، لم يجر على سنن الحياة ، ولا ناموس الطبيعة على الوجه الذى ألفه الناس ، وعرفوه !

لأنها خرق لنواميس الطبيعة ، وخروج على أوضاعها !

والفلاسفة المنكرون للمعجزات يرون أن كل ما يقع فى الحياة ، مألوف ، وغير مألوف ، هو جار على طبيعتها ، واقع على ما تقضى به سننها !

إن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يمكن أن ينكأ أبداً . وإن الأمور التى تقع من غير أن تنكأ لنا أسبابها هى فى الواقع نتيجة لأسباب ملازمة ، إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور . .

وإن الأحداث التى تبدو غريبة أو خارقة لمألوف الحياة هى فى الواقع أحداث طبيعية ، لم نعرف أسبابها التى لا بد أن تكون قائمة وراءها ، وأنه متى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة ، وزايلها العجب الذى أخذ الناس منها .

ومعجزات الرسل - على هذا - كما يرى الفلاسفة ليست إلا أموراً طبيعية تجرى مع ناموس الطبيعة ، وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور ، وإن دهش

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

الناس منها ، وتسليمهم بها إنما لخصاء أسبابها عنهم ، وظهورها بينهم ، منقطعة عن كل علة ، غير مستندة إلى سبب .

وإذن فالمعجزات - على هذا التقدير - أمور واقعة في حين الإمكان ، وإن أى إنسان يستطيع أن يخرج على الناس بمثل هذه المعجزات إذا أمسك بين يديه بأمر لم يعهد به الناس ، ووقع هو على أسبابه دونهم ؟ إنه يستطيع أن يجعل من هذا الذى بين يديه معجزة يتحدى بها الناس ، ويمجزهم عن الإتيان بمثلها !

فلو فرضنا أن مخترع البخار ، أو الكهرباء طلع على الناس لأول عهدهم بما اخترعه . وأراه آلة تتحرك بالبخار ، أو مصباحاً يضيء بالكهرباء ، وأراه أن ذلك خاصة من خصوصياته ليس لأحد أن يأتي به أو يمثله ، ثم أفهمهم أنه إنما استمد هذه القوة من الله ، وأنه رسوله إليهم ، لو أن واحداً من هؤلاء المخترعين فعل ذلك لوجد كثيراً من الناس من يصدقونه ويستجيب له ، ويؤمن بما يدعوهم إليه !

وتصوير المعجزة ، هذا التصوير ، ووضعها بهذا الموضع فيه تلبيسات ومغالطات .

فأولاً : لم تشهد الحياة مخترعاً من المخترعات ولد كاملاً . بل يبدو لأول ظهوره في يد مخترعة خنثياً لم تتمتع معاملة . ولم تتحدد ملامحه . ثم يدرج شيئاً فشيئاً نحو النضج والسجال ، ولا يزال مع الأيام موضع زيادة وحذف حتى يبلغ ذمته !

وثانياً : أن المخترع منها يمكن شأنه من الغرابة والعجب عند ظهوره : فإنه لم يكن منقطع الأسباب عن سوابق كثيرة من المعارف الإنسانية استند إليها وتعلق بها . فهو ليس من صنع إنسان ، وإنما هو من صنع الإنسانية المعاصرة له ، والسابقة واللاحقة .

وثالثاً : لم يجرؤ مخترع من هؤلاء المخترعين أن يقول إن هذا مما تهجر الحياة عن أن تلد مثله ، أو تكشف المستور عن سره .

ومن أجل هذا لم تكن مخترعات المخترعين ، ولا أعمال العباقرة في العلوم والفنون والآداب ما تدعى له ، المعجزة ، أو ما يتحدى به في مقام الإعجاز ، إذ كانت كل هذه المخترعات وهذه الأعمال بما ينازع الناس في مساماتها والحقاق بها أو سبقها ، ولم يحدث قط إزاء اختراع من المخترعات ، أو عمل من هذه الأعمال الخالدة أن انقطعت عزائم الناس دونها ، أو وقفت منازلهم عن مجاراتها ، ومحولة الإتيان بمثلها ، أو أحسن منها ..

وليس هذا أمراً مستغرباً ، لأن هذه الأعمال - منها كان لها من روعة - هي من صنع بشر ، يظهر فيها الطابع الإنساني ، وتشم منها ريح الإنسان ، الأمر الذي يفرى الناس بها . ويدنينهم منها ، ويقرب بعينها إليهم .. فلا تنقطع آمالهم دونها ، ولا تسكن عزائمهم إلى التسليم بالعجز عنها .

وليس كذلك ، المعجزة ، فهي تأتي من أول ما تأتي كاملة لا يدخل عليها بعد هذا زيادة أو نقص ، لأنها لا تقبل الزيادة ولا النقص . لأنها من صنع الخالق ، وما كان لمخلوق أن يدخل شيئاً على صنعة أرادها الخالق ، معجزة ،

ومن هنا كانت ، المعجزة ، مصحوبة بالتحدي من جهة ، وبدعوى النبوة من جهة أخرى .. فهي شهادة صدق على نبوة النبي ، وأنه مرسل من عند الله ، وأن العمل الذي جرى على يديه هو من عند الله ، والدليل على أنه من عند الله ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينقضه أو يأتي بمثله .

يقول ابن تيمية : « ثم إنه تعالى جعل مع الرسل ، آيات من علامات وبراهين ، وهن أفعال يفعلها مع الرسل ، يخصهم بها ، لا توجد لغيرهم .. فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك لإعلام منه للعباد ، وإخبار لهم أن هؤلاء رسل .. (٤) » .

ويقول أيضاً : « إنما تكون - أي المعجزة - آية إذا كانت من فعل الله مع التحدي بمثلها ، ودعوى النبوة .. فدلائلها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب ، فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على

يده ولهذا لم تمكن أشرط الساعة آية لأحد ، وإن خرق العادة . إذ لم يكن معها دعوى نبوة ... ولأن موت زيد عند قول الرسول : آيتي أن يميت الله زيدا عند دطاني بموته ... فإذا مات عند دعوته صار ذلك آية له ، وإن كان فعل الموت في الإنسان وغيره من الحيوان معتمداً !

ويقول ابن خلدون :

، ومن علاماتهم — أى الأنبياء — وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ؛ وهى — أى الخوارق — أفعال يعجز البشر عن مثلها ؛ فسميت بذلك معجزة ! وليست — أى المعجزة — من جنس مقدور العباد ؛ وإنما تقع في غير محل قدرتهم !
ثم يقول :

والناس في كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف :

« فالتكلمون » بناء على القول بالفاعل المختار — أى بأن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله — قائلون بأنها - أى المعجزة — واقعة بقدره الله لا بفعل النبي ... وإن كانت أفعال العباد عند المعجزة — من المتكلمين — صادرة عنهم ؛ إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ؛ وليس لنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ؛ وهو أن يستدل بها النبي قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ؛ فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه أى النبي — صادق ؛ وتكون دلائلها على الصدق قطعية ؛ فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والتحدى ؛ ولذلك كان التحدى جزءاً منها .

و أما الحكماء — ويريد بهم الفلاسفة المؤمنون — فالخارق عندهم من فعل النبي ... وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ؛ منها صدور هذه الخوارق بقدرته ؛ وطاعة العناصر له فى التكوين ... والنبي عندهم — أى الفلاسفة — مجبول على التصريف فى الأكوان مهما توجه إليها ؛ واستجمع لها ؛ بما جعل الله له من ذلك .

و الخارق عندهم يقع للنبي ... كان ... أى الخارق ... للتحدى أم لم يكن ؛ وهو شاهد بمسوقه ؛ من حيث دلالة على تصرف النبي في الأكوان ؛ والذي هو أى التصرف - فى الأكوان - من خصائص النفس النبوية ؛ لأبان يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق .. فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ؛ ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ! ولم يصح - أى التحدى - فارقاً لها عن السحر والمكرامة .

وفارقها عندهم عن السحر ؛ أن النبي مجبول على أفعال الخير ، مصروف عن أفعال الشر ؛ فلا يلم الشر بخوارقه ؛ والساحر على الضد ؛ فأفعاله كلها شر ؛ وهى فى مقاصد الشر !

وفارقها عن المكرامة أن خوارق النبي محضة وصة ؛ كالصعود إلى السماء ؛ والنفوذ فى الأجسام السكيفة ؛ وإحياء الموتى ؛ وتكليم الملائكة ؛ والطيران فى الهواء . وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل ؛ والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله ؛ مما هو قاصر عن تصريح الأنبياء ... (١) .

وأنت ترى فيما نقل ابن خلدون من آراء المتكلمين والفلاسفة أن الفريقين متفقان على أن « المعجزة » خارقة للعادة لا يقدر الناس على مثلها !

كما ترى أن اقتران المعجزة بالتحدى شرط لازم عند المتكلمين ؛ على حين أنه غير لازم عند الفلاسفة ! وهذا الخلاف متفرع عن الأصل قامت عليه المعجزة عند كلا الفريقين ...

فإذا قرر المتكلمون أن « المعجزة » من فعل الله ؛ وليست من فعل النبي .. فإنه ينبئ على هذا أن « المعجزة » لا تقع إلا حين تقتضيها ضرورة ، وهذه الضرورة إنما هى الشهادة على صدق النبي ؛ وأنه مبعوث السماء ومؤيد منها بما يشهد له بصدق دعواه ... حينئذ تنزل « المعجزة » التى يقترحها القوم .. كما اقترح الحواريون على المسيح أن ينزل عليهم مائدة من السماء .. وفى هذا يقول القرآن الكريم : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع

(١) مقدمة ابن خلدون - ص - ٩٠ .

ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال: انقروا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا تريد أن تأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ، (١) . فهو لاء حوار يري عيسى والمؤمنون برسالة الله . ولكنه إيمان متلبس بالكذب والريية .. فهم من أجل هذا يقترحون عليه آية ، ويحددون له صفتها .

وانظر في هذه الطبيعة المساكرة الخبيثة التي تندس في كيان اليهود .

فهم الذين يقترحون المطلوب ، ويحددون صفته . حتى لا يكون هناك مجال للتلبس إن كان فيهم من أذعياء النبوة ، فلو أنهم طلبوا معجزة مطلقة فقد تخلفوا معجزة النبي بشعور المشعوذ . . . ولكن إذا اقترحوا أمراً على صفة محددة ، وجاء على هذا الوصف كان لا شك أنه معجزة ، وأن الذي يتعامل معهم في .

هذه واحدة .. وأخرى .. هي أنهم — فيما حكى القرآن عنهم — قالوا لعيسى: هل يستطيع ربك . . . ولم يقولوا ربنا ، لأن إيمانهم بالله مازال متردداً في مواقع الظن والشك . . . ولو كانوا مؤمنين بالله حقاً لمسا قالوا في حق الله سبحانه وتعالى . هل يستطيع ، . فتعالى الله أن يعجزه شيء في الأرض أو في السماء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، (٢) .

وثالثة من فعلات اليهود هنا . . . هي أنهم كما وصفهم القرآن ، أحرص الناس على حياة ، وعلى كل مافى الحياة ، فلم يذهبوا مذهب كفار مكة عندما أرادوا أن يتشبعوا من دعوى النبي فقالوا فيما حكى القرآن عنهم : ، واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك . فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، (٣) لم يذهبوا هذا المذهب ، بل طلبوا مائدة ، حافة بألوان الطعام وأطاييه ، مائدة . . . يريد أن تأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا . ونكون عليها من الشاهدين ، .

(٢) سورة يس آية ٨٢

(١) سورة المائدة آية ١١٢ / ١١٣

(٣) سورة الأفعال الآية : ٢٢ .

فكم عصفوراً صيد بحجر واحد من هذه الرمية المأكرة ؟
وقد تقع المعجزة ابتداء من غير طلب محدد لها واصفاً لها ، كما هي في ناقة
صالح ، وعصا موسى !
وهذا كله بناء على رأى المتكلمين في أن « المعجزة » من فعل الله ، وليس
للنبي شأن بها إلا أنها تجرى على يديه . . . وبهذا تجيء معلنة التحدى !
أما الفلاسفة فإنه يذنبى على رأيهم القائل بأن « المعجزة » من فعل النبي وأن
أعمال النبي كلها خارقة للعادة — يذنبى على هذا أن النبي نفسه « معجزة » وأن
الخوارق تجرى عليه من غير قصد ولا التفات إلى التحدى بها !
هذا خلاصة ما بين المتكلمين والفلاسفة من خلاف في شأن المعجزة على حسب
ما نقل ابن خلدون عن الفريقين .

امكان اتصال الانسان بالملا الأعلى :

« المادة » في كل عصر هي التي تعزل الإنسان عن العالم العلوى ، وتأبى
عليه أن يرتفع عن هذا التراب الذى يمدس عليه .
ولا يزيد هنا أن نشرح فلسفة الماديين ، وما تقضى به هذه الفلسفة في شئون
الإنسان ، وخاصة ما يسميه المؤمنون الجانب الروحى منه . . . فقد عرضنا
في كتابنا الثانى من « قضية الألوهية » (١) مذاهب الماديين ومقولاتهم عن عالم
ما وراء المادية ، وبسطنا القول في إيراد حججهم على ما وراء الحس . .
والذى يعيننا هنا أن نقرره هو أن الماديين إذ ينكرون العالم الروحى كله
ينكرون تبعاً لذلك رسالات السماء — إذ لا سماء ، ولا رسالة عندهم —
كما ينكرون الأنبياء ، والديانات ، ويعمدون الحديث عن الأنبياء والديانات
أحاديث ملفقة ، وادعاءات كاذبة ، لا تنف أمام النظر العقلى ، ولا تثبت أمام
البحث العلمى !

(١) « قضية الألوهية بين الفاسفة والدين : » « الله والإنسان » للمؤلف . الناشر
دار الفكر العربى .

(م — هـ النبي محمد)

ولا يجادل الماديين ، ولا تقف معهم موقف الخصومة في هذه القضية . .
فقد قلنا ما عندنا في هذا في أكثر من موضع .
ولنما نود أن نقف هنا وقفة قصيرة مع الذين يؤمنون بالعالم الروحي ،
ويقولون بأن وراء المادة عالماً آخر غير مادي أرحب وأوسع بما لا يقاس به
هذا العالم المادي ، ولا يحسب بحسابه .
هؤلاء الذين يؤمنون بما وراء المادة بينهم أعداد غير قليلين يشكون
في قيام صلة بين العالمين - المادي ، وغير المادي - ثم يسلمهم هذا الشك إلى
شك آخر في « الروح » الذي يتلقاه رسل الله من السماء ! ومن ثم فهم شاكون
في الرسل ، وفي الديانات السماوية التي يحملها رسل الله إلى الناس .
وكان الفيلسوف العربي « المعري » من هؤلاء الشاكين في النبوات ،
وفي رسالات السماء . . وقد ترددت أصدااء هذا الشك في كثير من شعره
في اللزوميات .

يقول المعري - جاعلاً « العقل » هو النبي الذي يقوم بالهداية ، وهو
النبي القائم في كيان كل إنسان :

أيها المغرور إن خصصت بعقل

فأسأله فكل عقل فبي (١)

وواضح من هذا أن « المعري » لا يجعل هذا الحكم للعقل عند كل الناس ،
بل لعقول الصفة الممتازة منهم ؟ ولهذا قال : « إن خصصت بعقل » . فهو يخصص
ولا يعمم ، فلا يجعل العقول بهذه المنزلة إلا عنده هو ، وعند أمثاله من الحكماء
والفلاسفة .

وللمعري مواقف كثيرة يزرى فيها بالشرائع السماوية ، ويهون ، بل يستخف
من آثارها في حياة الناس . ويود لو نبذ الناس التعاقب بتلك الشرائع ، ورجعوا
إلى ما يوجبهم والعقل ، أو بمعنى آخر ، إن الناس لو أسلموا أنفسهم لأراء الفلاسفة
والحكماء ، واستمعوا إليهم ، لمكان ذلك أجدى عليهم مما يتلقون من الشرائع

التي يقوم عليها الكهان والرهبان ، والنقهاء ، وغيرهم من علماء الدين في كل ملة . . يقول :

والعقل يبحث . . والشرائع كلها
خبر يقصد لم يقسه قائل
متمجسون ، ومسلمون ومعشر
متمنصرون ، وهائدون رسائس (١)
ويبوت نيران تزار تعبدنا
ومساجد معمورة وكنائس
والصائبون يعظمون كواكباً
وطباع كل في الشرور حبائس (٢)

وغيره المعرى ، كثير من الفلاسفة ممن سبقوه أو جاءوا بعده يرون هذا الرأي . . وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء الفلاسفة وإلى آرائهم في الرسائل السبائية .

ونعرض هنا وجوهاً من الرأي ، يدافع بها أصحابها عن الرسائل السبائية وعن صدق الأنبياء في تلقيها عن الله .

رأي ابن خلدون :

وابن خلدون يبذل جهدهم مضمئلاً موفقاً في إقامة صرح مثين من الأدلة على إمكان الروح ، والتقاء السماء والأرض عن طريق مخلوق أرضي ، هو قوة مخلوقات العالم المادي ، ومن هذه القوة يمكن أن يلبس السماء ، ويلبس أضواءها . وهذا المخلوق هو الإنسان الذي يضع قدميه على الأرض ، ويطاول برأسه السماء . وقد امتد نظر ابن خلدون إلى آفاق بعيدة في الوجود . وفي هذه النظرة رتب الموجودات وتدرج بها في منازل والترقي ودرجة درجة حتى انتهت إلى الإنسان ؛ الذي جملة غاية ما يمكن أن تثمره المادة ، من ثم طيب ؛ يمكن أن يترقى ، درجة أخرى ؛ ينزع بها عن وجوده كثافة المادة وظلامها ، فيكون من العالم النوراني الشفاف . . عالم الملائكة . . وهذا يمكن أن يتلقى الإنسان — في شخص النبي — بالملك في شخص جبريل . . ويتلقى عنه رسالة السماء .

(١) الرسائس : جمع رسييس ، وهو المبطل . (٢) الأزوميات جزء ٣ صفحة ٣٢

يقول ابن خلدون :

« ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان ، في هيئة بديعة من التدرج . . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش ومالا بذر له : وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم ، متصل بأولى أفق الحيوان مثل الجلزون والصدف ، لم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المسكوفات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق المدى الذي بعده .

ثم ينتقل ابن خلدون بنظره إلى عالم الحيوان . . فيقول :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية .

ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوي في الموجودات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تحركاً يتدرج بها من حال إلى حال حتى تصل إلى الإنسان ، ثم يتدرج إلى العالم الإنساني في أفرادها ، حتى يبلغ نهاية الأفق الذي يلامس فيه الملأ الأعلى ، ويتهيأ للانتقال إليه .

يقول :

« فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى المسكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة ، وقتاً من الأوقات في لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل » (١) .

وأياً كانت هذه النظرة ، وأياً كان حظها من الصحة والصدق ، فإنها تضيء عن حاجة الإنسان إلى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها « ويطمح إلى بلوغها أو مداناتها .

اختلاف المعجزات باختلاف الأمم :

تري ماذا يكون لو أن معجزات الرسل كانت جارية على أسلوب واحد

في صورة واحدة . يتلقاها رسول بعد رسول . فتظنر للشاهدين كما ظهرت
لأسلافهم . معجزة قاهرة ، تحرس معها الألسنة ، وتخضع لها الأعناق ؟
ماذا يكون لو أنها معجزة واحدة تنتقل مع الرسل . رسولاً رسولاً ؟ .
وتظنر في الأمم أمة أمة ؟ ماذا لو حدث هذا ؟

عصى موسى مثلاً . لو أنها كانت في يدنوح ومن بعده من الأنبياء : هود ،
وصالح . وشعيب ، وإبراهيم ، وعيسى ، ومحمد .. لو أنها كانت لهؤلاء الأنبياء ،
وجرت على أيديهم في أقوامهم أما كان لها في نفوس هؤلاء الأقوام ما كان لها
في قوم موسى ؟

وبمعنى آخر : أما كانت معجزة كافية للتحدى والإعجاز ؟

ويمكن أن يقال في ترجيح هذا الرأي الفرضي - : إن تطويع المعجزة
الواحدة ليد الأنبياء ، وانتقالها من سابق إلى لاحق ، فيه تأكيد لها ، وشهادة
مجددة على أنها ليست وليدة الصدفة ؛ ولا أنها فلتة من فلتات الحياة وقمت
ليد إنسان من الناس . فاتخذ منها أداة للتعالي على الناس بما في يديه . وإذلال
كبريائهم وفضح مدعياتهم من العلم والقوة .

فإذا تظاهر ظهور هذه المعجزة مرة بعد مرة في أزمان مختلفة ؛ مع احتفاظها
بكل ما فيها من ملامح ومميزات - كان في ذلك ما يحسم الشك فيها ، ويقطع باليقين
بأنها من عند الله ، وأنها لا تظنر إلا لمن اختارهم الله رسلاً إلى عباده .

هذا ما يمكن أن يقال في هذا الوجه من الإعجاز ..

ولكن هذا الوجه على ما يبدو من وجاهته مدفوع من وجوه :

فأولاً : مجيء المعجزة على صورة واحدة متكررة يفقدها كثيراً من التأثير
العقلي والنفسي الذي كان لها على الناس عند وقوعها لأول مرة . فإن ظهورها
في الناس بعد احتياجها - الطويل أو القصير - لا يثير فيهم تلك المشاعر العاصفة
التي كانت تثيرها عند ظهورها أول مرة ... إذ أن الناس في المرات التالية للرة
الأولى يلقونها وقد عرفوا عنها كثيراً من صفاتها وأفعالها . فلا تقع من

نفوسهم الموقع الذي كان لها في نفوس من شهدها لأول مرة عرفتها الحياة فيها ... وهكذا الشأن في كل أمر يعيدش في الحياة ، وتمتكر دوراته فيها
.. فالشمس على ما هي عليه من عظمة وجلال ، قل ، ا يلتفت إليها الناس ،
وقل ما يرون ما فيها من عظمة وجلال ، وذلك لتكرار دوراتها بين المشرق والمغرب ، حتى لقد صار ذلك منها أمراً مألوفاً ، وكل مألوف تلقاه النفس لقاء فائراً ، غير واقعة عنده ، أو ملتفتة إليه !!

وإثافياً : تكرار المعجزة الواحدة ، في صورة واحدة يوقع في كثير من النفوس أنها ليست من عند الله . وإلا لما وقفت قدرة الله عندها . مهما كان مبلغها من الدلالة على قدرة الخالق وسلطانه . . !

إن الفنان العبقرى لا يرضى أن يحسب في الفنانين العباقرة بأثر واحد من آثاره . ولا يفسح له الحياة مكاناً بين العباقرة الفنانين حتى يأتي بأكثر من شاهد يشهد له على مكانته وأصالته . ورسوخ قدمه !

فالعامل الفني الواحد - مهما يكن فيه من لمسات العبقرية ومخايلها - ليس إلا نبأ تلت الناس إلى أن فناً يوشك أن يولد ، ويخرج إلى الحياة . . ويتقرب الناس بعد هذه التباة مولد الفنان فيما يقدم من أعمال . . فان وقف عند العمل الأول تزاورت عنه الأبصار ، وحسب عمله الأول فلتة من الفلوات ، أو مصادفة لم يكن له تدبير فيها !

والناس في جناب الله ، وفي قدرته يتوقعون أعمالاً لا تقف عند حد في مجال الاستدلال على تدره الله . . فكل شيء مستخر لله ، خاضع لأمره ، مستجيب لدعوته ..

• إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون . .

والرسل هم السفراء بين السماء والأرض . . بين الله والناس . !
والذي يتوقعه الناس هو أن يروا هؤلاء السفراء في حلال جديدة من الرواء والجلال . . كل حلة منفردة بألوانها وأصباغها ، لا تشبه لاحتمها

سابقتهما . فإذا جاء الأمر على خلاف هذا ، وجاء السفراء واحداً إثر واحد في ساحة يأخذها اللاحق عن السابق ، ساء ظن الناس - وحق لهم أن يسوء ظنهم بهؤلاء السفراء ، وأن يشكوا في صدق دعواهم أنهم رسل من عند الله . فإن ما عند الله كثير لا ينفد ، ولا يجيء على تلك الصورة التي لا تتدل إلا على العجز والفقراء ، ومن شأن المعجزة أن تحدث الناس بلسان فصيح عن قدرة الله ، وعن جلاله وعظمته ، وأن ترى الناس الله الذي له ملك السموات والأرض .. الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ..

وثالثاً: المعجزة في حقيقتها لسان يحدث الناس على قدر عقولهم ، وباللغة التي يتعاملون بها .

وسواء أكانت المعجزة حسية أم عقلية ، فإنها لكي تكون حجة على الناس - ينبغي أن تقدر بقدرهم ، وتحسب بحسابهم ، أو بمعنى آخر ينبغي أن تجري معهم على مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة . فإذا كانت من الناس بحيث تبعد الثقة بينهم وبينها صعوداً أو هبوطاً - لم تلتق بالناس ، ولم يلتقوا بها ، فذهبت مذهباً ، وذهبوا هم مذهباً آخر وكانت وهم كما يقول الشاعر :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

وإذا كان الناس مختلفون في طبائعهم . متفاوتون في ذكائهم ؛ حسب أزمانهم وأوطانهم ، فاللسان الذي يخاطبون يجب أن يكون مختلفاً بحسب هذه الطبائع ، متفاوتاً بتفاوت هذا الذكاء ، حتى يكون لساناً مفهماً يجد من يستمع إليه ، ويتلقى عنه !

من أجل هذا كانت معجزات الرسل واقعة على حسب كل أمة واستعدادها العقلي والنفسي . . وكان لكل رسول معجزة أو أكثر تناسب حال قومه ، ونجىء إليهم من الجانب الذي بلغوا فيه غاية ما عندهم من فطنة وذكاء ؛ وماليهم من قوة وجهه !

وكان من هذا أن جاءت معجزات الأنبياء على هذا التقدير . . محسوبة بحساب الأمم واستعدادها .

يقول الجاحظ : « وعلى قدر جهل الأمة ، وغباء عقولها ، وسوء رغبتها ، وخيث عاداتها ، وغلظة مخنتها ، وشدة حيرتها — تسكون الآيات . ، كفلق البحر ، والمشى على الماء ، وإحياء الموتى ، (١) »

وسرى فيما نستقبل من أبواب هذا الكتاب بياناً شارحاً للحكمة في اختلاف المعجزات . ومناسبتها لأحوال الأمم كما سرى لماذا كانت معجزة النبي ﷺ ، معجزة عقلية ، تخاطب العقل الإنساني في أعلى مستوياته وأدناها جميعاً ، فيما حمل القرآن من آيات بينات .

• • •

الباب الرابع

مصادر الرسالة الإسلامية

محمد ، والقرآن ، والصلاة التي تجمع بين محمد ، والقرآن . تلك هي موضع البحث والنظر لمن يريد أن يتعرف على المصادر التي أقامت الشريعة الإسلامية على تلك الصورة ، التي تعرفها الحياة ، ويدين بها المسلمون .

من أجل هذا كانت هذه الدراسات الكثيرة لشخصية محمد ، ولحقيقة القرآن ، ولما بين محمد والقرآن من صلة — كانت هذه الدراسات منظوراً إليها من آفاق مختلفة ، متعددة ، سواء أكان ذلك من المسلمين أنفسهم ، أم من غير المسلمين .

فقد استبد بكثير من المسلمين الشعور الديني ، وغلبتهم العاطفة الدينية ، وصور لهم الوهم الخاطيء أن يأنفوا بشخصية الرسول بألوان وأصبغ ليترضوا بها مشاعرهم الساذجة ، فجاءت هذه الأصبغ الغريبة وتلك الألوان الصارخة على غير ما قدروا وعلى غير ما أرادوا .. إنها تنزل من جلال النبوة وجمالها بمنزلة أصوات دخيلة مزعجة في نشيد علوي ملائكي ! بل إنها — في أحسن أحوالها أشبه بالمصابيح الموقدة تحت أشعة الشمس ، في وجه النهار المشرق !

وكما استبد الحماس الديني ببعض المسلمين ، فجاءوا إلى شخصية الرسول بهذه البضاعة الرخيصة ؛ كذلك استبدت الكراهية للإسلام ، والحقد على نبي الإسلام ببعض الناس فخاولوا أن يلقوا على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ظلالاً معتمة من الريب والشكوك ، وأن ينزعوا عنهما ما عليهما من عظمة قدسية ، وجمال رباني .. فجاء عملهم هذا على غير ما قدروا ، وعلى غير ما أرادوا فإن ما بينه الله أن يهدمه الناس ! وهل يحجب الدخان المتصاعد من الأرض والغياب الشائر من أعاصيرها وعواصفها وجه الشمس عن الحياة يوماً أو بعض يوم ؟ بل إن الشمس لتزداد في العين بهاء وجمالاً إذا أسفرت من وراء النمام ، وتبدت من خلال السحاب !

على أن كثيراً من الدراسات التي تناولت شخصية الرسول ، وحقيقة القرآن ، من علماء المسلمين ، وغير المسلمين قد جاءت مقتصدة في أغلب أحوالها ، تنزع منزع انوقوف على الحقيقة والتهدي إلى مواطن الحق ! .

ولا نريد أن نقف هنا على تلك الدراسات المستقيمة المحتملة التي قصد بها أصحابها وجه الحق في سيرة الرسول ، وفي شريعة الإسلام ، فإن طريقها واضح لا تهمي سبله على من يلتمس الحق ، ويطلب الوصول إليه .

ولنما الذي نريده هنا هو أن نعرض بعضاً من هذه الوجوه الشائبة الممسوخة التي أدخلها على سيرة الرسول ، وعلى حقيقة القرآن هؤلاء الجهلة المنتطعون من المسلمين ، أو أولئك الجهلة المتعصبون من غير المسلمين .

وأهم ما يعيننا في موقفتنا من تلك القضية أن نضل بمأمن من هذه التيارات المتدافعة من المنتطعين والمتعصبين ، فلا تغلبنا العصبية للعقيدة ، ولا يحملنا الشبان للمعادين للإسلام على أن نجور في الحكم ، أو نستبد بالرائي وذلك ما نستعين الله عليه ، ونرجو السداد والتوفيق فيه .

شخصية الرسول

كانت شخصية الرسول موضع نظر عميق ، وبحث متصل من أولياء الإسلام ، وأعدائه على السواء ! .

ذلك أن الإسلام وإن كانت تعاليمه منزلة من السماء ، لا دخل لمحمد فيها — إلا أن تناول « محمد ، لهذه التعاليم ، وقيامه عليها ، وتطبيقه لها قد جعل بينه وبين هذه التعاليم رابطة وثيقة ، بل إنه جعل منهما كياناً واحداً . .

فأى ما يقع في القرآن من ضروب السكال والجلال — وكله كال وجلال — يضفي على « محمد ، كالا وجلالا .. كما أن أي سناً يضيء من حياة « محمد ، — وكل حياته سناً وضياء — يزيد القرآن ألقاً وإشراقاً على ألقه وإشراقه .

وعكس هذا يأخذ هذا المأخذ ، فإن أي عوج يبدو في شخصية الرسول —

وهيات هيات — يتسرب إلى القرآن ذاته ، ويناله في الصميم منه . . وإن أرى
هأخذ يؤخذ على القرآن — وهيات هيات — ينال من محمد ، في شخصيته ،
وفي مكانته !

ولإنه لاخلاف بين المسلمين وغير المسلمين على شخصية محمد التاريخية ، فهو
شخصية تاريخية معروفة الزمان ، والمكان ، تشهد لها الوثائق التاريخية شهادة لم
يقدمها التاريخ لأية شخصية أخرى غير « محمد » .

من أجل هذا لم يستطع أشد أعداء الإسلام عداوة ، وأكثرم جرأة على
الحق ، وعدوانا على الحقائق أن يبدرو بذرة واحدة من بذور الشك حول شخصية
« محمد » من ناحية وجوده في الحياة ، في زمانه ومكانه الذي وجد فيه ، كما لم
يستطع أحد أن ينكر الانقلاب التام الذي قام به « محمد » في الجزيرة العربية ،
وفي الحياة الإنسانية ، وما أثار في العقول من أفكار ، وما ألقى في القلوب
من معتقدات .

ولكن الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الإسلام لم يسلموا بهذه الحقيقة على
إطلاقها ، ولم ينطقوا بكلمة الحق فيها . . إذ أنهم لو سلموا « محمد » بما عرفت
الحياة منه ، وبما حفظ التاريخ له لسلموا للإسلام بأنه دين الله ، وبأنه وحى
السماء ، وشريعة الحق . ودون ذلك أهوال وأهوال .. فإنهم والإسلام في حرب ،
ولن يسلموا له أو يستسلموا إلا بعد أن يرموا بأخر سهم بين أيديهم ، ولأبعد
أن ينفثوا ما في صدورهم من حقد وحسد ..

تخطيط وهديان :

كان أقرب شيء إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يلقوا ظلالة من
الريب والشكوك حول سيرة الرسول ، وأن يبعثوا من صدورهم المريضة نمنات
من الحقد الأسود المحموم فيشير دخانها يزحف على تلك الشخصية ، فيبين من
حقيقتها ، أو يخفي من معالمها .. فذلك وإن بدا لأول أمره أنه عمل طائش لا يلقى
من الناس إلا استهزاء واستخفافا ، إلا أنه مع الزمن ، ومع تردد هذا الاقتراء
قد يصبح يوما ما حديثا يروى في الناس ، ثم لا يعدم على الأيام أنصارا ، ثم قد



لا يعلم من أولئك إلا نصار من يدخل به على التاريخ ، ويفسح له مكافأ فيه ..
فما أ كثر المفتريات التي ولدت في الحياة مولدا غريبا شائها ، ثم استطاعت مع
الزمن أن تندس في تفكير الناس ، وأن تجرد من العقول « الرخوة » المريضة
طواعية لها ، وقبولاً لقولها الممسوخة المعوجة ! .. وكف في التاريخ من أكاذيب
وأباطيل ومفتريات غلبت الحقائق ، وأزالتها عن مكانها .

كان أقرب شيء إذن إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يذهبوا
هذا المذهب ، وأن يحكموا رميتهم من هذا الجانب ، فإنها إن صحت أصابت
من الإسلام مقتلاً لا يقوم بعده ، وأنها هذه الحرب التي لا تنتهي بينهم
وبين الإسلام .

ولكن الأمر - أمر محمد - أكبر من أن يتغشاها كذب ، أو يظهر
عليه افتراء ..!

ولا تحسبن الذين حاربوا الإسلام ، وحاربوا في الإسلام بجيوش زاحفة
في الحملات الصليبية ، وغير الحملات الصليبية التي شرع لها العلماء والفلاسفة
أقلامهم ، وأقاموا لها دراسات أكاديمية ودارسين محترفين للمفتريات والأكاذيب
المطلية بطلاء العلم ، والمموهة ببريق البحث عن الحقيقة - لا تحسبن هؤلاء
جميعاً قد غفلوا عن هذا السلاح ، سلاح التشويش على شخصية محمد وإذابتها
بالدعاوى الباطلة ، والأسانيد الملققة ، ليحيلوا شخصية محمد بعدها خرافة عاشت
في خيال العرب مع كثير من الخرافات التي تأثروا بها في حياتهم - ولسكنهم
كانوا كلما حاولوا خلق عناصر الضلال والبهتان لينسجوا من خيوطها نسيجاً يلفون
فيه شخصية « محمد » وجدوا أنهم إنما ينسجون بيتاً من بيوت العناكب ، يحاولون
أن يسدوا به وجه السماء ، وأن يجربوا ضوء الشمس في رابعة النهار ! فكان إذا
ولد لهم من هذه الأكاذيب مولود وأدوه ، وواروه التراب .. أشبه بالأجنة التي
تلفظها الأرحام قبل أن تدب فيها الحياة !

إن حقيقة « محمد » التاريخية لم تكن يوماً من الأيام موضع شك أو مثار
خلاف بين المسلمين وغير المسلمين على كثرة ما كان بينهم من خلاف متصل ، وجدل
ملتعب في كثير من أصول الشريعة وفروعها ..

عظمة محمد :

وعظمة « محمد » ليست محل شك عند كل من يعول عليه من أهل المعرفة ، وأصحاب الرأي من غير المسلمين ؛ فضلا عن المسلمين الذين يرتفعون بمقام نبيهم إلى مستوى من العظمة لا يرتفع إليه بشر ، ولا يدنو منه إلا أنبياء الله ورسله الكرام .

وعظمة « محمد » عظمة بارزة ، أكبر من أن يشكرها مكابر ، أو يعمى السبيل إليها مفضل أو مخادع .

لقد فرضت على أعداء الإسلام أن يشهدوا لمحمد بأنه واحد من آحاد العظماء في تاريخ الإنسانية ، ورأى من روادها ، ومصلحيها .

ولكن أبي كثير من هؤلاء أن يعترف لمحمد بأنه نبي ، وأنه تلقى شريعته من السماء . . ضناً منهم على شريعة الإسلام أن تفيض من هذا الينبوع العلوي ، وأن تتصل أسبابها بالسماء . وهم بهذا إنما يريدون أن تذهب هذه الشريعة مع ما ذهب من شرائع سنها المصلحون من الناس . . من كانت شرائعهم مستمدة من إلهاماتهم الروحية دون أن تتصلها بالسماء أسباب . وبذلك يذهب « محمد » كما ذهب العظماء في متاحف التاريخ .

لقد ذهبت شريعة « حمورابي » وبهت ظل القانون الروماني . وعفى الزمان على الإسكندر . و نابليون وغيرهما . . ذلك على خلاف الشرائع السماوية ، ورسول تلك الشرائع . . وإن دخل على بعض تلك الشرائع ما دخل من تبديل ، وتحوير . . فإنها على ما دخل عليها لا تزال محتفظة بطابع سماوي ، يرضى عليها الجلال ، والجلود !

عظمة الانسان ، وعظمة النبي :

ولا شك في أن « محمداً » لو لم يكن نبياً ، لكان إنساناً مرموقاً في قومه ، ولكان له شأن بينهم .

ولكن مهما يكن من شأن الأخلاق الكريمة ، والصفات الطيبة ، والذكاء المبهري الذي يشمل عليه كيان أي إنسان في الجزيرة العربية ، فإنه لن يتجاوز

هذه الحدود التي كانت تدور فيها قواهم الروحية ، أو النفسية ، أو العقلية ، أو الجسدية . .

فلقد كان يمكن أن يكون « محمد » — لولا أن أكرمه الله بالنبوة ، واصطفاه بالرسالة — كان يمكن أن يكون واحداً من أولئك الذين كان لهم مكافئة في قومهم ، وكانوا بموضع التجلية والاحترام فيهم .

وانظر فيمن عرف في الأمة العربية — قبل البعثة النبوية — بحال أوجبت له التقدير والاحترام ، وأضفت عليه ثوب الزعامة والقيادة . . فإنك تجد في الحكماء مثلاً « أكثم بن صيفي » . وفي الخطباء البلغاء « قيس بن ساعدة » . وتجد في الشعراء : امرأ القيس ، وعنترة ، ولييد ، وعمر بن كلثوم ، وغيرهم من أصحاب المعاني . . وتجد في الأبطال الفرسان عنترة ، وعمر بن عبدود ، والحارث بن شهاب . . وتجد في السكهان شقياً ، وسطيحاً ، وغيرهم كثير من تلك الأسماء التي حفظها تاريخ الأمة العربية في الجاهلية لذوى النباهة والشأن من رجالها .

كان « محمد » لولا النبوة — يمكن أن يكون واحداً من أصحاب المعاني ، أو الحكماء ، أو الخطباء ، أو الفرسان ، أو السكهان . . أو أن يكون فارساً ، أو شاعراً ، أو خطيباً . . ولكن يظل مع ذلك في هذا المستوى الذي عاش فيه « كجاء قومه ، وشعراؤهم وخطباؤهم وكهانهم ، وأصحاب المسكنة الرموقة فيهم .

وماذا تعطى بلاد كالبلاد العربية المجذبة أكثر من هذا ؟ بل ماذا تعطى أعدل البلاد جواً ، وأخصبها أرضاً ، وأوفرها خيراً ؟ ماذا تعطى في مجال العظمة ، وماذا تقدم للحياة من عظمة ؟ بل ماذا تعطى الحياة الانسانية كلها من عظمة وعظمة ؟ إن كل نتاج أرضي مهما يكن من الصفاء ، والقوة ، والسلامة لا يمكن أن يكون شيئاً إلى جانب تلك الثمرات الطيبة التي تنتجها السماء من العالم الأرضي فتسكب فيها شعاعات من النور العلوي ، وتطلق فيها شرارة من روح القدس فتكون هذه الثمرات الزكية الطيبة أنبياء الله ورسوله إلى عباده . إن عظمة النبي عظمة إنسانية سماوية معاً . . التي فيها الانسان في أكرم خصائصه وأصفى صفاته

بالعالم العلوي ، فنهل من مناهله ، واقتمس من أفواره ، وتزود لروحه من شعاعات الحق التي لا تحبو أبداً !

موقف .. وموقف :

لم يستطع أعداء (محمد) - قديماً وحديثاً - أن ينكروا هذا الذي بين يديه ، وعلى لسانه من علم وحكمة . . . كما لم يستطع أعداؤه - قديماً وحديثاً - أن يفضوا الطرف عنه ، وأن يجربوا عن أبصارهم أضواء هذا الجلال الذي يحف به ، أو أن يكسروا شعاعات تلك العظمة التي يجد ريحها كل من يخالطه أو يدنو منه ، أو يطالع سيرته !

ولكن الذي ياباه هؤلاء الأعداء - قديماً وحديثاً - على محمد هو أن يكون متمسلاً بالسما ، مطلقياً عن الله تلك الرسالة التي يدعو الناس إليها ، ويبشر فيهم بها ، لأنهم يرضون لمحمد أن ينزل من منازل العظمة الانسانية حيث يشاء ، ويسامون له أن يكون ما يشاء فيهم ، وفي مناصب السيادة والقيادة عليهم ، ولكن على أن ينزل نفسه من منصب النبوة ، ومن مقام الرسالة ، وأن يحىء لأبيهم عن طريقته الشخصي ، فإن ما فيه من الصفات الكريمة يؤهله للزعامة المطلقة فيهم !

وقد عرضنا للدوافع التي تحمل الناس على هذا الموقف من أنبياء الله ورسله ، واستكثارهم على بشر منهم أن يطاول السماء ، ويتعامل معها (١) !

وكان موقف قريش من (النبي) هذا الموقف الهنادى قائماً على هذا التقدير ، ومقدراً بهذا الحساب . . . وهو أن يكون لبشر معاملة مع السماء . . . إن هذا لإلا قول البشر « . . . أنزل الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشرا » .

وقد تولى القرآن الكريم فضح مقولات المعاندين من كفار قريش حالاً بعد حال : فحين قالوا عن النبي إنه ساحر كان رد القرآن :

« هل أتيتكم على من تنزل الشياطين ؟ نزل على كل أفكاه أئيم . . . يلقون السمع ، وأكثرم كاذبون » .

(١) انظر ص ٤٨ وما بعدها من هذا الكتاب .

وما جربت قريش على محمد ، حالاً كذب فيه ، ولا عدت عليه في حياته
كذبة واحدة !

وحين قالت قريش عن النبي إنه شاعر أجابهم القرآن : والشعراء يتبعهم
لغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . .
والقرآن - كما تعرف قريش - ليس بشعر ، والنبي - كما تعرف قريش -
لا يهيم في أي واد من أودية الضلال ، ولا يقول ما لا يفعل أبداً ... والشعراء
يهيمون في أودية الخيال . ويقولون في أشعارهم ما لا تصدقه أفعالهم .

أشده الرزدي ، سليمان بن عبد الملك قوله :

ثلاث واثنتان فبن خمس وسادسة تميل إلى شمام
فبن بجماني مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان : ويحك يا فرزدق ! أحملت بنفسك العقوبة ! أقررت
عندي بالزنا ، وأنا إمام ، ولا بد لي من أن أحذك . . فقال الفرزدق : بأى
شئ أرجبت على ذلك ؟ قال : بكتاب الله . . قال : فإن كتاب الله هو الذي
يدرأ عنى الحد ! قال : وأين ؟ قال : قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون . .
ألم تر أنهم في كل واد يهيمون : وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، . . فأنا قلت
يا أمير المؤمنين ما لم أفعل ؟

ما أشبهه الآية بالجارحة

والموقف الذي رفته قريش من النبي ، قد وقفه أعداء الإسلام بعد هذا
من محمد ، ورسالته . .

فلقد نازح خصوم الإسلام في نبوة محمد ، وإن لم ينازعوا في مكانته من
القيادة والزعامة والإصلاح ، بين القادة والزعماء والمصلحين من الناس .
والذي يرمى إليه هؤلاء الخصوم الذين يشككون في نبوة محمد أو يكذبونها
إنما هو - كما قلنا - تجريد الشريعة الإسلامية من عناصر الخلود المستمدة من
السماء ، ووضعها في دائرة الأنظمة الوضعية التي تخضع للتحويل والتغيير - الجزئي

أو الكلى - بأيدي الناس ! وبهذا تعمري الشريعة الاسلامية من هذا السياج
القدس الذي حفظها من عبث العابثين ، وحماها من أن تمتد إليها يد بمحو
أو تبديل !

ولقد حاول خصوم الاسلام محاولات مجهدة مضنية أن يدخلوا على الاسلام
من هذا الطريق ، وأن يشككوا في بعض آيات القرآن بإضافة أو حذف
فما استطاعوا أن يدخلوا عليه حرفاً ، أو يخرجوا منه حرفاً على مدى يزيد على
ثلاثة عشر قرناً !

والآيات التي أرادوا أن يشككوا فيها آيات معدودة . . وليست من الآيات
التي تمس أصلاً من أصول الشريعة . . ولكن الشك في أي آية يسحب الشك
إلى القرآن كله .. وهذا ما قصد إليه الذين جاءوا إلى الإسلام مهاجمين
من هذا الطريق . .

إن قداسة القرآن وحده متكاملة ، فإذا تطرق الشك إلى أنة جزئية فيه كان
ذلك داعية إلى الشك في كل أجزائه ، وبهذا يتداعى ذلك البناء الشاخص
المقدس ، وينهار !

محمد . . بعد القرآن :

وحين أعياهم أن يزيفوا شيئاً من تلك الوثيقة المقدسة الخالدة عمدوا إلى
مصدرها الذي صدرت عنه ، فأثاروا حول نبوة النبي دخاناً متكاثراً من الشكوك
والريب . . وغايتهم من هذا أن يقطعوا الصلة بين القرآن وبين السماء ، وأن
يضيفوه إلى « محمد » كما أضيفت معلقات الشعراء إلى أصحابها ، وكما نسبت أسجاع
الكهان إلى أربابها !

يقول « بارثولوميو ، الرهاوي : موجهاً هذا الحديث الخطابي إلى مسلم :
« قل لي بربك .. ماذا تعنى بالنبوة والرسالة ؟ »

« والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا ، . . لو لم يعلمكم المسيحي ا

(٦ - النبي محمد)



« إنك تقول : إن نبيكم ظل اثنين وثلاثين عاماً (١) لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناءها رسولا ، ولا معلماً ، ولا عرف شيئاً عن الله ، وأنه عرفه بعد تلك الفترة ...

ثم يمضى في هذه السفسطة ... فيقول :

« إذا كنت تنكر بتمام الجِد أن شيئاً قد حصل بوساطة محمد ، إبان تلك السنوات الاثنتين والثلاثين الأولى من حياته .. فكيف لا ينبغي لي أنا المسيحي أن أتكر أحداث تلك السنوات الخمس عشرة التالية (٢) ؟

ثم يخلص من هذا الهزل إلى هزل ... يقول فيه :

« ولكن أخبرني أولاً - فاشدتك الله - كيف استطاع - محمد - أن يعرف الله ؟ وبأية وسيلة عرفه ؟

« وإذا كنتم تسمونه نبياً فأروني ... ماذا تنبأ به ؟ وبأى لفظ تنبأ ؟ وما هي وصاياه ؟ وما هي الآيات والعجائب التي صنع ؟ » (٣) .

هذا لون من ألوان التشويش على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ... لم يكن صاحبه يعمل شيئاً من العلم بالموضوع الذي يجادل فيه . . . ويكنى أنه يجمل من حياة محمد ، تلك الخطوط العريضة - كما يقولون - من سيرته . . . تلك السيرة التي لم يختلف على حدودها الزمنية عدو أو ولي . . . فمحمد ، إنما جاءته النبوة بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، لا اثنين وثلاثين سنة كما يقول هذا السيد المتعالم ! ! كما أن نبوة محمد قد ظلت ثلاثة وعشرين عاماً ، لا خمسة عشر عاماً بحسب دعواه .

(١) الحق أنه ظل أربعين عاماً ، لا اثنين وثلاثين . . . فقد جاء وحى السماء بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

(٢) أنها ليست خمس عشرة سنة ، ولكنها ثلاث وعشرون . . . هي سنوات النبوة من بعثة النبي صلى الله عليه وآله من أربعين من عمره ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى في الثالثة والستين .

(٣) حضارة الإسلام لجوستاف جبرونيناوم ص ٦٨

ويكفي في سقوط كل مدعيات هذا المدعى أن كان من الجهل بموضوع هذه القضية إلى الحد الفاضح .

نعم .. إن الرجل وإن لم يكن يحمل من العلم شيئاً في موضوعه هذا ، إلا أنه كان يحمل طاقة كبيرة من الحقد على الإسلام ، والكراهية له .. ولكن الحقد والكراهية وحدهما لا يفتيان شيئاً في التشويش على الحق ، ولا في زحزحته عن موضعه .

ولو أن مع هذا الحقد ، وتلك الكراهية شيئاً من العلم لما كان هذا الخلط ، وذاك الهراء ، ولا استطاع الرجل بما عنده من علم أن يقتصد في هذا النباح ، أو أن يخرج في صورة أقرب إلى صوت العقلاء من الناس .

ومن البديهي ألا تقف من هذا الكلام موقف الجد ، ولا أن نرد على تلك الأسئلة التي سألتها - متبرحاً - في صورة تهجم واستهزاء ... لأن ذلك كان يمكن لو أننا نجد لهذا الكلام شيئاً من الاحترام في عقولنا ، أو قدرأ من الاعتبار في تقديرنا .. فلندعه يمضي كما يمضي صوت النائحة في جوف الصحراء . ولننظر في صرخة أخرى من تلك الصرخات المجنونة ... فما أكثر تلك الأصوات التي تنطلق من صدور محنقة ، حاقدة ، على الإسلام . وعلى نبي الإسلام .

يقول د ثيوفانيز ، المتوفى سنة ٨١٧ م في صدد انتشار الإسلام :
وهكذا انتشر الخبر - خبر محمد - من النساء - يقصد خديجة - إلى الرجال ،
فبلغ أولاً أبا بكر الذي جعله فيما بعد خليفة بعده !

« واتى الأمر بأن استطاعت شيمته أو قل فرقة المارقة أن تحصل بالقوة أو قل بالحرب على السيادة على منطقة يثرب ، وذلك بعد أن قضى في البداية عشر سنوات ينشر دعوته سرا ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حرباً ، واتى الأمر إلى إعلانها صريحة ، وحكم البلاد تسع سنوات ١١

وكان يعلم أنصاره بأن من قتل عدوه أو قتله عدوه فهو داخل الجنة ١١
وكان يصف الجنة بأنها موطن سرور جسدي ، وشرب ونخر ، وعناق للنساء وأن بها أنهاراً من نخر ، ومن عسل ولبن ، وأن هناك نساء شير اللواتي



لهم اليوم عناقين مديد دائم ، وله سرور مقيم ، (١) .
وأغرب ما في هذا القول - وكله غريب - أن تقوم فرقة مارقة بإقامة دولة
مترامية الأطراف ؛ وأن تقيم حضارة عريقة راسخة تنفذ شعاعاتها القرية في ذلك
الظلام المطبق الذي كان يخيم على أوروبا ، فيفتح لها معالم الطريق إلى الخروج من
ظلمات العصور الوسطى إلى عصر المدنية الحديثة ... فإن القوة العاشمة لا يمكن
أن تقيم بناء قويا متاسكا يبقى على الزمن بعد أن تزايله تلك القوة ؛ وتمتدح على عنه ...
وقد بقي الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، يزداد على الأيام أنصاره ؛ وتنفسح
في العالم رقعته ، وسيدبق هذا الدين أبد الدهر مصدر هدى ، وإشعاع علم ومعرفة ،
لكل عاقل رشيد .

ولانقذ عند تلك المقررات الباطلة التي يدعيها هذا المدعى عن الدوافع التي
كانت تدفع المسلمين إلى الاستشهاد في سبيل الله . وإعزاز دين الله ، ونصرة نبيه ، .
فإن هذا الرجل - شأنه شأن صاحبه من قبل - يستملى قلبه من صادر محموم ؛
وقب مريض ! فلندعه إلى محموم آخر في هذا الصف الطويل ، عن يهودن هذيان
الحى من صدور تغلى حقدآ على الإسلام وعلى نبي الإسلام !
يقول وليم الطرابلسي المتوفى سنة ١٢٧٣ م في رسالة له عن حالة العرب
والنبي محمد ، وشريعتهم ، وعقيدتهم :

« إن العرب يمتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية إلى النبي ! ثم صاغ
المؤمنون ما كان ينطق به كتاباً . »

ثم يعلق على هذا الذي يمتقده العرب حسب رأيه فيقول : « إن للكاتب إليك
على ذلك رأياً آخر فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا
القديمة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه ... فلما تبينوا أن الرجل الذي نيط
به العمل (٢) لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل - طلبوا إلى
اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدهم !

(١) حضارة الإسلام ص ٩٨

(٢) لعله يقصد بهذا الرجل زيد بن ثابت الذي جعله أبو بكر على رأس تلك الجماعة التي
وكل إليها جمع القرآن ، وقد كان مجموعاً عند كتاب الوحي وغيرهم ، كما كان محفوظاً في الصدور .

وهنا تبدو للرجل أن الفرصة سانحة بعد أن اختلق لها هذه الفرية بإدخال جماعة من أسلموا من اليهود والنصارى في عملية جمع القرآن - فيقول :

« وعند ذلك رأى هؤلاء - أي الذين أسلموا من اليهود والنصارى - من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد ، وأن يمزجوها بالكتاب كما اتفق (١١) . وبذلك أصبح الكتاب على قدر عظيم من الروق والجمال المنقول من الكتب المنزلة ، ما بين مسيحية ويهودية أما الجانب الإسلامي الأصيل فليس إلا تشويهاً وتحريفاً ٩١ . » (١)

وشخصية القرآن التاريخية - إن ساغ هذا التعبير - شخصية لامراء فيها ، ولا اختلاف عليها بين المسلمين ، وخصوصاً المسلمين ؛ فهي أكبر من أن يحجبها هذا اللغو ، وهي على الصحة والسلامة بحيث تقبل كل ميكروب خبيث يدخل عليها .

وجميع الذين تعرضوا لدراسة تاريخ القرآن من علماء الغرب والذين يعتمد عليهم ، ويؤخذ برأيهم - لا ينكرون هذه الحقيقة ؛ وهي أن القرآن قد جاء به « محمد » ، وأن الجمع الذي قام به أبو بكر ؛ ثم عثمان من بعده ، لم يكن إلا نقلاً له من تلك الوثائق الكثيرة ، التي كانت بأيدي كتاب الوحي ، وعند كثير من الصحابة وغيرهم ؛ وهي مع كثرتها كانت جميعها على الصحة والسلامة الكاملة ، يشهد بعضها لبعض ، ويزكي بعضها بعضاً . وذلك بالإضافة إلى شهادة الحفظ للقرآن كله ، عند كثير من القراء ، من صحابة رسول الله . .

من أجل هذا لم يجرؤ عالم من علماء الغرب أن يقف لهذه الحقيقة موقف المناقض لها ، أو المشوش عليها . وإنما الذي كان من مقولاتهم هنا : أن هذا القرآن من كلام « محمد » ، وليس وحى السماء ، وربما قالوا إنه استمد مصادر هذا القرآن من ورقة بن نوفل أو غيره من الأحرار والرهبان .. ولكنه على أي حال يضاف إلى « محمد » وينسب إليه !

ولم يقل أحد قبل هذا الرجل أو بعده أن جماعة ممن أسلموا من اليهود

والنصارى شاركوها في وضع القرآن أو جمعه . . ولم يقل أحد كذلك بأن
فصلا ، أو فصولا من التوراة - في عهدها القديم والجديد - قد أضيف
إلى القرآن عند الجمع .

لم يقل أحد بهذا القول الرخيص ، لأنه قول يفضح صاحبه ، ويعرّيه من
كل سمة من سمات العلم . فإن الذين شاركوها في عملية جمع القرآن في عهد أبي بكر
وفي عهد عثمان - معروفون معرفة وثيقة في التاريخ ، لا اختلاف عليها . وأغرب
ما في هذا أن أصحاب هذه الدعوى من الغربيين يستندون إلى أقوال كنفار قریش
في أول الدعوة الإسلامية ، حين أعجزهم أمر القرآن ، فلم يقبلوا أن يكون وحياً
من السماء نزل على محمد . . ثم راحوا يلقنون أقوالاً في المصدر الذي يرجع إليه
هذا الكلام العجيب الذين يسههم و محمد ، وإياه . . فقالوا تلك المقولات التي
حكاه القرآن عنهم في معرض السخرية بهم والتسخيف لآراءهم فيما نزل من الحق
يقول الله تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . . لو ما تأتينا
بالملائكة إن كنت من الصادقين ، (١) . . ويقول سبحانه : « وقال الذين كفروا
إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعاناه عليه قوم آخرون . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً ،
وقالوا أساطير الأولين اكتبها فبى تملى عليه بكرة وأصيلاً . . قل أنزله الذي يعلم
السر في السموات والأرض لأنه كان غفورا رحيماً ، (٢) . . فهذه أقوال أخذها
القرآن من أفواه أصحابها ورددها عليهم في حينها . . فسكيف تصبغ اليوم حجة
على القرآن نفسه ؟ ثم هذا هو القرآن ، وتلك هي التوراة !

فما الفصول التي أضيفت إلى القرآن ؟ وما مكانها منه ؟

وهل يخفى ما بين أسلوب القرآن ، وترجمات التوراة من تفاوت واختلاف ؟

وهل يستطيع بشر أن يدخل على القرآن بآية واحدة ثم يجد لهذه الآية مكاناً
مطابقاً فيه ؟

(١) سورة الحجر آية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦ .

إن القرآن نسيج وحده في الفصاحة والبلاغة ، وإن أي كلمة غريبة تدخل عليه
تحتتمق وتموت ، ولا تجد لها بقاء فيه !

ولو كان في مقدور أحد أن يدخل على القرآن بشيء ليس منه ، وأن يفسد
معامله عند المسلمين لكان ذلك إلى قریش، وإلى غيرها من فصحاء العرب وبلغائهم
الذين حاربوا الإسلام حرباً مريرة طويلة ، أرخصوا فيها نفوسهم ، واستباحوا
من أجلها كل شيء .. ومع هذا فقد عرفوا أن هذا الباب موصد بينهم وبين
القرآن ، وأن كلامهم مهما يكن من بلاغة وبيان ؛ فهو بمنزلة الحصى من كريم
الجواهر وقيمها .

فكيف يصح هؤلاء الدخلاء على العرب والعربية ، الداخلين في الإسلام من
اليهود والنصارى أن يترجموا فصولاً من التوراة ، ثم يدخلوها على القرآن ، ثم
تجد مكانها آمناً مطمئناً فيه ؟

وهذه هي التوراة ، وهذا هو القرآن مرة أخرى !

اقرأ فصلاً أو فصولاً من التوراة ، ثم اقرأ سورة ، أو سوراً من القرآن
فإنك تجد طعماً غير الطعم ، ومذاقاً غير المذاق ، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذلك
أو ذلك بهذا ، وإن تزاوج بينهما وجدت أمراً غير مستقيم لك ولا مطاوع
لصنيعك ... كمن يؤولف بين أنعام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب ... أنعام مختلفة
المقامات ، والاتجاهات فانه على فرض أن التوراة — بعهديهما القديم والجديد —
هي التوراة التي نزلت على موسى ، وهذا ما تنقضه شواهد التاريخ ، ويشهد به
سعال التوراة ذاتها — على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة
واحدة ، فإن أسلوب الأداء مختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامية الدارجة ،
ولغة الشعر في أعلى طبقاته أو هو أشد .

فالذي يقول : إن فصولاً من التوراة قد أضيفت إلى القرآن فزادته رونقاً
وجمالاً ليس أكثر تجنياً على الحقيقة ، ولا أشد نكراً في القول من يقول : إن
فصولاً من قصة أبي زيد الهلالي أو سيف بن ذي يزن قد أدخلها شوقي كما هي

بجالها في روايته : « عنبرة ، أو « مجنون ليلي » ١١ وشتان بين الحالين ..
هناك وهناك .

وشبيه بهذا القول — من حيث الإسفاف والسقوط في مجال البحث العلمي —
مايقوله المؤرخ البيزنطي « ثيوفانيز » الذي نقلنا بعض آرائه آنفاً ...

فقد ألف هذا المؤرخ كتاباً سماه « حياة النبي » .. وكان مرجعاً هاماً
— كما يقول .. « جرونيباوم » لمن تلاه من الكتاب الغربيين !

يقول هذا المؤرخ : « ولما كان محمد ، المذكور فقيراً ، وقيماً ، فانه قرر أن
يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قرباه ، هي خديجة ، بأن جعل نفسه وكيلا لها ،
لتقاء أجرة يتناولها ، يتولى شئون إبلها ، ويقوم بأشغالها في مصر (١) وفلسطين ١١
« ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة — وكانت أيماً — بفضل طرائقه
الصريحة . فاتخذها زوجاً له ، وبذلك حصل على إبلها ، وسائر ممتلكاتها » ١١
وندع هذا التلفيق من القول فيما ينسب إلى النبي من تطلعه إلى المال ، ومن
استيلائه على إبل السيدة خديجة . وسائر ممتلكاتها ، ويكفي أن يخصص خصوم
الإسلام الذين ينظرون هذه النظرة إلى « محمد » — يكفي أن يخصصوا تركة هذا
النبي ، وما خلفه وراءه لذريته وأهله ١ لقد توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه
مرهونة عند يهودى في حاجة أهله ١ . أفهكذا شأن من في نفسه أثاره لحب المال
والثراء ؟ أفهذه تركة من تعاق قلبه بحب المال وجمعه ؛ وقد فتح الله عليه البلاد ،
وأفأه إليه الخير الوفير من فيثها ؟

قلنا : ندع هذا .

فلندعه إلى قول آخر لهذا المؤرخ ، بعد هذا القول .

يقول :

« وقد اختلط — أى محمد — فى فلسطين باليهود والمسيحيين . وبواسطتهم

حصل على بعض الكتب المنزلة ١١

(١) لم يكن للرسول الكريم رحلة إلى خارج الجزيرة العربية غير رحلته إلى الشام .. مرة
وهو غلام مع عمه أبى طالب ، ومرة في نافلة قريش في تجارة للسيدة خديجة ، ولم يكن للمصر
هذا الشرف برحلة النبي إليها في تجارة أو غير تجارة .

ثم ماذا ؟

« وأصيب كذلك بمرض عصبي ١١ »

« فلما علمت زوجته بأمره حز في نفسها - وهي العريضة الأصل - أن قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير . بل هو أيضاً مريض ١١ »

« فراح يهدئها بقوله : إنني تلم في رؤية ملك من الملائكة اسمه « جبريل » ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه ؛ فإني تخور قواي ، وأقع على الأرض ! »

« وكان يقيم بتلك الدواحي راهب قد نفى لسكفره . واتخذته صديقاً (١) ، فأخبرته خديجة بكل شيء ، كما أبلغته اسم الملاك . »

« وأراد الراهب أن يقنعها تماماً ؛ فقال لها : لقد قال الصدق ، فما ذلك الملاك إلا التاموس الذي يرسل إلى النبيين كافة (٢) . »

تتمتان هنا أراد هذا المؤرخ - الذي لم يحترم حرمة التاريخ - أن يرى بهما نبي الإسلام ؛ وذلك لينفذ إلى غرض آخر خبيث ؛ وهو أن القرآن إنما هو هذيان تفيض به نفس محمد ؛ ويتحرك به لسانه في نوبات الصرع ؛ وأن هذا الهذيان إنما هو من أخلاط ما وقع عليه في السكب المنزلة التي استجلبها معه من فلسطين .

ولم يجيء هذا المؤرخ بجديد ؛ بل أخذ هذا القول عن كفار قريش ؛ واتهامهم لرسول الله بأنه ساحر أو مجنون ، وبقولهم « إنما يعلمه بشر ! » .

وقد سجل القرآن الكريم هذه المزاعم الباطلة ، وكبت قائليها .. ثم لم يمض إلا زمن قليل حتى زالت المشاورة عن قلوب كثير منهم ، فاهتموا إلى الحق ، ودخلوا في دين الله !

(١) يشير إلى ورقة بن نوفل ، وهو قرشي ، يمت إلى السيدة خديجة بقرابة قريبة .

(٢) حضارة الإسلام ص ٦٧



وإذ يذكر القرآن الكريم تلك المزاعم الباطلة ، فإنما ليسجل على أصحابها هذا الادعاء ، ثم ليفضحها ، ويفضحهم معه ، على مدى الأزمان المتطاولة !

فإذا حكى القرآن قولهم . « إن تَبِعُونِ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ^(١) » وقولهم :
يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٍ ^(٢) » رد عليهم بقوله : « ن ،
وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرُ
مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ^(٣) » . وليس بعد هذا مقام يرتقى إليه بشر !
وإذا ذكر القرآن قولهم : وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى
عليه بكرة وأصيلا . ^(٤) ، رد عليهم بعدها بقوله تعالى : « قل أنزله الذي يعلم
السر في السموات والأرض .. لأنه كان غفورا رحيما ^(٥) » ، وإذا قالوا : « إنما
يعلمه بشر ^(٦) » ، رد القرآن بقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا
لسان عربي مبين ^(٧) » .

ومع هذا فكيف يحتمل التاريخ - إن احتملت الحياة - رجلا مجنونا ،
يخلط القول ، ويهذي به ؟ ثم كيف تقبل الأجيال المتتابعة هذيان مجنون ، وشريرة
مجنول ؟ أهذا يقع في الحياة ، وفي الناس من يعقل ، ويعي ؟ اللهم إن ذلك
لا يكون حتى تنقلب الأوضاع في الحياة ، ويصبح المجانين على رأس القافلة !
فهل أنقلبت أوضاع الحياة حقاً ؟

نعم !!

ويقولها صريحة أحد مسيحي القرن العاشر الميلادي .. إذ يقول :

« عندما شاهد ذلك الراهب الفاسق ^(٨) سذاجة القوم رأى أن بمنحهم
عقيدة وشريرة على غرار مذهب « آريوس » وغيره من ألوان الكفر والزندقة
التي تحرم من أجلها !

- (١) سورة الإسراء آية ٤٧ (٢) سورة الحجر آية ٦ (٣) سورة القلم آية ٤١
(٤) سورة الفرقان آية ٥ (٥) سورة الفرقان آية ٦ (٦) النحل ١٠٣
(٧) سورة النحل آية ١٠٣

(٨) هناك راهبان التقيا بهما النبي ، بجيرا « الراهب » في رحلته إلى الشام وقد أم به ساعة
أو بعض ساعة ، وورقة بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة ، وكان يقم بمكة ، ولعله الأصغر هنا

« فراح يسطر كتابا هو الذي يسمونه القرآن ، وهو شريعة الله ، ناثراً فيه كل ما أودع من مروق . . فعمل فيه أن الله لا كلمة ، ولا روح ، وأن المسيح لم يكن رباً ، وإنما هو في كبير وحسب . .

« وجمع فيه - أي القرآن - شتات قدر ضخم من أمثال هذه الترهات ؛ وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه « محمد » ، وأبلغ أولئك البلاء أن ذلك الكتاب أنزل على « محمد » من السماء ، حيث كان في حفظ « جبريل » الملك ، فصدقوه بما قال ، وبذلك مكن الراهب لذلك القانون الجديد ! » (١) .

من الخير ألا نقف عند هذا القول ، ولا نلتفت إليه . . ! فقد وقفنا أكثر مما ينبغي عند هذه المقولات الهزيلة المريضة . . التي ربما ينضح على النفس بعض صورها المنكسرة ، كما يقع ذلك لمن يكثر مخالطة المجانين ، ويستمتع إليهم . . فلقد كادت تتمدس إلى خواطر مضللة من هذا الخلط العجيب من القول . . وكدت أسأل نفسي . وماذا لو وقع هذا ؟ ألا يجوز أن يؤثر الأستاذ تلميذه ويقدمه على نفسه ، فيعطيه ثمرة عقله ، وعصارة قلبه ؟ وهل اختفى الإيثار من هذه الدنيا ؟ لا ، إن الدنيا بخير !

وما أن صحوت من هذا الكابوس المجنون حتى انتزعت نفسي اقتزاعاً من هذه الهوة المظلمة ، وأسستها إلى الواقع المحسوس !

إن « ورقة بن نوفل » ، قدم مات بعد قليل من بعثة النبي . . لم يشهد أحداث الدعوة ، ولم يدرك وقائعها ، فكيف يضمن القرآن الذي وضعه بين يدي « محمد » — كيف يضمنه أحداثاً لم تقع إلا بعد أن مات وصار تراباً في التراب ؟ كيف يذكر هذه الأحداث التي كان ينزل بها الوحي في حينها محددة الزمان والمسكان . .

فهذه غزوات النبي مثلاً . بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وحنين . . إنها مشاهد حية وقعت بين النبي والمسلمين من جهة ، وبين أعداء النبي والاسلام من جهة ، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر ، بعد أن ذكرها القرآن في حينها ،

(١) حضارة الإسلام ص ٦٨ .



وشرع للمسلمين منها أحكاماً ، وكشف لهم عن كثير من خفايا هذه المواقع وما أصاب الحجار بين من نصر أو هزيمه .

فهل كان قس بن ساعدة شاهد هذه الممارك في بدر ، وأحد ، والأحزاب وحنين ؟ لقد طواه الموت — كما قلنا — قبل ذلك بزمن غير قليل . فكيف إذن يذكرها في القرآن الذي وضعه لمحمد ؟

ثم هذه الأحداث التي وقعت من اليهود في المدينة ، والمكائد التي كادوا بها للنبي وللمسلمين . . لقد ذكر القرآن بشيء غير قليل من التفاصيل ما كان من اليهود ، وما نزل بهم من عقاب . . فهل شهد « ورقة » هذه الأحداث ؟ وهل شهد « ورقة » حديث الإفك ؟ وهل شهد واقعة ابن أم مكتوم وإعراض النبي عنه ؟ إن القرآن قد نزل متجماً في ثلاث وعشرين سنة ، فجعل تشريعاته وأحكامه في مواجهة الأحداث التي وقعت خلال هذه المدة ليرى الناس الشواهد العملية لأحكام الشريعة ، فيكون ذلك شرحاً للنص ، وتطبيقاً له ، وشاهداً به . . وفي هذا ما فيه من تمكين لأحكام الشريعة في قلوب الناس وعقولهم . . ١ .

وأكثر من هذا ، فإن الكفار والمشركين كانوا يأخذون على النبي أنه لم يجهمم بالقرآن جملة واحدة ، كما كانت الكتب السماوية تنزل من قبل ، فذكر القرآن قولهم هذا في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا تنزل عليه القرآن جملة واحدة ١١ ، (١) ثم رد عليهم بقوله تعالى . « كذلك . . لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (٢) ١١ فكيف يتفق هذا الذي كانت تطلبه الكفار من النبي وهو أن يجيهمم بالقرآن جملة واحدة ، وهو يجيهمم به آية آية ، أو سورة سورة — كيف يتفق هذا مع القول بأنه تناول القرآن مرة واحدة من « ورقة بن نوفل » ؟

وصدق رسول الله إذ يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! فلو كان هناك بعض الحياء في تلك الوجوه التي لا يخذش حياءها شيء لما بلغت الجراة إلى حد التجدي الصريح للرقماتى السافرة ، التي يشهداها الناس ، ويرونها رأى العين !

مع الجاهدين والمنصفين :

على أن من العزاء للنفس ، من هذا السخف الذي يصادفه المرء وهو يقبل آراء الدارسين لشخصية الرسول من علماء الغرب - أن يجد في بعض هذه الدراسات عمقا ، وجدا ، ومقصداً إلى الحق ، وإن كانت تظهر في أحوال كثيرة بعض النقصات المسمومة التي تعبر عن أحقاد قديمة متوارثة للإسلام ولنبي الإسلام - كذلك نجد دراسات كثيرة من بين هذه الدراسات قد تحرر أصحابها تماماً من العصبية والهوى ، فوضعوا النبي بمكانه اللائق به ، وأحلوا الإسلام بالمنزلة الجدير بها .

فإذا خرجنا من هذا الجو الخانق ، جو السكرامية ، والحقد ، والسكذب ، والبهتان ، إلى هذا الجو النقي ، انطلقنا فيه لحظات قصيرة نبلغ بها ما نشاء ، حيث لا نقف عند تلك الحفر والأخاديد ، التي كانت تلتقنا في جوارتنا مع تلك الجماعة الضالة المضللة !

لهذا فإننا سنكتفي بالنقاط بعض الثمرات الطيبة من آراء أولئك العلماء الممحصين المنصفين ، دون أن نعرض لها بالتعليق أو الشرح . فهي في ذاتها في غنى عن التعليق والشرح !

لا مارتين :

يقول « لامارتين » شاعر أوربا العظيم ، في كلمات قليلة بليغة ، مشحونة بعاطفه مشبوبة من الإجلال والإكبار لنبي الإسلام ، ولما أقام في الأرض من معالم الحق والخير . .

يقول :

« إنه - أي محمد - نبي أصغر من إله ، وأكبر من إنسان » !

وهذا على ما فيه من حق ، فإن فيه من المغالاة ما لا يقول به مسلم في حق النبي . فإنه مهما يكن شأن النبي من السمو والكمال ، فإنه لا يقاس إلى جانب كمال الله وعظمته ، ولصكن الرجل شاعر بهج به خيال الشعراء ! !



ويقول الفيلسوف الألماني العظيم « جيته » ، وهو يستعرض الدين الإسلامي بوصفه قوة مهذبة ، ومؤدبة .

يقول مخاطباً « أكرمان » : أنت ترى أن هذا التعليم لا يخفق أبداً . . ونحن — بكل مالنا من نظم — لا نستطيع ، بل أقول بوجه عام — إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا : (١) .

فهذا قول فيلسوف غزا العالم بفلسفته ، ولقح العقل الحديث بأرائه :

ول ديورانت :

وهو صاحب الموسوعة التاريخية « قصة الحضارة في العالم » وقد كان موقفه في هذا الأفق العالی الذي يطل منه على البشرية كلها — كان ذلك الموقف باعثاله على أن يقتل في نفسه كثيراً من دواعي العصبية والهوى ، فجاءت نظراته وأحكامه قريبة من مواقع الحق والعدل . . وحسب السيرة النبوية أن تجد من يقف منها موقفاً محايداً : فإنه عندئذ سيمود بمختم عظيم من المثاليات التي يرفعها للناس ، منارات للهدى ، ورايات للحق والعدل .

يقول « ول ديورانت » :

« وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس — قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي ، والأخلاقي ، للشعب ألقته به في دياجير الهمجية وحرارة الجو ، وجذب الصحراء . . وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدان فيه أي مصاح آخر في التاريخ كله .

« وقل أن نجد لإنسانا غيره حقيق كل ما كان يحمل به (٢) .

« وقد وصل إلى ما كان يبغيه عن طريق الدين . . ولم يكن ذلك لأنه

(١) تجديد التفكير الديني الإسلامي ص ١٦ .

(٢) لم يكن النبي من أصحاب الأحلام ، وإنما كان مبعوث ، يحمل رسالة سماوية ، ومطلوب منه أن يؤديها على أكمل وجه .

هو نفسه شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه ! فلقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم ، وآمالهم ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم ؟

« وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جرداء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عدديهما ، متفرقة كثرها . . . وكانت عند وفاته أمة موحدة متجانسة . . . وقد كبح جماح التعصب والخرافات . . . وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم : ديناً سهلاً واضحاً ، وصرحاً خلقياً قوامه البساطة والهمة القومية !

« واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة . وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم (١) . »

هكذا يقول في الاسلام ، وفي نبي الاسلام ، كل منصف : مسلماً كان أو غير مسلم ، لأن ذلك هو الحق الذي لا يتغير وجهه أبداً ، إذا استقبلته قلوب سليمة ، وعقول واعية مستبصرة !

ويقول : ول ديورانت ، أيضاً عن حياة حياة النبي محمد : «

« وكانت حياة محمد ، فيما عدا النساء والسلطان (٢) غاية في البساطة . . . فقد كانت المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن . . . لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً ؛ ولا يزيد ارتفاعها عن ثمانية أقدام : وسقفها من جريد النخل ؛ وأبوابها من شعر المعز : أو وبر الجمل . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشيشة : تفرش على الأرض ؛ ووسادة من ليف .

(١) قصة الحضارة المجلد الثاني - الجزء الرابع ص ٤٧

(٢) حياة النبي كلها نسق واحد من البساطة والاعتدال ، ونظرة الفريين هموماً إلى النبي وإلى الشريعة الإسلامية في شأن تعدد الزوجات نظرة خاطئة ، وقد عرضنا لها في فصل خاص من هذا الكتاب . . . أما السلطان الذي يستنبه المؤرخ من البساطة التي كانت عليها حياة النبي فإنه سلطان روحى ، لا يدخل للقوة المادية ، ولا المظاهر الدنيوية فيه .



و كثيرًا ما كان يشاهده وهو يخفض ذمليه : ويرقع ثوبه ، وينفخ في النار ؛
أو يكذب أرض الدار ؛ أو يجلب عذرة البيت في فئاته ؛ ويتتاع طعامه من
السوق ؛ وكان يأكل طعامه بيده ؛ ويلحق أصابعه ؛
و كان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير : وكان اللبن وعسل النحل كل
ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان . . . (١) .

ثم يقول أيضا :

و لم يتعاط الخمر التي حرمها هو (٢) على غيره؟ . . . وكان لطيفاً مع العظام ؛
بشوشاً في وجه الضعفاء . . . عظيماً مهيباً أمام المتعاطمين المتكبرين . . . متسامحاً
مع أعرانه — ومع الناس جميعاً — . . . يشترك في تشييع كل جنازة تمر به . . .
ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . . . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم
الخاص . . . يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ؛ ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له
بعمل يحسد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به بنفسه .

و لم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال ؛ رغم ما كان يرد
إليه من الفداء وغيره من الموارد . . . أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل
من القليل ؛

و كان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى
أقصى حد . . . لا يطبق الروائح السكرية ، ولا صلصلة الأجراس ، ولا الأصوات
العالية . . .

و ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعائه تصطبغ
بالصبغة الدينية الرهيبة (٣) .

(١) أهذه حياة أصحاب السلطان ؟ وكيف يقوم سلطان في صورة حياة متواضعة كهذه
الحياة ؟ إن يكن سلطان فهو سلطان روحى كما قلنا ، لا يفرضه صاحبه على الناس بمظاهر الترف ،
ولا قوة الجند ، وإنما يفرضه أخلاقه ، وما يشع منها .
(٢) إن الذى حرم الخمر هو الله فى كتابه الكريم ، وإن كان النبى قد حرمها على نفسه
بفطرته قبل البعثة .

(٣) قصة الحضارة جزء ٢ / المجلد الرابع ص ٤٤ .

ستائل لين بول :

يقول هذا العالم الفيلسوف عن القرآن :

« إن أسلوب القرآن في كل سورة من سورته أسلوب أبي ، يفيض عاطفة وحياة .

« إن الألفاظ ألفاظ رجل أخلص للدعوة ، وإنما لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفي ثناياها تلك الجذوة التي ألقيت بها لأنها ألفاظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقا ، وهذا القلب قلب رجل كان له أخطر الشأن في تاريخ الإنسانية ، (١) .

فوستيل دو كولاوتر :

يقول هذا المؤرخ الفرنسي ، في الفصل الثاني من كتابه « التمدن القديم ، :
« لم يتداخل المسيح بأى وجه من الوجوه في أمور القضاء ، والتملك والإرث ، وما يخص المدنية من الأحكام ، ليعلم العالم بأن ابتداء المدنية الجديدة والحياة الجديدة ، والتربية الصحيحة ، سيكون من مدينة علم الإسلام ، الذي سيجعل العالم أهلا للعلم والمدنية .

دار اللهى سنت هيلر :

يقول في كتابه ترجمة القرآن : وهو يتحدث عن حال قومه الأوربيين :
« لقد أصلحت مفسدات أمرائنا وأشرافنا في القرون الوسطى ، بمباشرة المسلمين ، وتقاليدهم ، واقتبس في أسلافنا من المسلمين الآداب الحسنة ، والأخلاق والصفات الجميلة ، والسجايا المحمودة ، (٢) .

جوسمان لوبون :

يقول هذا المؤرخ الكبير :

« لقد أثر التمدن الإسلامى على العالم تأثيراً محيراً للعقول ، ونفوذ الأخلاق

(١) محمد رسول الله - تأليف إيبين دينيه ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .
(٢) ونقول : لقد أصبحنا نأخذ عن الغرب ، كل خفاق مرذول ، وكل صفة ذميمة .
فهل لنا من عودة إلى منابع ديننا الحنيف ؟

الإسلامية وتربيتها قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية التي كانت تغلق راحة
السلطة الروحية ، في طريق التمدن . ولقد فتحت أفكار المسلمين الجبارة ، أبواب
العلوم والفنون والفلسفة ، التي كان الأوروبيون في جهل عنها ، وكان المسلمون
أساتذتنا طوال ستمائة سنة .

كارليل :

ويقول الشاعر والأديب العظيم كارليل :

« إن القرآن هو التشريع الأساسي ، لكل زمان ومكان ، ومعدن القضاء ،
وقوانينه المتبعة في شئون الحياة ، لتهدى وتنير الطريق لاتباعه ، فيجب على كل
عاقل أن يفكر في آياته الحكيمية ، ليخلص بنوره من ظلمات الحياة . »

وليم هيود :

يقول هذا العالم الكبير في كتابه المسمى « حياة محمد » .

« إن القرآن ممتلئ بأدلة من الكائنات المحسوسة ، والدلائل المتعلقة على
وجود الله ، وأنه هو الملك القدوس ، وأنه سيجزى المرء بعمله إن خيراً فخير ،
وإن شراً فشر ، وإن اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين ،
وإن الواجب على كل مكلف أن يعبد الله تعالى ، وهي — أى العبادة —
علة سعادته . »

صبروت اصهوث :

ويقول هذا العالم في كتابه « حياة محمد » أيضاً :

« إن محمداً لمؤسس أمة وعلمه هداية . وهذا أمر لم يوجد له سبق من
قبل ، وإن يوجد وهو أمي ، لا يعرف القراءة والكتابة ، وقد جاء بكتاب
مشتمل على دستور الشرائع والعبادات وأخبار الأمم ، وهو نقي العبارة من
الالفاظ المستهجنة ، باهر الحكمة والحقائق ، وهو معجزة له ، والحق يقال :
لأنه معجزة . »

وهذا بعض ما تنطق به أفواه قوم قد رضعوا من صغرتهم كراهية الإسلام،
وامتلاتت رؤسهم بالمفتريات السكثيرة عليه . . . ومع هذا فقد نفذوا ببصائرهم
إلى شيء من حقائق الإسلام، فبددت ما كان قد لفها من ظلام، فشهدت شهادة
الحق في رسول الله . وفي كتاب الله .

ثم ما قولنا نحن في رسول الله ، وفي كتاب الله ؟ ثم ما مدى ما تطوله أيدينا
من هذا الخير العظيم المدود لنا ؟

• • •

ونقف عندا القدر من الآراء المنصفة للسيرة النبوية ، وللرسالة التي حملها
النبي إلى الناس . . .

وقد تركنا كثيراً من المفهومات الخاطئة لطبيعة النبوة ، وللرسالة التي
وقع فيها كثير من هؤلاء العلماء ، على الرغم ما كان عندهم من استعداد طيب -
حسب رأينا فيهم - للبحث عن الحقيقة في غير هوى أو عصبية . . . ذلك أننا
لأنحاسهم هنا على عقيدتهم الدينية ، فهم - أى أكثرهم - لا يعتمدون في الأديان
جميعاً ولا يؤمنون بما وراء المادة . . .

ونظرتهم إلى الأنبياء فظرة قائمة على أنهم أصحاب دعوات إصلاحية نابعة
من أنفسهم وليس بينهم وبين العالم العلوى صلة . . . وكذلك كانت نظرتهم
إلى محمد ، يرونه مصححاً اجتماعياً عظيماً ؛ وإنساناً على مستوى عال من
الخلق والعقل . . .

وإذا كنا لانسلم لهم بهذا ، كما لا يسلم لهم الواقع التاريخي ؛ ولا يسمح به
منطق الحياة التي دخل عليها الأنبياء برسالاتهم - فإننا نحمد لهم أنهم دفعوا كثيراً
من هذه التهم الباطلة التي ولدها الحقد والكرهية في تلك القلوب المريضة التي
تعمل للإسلام ولأهله بعضة موروثة - فقد أكد هؤلاء الكتاب الأحرار الحقائق التي
المقررة عن نبي الإسلام ؛ وعن رسالته ، ونفروا عن حمن نبوته تلك الأكاذيب
الزائفة التي كانت تزحف عليها من متعصبة الصليبيين من السكينة والحكام ، والعلماء . . .

فقالوا عن محمد ، ما قال التاريخ فيه ؛ وهو أنه أعظم إنسان عرفته الحياة ؛ وأن شريعته أكل شريعة ظهرت بين الناس .

ويكفي أن نعيد هنا قولة « لامارتين » الشاعر الأوربي الكبير عن النبي الكريم ... يقول : « إنه نبي أصغر من إله ؛ وأكبر من إنسان ! »

دعوات الحق ؛ ونزوات الباطل :

وإذ كان لكفار قريش أن يلقوا النبي بالكذيب ، ويرمونه بالثبم ، ويقولون عنه فيما يقولون : إنه شاعر ؛ وإنه لمجنون ؛ أو إنه مدح كذاب - إذا كان لهم أن يقولوا هذا في النبي ؛ وأن يضلوا عن وجه الحق فيه أول ما يلقاهم بأمره ؛ وأنه تأخذهم الدهشة لهذا الأمر فيكذبون إنسانا عرف بينهم بالصدق ؛ ويتممون رجلا لقبوه بالأمين ، ولم يحاولوا أن يربطوا بين حاضره وماضيه ، وأن يوازنوا بين الحق الذي يدعوهم إليه والباطل الذي هم فيه - فنقول إذا كان لقريش أن تقف هذا الموقف من النبي أول الأمر ؛ وقبل أن تثبت الأيام سلامة موقفه ، وصدق دعواه - فإنه لا ينبغي لأحد له مسكة من عقل ؛ أو إثارة من وعي أن يمارى في رسالة محمد ، الآن وأن يشك في صدقه ، وفي نبوته ... !

فلقد انفسح الزمن هذه الرسالة ، وعاشت في الحياة قرونا متتابعة ، ونزلت من قلوب الملايين من الناس وعقولهم منزلة الإيمان ، فعاشوا فيها ، وخضعوا لها وجرت حياتهم عليها ... ثم هي مع هذا تزداد على الأيام ألقاً ، وإشراقاً ، وتظهر في الأحداث والنكبات أنها الملاذ الذي يلاذ به ، والملاجئ الذي يلجأ إليه ... ويختبر الناس أفراداً وجماعات وأماً وجودها فيهم ، وحالها معهم « فيجدون أمراً واقعاً لا يتخلف أبداً ، على اختلاف الأزمان والأوطان - يجدون أنهم إذا كانوا قائلين على هدى هذه الشريعة ، متصلين بها ، آخذين بأمرها ونهيها - استقام أمرهم ، وعلا في الحياة شأنهم ، وكانوا في الناس هامة وشامة ! .

وأنهم إذا بعدوا عن هذه الشريعة ، وفارقوا حماها عصفت بهم الأحداث ؛ وركبتهم الذلة ، وتخطفتهم الناس ! .

فهم - عرف أصحاب الشريعة هذا ، وآمنوا عن تجربة وخبرة ، وعن شهادة التاريخ القريب والبعيد أنهم بقدر قربهم أو بعدهم من الشريعة الإسلامية يكون حظهم من الحياة ، وتكون مكانتهم بين الأحياء .

ذلك أمر لا يحتاج في الاستبدال عليه إلى علم العلماء ، ولا إلى فلسفة الفلاسفة بقدر ما يحتاج إلى نظرة هاذئة ، وقلب سلم من الحقد ، ليكشف عن مدلوله ، وليشهد شهادة لا ترد بأن الشريعة التي جاء بها محمد هي شريعة سماوية عامة ، جاءت لتكون الحكومة التي يحكم لإليها الناس على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .

إن كفار قريش كانوا أكثر فقهاً وأحد بصرًا ، وأصدق تقديرًا من أولئك العلماء أو أدعياء العلم الذين يشككون في نبوة محمد وفي رسالته التي جاء بها .

لقد دخل المعاندون ، والمكابرون ، والمكذبون من كفار قريش وغيرهم من العرب - دخلوا في دين الله أفواجاً بعد أن لبثوا بضع سنوات يرقبون سير الدعوة ، وسيرة صاحبها ... فلما استبان لهم أنهم في وجه نبوة ، وأنهم مع رسالة سماوية ، ألقوا عن أعينهم غواشي الكبر ، والحمية ، فأنحلت عقدة ألسنتهم وشهدوا أن الرسول حق ، وأن ما جاءهم هو المهدي المنزل من رب العالمين .

فمن عجب أن يلبث هذا الضلال الذي كان محوماً في عقول من كذبوا النبي أول أمره - من عجب أن يلبث هذا الضلال متوارثاً ، يتلقاه الأئلاف عن الأسلاف ..

إن عصر العلم الذي نعيش فيه إنما قام على كشف حقائق الوجود ، وتجلية غوامضها ، كما قام على وضع هذه الحقائق بمكانها اللائق في هناهج الحياة . والشريعة الإسلامية ، ونبي هذه الشريعة أبرز وأوضح ما عرفت الحياة من حقائق .

وشريعة الإسلام ونبي الإسلام يقفان من العلم موقفاً صريحاً واضحاً ؛ كما تقف ظواهر الطبيعة في أجلى صورها ، لا يحجبها كهنوت ؛ ولا يقوم عليهما سدنة ؛ فلذلك ذي بصر ؛ ولكل ذي بصيرة أن تملأ عينيه بهما ؛ وأن يرود بصيرته فيهما ، وليس يضير المعدن الكريم أن تتناوله أيدي الخبراء ؛ وأن تبلوه بمالديها

— ١٠٢ —

من وسائل الاختبار ؛ فإن ذلك التناول ؛ وهذا الابتلاء هو الذي يبين عن حقيقته ؛
ويجلى عن كرم معدنه !!

أما المعادن الرخيصة ؛ أو الزائفة فإنها تنكشف . وينفضح عوارها عند الحك
والاختبار ؟

فمن الجنى المنضوح أن يقول قائل في نبي الإسلام إنه أقام دولته على الخداع
والخيل ، أو نشر دعوته بالقوة والسيف .. فان هذه كلها وسائل زائفة ، لا تناسك
جذورها ، ولا تخضر أعوادها ، ولا ينزغ لها زهر ، ولا ينبع منها ثمر ..

والإسلام قد عمقت في الحياة جذوره ؛ وامتدت وسمتت فروعه ، وفضرت
أعواده ، وتفتحت أكمامه ، وطابت ممارسه وثماره .

وهذا فيصل ما بين الحق والباطل في كل أمر ، وفي كل شأن من شئون
الحياة المادية والروحية على السواء .

الكريم والأصيل من كل شيء يحيا ، ويمتد في الحياة .

والخسيس الدخيل من كل شيء .. دخيل على الحياة . . . أشبه بالسراب
بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئاً .

ولله شوقي ، إذ يقول :

الجهل لا يلد الحياة موته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة ، وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع
الناس فيمكث في الأرض (١) » .

النبي والتمني :

يقول ، كارليل ، في كتابه من الأبطال ، :
أيستطيع رجل مخادع أن يؤسس دولة ؟

(١) سورة الرعد آية ٧١

ويجيب :

• كلا ، وربى !

• إن رجلاً مخادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر ... لأنه إن لم يكن عليماً
بخواص الطوب ، والمونة ، وسائر مواد البناء الأخرى لما استطاع أن يقيم بيتاً ...
وإن يقيم - إذا أقام - إلا أكواما منقضة ، لا يمكن أن تقوم اثني عشر قرناً (١) .
تضم بين جدرانها ما يربو على مئة وثمانين مليوناً (٢) من الناس .. إن بناء المخادع
ينهار لاشك لساعته (٣) .

إن هذا القول الوجيز البليغ هو تليخيص أمين دقيق لقضية الباطل في تلبيسه
بالحق ، وتزييه بزیه . إن البناء الذى يقوم بيد الحق بناء راسخ مكين ، يزداد على
مر الأيام رسوخاً وتمكيناً ، وليس كذلك ما يبني الباطل ، وما يقيم من معالم ...
لأنه بناء متداع ، تسرى فى أوصاله حمى الفناء منذ اليوم الأول الذى يقوم فيه .

يقول « جان جاك روسو ، فى كتابه « العقد الاجتماعى » :

• كل إنسان يستطيع أن ينقش كلمات على حجر ، أو يرشو كاهناً وثلياً ،
أو يدعى اتصالاً سريعاً بأحد الآلهة ، أو أن يدرّب طيراً ليهمس فى أذنه ، أو يجد
وسيلة دينية للتمويه على الناس - إن من لا يستطيع غير ذلك يكون فى وسعه
أن يجمع حوله - صدفة - جماعة من الحمقى ، ولكنه إن ينشئ إمبراطورية
أبداً .. وسرعان ما يخفى عمله الجاهل معه !

• إن المظاهر الجوفاء لا تنتج سوى صلات عابرة ، وليس هناك ما يكفل لها

الدوام سوى الحكمة !

إن الشريعة اليهودية ما زالت حية !

١١ . بل قامت نحو أربعة عشر قرناً ، وستقوم ما بقيت الحياة ؛ وما بقى فيها من قرون .
(٢) ان من تضمهم جدران الشريعة الإسلامية اليوم أكثر من أربعائة مليون من
المسلمين .

(٣) محمد رسول الله ص ١٢٣ .

والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عيشة قرون (١) ،
ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وضعوها (٢) ، وقد لا يرى
فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الناجمة عن الفلسفة ، أو روح التحيز العمياء ،
سوى دجالين حسنى الحظ ؟

ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة القادة التي
تتصدر المنشآت الخالدة (٣) .

لأنه لكي تنجح دعوة من دعوات الإصلاح لا بد من أن تقوم على دعامين:
الدعامة الأولى: هي سلامة الدعوة ، وملاءمتها للطبيعة الإنسانية ، وتجاوبها
مع المشاعر السامية في الناس ، وتقديرها للضعف البشري ، الذي يهجز معظم
الناس عن مجاهدته ودفعه في أكثر الأحيان .

والدعامة الثانية: قوة الشخصية التي تتولى القيام على هذه الدعوة ، وشرح
حقيقتها ، وتطبيق مبادئها .

فيقدر ما يكون في الدعوة من عناصر الحق والخير ، وعلى حسب ما يكون
عند الداعي من طاقات روحية ، ونفسية ؛ يكون الثمر الذي يجني من هذه الدعوة ،
ويكون الخير الذي يصيب الناس منها .

ومن هنا كان ذلك النجاح العظيم الذي أحرزته الدعوة الإسلامية ، وكان
هذا المحصول الوفير من الثمر الطيب الذي عرفته الحياة ، وسعدت به الأمم .

ومصدر الدعوة الإسلامية ليس هو محمد ، وإن كان هو حاملها ،
والتقائم عليها ، والشارح لحقيقتها . فالدعوة الإسلامية ليست من صنع محمد ،

(١) ذلك في الوقت الذي كان يعيش فيه جان جاك روسو ، أما اليوم فقد مضى على
الشريعة الإسلامية ما يقرب من أربعة عشر قرناً .

(٢) واضع الشريعة هو الله وحده ، وليست من وضع أحد ، كما يصر على ذلك معظم
كتّاب الغرب .

(٣) النقد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٥ .

وليس من تفكيره وتدبيره . . لأنها من صنع السماء ، ومن تدبير رب العالمين .
أرسلها إلى الناس هدى ورحمة ، كما يرسل الغيث إلى البلد الجديب .

أما دور « محمد » في تلك الدعوة فهو دور الزارع المجد الخبير بمواسم
الزراع ، العليم بطبيعة النباتات . . . تلقى هذا الغيث الغدق فأقام له السدود ،
وأجرى الجداول ، وشق الأرض ، وألقى البذر ، وظل قائماً على مازرع ،
يحرسه من الآفات ، ويحميه من العاديات ، وينقيه من الحشائش الفرية ، حتى
يخرج شتأه ، ويستغلظ ويستوى على سوقة ، ثم يزهر ، ويثمر أطيب ما عرفت
الحياة من ثمر .

هذا ما يقوله عالم متمكن ، ومؤرخ نصب نفسه لتاريخ الإنسانية كلها -
يقوله في « محمد » نبي الإسلام ، وفي الحياة التي كان يحيها ، والآثر الذي
تركه فيها .

أما ما يقوله عن القرآن فهو أيضاً قول رجل منصف متمكن من موضوعه
الذي بين يديه .

يقول « ول ديورانت » .

« والقرآن يبعث في النفوس الساذجة — أي ذات الفطرة السليمة —
أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها
تحرراً من الوثنية والسكنوتية .

« وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ،
وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي ، والوحدة الاجتماعية ، وحضهم
على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ،
ومن الظلم ، والتسوية ، وحسن أحوال الأرقاء . . وبعث في نفوس الأذلاء
الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعده عن الشهوات ،
لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض .

« ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ،

بلا شكوى ولا ملل ، وبخمشهم في الوقت نفسة إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهد التاريخ كله .

« وقد عرف الدين ، وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ، ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنع من قبوله ، ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء ، والضراء وحين البأس (١) . »

ثم يقول :

« ولم يعرف عن محمد ، أنه كتب شيئاً بنفسه ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحجى بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفاً قلماً يصل إليه أرقى الناس تعليماً (٢) . »

ومن نظرات ، ول ديورانت ، إلى القرآن قوله :

« لم يكن النبي مشرعاً عليماً ، فلم يضع لأمته كتاباً في القانون ، أو موجزاً فيه ، ولم يسن تشريعه على نظام مقرر (٣) ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف ، فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض (٤) أزاله بوحى جديد ، يفسخ القديم ، ويجعله كأن لم يكن ؟ » .

• • •

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

(٢) قصة الحضارة جزء ٢ ، المجلد ٤ ص ٢٢

(٣) يلاحظ غالباً أن الفلاسفة الغربيين يضيفون إلى النبي القرآن الكريم ، ويعملونه من وضعه هو ، لا وحياً أوحى إليه !

والحق إن « محمداً » لم يكن هو الذى رسم خطة التشريع السامى للشريعة الإسلامية ، وإنما هى من صنع الله . نزلت أحكامها بتدبير سماوى ، في مناسبات ربطتها بالحياة .

(٤) لم يقع تناقض في التشريع بحال أبداً ، وحاشا لله أن تتناقض أحكامه ، ولكن التدرج في التشريع - وذلك ضرب عال من التربية الحكيمة - اقتضى أن تجيء الأحكام في خطوات متدرجة . . واحدة بعد أخرى .

هذا ، وقد تجتمع الدعوة والداعى فى كيان واحد ، فىكون القائم على الدعوة هو المنشوء لها ، والمفكر فيها والمصور لحقيقتها .. وهذا شأن الدعوات التى لا يقوم عليها أنبياء الله ورسوله .

فالمصلحون الذين ظهروا فى الناس بأرائهم ، وأعمالهم فى مجال الحياة السياسية أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، أو الفكرية ، أو الروحية ، إنما اعتمدوا على شخصياتهم ، وما فى كيانهم من قوى عقلية أو نفسية تدفعهم إلى ذلك رغبة فى الإصلاح ، أو منافع شخصية يجنون من ورأها جاهاً أو سلطاناً !

وهذه الدعوات الإصلاحية المعتمدة على الجهد الإنسانى وحده دون أن تكون مستندة إلى السماء ، مهتدية بهديها . موجهة بوحياها . هذه الدعوات تنقسم بسمتين : (الأولى) أنها محدودة الزمان والمكان .. فإن صوتها مهما علا لا يجاوز مدى المجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه صاحب الدعوة ، ولا يكاد ينفذ إلى ما وراء الحدود المكانية لهذا المجتمع ، إلا إذا كان فيه نعمة إنسانية يستشعرها الناس استشعاراً فيه ، وأنه إذا قدر لدعوة من الدعوات أن تتجاوز حدودها المكانية لمجتمعها فإنها لن تتخطى عصرها الذى ظهرت فيه ، وأنها إذا تخطت هذا العصر إلى الأعصار التى تليه فإن ظلمها سينكشف حالاً بعد حال ، حتى تتبخر مع الزمن وتصبح تاريخاً من التاريخ .

(والثانية) من هاتين السمتين اللتين تنقسم بها الدعوات الشخصية أنها لا تسكاد تتجرد من الأهواء الذاتية ، ولا تسكاد تنفصل عن الدوافع الشخصية ، بل كثيراً ما ينتهى أمرها إلى أن تكون هوى خالصاً ، فتوجه بكلياتها وجزئياتها إلى خدمة الداعى ؛ وتحقيق مآربه !

ومن الحق أن نقرر أن هذا أمر طبيعى ، فالناس هم الناس ، وحب الذات طبيعة غالبية فى كل إنسان ، مهما غالب فى نفسه هذه الطبيعة ، ومهما حاول أن يعا عليها بالمثل العليا ، التى يترسما فى الإيثار والتضحية وغيرها ، إنه سيبقى له مع كل هذا ذاته التى لا يمكن أن ينفصل عنها أبداً ، ولهذا الذات مطالب ونزعات لاتموت إلا بموته !

ومن هنا كان ذلك التمثير والتخطيط الذي يصحب الدعوات الإصلاحية القائمة على الإنسان وحده ، المنقطة عن أمداد السماء .. لأنها أشبه بمجرى النهر؛ فدينبع من عين صافية رقيقة ، ثم بعد أن يخرج من منبعه يحثك بالجنادل والصخور ، ويتخلل الأعشاب والزروع ، فتعلوه الكدرة ، ويزيله صفاؤه الذي كان له !

أنبي أم عظيم؟ :

ونعود مرة أخرى فنسأل : أحمد نبي أم عظيم؟ أى أكانت دعوته صادرة عنه ؛ كما تصدر الدعوات عن المصلحين والعظماء ، أم كانت دعوته تلك التي قام بها من فروع آخر غير تلك الدعوات التي تعتمد على الجهد البشري وحده ؟

من اليسير الواضح أن نجيب على ذلك السؤال من غير تردد ؛ بأن دعوة « محمد » كانت شيئاً آخر غير دعوات المصلحين من القادة والزعماء ، وأرباب الإصلاح من غير رسل الله وأنبياؤه .. !

فقد أتمت دعوة « محمد » بسمتين خلت منهما أية دعوة من دعوات الإصلاح البشري .. فامتدت في الزمان والمكان إلى أبعد حد فيهما ، ولا تزال الأيام بعد مئتي نحو أربعة عشر قرناً - تزيد في امتدادها .. ونحن نعرف أن الدعوات البشرية تطرد اطراداً عكسياً في امتدادها مع الزمن .. فكما امتد بها الزمن انكسرت ، وتبخرت شيئاً فشيئاً ..

ثم من جهة أخرى قد خلت دعوة « محمد » من الدوافع الذاتية والاهواء الشخصية .. فلم يكن لمحمد في هذه الدعوة شيء لحسابه الشخصي ، وإنما خلصت جميعها لحساب الحق والخير الذي ينفع الناس جميعاً .. من كل أمة ، وفي كل جيل !

هذه حقائق ثابتة الدعوة الإسلامية ، لا تحتاج إلى إقامة البراهين عليها ، ولا مظاهر الحجج لها ..

فما وقف سير هذه الدعوة منذ قامت .. ولا حال بينها وبين غاياتها حائل من حدود الزمان والمكان !

وما وقعت الدعوة الإسلامية من صاحبها - محمد - عليه الصلاة والسلام -
موقفاً مميزاً له ؛ أو مترصياً لمصلحة ذاتية عنده !

فهذه هي الدعوة تزداد مع الأيام رقعتها على الأرض ، ويزداد أنصارها ،
وتتكشف للعالم كله أضواؤها ؛ فيحترف لها أعداؤها - راعين - بأنها الشريعة
الصالحة للحياة الإنسانية ، على امتداد زمانها ومكانها !

وهذا هو نبي الإسلام والقائم على الدعوة . . يحمل أثقالها ، ويلقى من
أجلها ما يلقي من ألوان الأذى ، ثم إذا آتت أكلها . وكثر خيرها ، لم يأخذ من
ذلك شيئاً ، وعاش حياته على خبز الشعير ؛ لا يشبع منه وليس له من إدام إلا
الخل والزيت لا يجمع بينهما !

ثم هذا هو دستور الشريعة الإسلامية يضع « محمداً » حيث يضع الناس
جميعاً . يعاتبه ، ويحذره ، وينصح له . . فما محمد بمعزل عما يوجب العتاب والتحذير
والنصح من رب العالمين . . يقول تعالى معاتباً نبيه ؛ « عبس وتولى أن جاءه
الاعشى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتشفعه الذكرى ! أما من استغنى فأنت
له تصدى (١) » ، ويقول سبحانه في شأن أسرى بدر : « ما كان لنبي أن يكون له
أسرى حتى يشتم في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله
عزير حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٢) » . .
ويقول سبحانه وتعالى لنبيه في شأن استغفاره لذوي قرباه . . ما كان للنبي والذين
آمَنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم
أصحاب الجحيم (٣) » ، ويقول سبحانه وتعالى في هذا الشأن أيضاً : « استغفر
لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله
لهم (٤) » .

(١) سورة عبس آية ١-٦ .

(٢) سورة الأفال آية ٦٧ ٦٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢١٢ .

(٤) سورة التوبة آية ٨٠ .

أفلم كان محمد، هو صاحب هذا التشريع أكان يضع نفسه هذا الموضوع؟
أو كان يأخذها بهذا الزجر والردع على سماع الدنيا وبصرها؟

إن عزل المشرع عن التدخل في وضع التشريع الذي يدعو الناس إليه،
ويأخذهم به هو في الواقع عدل سياسة وأحكامها في إنجاح هذا التشريع، وفي
حمايته من الهزات والانحرافات.

يقول «جان جاك روسو»:

«ورغم أن عمله - أي المشرع - هو تأسيس الدولة، فهو ليس جزءاً
منها، بل يقوم بوظيفة خاصة وسامية، لا شيء مشترك بينها وبين حكم الناس..
إذ أنه إذا كان من يحكم الناس يجب ألا يحكم القوانين.. فكذلك من يحكم
القوانين يجب ألا يحكم الناس، وإلا كانت قوانينه خادمة لأهوائه، ولا تؤدي
في كثير من الأحيان إلا إلى دوام مظالمه.. فهو لن يستطيع تجنب أن تؤدي
وجهات نظره الخاصة إلى انحرافه في عمله المقدس!»

ثم يستشهد جان جاك روسو لهذا بوقائع تاريخية، فيقول:

«وقد بدأ ليكوريوس، بالتخلي عن العرش عندما وضع القوانين
لوطنه». ويقول:

«وكان العرف السائد بين معظم المدن الإغريقية أن تعهد إلى أجنبي بوضع
قوانينها»

ثم يأخذ روسو، في الكشف عن خطورة التشريع الذي يصادف مكاناً
من قلوب الناس وعقولهم، وأن هذا لا يكون إلا إذا استند التشريع إلى قوة
سماوية، وإلا إذا قام على أساس من الدين..

يقول روسو:

وهكذا يبدو أنه يوجد في عملية التشريع شيئان غير متفقين: مهمة فوق
طاقه البشر.. تقوم بتنفيذها سلطة ليست شيئاً مذكوراً!

• إن الحكماء الذين يتحدثون إلى العامة بلغتهم - أي لغة الحكماء - لن يفهمهم العامة - فهناك الآلاف الكثيرة من الأفكار التي لا يمكن ترجمتها إلى لغة الشعب ، كما أن التطرف في التعميم ووجعها النظر البعيدة تسمو أيضاً على إدراك الناس . إذ لا يتذوق كل فرد غير نظام الحكم الذي يتفق مع مصالحته الخاصة ، ولا يقدر - إلا بصعوبة - المزايا التي تعود عليه من الحرمان المستمر الذي تفرضه القوانين الطبيعية . . ومن هنا كان المشرع لا يستطيع أن يستعمل القوة ولا الإقناع . وعليه بالضرورة أن يلجأ إلى سلطة من نوع آخر ، سلطة تقود بلا عنف ، وتفتح بلا حجة .

• وهذا هو السبب في أن آراء الشعوب اضطروا في جميع الأزمنة إلى الالتجاء إلى السماء ، وأن ينسبوا إلى الآلهة حكمة هي في الحقيقة حكمتهم هم ، حتى يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة ، كما يخضعون لقوانين الطبيعة ، ويرون في خلق المدنية السياسية نفس القوى العاملة في خلق الإنسان . فيطيعون بحرية ، ويتحملون في وداعة ، وطأة الشهادة العامة .

وهذا العقل السامي الذي يسمو على فهم العامة هو ما يضع المشرع أحكامه في أفواه الخالدين ، ليقودوا بوساطة السلطنة الإلهية أولئك الذين لا يستطيعون التخلص من عجزها الكين .

• ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ، ولا أن يجعل الناس تصلحونه عندما يدعي أنه يتحدث باسمها . . فروح المشرع العظيمة هي التي يجب أن تكون دليل رسالته (١) .

لو أن محمداً ، كان هو واضع الشريعة الإسلامية ، ولم يكن الله هو الذي نزل عليه كتابها - لكان كما وصفه لامارتين ، في قوله : نبي أصغر من إله ،

(١) العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٣ .

— ۱۱۴ —

وأكبر من إنسان ، ، ولما كان لمحمد أو لأتباع محمد أن يقولوا فيه ما قال النصارى
في المسيح ابن مريم من أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة .

ولم يكن د محمد آء يعرف حق المعرفة أنه بشر ، وأن الشريعة التي جاء بها ليست
من صنعه ، وإنما هو رسولها ، ومبلغها إلى الناس .. د قل سبحان ربي هل كنت
إلا بشراً رسولا (۱) .

الباب الخامس

خاتم النبيين

« الله أعلمُ حَيْثُ بِجَمَلِ رِسَالَتِهِ »
« قرآن كريم »

- ١ -

داع من السماء ، يحمل بين يديه النور والهدى إلى الناس ،
ورسول من الله ، يقوم بالسفارة بين الله ، وبين عباد الله !
ما ظنك أن يكون هذا السفير ؟ وماذا يرتسم له في خيالك من صور ؟
إن كثيراً من الناس قد ارتفعوا بمقام هذا السفير إلى أن يكون هو الله ذاته
« تجسد » في صورة بشر ، أو أنه « ابن الله » جاء إلى الناس في صورة إنسان !!
وإن كثيراً من الناس أنكروا أن يكون هذا السفير بشرا ، حين ظنوا أن هذه
السفارة أكبر من أن تكون لبشر . . فكذبوا برسول الله ، وأبوا أن يعتمدوا
الوثائق التي بين أيديهم إلا أن يشهد عليها شاهد من السماء !! ، وقال الذين
لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !! لقد استكبروا
في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (١) .

وما رأيك إن كان هذا الرسول بشرا .. يا كل الطعام ويمشى في الأسواق ؟
أترأه واحداً من عامة الناس ممن لا امتياز لهم في عقل أو خلق ؟ أم ترأه
واحداً من هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على الناس بالسيف والقهر والتغلب ؟ .
كلا . فإنه لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ! إن حكمة الله تقضى بأن يتخير

(١) سور الفرقان آية ٢٠ .

(٨ - النبي محمد)

— ١١٤ —

لهذه « السفارة » خلاصة الإنسانية . وهامتها . فلا تصطفي لها في أي عصر
إلا الرجل الأول في السكال الإنساني ، فيسكون هو الإنسان الذي تشمل فيه
كالات الجنس البشري لعصره ، وهو بهذه الصفة يكون بالمقام الذي يسامت فيه
الملائكة ، ويسافح المالا الأعلى . وهو بهذا المقام جدير بأن يكون وصلة ما بين
السماء والأرض ، وسفيراً بين الله والناس .

— ٢ —

وذلك هو الشأن في نبوة « محمد » !
لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبي ، ولأكل دعوة قام بها رسول !
لأنه يحمل آخر كلمة من الله إلى الناس !
هي الكلمة الأخيرة . . الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ! فليس
بعدها كلام . . إنها الخاتمة !

وهو خاتم النبيين . . ليس بعده نبي . . وليس وراءه بشير ولا نذير !
وإذ كان ذلك كذلك . . فإن لنا أن نقول إن « محمداً » هو منتخب الإنسانية
كلها . وهو مجتمع كالاتها في أكل حالاتها . وأتم صورها . .
ذلك لأنه جاء لي الإنسانية حين بلغت رشدها ، وحين أراد لها الله أن
تستقل بوجودها وأن تستقيم على الطريق الذي يملئها تفكيرها ، دون أن
يقوم عليها من السماء رسول يدعوها إلى الله ، ويرسم لها مناهج الإيمان ،
وقواعد السلوك !

إن الإنسانية — لعهد محمد — كانت قد تجاوزت طور الصبا ، وبلغت
أشدّها ورشدها ... ، وهي بهذا جديرة أن تستقل بنفسها ، وأن تستهدى
بما أودع الله فيها من عقل ، وبما حملت إليها السماء من وصايا .

قد كانت رسالات الرسل . . قبل محمد — رسالات محلية ، أشبه
بالوصاية على الأفراد . يظهر الرسول في جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ،
يقيم لهم رجودهم المعوج ، ويضئ لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم
رسول . يخلفه رسول . . وهكذا .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله للناس أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يفكروا لأنفسهم، بعد أن بلغوا الرشد و صاروا في عداد الرجال — كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين . محمد بن عبد الله . . رسول الله وخاتم النبيين !
ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة «عقلية» «منطقية» ، تخاطب العقل ، وتجيء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية ، التي يستقيم عليها تفكير الناس جميعاً ... عامتهم وخاصتهم على السواء !

إن الرسالة الإسلامية لم تستند إلى معجزة قاهرة تطفئ على عقول الناس وتغفل تفكيرهم ، وتشل إرادتهم حين لا يملكون لها رداً ، ولا يستطيعون لها نقضاً . وإنما استندت إلى الكلمة وما فيها من عقل ومنطق ... فلم تطلب إلى الناس أكثر من أن يفكروا . وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، وأن يتقبلوا — في غير عناد أو تخرج — ما يتأدى إليهم من عقولهم ... فإنهم إن فعلوا ذلك فلن تبعد بينهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف ، بل إنهم والرسالة سيلتقيان على طريق واحد ، إذا فكروا وأخلصوا التفكير !

« قل إنما أعظكم بواحدة .. أن تقوموا لله مثنى وفرادى ... ثم تفكروا(١) » . هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها : استخدام العقل ، واحترام معطياته ..

ليستعمل الإنسان عقله وليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مقررات . . ليفكر وحده ، بينه وبين نفسه ، متأملاً ، متعمقاً . أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقلبه . . مؤيداً . . أو معارضاً !

إنه في كلا الحالين سيصل إلى مقررات إن لم تسكن حقاً خالصاً ، فهي أقرب شيء إلى الحق . . لأن العقل بطبعه — إذا خلا من آفات العناد والاستكبار — يفتد الحق ، ويهتدى إليه ؛ لأنه شرارة من الحق وقبس من أقباسه !
فالعقل في مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر ؛ وأن يتحرك

(١) سورة سبأ آية ٤٦

في كل مجالاته ، غير مقيد بشيء أو مشدود إلى شيء .. بل إن الرسالة الإسلامية لتغري العقل لإغراء على التفكير ، بما تنادى به من دعوات عالية إلى إيقاظ العقل وتنبيهه ، وبما تقدم إليه من صور ، وما تفتح له من مجالات ؛ تدعو أكثر الناس ببلادة وغباء إلى استخدام عقولهم ، واستدعاء تفكيرهم ! وقل انظروا ماذا في السموات والأرض (١) .

ذلك على حين كان العقل قبل الرسالة الإسلامية بمزول عن دعوات الرسل ، وبمنقطع عن معجزاتهم القاهرة ، التي لا تستقيم على منطق العقل ، ولا تدخل في معطيات التفكير !

لإنها أمور خارقة للعادة ، لا تقع إلا على يد رسول . فيقع بها الإعجاز القاهر ، ويقوم التسليم !! الإعجاز الغالب القاهر ، المفعم للعقل . والتسليم القائم على الدهش ؛ والخيرة . والعجز !

وذلك هو شأن الأسلوب الحكيم في التربية ... فالصغير الذي لا يحتمل عقله أحكام المنطق . ولا يخضع تفكيره الصغير لمعطيات ما بين الأسباب والسيئات من روابط — من الخطأ البين . بل ومن القسوة عليه أن يؤخذ بمنطق العقل ، ويحمل على العقل . . وإنما الذي يصلحه ويصلح له هو أن يخاطب بلغة الحس ، وبمنطق السادة . . فإذا نما عقله شيئاً ؛ كان من التدبير الحكيم أن يخاطب بأسلوب المنطق العقلي . والمنطق الحسي معاً ، وأن يزاوج له بينهما بنفس تسكثر فيها العناصر العقلية كلما نما عقله ، واتسعت مداركه ، حتى إذا بلغ مبلغ النضج والرشد أمكن أن يكون عقله هو موضع الاعتبار في مخاطبته ومحاسبته .

والإنسانية — في تقديرنا — بدأت وجودها كما يبدأ كل كائن حي وجوده ، نبتة صغيرة ، ثم شجيرة لا زهر فيها ، ثم شجيرة مزهرة ، ثم شجرة مزهرة مشمرة !!

الرسالة الإسلامية إذن هي الرسالة التي أدركت الإنسانية حين بلغت رشدها،

وحين رفعت عنها وصايا السماء ، التي أقامتها على الناس عن طريق أنبياء الله
ورسله الكرام .

وشواهد التاريخ تؤيد هذا وتشهد له . .

فالإنسانية لعهد « محمد » كانت في آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج
العقلي . . كانت بمثابة طفل قد درج في مدارج الحياة حتى بلغ مبلغ الرجال . .
وكان عليه بعد هذا أن يستوفي حظه من الحياة . وأن يأخذ مكانه فيها ، غهد
مستند إلى أحد .

ودع عنك ما يقال من أن الإنسانية قد ارتكست ورددت على أعقابها
زمن البعثة النبوية . وأن الشر كان قد استشرى في الناس وأن الظلام قد أطبق
عليهم ، ولفهم في قطع كثيفة من الجهل والضلال ، وأن معالم الحضارات التي
أقامتها الإنسانية في وادي النيل على يد الفراعنة ، وفي بابل وآشور على يد
الكلدانيين والآشوريين قد ذهبت معالمها ، وضلت في ظلمات الجهل شواهدا ،
ومحيت آياتها . . وأن لمعات العقل اليوناني التي أضاءت العالم القديم قد ذهب
الجهل بنورها ، وعقمت الحياة عن أن تلد سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو
مرة أخرى . . !

دع عنك هذا . . فالدنيا بخير . . والحياة ولود ، لا يصيبها العقم أبدا . .
وهي سائرة إلى الأمام ، لا ترجع إلى الوراء بحال !

ربما قد تقع بعض النكسات في الحياة الإنسانية فتمضطرب حياة الناس ،
وتسوء أمورهم . . ولكنها نكسات عارضة ، لا تلبث أن تزول ، وتعود إلى
الحياة طبيعتها ، وإلى الناس سلامتهم ! والرجل حتى في حال انتكاسه خير من الطفل
في حال صحته وسلامته !

ولا يزيد أن نضرب الأمثال لهذا ، ولا أن نذكر مختلفات القرون من
العباقره والعظماء ، ونعقد المقارنات بين أجيال الناس في الحياة لنعرف أن الحياة
تخطو نحو النضج العقلي ، والكمال الإنساني . لا يزيد أن نضرب الأمثال لهذا ،
وحسبنا أن نشهد واقع الحياة في عصرنا هذا ، وما بلغ العقل الإنساني فيه من

قوة ، استطاع بها أن يخضع تلك القوة الهائلة من قوى الطبيعة ، وأن يتحكم فيها ،
ويستخرها على نحو لم تعرفه الحياة ، ولم يشهده الناس من قبل .

إن القرون الطويلة التي عاشها الناس على هذه الأرض لم تتمكن لهم من أن
يستخدموا قوة البخار ، أو قوة الكهرباء ، ولم تفتح لهم الطريق إلى تحطيم الذرة ،
وإلى بناء المراكب السكوكية التي تدور الآن في فلك الشمس كما تدور الأقمار
حولها .

إن هذه الفتوحات العظيمة التي حققها العقل الإنساني في هذا العصر لم
الشهادة التي لا نرد على أن الحياة الإنسانية تتجه دائماً نحو الأمام ، وأنها تضيف
كل يوم معارف جديدة إلى معارفها السابقة ، وأن رصيدها من المعرفة يزداد
مع الأيام يوماً بعد يوم ، فبقدر ما تزيد الأيام في عمر الإنسانية يزيد رصيدها
من العلم والمعرفة .

فإذا قلنا إن عصر النبوة كان هو العصر الذي بلغت الإنسانية فيه رشدها ،
وتخطت فيه مرحلة الطغولة والصبيا ، كان لقولنا هذا مستند من واقع عصرنا هذا
الذي يعد امتداداً لعصر النبوة ! فإن أربعة عشر قرناً في عمر الحياة الإنسانية
لا تعد شيئاً إلى جانب عمرها الطويل . . . وأن هذه الألف والأربعمئة سنة منذ
عصر النبوة إلى اليوم ليست إلا مرحلة أو بعض مرحلة من حياة الإنسانية ،
وطوراً من أطوار وجودها !

فما بلغته الإنسانية في هذا العصر من تقدم في مجالات العلوم والفنون ، وما
أقامته من صروح الحضارة والمدنية هو في الواقع من صنع هذا الطور الإنساني
الذي كان عهد النبوة لإيداننا ببدايته ، والذي قلنا إنه كان الطور الذي بلغت به
الإنسانية أول مراحل الرجولة .

يتحدث الجاحظ في كتابه « حجاج النبوة » عن طبيعة الرسالة الإسلامية ،
وأنها تتجه إلى مجتمع يأخذ الأمور بمحسار العقل ، وينظر في أفعالها
وما تؤول إليه . . .

يقول : « كذلك وعيد ، محمد ، بنار الأبد كوعيد موسى بنى إسرائيل باللقاء

الهلأاس على زرعمهم ، والهم على أفمدمتهمسم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ،
ويأخرأجرهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم . .

فكان تعجيل العذاب الأذن - أى القرب - فى استدمعائهم ، واستمألتهم
ورددمهم على مايرديهم (١) ، وتعديل طباعهم كتأخير العذاب الشديء على غيرهم .
ولإن الشديء المؤخر - من العذاب - لايزجر إلا أصحاب النظر فى العواقب
وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب (٢) .

يريد الجاحظ أن يقول إن دعوة محمد كانت إلى مجتمع عاقل مدرك ، ينظر فى
عواقب الأمور ، ولا كذلك كانت دعوة موسى التى تعامل مجتمعا فى دور طفولى ،
لا يأخذ الأمور من جانبها الواقعى المعجل .

تذهب من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى . وهى أن النبى ، الذى يحنء إلى
الناس فى هذا الطور من حياتهم ينبغى أن يكون أكل الأنبياء ، لأنه فى قمة
الإنسانية فى طورها الذى بلغت فيه رشدها ! إذ كان النبى فى كل عصر ، وفى
كل أمة هو ممثل الإنسانية فى هذا العصر ، وفى تلك الأمة ، وهو خلاصة كل
طيب وجميل فيها ! وفى هذا يقول النبى الكريم : بعثت من خير قرون بنى آدم ،
قرناً فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه . . .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه المقاييس النظرية ، وتلك الاستدلالات
اللفظية لئستند إليها فى الوصول إلى القول بأن نبى الإسلام هو «صفوة» الإنسانية ،
وهو منها بمكان الرأس من الجسد ، أو العقل من الإنسان ، !

لسنا فى حاجة إلى هذا ، فإن نبى الإسلام فى حياته ، وفى سيرته ، وفيما ترك
فى الحياة من آثار هو آية الآيات على السكال ، الذى حوى السكال البشرى كله !
وذلك ما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه ، فى كل عصر ، وفى كل أمة !

والحقائق التاريخية التى تتحدث عن سيرة الرسول حقائق ثابتة موثقة ،

(١) فى الأصل : يريد بهم : وهو لا يستقيم مع سياق الكلام

(٢) من رسائل الجاحظ ٢٤١

لا تقبل النك أو الجدل .. إذ كان نهي الإسلام في المجتمع الذي ظهر فيه بالمسكان الذي تحصى عليه فيه حر كاته ، وتهد عليه فيه أفتناسه ، على صورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا في حياة إنسان من الناس ، أو حدث من الأحداث !

ولله في هذا حكمة وتدبير !

فقد أراد الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم أن يكون في هذه البيئة التي ينكشف للناس فيها كل شيء ، ويتعمى للحياة فيها كل شيء ! .. بيئة عارية من كل مايستر أو يكن ، فلا قصور ، ولا قلاع ، ولا حصون يستطيع من يعيش فيها أن يقيم له دنيا كما يشاء ويرضى ، دون أن يطلع الناس من أمره على دقيق أو جليل !

ولأنما حياة البادية حياة عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة أو شبه عراة . والخيام التي هي سكن الناس في هذه المواطن لا تكتم سرا ، ولا ترد سمعا ولا بصرا .. لأنها أشبه بالثياب التي يرتديها الناس .. قد تنفع في انقاء الحر أو البرد ، ولسكنها لا تنفع شيئا في الاحتجاب عن الناس ، والتستر دونهم ! وكذلك تلك المدن الصغيرة التي قامت في هذه البادية .. لأنها لا تخرج عن كونها مجموعة من الخيام ، وإن كانت جدرانها من الأحجار ، وسقفها من سعف النخيل !

هذه واحدة .. وأخرى .. هي أن أهل البادية في فراغ عمل ثقيل ، وخاصة سكان القرى الذين لا يشتغلون بشيء ، حتى برعى الإبل والغنم ! أما أهل مكة - البلد الحرام - فقد فرغ أهله من كل عمل .. الرعي يقوم به عبيدهم ، وغلبانهم والتجارة قافلة في الشتاء إلى اليمن ، وقافلة في الصيف إلى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. والحرب التي كانت شغل سكان البادية لم يكن لأهل هذا البلد شأن بها ، لأنهم أهل بيت الله ، لا يعتدون ، ولا يعتمدون عليهم !

فهذا الفراغ الذي يعيش فيه سكان البادية ، وسكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أخص - هذا الفراغ الطويل الثقيل قد جعل الناس يشغلون بالتافه من الأمور ، ليقتطعوا به الوقت ، ويحملوه مادة حية للحياة .. تمسك وجودهم فيها ، وتخيل لهم أنهم جادون عاملون !

فإذا وقع في القوم حدث جديد التفوا إليه جميعاً ، وقاموا له وقعدوا ، وإن يكن مثل هذا الحادث لا يلتفت إليه غيرهم من أهل الحياة الجادة العاملة ..

وشاهد هذه الحال قائمة في حياة الريف ، وسكان القرى . . فالتاس هناك يجتمعون وينفضون لأقل نبأ أو حدث يقع بينهم . . فإنك لترى الناس جميعاً مشتركين في مداورة الأحاديث وتقليبها عن كل حدث يعنيههم أو لا يعنيههم .

فإذا ظهر في صحراء العرب ، نبي ، فما ظنك بما يقع في حياة الناس من هذا الحدث ؟ تصور الجبال تتبادل مواضعها ، أو الشمس تغير مشرقها ومغربها . . أو تصور ماشئت من المذهلات والأعاجيب في الأحداث ووقوعها على الناس ، فإنك لن تداني الصورة التي وقعت لقريش ومن حولها حين طلع عليهم محمد ، بقوله : إنه رسول . . رسول رب العالمين !

لقد وقع انقلاب شامل في حياة الناس ، فأخاوا أنفسهم من هذا الفراغ الذي كانوا فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم ، وعقولهم ، وقلوبهم لهذا الحدث العظيم :

والذي يعني أن نسجله هنا من هذه الظاهرة هو أن محمداً ، كان منذ اليوم الذي أعلن فيه عن نبوته ، وكشف للقوم عن كنية السماء إليه ، وهو يملأ حياة الناس في مكة ومن حولها . فرداً فرداً ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، لم يستطع إنسان أن يخرج بنفسه من هذه السوق التي لا تنقض أبداً . والتي لا يبيع فيها ولا شراء إلا تبادل الأحاديث في محمد ، ، وتداول الآراء فيه . .

ولك أن تحصي عيون أهل مكة وما حولها عيناً عيناً ، وأذانهم أذناً أذناً ، وألسنتهم لساناً لساناً ، وأرجلهم رجلاً رجلاً ، وأيديهم يداً يداً . ثم إن لك بعد ، هذا أن تضيفها كلها إلى حساب محمد ، مدة الثلاثة عشر عاماً التي عاشها في مكة قبل الهجرة والسنوات العشر التي عاشها في المدينة بعد الهجرة . إن هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة إلا لحساب محمد ، ، ومن أجل محمد ، . له أو عليه ، مادية أو معادية .



فهل تظن بمدى هذا شديداً يخفى على القوم من حياة « محمد » أو يفلت من بين أيديهم ؟

وهل تستطيع أن تقع على حدث في الحياة ، أو على شخصية من الشخصيات وقعت تحت ملاحظة الناس ، وتمت أسماعهم وأبصارهم ، وفي قلوبهم وعقولهم مثل ما كان « محمد » من أهل مكة والمدينة وما حولها .. لا أظن أحداً يجيء من التاريخ القريب أو البعيد بشاهد واحد يقوم إزاء هذا الحدث أو يناديه !

فإذا أضفت إلى هذا ما كان من صحابة « محمد » ، وامتزاجهم به هذا الامتزاج الروحي والمادى ، في الحل والترحال ، في الحرب وفي السلم ، في المسجد وخارج المسجد ، في يقظته ونومه ، في طعامه وشرابه ، في حديثه وصمته . . في قيامه وقعوده ، في مشيه وركوبه - كان من كل أولئك أعداد لا يحصر لها من الوثائق والسجلات المتشابهة المتطابقة ، التي تسجل حياة « محمد » لحظة لحظة ، ونفساً نفساً وحالاً وحالاً !

ومرة أخرى .. هل تستطيع الحياة أن تأتي بمثل هذا التسجيل الكاشف لحياة إنسان من الناس ، أو واقعة من الواقعات ؟ هيئات هيئات . . فإن ذلك لم يقع ، ولن يقع إلا مرة واحدة من الناس . . هو رجل الانسانية وواحداهما !

• • •

وما وجه الحكمة في هذا ؟

فستطيع أن نجد لهذا التدبير السماوي في شأن « محمد » ، على هذا الذي كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله - نستطيع أن نجد لذلك أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة وحكمة . .

فأولاً : هذا الكمال الإنساني الذي اشتمل عليه « محمد » ، ينبغي أن يشهده الناس ، وأن يملأوا وجودهم به . . إذ أنه ليس في الحياة مثل هذا الكمال البشري المتاح للناس أن يشهده ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة معه ، فإذا أفلت منهم فلن يقعوا له مثال بعد هذا . وفي ذلك ما فيه تضييع لهذا الخير الكثير ، الذي يناله الناس من الاتصال به والأخذ منه !

أرأيت إلى الشمس كيف تسفر للناس ، بوجهها المشرق الرضىء من مطلع الصباح إلى مهبط الليل ؟ ثم أرأيتها بعد ذلك تغذى القمر بأضوائها فتجعله خليفة لها بعد أن يحجبها الظلام ، ليبدو ظلمته ، ويزيل وحشة الحياة ؟

لأنها ووليدها القمر آيتان من آيات الله للناس ، ورحمتان من رحمته بهم ..
لأنهما أكبر من أن يكونا لأمة من الأمم ، أو لجيل من الأجيال .. لأنهما للأمم جميعاً ، وللأجيال جميعاً .. لأنهما يسعان الحياة كلها في أعماها ، وأزمانها ، وفي كل ما من شأنه أن يحيى عليهما ، ويعيش بهما !

و محمد ، في ذاته هو للإنسانية آية كبرى من آيات الله ، ورحمة شاملة من رحمته ، ومن حق الناس في هذه الآية الكبرى ، ومن حقهم في هذه الرحمة الشاملة أن تنكشف لهم هذا الانكشاف التام ، وأن تسفر لهم هذا السفور المبين ، ليأخذوا بحظوظهم كاملة منها ، فيطلع فيهم طلوع الشمس ، يحيي الموات ويبدد الظلمات .. فإذا لحق بالرفيق الأعلى كانت سنته فيهم ، وسيرته معهم قرأ يؤنس وحننتهم ، ويكشف معالم الطريق لهم ! !

وثانياً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية « محمد » وتجليتها للناس أن رسالة « محمد » كما قلنا من قبل رسالة عقلية ، تعتمد على الحجة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن « محمد » وقف من هذه الرسالة ووقف المدافع عنها ، في وجه خصومة عنيدة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بضاعة وصناعة ، فكان لابد أن يكون « محمد » قائماً من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سفيهم وضلالهم !

ومن أجل هذا كانت الرسالة الإسلامية من بين الرسالات السنأوية كلها رسالة « منجمة » .. لم تنزل مرة واحدة ، وإنما ظلت نحو ثلاثة وعشرين عاماً .
تنزل آية آية ، أو سورة سورة ، حسب دواعي الموقف ، وحاجات الناس .

ولو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لكانت مهمة الرسول سهلة ميسرة .. إذ تكون في هذه الحالة على صورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتكون الخصومة فيها خصومة على واقع معروف ، وكان يكفي في هذا أن يدفع

النبي بها كاملة إلى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يجيئهم بجديد يفتح باباً جديداً للجدل والخصام .

وكان نزول القرآن على هذه الصورة الجزأة ، وفي هذا الزمن المتطاول ، مقتضياً أن يقف النبي دائماً في يقظة وانتباه ، يتلقى اعتراضات الخصوم ، ويستمع إلى ادعاءاتهم فيديرها في صدره ، ويردها في خاطره ، ويتربص في طهنة وإشفاق كلمة السماء ، وما تلقى إليه من آيات ، يلقي بها القوم على الوجه الذي أراد الله سبحانه أن يلقاهم به . وهكذا ظل الرسول طوال ثلاثة وعشرين عاماً في هذا الموقف ، بين السماء والأرض ، وبين الله والناس ، لم يفرغ لنفسه ساعة من ليل أو نهار !

مهمة شاقة عنيفة ، وموقف صعب عسير ، لا يقوم على الوفاء به إلا من ربته العناية الربانية ، وأعدته الإعداد الكامل لهذا الأمر العظيم !

وطبيعة هذه المهمة تقتضي أن يتكشف حال محمد ، كله للناس ، وأن يكون كل وجوده فيهم ، فلا يلقاهم من وراء حجاب ، ولا يجعل بينه وبينهم أذنأ يفتح الباب ويفلقه . وإنما هو للناس جميعاً ، يلقونه في أى وقت ، وعلى أى حال يكون . . حتى لقد بلغ الأمر بالنبي وأهله أن أوذوا في حياتهم الخاصة بما كان يطرقهم من الناس ، فلم يجدوا لحظة لطعام أو مقام ، واستحيا النبي أن يرد الناس عن هذا الذي كان يؤذيه ، فتولى الله سبحانه وتعالى تلبية الناس إلى هذا . فقال سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِ لِمَآ هُمْ فِيهَا ، وَإِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْقُضُوا وَلَا مَسْأَلِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » (١)

وثالثاً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية محمد ، وتجليتها بين الناس أن الرسالة المحمدية ليس فيها معجزة من المعجزات المادية ، وإنما معجزته التي

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣

بين يديه هي القرآن الكريم ، والمعجزة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن إدراكها على وجه محقق ، فإن ذلك يحتاج إلى نظر دقيق ، وبصر نافذ .

فكان لا بد لكي تتضح هذه المعجزة القرآنية من أن يكون الذي يقوم عليها هو في ذاته معجزة ، في كالاته ، وفي مقررات دعوته التي يدعو إليها ، فإذا دعا إلى معروف ، أو نهى عن منكر ، رأى الناس في حياته تطبيقاً كاملاً واضحاً ، لما يأمر به أو ينهى عنه ، وبهذا يرى الناس الدعوة في صورتها الكلامية ، وفي تطبيقها العملي .

هكذا كانت رسالة محمد . . . تخير لها الله سبحانه من صور الكلام أصدقها وأروعها وأبلغها ، وهو القرآن ، ، وتخير لها من صور الأداء أتم صورة ، وأكملها . وأعد لها وهو محمد بن عبد الله .

وكثير من الناس آمنوا بمحمد قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب ، وقبل أن يسميهم كلام الله ، . آمنوا بما آمن به ، وتابوه دون أن يسألوه شيئاً عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها . . لأنه هو عندهم آية الآيات ، ومعجزة المعجزات في أمره كله . . ظاهره وباطنه . ، وإن الإنسان العاقل الذي يعرف مواطن الخير ويضد حظه منه لنفسه ليرى في محمد الرائد الموفق لكل ما يدعو إليه ، فإنه لا يدعو إلا إلى الخير ، ولا يهدى إلا إلى الرشاد .

وقد كان إيمان السيدة عائشة بمحمد ، هو إيمان متابعة له وتطبيقاً لما عرفت منه وخبرت من أحواله : وعانيت من سماته . . في أمانته وصدقه واستقامته ، وعزوفه عن دنيات الأمور وسفسافها . . وهي - لصلتها بمحمد وبمخالطتها له - أكثر الناس وأقدرهم على تعرف هذه الصفات واختبارها عن قرب ومداناة .

لما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء لأول مرة بالوحي اضطرب النبي لهذا الأمر وكرب له ، وذهب إلى خديجة وهو في هذا الحال ؛ فسأله مابه ، فلما أخبرها الخبر ، وقال لها : « لقد خشيت على عقلي » . . قالت له : أبشر يا بن عم ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . . إنك لتصل الرحم وتحمل

السكل وتسكيب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، (١) .
فاستمدت بكال عقولها وسلامة فطرتها ، أن الأعمال الصالحة ، والأخلاق
الفاضلة ، والشيم الكريمة تناسب أشكالها ، من كرامة الله وتأيبده ، وإحسانه ،
ولا تناسب الحزى والخذلان ، (٢) .

وكذلك كان إيمان أبي بكر . . وكثير غيره من العقلاء الراشدين :

ففي حديث الإسراء كثير لفظ قريش ، وعلت صيحات سفهائها تتردد في
أرجاء مكة . ترمي (محمداً) بالزور والبهتان . . ولكن أصدق الناس به ، وأعرفهم
بحاله ، لم يزد ما أرجف به المشركون ، وما تخرص به المتخرون إلا إيماناً
على إيمانهم ، من غير أن يسألوا النبي شيئاً ، أوحى من قبل أن يتلقوا هذا الخبر منه .

روى عن عائشة رضى الله عنها . قالت : « لما أسرى بالنبي صلى الله عليه
وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك . فارتد ناس من آمنوا به
وصدقوه . . وسعوا إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه
أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل الصبح . قال : نعم . إني لأصدق
فيما هو أبعد من ذلك : أصدق به نخب السماء في غدوه أو روجه . »

وقد يقول بعض الناس في إيمان السيدة خديجة : إنه إيمان حب وطاعة ،
أدته المرأة المحبة المطيعة لزوجها !

ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً مثل هذا في إيمان أبي بكر ، الذي كان
له من أصالة الرأي ، وعلو المسكن في قومه وأئمة العروبة التي تملأ صدره ،
ما ينأى به عن أن يكون لمة يتبع كل ناعق ، ويحجب كل داع . . إن أبا بكر حين
تابع « محمداً » عرف كثير من رجالات قريش وأولى الرأي فيهم أن أبا بكر
لا يتابع محمداً إلا عن حق بان له ، وربما لم يستن لغيره . وعن شواهد حال في
« محمد » جعلته يسلم له من أجلها بمقام النبوة ، من غير أن يطلب إليه شاهداً .

(١) الشفا ص ٧٠

(٢) زاد المقاد في هدى خير العباد لابن القيم جزء ٢ ص ١١٤

أو دليلاً .. لأن أبا بكر - عند قومه - بالمكان الذي يجعله أهلاً لأن يتقاضى فلا يرد قضاؤه ، ويحكم فلا تدفع حكومته ، ولا يخرج أحده عن حكمه ، ولو كان ذلك في أعظم الأمور شأنًا ، وأجلها خطراً . وما أن آمن أبو بكر وتابع محمداً ؛ حتى تابعه في هذا الإيمان نفر من عرفوا في قریش بالحكمة ، وسداد الرأي .

فمن آمن بدعوة أبي بكر من قبل أن يتعرف إلى دلائل النبوة ويثبت منها : عثمان بن عفان ، وطاحه بن عبید الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

وهؤلاء جميعهم من أهل الشورى الذين جعل « عمر » الخلافة من بعده في واحد منهم ، وكانوا سبعة منهم على بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، على أن يكون شريكاً في الرأي لا في الخلافة .

فإذا عرف أن هؤلاء السبعة الذين رشحهم عمر للخلافة من بعده هم الخلاصة الخاصة في مجتمع الصحابة ، وكان خمسة منهم أسلوا على يد أبي بكر وبمتابعته عرف فضل أبي بكر وقدره بين الرجال .

نعم إن سيرة محمد كانت معروفة لهؤلاء النفر ، فهم أهله وعشيرته ، ولم يكن الذي عرف أبو بكر من أخلاق محمد بالذي اختص به دون قریش . فإن قریشا كانت تعرف من « محمد » مثل ما يعرف أبو بكر وغيره ، وكان يلقب فيهم بالصادق الأمين . ولكن أبا بكر كان أسبق إلى التصديق بنبوة محمد ، وأفضل بصيرة في ربط ماضى « محمد » بحاضره ، وفي استدناه النبوة من السجال البشرى الذي كان لمحمد .

ولهذا الذي كان يعرفه أهل مكة من صفات السجال في « محمد » وجد أبو بكر لدعوته أذناً تسمع بما يدعو إليه من أمر « محمد » ، إذ كان ذلك مسبوقة بما قرع عند الناس بما عرفوا من مكارم الأخلاق في الصادق الأمين .

والقول بأن إيمان السيدة خديجة ، بمحمد كان إيمان حب للزوج المحب المطاع قوله ينقضه إيمان أبي بكر بمحمد إيماناً مستمداً من أخلاق « محمد » ، ومن سيرته

في قومه خلال أربعين عاماً مضت من حياته ، لم تجرب عليه كذبة ، ولم يؤخذ عليه فيها عيب ، أو تلحق به شائبة ...

ثم إن السيدة خديجة ، قد عرفت في قومها بالعقل ، والحكمة ، والاعتزاز بشخصيتها ، واحترام نفسها ، وما كان لها أن تتابع « محمداً » عن هوى . وهي التي زهدت في الزواج زمناً ، حين لم تجد الرجل الذي تراه كتمناً لها ، على كثرة من تقدم لخطبتها من سادات قريش وسراتها . ثم ما أن التفت به بمحمد ، حتى رضيت به زوجها ، لصفات الطيبة الكريمة التي تحدث بها الناس عنه . وخبرتها هي فيه ، حين اتجر لها في مالها ، في رحلة من رحلات قريش إلى الشام .

ولم يكن هذا شأن من خالطوا « محمداً » ، وعاشروه من أهل وعديق ... بل إن ذلك كان شأن أهل النظر والبصيرة ممن يطالعون وجه « محمد » ، أو يلتقون أخبار محمد على السماع ، ويعرفون منها بعض الجوانب المشرفة من حياته ، وكل جوانب حياته مشرق وضوء !

حدث أبو سفيان بن حرب - على ما كان بينه وبين النبي من عداوة قبل أن يدخل في الاسلام ، وما بقي في قلبه من بقايا هذه العداوة بعد أن أسلم - حدث أبو سفيان هذا فقال :

« إن هرقل - ملك الروم - أرسل ليه في ركب قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماداً (١) فيها أبو سفيان وكهنا قريش ، فأتوه وهم بإيليا (٢) ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله وجوه الروم ، ثم دعاهم . ودعا بترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي قال أبو سفيان : فقلت أنا أفريهم نسباً . فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إنني سأئل عن هذا الرجل - أي النبي - فإن كذبني ، أي أبو سفيان - فكذبوه - .

(١) أي في المدة التي كان قد جعلها صاح الحديبية فترة سلام بين المسلمين وكفار قريش

ومي عشر سنين .

(٢) بلد بأطراف الشام من جهة الجزيرة العربية .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه (١) ، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آباءه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أين يدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون ،

قال : فهل يرتد أحد منهم من سخطة لدينه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تهيمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن معه في مدة (٢) لا ندري ما هو

فاعل فيها ؟

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فسكيف كان قتاله إياكم ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا

وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشرکوا به شيئاً ،

واتركوا ما يقول آباؤكم ، وأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال لترجمانه : قل له ، سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب فيكم ، وكذلك

الرسول تبعث في نسب قومها . . . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى

(١) هكذا في البخاري ، والفعل « كذب » يتعدى بعلى .

(٢) يقصد مدة الصلاح



بقول قيل قبله .. وسألتك هل كان من آباءه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت :
فلو كان من آباءه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، . وسألتك : هل كنتم
تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن
ليذر الكذب على الناس . ويكذب على الله . وسألتك : أشرف الناس اتبعوه
أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . . وسألتك :
أيزدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ،
وكذلك الإيمان حين تخالط بشائمه القلوب . وسألتك : هل يندرو ، فذكرت
أن لا ، وكذلك الرسل لا تندرو ، وسألتك : بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم
أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبها كم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة
والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ..
وقد كنت أعلم أنه خارج (١) ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم كيف أخلص
إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لفلسلت عن قدميه (٢) .

فهذا ما شهد به أبو سفيان - قبل أن يدخل في الإسلام - من أحوال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صفاته وشمائله ، التي كان عليها قبل أن
يوحى إليه ، وهي أحوال وشمائل قد استدل منها هرقل ، - على السماع -
على أنها أحوال وشمائل لا تسكون إلا لني !

وعن الترمذي أن عبد الله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس
بوجه كذاب . »

وعن أبي رزمة التيمي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعى ابن لى ،
فأريته ، فلما رأته ، قلت هذا نبي الله ! .

وروى مسلم : أن « ضاداً ، لما وفد على النبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣)

(١) أى سبعت نبي في هذا الوقت

(٢) من صحيح البخارى

(٣) كان من سنة الوفود التي وفد على النبي لإعلان الاسلام أن يقوم خطباًؤها وشعراًها بين
يديه ، يقولون ما أعدوا لهذه المناسبة . فيندب النبي من أصحابه من يرد عليهم ، وكان
أحياناً يتولى هو ذلك - صلى الله عليه وسلم .

« إن الحمد لله ، نحمده و نعتبه ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... » ، قال ضحاد : « أعد على كلماتك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر » (١) ... هات يدك أبايعك . »

وعن الجندي — ملك عمان — لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، قال والله لقد داني على هذا النبي الأُمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذه به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يمتجر ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي ، لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كان منظره يذيبك بالخبر

محمد ... والوحي :

كان أكبرهم أولئك الذين صوبوا سهامهم إلى سيرة النبي أن يقطعوا صلته بالسماء ، وأن ينفوا عن القرآن أنه كلام الله . وأنه كتاب سماوي لشريعة الإسلام !

ثم لا سرج عندهم بعد هذا في أن يسلّموا و لمحمد ، بكل شيء ليكون مشرعاً عظيماً... ويكون فاتحاً كبيراً ويكون مصلحاً ناجحاً ويكون كما يشاء ويشاء له أتباعه ، إلا أن يكون نبياً ، ورسولاً ، وإلا أن يكون كتابه منزلاً من السماء متلقى من رب العالمين .

وقد قلنا من قبل إن غاية هذا المسكر الحديث أن ينفى عن شريعة الإسلام صفة القداسة ، وأن ينزلها منزلة الشرائع والمذاهب الوضعية ، ليكون ذلك داعية إلى الجرأة على العبث بها . وجعلها في معرض التجريح والتعديل ...

هذا ويتخذ الغربيون من الحالات التي كانت تعترى النبي عند نزول الوحي

(١) قاموس الشيء عمقه ،

ذريعة للطعن في حقيقة الوحي ، والتشكيك في الصلة التي يمكن أن تكون بين
« محمد » وبينه .

ومن عجب أن يعول الغربيون في دراستهم لأحوال النبي مع الوحي على
الاحاديث والأخبار التي رواها الثقات من المسلمين عن الرسول أو شاهدها
منه عند الوحي — من عجب أن يكون هذا هو مصدر علمهم بالحالات التي
كانت تعرض للنبي ، ثم يجعلون هذه الأحوال دليلاً على نفي الوحي الذي كانت
هذه الحالات أعراضاً له . وسواهد عليه .

وقد يكون من المستساغ أن يخلى هؤلاء الغربيون أيديهم من الاحاديث
والأخبار التي تحدث عن الوحي ، وعن الأحوال التي كانت تعرض للنبي منه ،
ثم لينسجوا من مقولاتهم ما يشاءون للطعن في حقيقة الوحي ، وفي صحة ما يوحي
به فذلك على ما فيه من تلفيق ، وتزييف أقرب إلى المنطق من معالجة الحقائق
الثابتة ، وتحويلها إلى مخلوقات من الباطل الصريح ...

إن خلق الشيء ابتداءً أيسر من إقامته على أنقاض شيء آخر ... هو بناء
من أول الأمر ، ولو كان ذلك البناء على شفا جرف هار ... أما الخلق الآخر فهو
هدم وبناء معاً ... يهدم ثم يبني ؟ الأول عمل واحد ، والآخر عملان ؟

والغربيون كما عرفنا في مواقف كثيرة يختارون دائماً في محاربتهم للإسلام
هذا الأسلوب في خلق الأباطيل ، ورمى الإسلام بها .

فهم يعتمدون إلى الحقائق الثابتة من أوثق المصادر الإسلامية ، ثم يتناولونها
كما يتناول الحيوان فريسته بمخالبه وأنيابه ، حتى إذا سال دمه ، وخذت أنفاسها
وتناثرت أشلاؤها ، حاولوا أن يجمعوا من أشلاء هذه الحقائق كائناً آخر هو
هذا الباطل ، الذي يريدون أن يقيموه مقام الحق !!

وهم هنا في حقيقة الوحي يعتمدون إلى الاحاديث المروية عن الرسول ،
والأخبار المشاهدة من أحواله مع الوحي ، ثم يصوبون إلى هذه الاحاديث
وتلك الأخبار سهاماً مسمومة ، يجر فون بها الكلم عن مواضعه ، ليفسحو الباطلهم
مكناً يشوه الحقائق ويشوش عليها .

فن الأحاديث والأخبار المروية عن الوحي الذي كان ينزل على النبي ،
والصور التي كان يأتي عليها ، والأحوال التي كانت تعرض للنبي منها . . من هذه
الأحاديث :

ما يروى عن السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه
وسلم : « كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصمة الجرس ،
وهو أشده علي ، ثم ينصم عنى وقد وعيته ، وأحياناً ملك (١) في صورة الرجل ،
فأعنى ما يقول (٢) . »

ويروى عن السيدة عائشة أيضاً أنها كانت تقول : « إن كان لينزل أرى
يوحي — على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغداة الباردة ، ثم تفيض جبهته
عرقاً (٣) . »

وعن عبادة بن الصامت قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه
الوحي كرب لذلك وتردد وجهه . .

فالحالة التي كان يتلقى فيها النبي الوحي حالة تستدعي مجاهدة روحية ، ونفسية
وجسدية ، كي تفتح له هذه المجاهدة حالاً مناسبة للعالم الروحي الذي يتصل به . .
لأنه لقاء بين طبيعتين مختلفتين .. طبيعة بشرية ، وطبيعة ملكية . ولا بد أن يحدث
هذا اللقاء احتكاكاً ، وتفاعلاً ، وفوراناً .. في الطبيعتين على السواء . .

يقول ابن خلدون فيما يعرض للأنبياء عامة عند تلقى الوحي . . « وعلامة
هذا الصنف — أي الأنبياء — من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن
الحاضرين معهم ، مع غطيظ ، كأنها غشى أو إغماء في رأى العين ، وليست
منهما في شيء ، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني ، بإدراكهم
المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية :
إما بصحاح دوى من الكلام فيتمهمه ، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء

(١) في البخارى : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمنى وأعنى ما يقول .

(٢) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

(٣) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

به من عند الله ، ثم تنجلي عنه تلك الحال . وقد وعى ما ألقى إليه . . ويدركه أثناء ذلك من الشدة والبط مالا يعبر عنه . . ففي الحديث : « كان مما يبالغ من التنزيل شدة » . وقالت عائشة : « كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا . . » وقال تعالى : « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » .

ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون : له ربي ، أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال (١) .

ثم يقول ابن خلدون : « وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة : فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ، وفزهم عن موانع البنن وعوائقه ماداموا ملايسين لها بالبشرية ، بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة — أى الوجهة المسكينة — وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكلف بتلك الوجهة ، وتسييح (٢) نحوها . . فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا — بتلك الفطرة التي فطروا عليها ، لا باكتساب ، ولا صناعة . . فلهذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم ، وتلقوا في ذلك الملاء الأعلى ما يملقونه ، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها ، لحكمة التبليغ للعباد . . فتارة يسمع دويأ كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه ، وفهمه . . وتارة يتمثل له الملك الذي يلقى إليه رجلا فيكلمه ويعنى ما يقوله . . »

« والتلقى من الملك . والرجوع إلى المدارك البشرية . وفهمه ما ألقى عليه — كله في لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس في زمان ، بل كلها تقع جميعاً ، فتظهر كأنها سريعة ، ولذلك سميت وحياً ، لأن « الرحي » في اللغة الإسراع .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨

(٢) في الأصل تكشف ، وتسيح ، وهو تحريف .

واعلم أن الأولى وهي حالة الدوى هي رتبة الأنبياء غير المرسلين - على ماحققوه - أي العلماء - والثانية - وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب - هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى ، وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام ، وقال : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول . . . » .

ولأنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر . . . ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيظ ما هو معروف . . . وسبب ذلك أن الوحي - كما قررناه - منارة البشرية إلى المدارك الملكية ، وتلقى كلام الملك ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقها إلى الأفق الآخر ، وهذا معنى الغبط الذي عبر عنه في مبدأ الوحي في قوله : « فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ . وكذا ثانية وثالثة ، كما في الحديث . . . »

وقد ينضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن ، وسوره ، وآيه - حين كان بمكة - أقصر منها وهو بالمدينة .

« وانظر إلى ما نقل - أي روى - في نزول سورة « براءة » في غزوة تبوك ، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه ، وهو يسير على ناقه ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت ، وينزل الباقي في حين آخر . . . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن ، والذاريات ، والمدثر ، والنضحى ، والفلق ، وأمثالها . . . » (١) .

(١) مقدمة ابن خلدون . . . ص ٩٤ .

وواضح من هذا كله أن الأحوال التي كانت تظهر على النبي في وقت تلقي الوحي هي من مستلزمات هذا الاتصال الذي يقع بين إنسان ومملك .. بين طبيعتين مختلفتين ؛ يراد منهما أن يتلاقيا ، وأن يتجاوبا ..

والجدير بالنظر هنا ما لاحظته ابن خلدون من التفرقة بين حالات الوحي التي أشار إليها النبي حين سئل : كيف يأتيه الوحي ، فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني . وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . ، والحالة الأولى وهي حالة الإدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين — كما يقول ابن خلدون — والثانية ، هي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى . . .

هذه بعض الأحاديث والأخبار التي روتها كتب السيرة في شأن الوحي واتصال النبي به ، والتي اتخذ منها الزبيريون مادة لخلق المفتريات والأكاذيب ، للطنن في رسالة الرسول ، والتشكيك في صدق ما جاء به ، إذ كان عندهم أن ذلك الذي نطق به النبي وسماه فرآنا ، ليس إلا هذيان محموم ، وإلا تقيأت مصروع ، أو مجنون .

وشاهدكم على هذا ؛ تلك الأحوال التي كانت تعرض للنبي حين ينزل عليه الوحي ، ويلقى بما أمر الله به أن يلقيه إليه ١ .

وأعجب ما في هذا الموقف من أولئك القائلين بهذا القول أنهم يلتفتون من الآيات والأحاديث والأخبار كلمات يقطعونها من الكيان الكلي للحقيقة . ويحولونها عن السياق الذي تجرى فيه . ثم يبنون عليها ما يبنون من أوهام وأكاذيب ١

والذي كان يقتضيه الأسلوب العلمي في البحث عن الحقيقة هنا هو التثبت أولا من هذه الآثار ، والوصول إلى حكم قاطع فيها وفي مصادرها .. أي صداقة أم كاذبة .. ؟ ثم يأتي بعد ذلك دور التطبيق لها ، والتعامل بها .. فإما أن تقبل

جميعها ، أو ترد جميعاً . . . أما أن يؤخذ من الخبر بعضها ، ويترك بعضه ، فذلك هو التفتيق الذي لا تقوم به حقيقة أبدأ ،

فهذه الأحاديث والأخبار التي يأخذ هؤلاء الكتاب شاهدهم منها : . ما رأيتهم فيها ؟ وما مقدار اطمئنانهم لإليها ؟ أي من الوثائق التاريخية المحررة في نظرهم ؟ أم هي أحاديث موضوعة مكذوبة ؟ فإن كانت الأولى كان المنطق يقضى بأن يأخذوا بها ، وبكل ما جاء فيها ، وإن كانت الثانية طرحوها ، وبخسوا عن وثائق أخرى ، يجحدون فيها الصدق الذي يطمئنون إليه . . . أما أن يحملوا هذه الاختبار بهذا المكان الذي تتلاعب به عواصف الأهواء ، فيؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها ، ويأخذون بعضاً ويدعون بعضاً ، حسب ما تدعو دواعي الهوى من أنفسهم فذلك أسوأ موقف يفقهه عالم أو باحث . . . وقد أنكر الله سبحانه هذا الموقف الخبيث من اليهود ، وتوعدهم الخزي في الدنيا : والعذاب الشديد في الآخرة .

فقال تعالى : « أفترءون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » (١) .

والخزي الذي توعد الله به اليهود في الدنيا بسبب فعلتهم هذه ، هو خزي يمسبب كل من يقف هذا الموقف في مواجهة الحق ، حين يتم استدلالات الباطل على ما يختلس من معالم الحق .

الحق والباطل :

ولو أننا تركنا هذه المفتريات جانباً ، وضربنا صفحاً عنها ، دون أن نلثفت إليها أو نلثت الأنظار إلى زيفها وزورها لما وقع عندنا أن أحداً يعقل - مجرد العقل - ويفهم - أدنى الفهم - يأخذ بهذه المقولات ، ويضيف شيئاً منها إلى سيرة النبي الكريم .

(١) سورة البقرة آية ٨٥

فإن أدنى درجات النظر إليها تفننوها ، وتكشفت عوارها ..

وذلك ، أنها إنما استمدت حياتها ووجودها من مصادر إسلامية ، تؤمن بالنبي ، وتؤمن بالرسالة التي جاء بها من عند الله ..

وليس يصح في عقل عاقل أن تجيء المصادر الإسلامية بما يتهم الرسول بالصرع والجنون ! ثم لأنه من جهة أخرى ما كان للتاريخ أن يحتفظ في صدره بهذا السجل الضخم من الأخبار والأعمال لمصرع أو مجنون ؟ وما كان لجماعة من الجماعات الإنسانية أن تتعلق بمجنون أو مصرع هذا التعلق ، وتفند به بالمهيج وبالسال والولد !

يكفي هذا وحده في فضح هذا الزور . وإلباس أهله لباس الخزي والذي ألبسه الله اليهود الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه !

« وما صاحبكم بمجنون ، » .

لقد استخزي بعض من كتاب الغرب أن يقف هذا الموقف الأحمق ، وأن يبدو للناس عارياً لا يستره شيء في ضوء الشمس وفي رابعة النهار .. فإن الذي يجعل القرآن أو الحديث دليلاً ومستنداً ثم يعود إلى هذا الدليل والمستند فيمزقه ، ويلقى به في عرض الطريق أشبه بمن يلبس حلة زاهية معجبة يخرج بها على الناس ثم ينزعها عن جسده ، ويرمي بها في التراب ، ولو أنه خرج إلى الناس عارياً من أول الأمر لكانت فعلته تلك أقل شناعة ، وأهون خطباً .. ولوجد . . على أقل تقدير - من يعتذر له أي عذر .. كأن يقول قائل : مسكين ! ليس عنده ما يستره ! أو خائف مذعور أعجله الخوف والذعر عن أن يرتدى ما يستره !! أما أن يكون وملايسه تأخذ مكانها من جسده ، ثم ينزعها ، وينخلع عنها ، لا لشيء إلا لأنه لا يريد لها - فذلك هو الضلال البعيد ، والخزي المبين !

وإذا كان كثير من كتاب الغرب قد استبدت به حمى الكراهية للإسلام ، فلم يبال أن يضحي بحياته ، ولم يستكف أو يتجرد من ملايسه على أعين الناس ؛ فإن بعضاً من الكتاب الغربيين لم يجدوا في قلوبهم الجرأة على أن يقفوا هذا الموقف ،

وأن يدعو على رسول الإسلام أنه مصاب بالصرع والجنون . قائمين شهودهم على هذا الادعاء من كتاب الله وسنة رسول الله .

فهذا الكاتب الفرنسي : « إميل درمنجم » يقول في كتاب « حياة محمد » في معرض الحديث عن الصرع أو الجنون الذي يرميه به إخوانه من كتاب الغرب - يقول :

« غفل المشغولون بأمور النفس الخصريون الذي افترضوه - أي القرآن - من الصرع ، والاستيحاء ، والخيال المتقدم - غفلوا عن حياة الخيام في الصحراء ، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الخلق والدهاء ليبيق زعيماً بسيطاً لعصبة من الأعراب .

« حياة محمد منتظمة ، موزونة . قبل بعثته بما يشمل النظر - أي في جميع أموره كلها التي تقع تحت الملاحظة والنظر - وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا في حالات الوحي » .

ثم يحىء الكاتب بشاهد من التوراة ، لحال نبي من الأنبياء في حال الوحي وما كان يعتريه في تلك الحالات من تغيرات جسدية ونفسية .. يقول :

« قال أرميا : « نسيق قلبي في وسطى ، ارتخت كل عظامي ، صرت كإنسان سكران ، ومثل رجل غلبته الخمر ، ومن أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » . ومثل هذا ما قاله « عاموس » المدثر ببردته كمحمد » .

ثم يقول :

« ولم تنشأ رؤى محمد ووصيه عن مرض فيه ، بل كانت تبدو عليه علامة المرض بسبب الرؤى والوحي » .

ويقول :

« وهناك عوارض مشتركة بين مريض الأعصاب أو المهوس ، وبين الموحى إليه الصادق : الأول منفعل غير فاعل . والآخر مبدع فاعل ..

ويقول :

« والحق أن محمدًا ، كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام ، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن السكال ، ولم تبدأ العوارض عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحي .

« وكان لمحمد بالوحي آلام كبيرة ، وكان لمحمد بالوحي حالات مؤثرة ، كره أن يطاع الناس عليها ... ولاحظ أبو بكر ذات يوم - والحزن ملء قلبه - بدمه الشيب في لحية النبي ، فقال له النبي : « شيبتي هود وأخواتها : الواقعة ، الحاقة ، والقارعة ، .

« وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه ، فيطبه بالمرامح . وكان يتدثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين ، (١) .

هذا ما يقوله لإميل درمنجم في كتابه « حياة محمد ، ... »

ولا تحسبن أنه يكتب عن محمد بمأظفة من عواطف الحب والولاء لهذا النبي العظيم ، بل لأنه لا يقل عن غيره من كتاب الغرب تعصباً على الإسلام ونبي الإسلام ، فإن كتابه هذا مليء بالغمزات المسمومة ، والوخزات المخدرة . ولكنه هنا أمام هذه الحقيقة السافرة لم يستطع أن يخفى تحت أضواءها شيئاً .

ولا نريد أن نعيد القول مرة أخرى في دفع هذه المفتريات التي اقترأها الغربيون على رسول الله . وصوروا بها الحال التي كانت تعرض له عند الوحي . فإن هذه المفتريات كما قلنا ، لا تنمساك عند تقليبها والبحث فيها ، بل لأنها لتنهار كما ينهار بناء من الرمل على الرمل .

أبجذون مصروع يبني دولة ، ويذشء نظاما ، ويقم ديناً يعيش في أجيال الناس ، منذ قام إلى اليوم ، دون أن يضاب بنكسة أو خلال ؟ أبجذون مصروع يشب هذه العواصف العاتية المزججة وحيداً في وجه أمة صخرافية النفوس ، صخرية الطباع ، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام علييلة ، وريح رخاء ؟

(١) حياة محمد لإميل درمنجم . . ترجمة عادل زعير . . ص ٢٨٢

أجنون مصروع ذلك الذي يحمل تلك الشعلة السماوية المقدسة بين يديه ،
ثم يلقى بها الأعاصير الهوج .. هكذا أكثر من عشرين عاما حتى تهدأ العاصفة ،
وتسكن ، ويجتمع الناس على أضواء تلك الشعلة ، ويقبسون منها ؟

ثم !

ثم أجنون مصروع مختلط هذا الذي يأسر قلوب معاشريه ، ويملك أنفسهم ،
فإذا القلوب خافقة بحبه ؛ وإذا النفوس لا تعرف غذاءها إلا من يبايع الحب
والولاء ، والتفاني ... ؟

إن التاريخ لا يذكر في سجله يوما أن إنساناً كان له في الناس رصيد من
الحب والولاء ما كان لمحمد من ولاء وحب !

في بيعة الرضوان ، ومعسكر الرسول بالحديبية ، يريد دخول مكة ؛ زائراً
للبيت الحرام - بعث قريش عروة بن مسعود الثقفي ، ليجد مع النبي سهيلاً
إلى الخروج من هذا الموقف . قال النبي والمسلمون معه يريدون دخول مكة ،
وقريش تأتي عليهم ذلك . . وقد التقى عروة بالنبي ، وتحدث إليه ، ورأى عن
قرب ما للرسول الكريم عند أصحابه ، وما في نفوسهم من حب وولاء . لا يتوضأ
النبي إلا ابتدروا وضوءه ، ولا ييضق بصاقاً إلا تسابقوا إليه ، ولا يسقط من
شعره شيء إلا تهافتوا عليه ، رأى عروة هذا رأى العين . . فلما عاد إلى قريش ،
قال : يا معشر قريش : إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ؛
والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد ، في أصحابه
ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً . . فروا رأيكم ، (١) .

وخذ هذا الحادث شاهداً مع الألوف المألفة من أمثاله :

وقع خباب بن عدي في يد قوم من أعداء المسلمين قبل الفتح ، وأراد
هؤلاء القوم (٢) أن يتقربوا إلى قريش بهذا الأسير ، وبصاحب (٣) له ، ليكون

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٥٦

(٢) هؤلاء القوم هم حي « عضل والقارة » من قبيلة قزارة ، ويضرب المثل بغيرهم .

(٣) صاحبه هو زيد بن الدثنة .

في ذلك بعض الشفاء لما في قلوبهم من موقعة بدر ، وصرعاهم فيها . . . وحين
قدم خياب للقتل ، قال له أبو سفيان : « أيسرك أن ، محمداً ، هنا ، تضرب
عنقه ، وأنتك في أهلك ؟

فقال خياب :

لا ، والله ما يسرنى أنى في أهلى ، وأن « محمداً » في مكانه الذى هو فيه ،
تصيبه شوكة تؤذيه (١) .

فانظر إلى هذا الحب الذى لم تعرفه الحياة من قبل ا .

رجل بين النطع والسيف ، يهيج فيه أبو سفيان غريزة الحب للأهل والولد
في تلك الساعة ، والموت منه بمرصد ؛ على أن يكون « محمد » مكانه في ساحة
الموت ، فيندفع خياب يهدر في غيظ وحنق : لا ، والله . . لا أرضى أن يكون
محمد في مكانه وتصيبه شوكة تؤذيه .

أهذا هو ميزان المجانين والصرعى في حساب الإيثار والتضحية ؟ إن يكن
ذلك هو الواقع فرحى بالجنون وبالصرع .

ثم هناك شاهداً آخر ، ربما كان أكبر في دلالاته على معنى الإيثار والحب
عما فعل « خياب » وإن كان المبدول هناك النفس ، والمبدول هنا حركة من حركات
النفس المنطوية على أسمى معانى الإيثار ، والحب ، والولاء .

فهذه « أم حبيبة » زوج النبي ، وبنت أبي سفيان ، يلقاها أبوها في منزل
الرسول بالمدينة ، قبل أن يدخل الإسلام ، وقد جاء موفداً من قريش ليوثق
الهدنة التي كانت بين قريش وبين المسلمين ، ولتزيد في أمدها .

وليس هذا هو المهم في الأمر . . . وإنما المهم هو الآتى :

عندما دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة ، زوج النبي ، أراد أن يجلس ،
ولم يكن غير فراش الرسول شياً يمكن أن يصلح للجلوس — فهم أن يجلس

(١) زاد المعاد — جزء ٢ ص ٢٧ .

على هذا الفراش ، ولكن ابنته ردت به عنه وطوته دونه ، فقال : يا بنية .. ما أدري ... أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك .. نجس ا ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر (٢) ؟ » .

أفهدا لإخلاص وحب تبذله امرأة لزوج مختلط أو مجنون ا فلا تمكن أحداً أن يجلس على فراشه ؟ ومن هذا الأحدا ؟ لأنه أبوها ، ومن هذا الأب ؟ لأنه أبو سفيان ، سيد سادات قريش ، وصاحب عيرها ، ونفيرها . . ثم بعد هذه النية الطويلة التي لم تر فيها الإبنة أباه ، السيد المطاع ا إن حرارة اللقاء بين الإبنة والأب لم تنهلها عن هذا الذي يقوم في نفسها من فارق كبير بين ليمانها بالرسول الزوج ، وحبها لأبيها الزعيم ا

وخذ مثلاً ثالثاً ، وما أكثر الأمثال هنا . . ولكن هذا المثل فريد في بابه ، ولا نظن أنه يقع على تلك الصورة إلا في هذه الحالة التي وقع فيها .

فالمرأة هي المرأة دائماً في موقفها من ضررتها ، لا ترجع في خصومتها لضررتها أو ضررتها إلى عقل ، ولا تحتكم إلا منطق ، ولا تفيء إلى حق . . وإنما هي عداوة دائمة بسبب وبلا سبب ، وخصام متقد بحق ، وبغير حق . . إن المرأة هنا تدافع عن وجودها بكل سلاح . . فمن غير المعقول أن تستجلب المرأة ضرة لها تشاركها حظها من زوجها . . ولكن هذا هو الذي حدث . . وقد حدث على نحو غريب فريد . . أشبهه بالخوارق من الأمور .

وأم حبيبة ، زوج النبي وبنيت أبي سفيان هي صاحبة هذه الواقعة ا

جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعرض عليه أن تزوجه من أختها (رملة) بنت أبي سفيان ا . . فقالت : يا رسول الله . . هل لك في أختي . . بنت أبي سفيان ؟ فيقول الرسول الكريم : « أفعل ماذا ؟ » فتقول : « تزوجها » ا

فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أو تحبين ؟ » فتقول : « ليست بمخلية ، (١) وأحب من يشاركني في الخير أختي ؟ فيجيبها : « فإنها لا تحل لي ، (٢) .

إنه خير كثير يتلقاه بغير حساب من يعيش في صحبة الرسول ، ويسكن إلى جواره ... وقد سعدت أم حبيبة بهذا الخير الوفور ، وفاض بين يديها ، وملائم عليها وجودها ، وهي واحدة من نساء تسع كن يشاركنها هذا الخير ، إلى جانب هذا المجتمع الكبير من صحابة رسول الله ، الذين كانوا يردون موارد العذبة الصافية ويرتوون منها . . ومع هذا فقد كان في هذا الخير الضيق متسع ل هؤلاء جميعاً ولنغيرهم . فأرادت أم حبيبة أن يكون لأختها نصيب من هذا الخير ، وحظ من تلك السعادة .

وليس الخير الذي تريد أم حبيبة أن تنال أختها منه هو من حظوظ الحياة المادية ومتعها . . فقد كانت الحياة المادية في بيت الرسول حياة قاسية فيها جوع ، وحرمان كثير . . وكان ما في بيت أبي سفيان من مطالب الحياة شيء كثير ، وليس في بيت النبي شيء منه . و « أم حبيبة ، عرفت الحالين . . حالها في بيت أبيها ، وما ذاقته فيه من ألوان الحياة الرخية الناعمة . . فهل كانت تطلب لأختها التي تود لها حياة أطيب وأكرم من حياة أبيها — هل كانت تطلب لها إلا هذا الغذاء الروحاني الذي ذاقته هي عن قرب ، وعرفت ما يجد الإنسان فيه من سعادة غامرة ، ونعيم سابغ ؟

وهل يجد أحد في جوار مجنون أو مختلط شيئاً يستريح له ويمناً به ؟ أيعرف الناس شيئاً من هذا قد وقع في الحياة على تلك الصورة من مجنون أو مصروع (٣) ؟

نعم . . إن علماء الغرب قد أفتاهم علمهم بهذا في موقفهم من نبي الإسلام ، ودراستهم لأحواله في أصق ساعات حياته — وكل حياته صفاء — وهي ساعة اتصاله بالوحي ، وتلقيه كلمات رب العالمين . . ١

(١) أي أنها لا تحل مكانها ، بل تظل حيث هي في مكان الزوج للرسول .

(٢) زاد المعاد جزء ١ — ص ٥٦ .

ثمار الصرع والجنون :

وإذا غفرنا لعلماء القرون المسابية أخطاءهم المتعمدة أو غير المتعمدة — في تخريبهم للعوارض الجسدية التي تعرض للجائين والصرعى ، وفي خلطهم بين حالات الصرع والجنون ، والحالات التي تشرق فيها النفس حين تلبسها لمسة من لمسات العبقريّة والذكاء — إذا غفرنا لأبناء القرون الوسطى هذا الخلط . فإننا لن نجد سبيلاً يتجه به الغفران لأبناء هذا العصر ، حين يجرون على ما جرى عليه أسلافهم في هذا الشأن . . إذ قامت الدراسات النفسية في العصر الحديث بكشف أعماق النفس ، ورصد أحوالها حالاً بعد حال ، وقد أعان التقدم العلمي الحديث — وخاصة علم التشريح ووظائف الأعضاء — أعان هذا إلقاء أضواء كثيرة على النفس الإنسانية ، والتعرف على كثير من أسرارها .

على أن الأمر هنا لا يحتاج إلى تعمق في الدراسات النفسية ، ولا إلى استدعاء لسلك المقررات الحديثة في علم النفس ، ليعرف الفرق بين عوارض الصرع والجنون . وبين حالات الإشراق النفسي ، والمصحو الوجداني . .

وللسيخ — عليه السلام — كلمته المأثورة : « من ثمارهم تعرفونهم ، . . ويكنى هنا أن يلقى الرء نظرة على الحصاد الذي تحصده الحياة من عالم الصرعى والجائين ! إنه حصاد فكك ، ليس فيه شيء ينتفع به . . إنه أشبه بالنار ترعى في هشم كل ما يتردد منها دخان . لا حرارة فيه ، ولا نور معه . . ! ماذا يجرى على أفواه الجائين والصرعى ، وماذا يخرج من بين أيديهم ؟ عبث وهراء . لا يقف عنده أحد ، ولا تلتقطه أذن !

وحسب من يطلب شاهداً حياً لهذا أن يذشى مصححاً للأمراض العممية ، ويميدش مع أهله ساعة من نهار ! إنه سيهرود موقراً بما ثقل حمله ، ورخص ثمنه ، من ترهات قد لصقت به ، وارتسمت في رأسه . من هذا الضجيج والمصخب ، ومن هذا الهديان والعبث ! هذا ، في حين أننا نجد أعمالاً رائحة خالدة لأناس كانت تلبسهم حالات من العوارض الجسدية التي تخيل إلى من يراهم أنهم على حال غير الحال المألوفة في حياة الناس !

(م ١٠ — النبي محمد)



إن كثيراً من أصحاب العبقريات وأرباب الننون تمرض لهم أحوال يضطرب لها كيانهم الجسدى ، ويعتريهم فيها نوبات أشبه بنوبات المرح . ولكنهم مع هذا تجدهم فى أصنى أحوالهم الذهنية ، وفى ألمع حالاتهم العقلية . انهم فى تلك الحال يعانون حالا من أحوال «الإنتاج» الفكرى الرفيع ، الذى لا يلبث أن يتمخص عن مولد رائدة من روائع الفن ، أو عروساً مجلوة من عرائس الفكر !

وإن الفرق واضع أشد الوضوح بين تخبظات المجانين والصرعى ، وبين تهويم المتنازين والعباقرة وترنحاتهم !

يذكر تاريخ الأدب العربى عن «البحترى» أنه كان إذا أُنشد شعره فى مجلس يستمع إليه الناس فيه ، استبد به الطرب ، وغلبته الذنوة ، وجعل يذود ويروح « ويتأيل يمينا وشمالا ، ويهدر كما يهدر البعير ، وهو يقول لسامعيه: مالكم لا تعجبون؟ مالكم لا تطربون؟

منظر عجيب .. لا يشك من لم يكن يعرف «البحترى» من قبل ، أنه فى حضرة رجل مجنون أو معتوه !

ولكنها حال من الوجد أشبه بحال من لعبت برأسه الخمر ، واستبد به السكر !

إنها حال - كما قلنا - تتألى فيها ملكات الإنسان ، فتصفو نفسه ، ويصحو وجدانه ! ولا تقاس هذه الحال - مهما تبلغ من السكال والاعتدال - إلى ما يكون عليه النبى فى حال الاتصال بالوحى والتلقى عنه ..

إن النبى فى حال الوحى فى نشوة روحية غامرة .. لأنه يعب عباً من أنوار السماء .. إنه يشرب من خمر لا لغو فيها ولا تأثيم !

إن التفرقة بين تخبظات المجانين والصرعى ، وبين هزات الانتشاء الروحى والإشراق النفسى - ليست بالأمر العسير الذى يحتاج إلى علم غزير ، وإلى دراسات عميقة .. إذ أن شقة الخلاف بين الحالين بعيدة ، ومدى التفاوت بينهما طويل ممتد ، وبأدنى نظر يستطيع الرء أن يعرف الحق والباطل ، ويميز بين السليم والسقيم !

ابن صياد واختبار النبي له :

وقد كانت للنبي الكريم تجربة كاشفة لحال من الهوس الذي يركب بعض الناس ، ويلقى على ألسنتهم أخلاطاً من القول ، يختلط فيها العقل بالجنون ، والحكمة بالهوى ، والحق بالاضلال . فيحسب بعض الناس أن ذلك عن تلقينات غيبته ، ويلتمسون لذلك تفسيرات وتخريجات ، يقيمون عليها ما اعوج من القول ، وما اضطرب من الرأي !

و ابن صياد ، هذا يهودى ، كان من أصحاب الشطحات والتخرصات في زمن النبي ، وقد لفتت حاله أنظار كثير من الناس ، وأرتمهم فيه رأياً .. وتحدث كثير من المسلمين أنه المسيح الدجال ، . وكثر القول فيه ، والاختلاف عليه بين معتقد فيه ، ومتهم له ، أو متوقف في أمره !

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يختبر حاله ، ويبلو ما عنده... ليكشف حقيقة أمره للمسلمين ..

ففي صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بمسيبان فيهم ابن صياد ، ففر المسيبان : وجلس ابن صياد ! . فسكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره ذلك . فقال له صلى الله عليه وسلم : تربت يدك... ألتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : لا . بل تشهد أنى رسول الله ! فقال عمر بن الخطاب : ذرنى يا رسول الله حتى أقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكن الذى ترى (١) ، فلن تستطيع قتله .

وفى رواية أخرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بابن صياد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد خبأت لك خبيئاً فقال : « دح » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ ، فلن تعدو قدرك ، فقال عمر يا رسول الله : دعنى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . دعاه

() الذى ترى : أى الذى تظن ، وكان عمر يحسب أنه الدجال .

فإن يكن الذي تخاف لن تستطيع قتله، .. وعن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط قبل ابن صياد، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بنى مغالة^(١) وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره بيده، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد: أتشهد أني رسول الله، فقال: أشهد أنك رسول الأمين، ثم قال ابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال: آمنت بالله وبرسوله، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا ترى؟ قال ابن صياد: يا تيني صادق. وكاذب: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: خلط عليك الأمر، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني قد خبأت لك خبيثاً، فقال ابن صياد هو الدخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخسأ فلن تمدو قدرك، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: أضرب عنقه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن يكنه^(٢) فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله.

« وعن سالم بن عبد الله، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول: انطلق بعد ذلك — أي بعد الحال التي رآها الرسول من ابن صياد — رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبن بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صياد، حتى إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل، طفق — أي الرسول — يتقى بجدوع النخل، وهو يختل^(٣) أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو منضبط جمع على فراش في قطيعه، له فيها زمزمة^(٤)، فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يتقى بجدوع النخل فقالت لابن صياد «يا صاف» وهو اسم ابن صياد: هذا محمد،

(١) الأطم بناء مرتفع، وبنى مغالة بطن من الأنصار.

(٢) أي إن يكن هو الدجال.

(٣) أي يخفي أمره عليه، ويخفيه من حيث لا يشعر به.

(٤) الزمزمة: الصوت الخفي، لا يكاد يسمع.

فشار (١) ابن صياد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركته بين . . .

قال سالم ، قال عبد الله بن عمر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال بلى لا نذكر كوه ، ما من نبي إلا وقد أنذره قومه ، لقد أنذره ، نوح قومه ، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي : تعلموا — أي اعملوا — أنه أعور ، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور (٢) .

وابن صياد هذا دعوى كاذب ، قدر ركبته جنة ، فجعل يخبط ، ويخرف ، فتند منه بعض كلمات ، تبرق فيها بوارق يحسبها كثير من الناس من متنولات النيب ، وما هي في حقيقتها إلا من لمعات الخيل والجنون ؛ وكم للخيل والجنون من لمعات ولكنها لمعات أشبه بلعان السراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وقد قتن الناس على عهد الرسول بابن صياد هذا ، لما كان يأتي من ضروب الخلط التي تبرق منها بروق كواذب ، وحسبوا أنه هو الدجال الذي أنذرهم الرسول به وحذرهم إياه .

وسرعان ما انكشف أمر هذا الدعوى ، واعتزله الناس خوف الفتنة ، واتقاء الشر ، الذي قد يلقاهم منه .

وأحسن ابن صياد بهذا ، وضائق به السبل ، حتى لقد حدثته نفسه بأن يطلب الموت لها ، فيستريح وتستريح .. وسعى إلى الناس ينفي أنه الدجال الذي كشف الرسول للمسلمين عن صفاته !

عن أبي سعيد الخدري قال : صحبت ابن صائد إلى مكة ، فقال لي : أما قد لقيت من الناس ؟ يزعمون أنني الدجال ؟ أأست سمعت رسول الله صلى الله عليه

(١) أي هب مندوراً .

(٢) ذلك أن ما يدعيه الدجال أنه إله ، والعور نقص ، والله تعالى منزه عن النقص ، وله الكمال كله .

وسلم يقول : إنه لا يولد له ؟ قال : قلت : بل . قال : فقد ولد لي ا أو ليس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل المدينة ولا مكة ؟ قلت : بل ا قال : فقد ولدت بالمدينة ، وهذا أنا أريد مكة . ا

« وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : قال لي ابن صائد : مالي ولكم يا أصحاب محمد ؟ ألم يقل نبي الله صلى الله عليه وسلم : إنه — أي الدجال — يهودي ، وقد أسلمت ا وقال — أي النبي — ولا يولد له ، وقد ولد لي وقال : إن الله قد حرم عليه مكة وقد حججت ا (١) »

وهكذا مصير كل باطل ، يبرق بارقة ثم يخبو ويصير رماداً . وكذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس ، فيمكث في الأرض . (٢)

الفرانقة العلى :

قدر الطاعنون في نبوة « محمد » ، وفي اتصاله بالسماء ، وتلقيه القرآن عن طريق الوحي من رب العالمين — قروا أن مفترياتهم التي حاولوا أن يطمسوا بها معالم هذه الحقيقة لن تلقى من العقلاء أذنا صاغية ، ولا تجد في مجال النظر الصحيح ركناً تأوى إليه .. إذ أن هذه الحقيقة الضخمة الراسخة أشبه بجبل تحاول جماعة من النحل أن تخفي معالمه عن الأنظار . قدر الطاعنون في نبوة « محمد » هذا الموقف ، ودخل في حسابهم هذه النهاية المخزية التي ينتهى إليها تدبيرهم في هذا المجال .. ففتحوا جبهة أخرى يحاربون فيها القرآن ، على فرض أنه وحى سماوى ؛ وأنه من عند الله ، وأن « محمداً » نقل لإرادة السماء — كما يقول — على لسانه ا وسلاحهم في هذا الميدان الجديد يعتمد على إدخال اللبس والتشكيك في صحة القرآن ، من حيث أن النبي — كما يقولون — كانت تعثره أحوال نفسية وجردية في حال الوحي ، فيختلط عليه الأمر ، ويخاطب بين ما يلقى إليه الملك ، وبين ما يجرى في نفسه من خواطر وتصورات ، وبهذا يكون القرآن الذى

(١) انظر صحيح مسلم / اخزه الثامن / ٩٨١ وما بعدها .

(٢) - ورة الرعد آية ١٧ .

يقال إنه كتاب سماوى — يكون فى تلك الحال كتاباً مختلطاً ، جمع ما نزل من السماء ، وما نبع من خواطر النبى وتصوراته !!
ومن عادة الناقدىن الضربىين دائماً اعتمادهم على مصادر إسلامية ، يتخذون منها شواهد لمقولاتهم ، ومستندات لمدعياتهم ، حين يعدون إلى الأخبىار السقيمة ، والروايات الهزيلة التى دخلت على المصادر الإسلامية فى غفلة من جامعى الأخبىار ، وفتنة الأحاديث ، الذىن يأخذون من كل فم ، دون تمحيص ، أو تحقيق ، غير مقدرىن أن هناك من يقف بالمرصاد لتلقف هذه الأخبىار ، واعتمادها ، وجمالها حجة على الإسلام ، وأدلة قاطعة فى مقام الاتهام .

والذى يرجع إلى كتب السنة — مثلاً — يجد كثيراً من الأحاديث المروية عن رسول الله ، محملة بكثير من غبار الكذب والدمس على رسول الله . . فإن الذىن نصبوا أنفسهم لهذه المهمة الجليلة لجمع أحاديث الرسول كانوا إزاء هذه الأحاديث التى تشم منها رائحة الدمس والكذب — كانوا بين أمرين : إما أن يحكموا عليها بما يملكه علمهم ، فيردوها على أصحابها ، ويدعوها هملاً يضيع فى متاهات الحياة ، ويطوى فى أدراج الزمن ، وإما أن يسجلوها كما سمعوها ، ويدعو لكل ذى نظر أن ينظر إليها ، ويقول رأيه فيها !

وقد كان الرأى الأول هو الذى أخذ به بعض جامعى السنة ، فلم يتحرجوا هذا التحرج الذى كان من بعضهم — فى البحث والتتقىب ، ومقابلة الأخبىار ، وغرابة المشكوك فيها ، وفى من تؤخذ عنهم . . وإنما كان يكفهم فى هذا أن يسمعوا من رجل مسلم خبراً يقول إنه يروى عن رسول الله ، وأنه سمعه من فلان عن فلان ، إلى آخر السلسلة من الرواة ، التى تنتهى إلى رسول الله — وكان عذرهم عند أنفسهم فى هذا ؛ أنهم لو تركوا مثل هذه الأحاديث المشكوك فيها كان ذلك حكماً قاطعاً منهم بإعدامها ، وقد يكون فيها نظر لناظر ، وربما كان فيها تأويل لمناول ! ممن يأتى بعدهم من العلماء . .

وعن هذا الإحساس قبل كثير من رواة الأحاديث أحاديث ليست موثقة عندهم ، ولا فى موضع الاطمئنان منهم ، وجمالوا أمر الفصل فيها والحكم عليها

لجماعة المسلمين جميعاً . وليس لجامع الأحاديث وحده ، الذى — مهما يكن حظه من العلم والفقه — ان يحيط بكل شيء عليهما

• • •

اتخذ الغرييون من هذه الأخبار الضعيفة حجة يقيمونها على ادعاءاتهم الكاذبة على الإسلام ، يفتشون منها سمومهم ، ويكيدون بها كيدهم . فن ذلك ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ مرة سورة « النجم » وحين بلغ قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرائيق (١) العلاء ، وإن شفاعتها لترتجى » ، وفي رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرائيق العلاء » وفي رواية ثالثة أنه قال : « والذرائقة العلاء ، تلك الشفاعة ترتجى » .

فهذه ثلاث روايات في هذه الواقعة :

الرواية الأولى هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرائيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى » .

والرواية الثانية تجيء هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرائيق العلى »

والرواية الثالثة : « أفرايتم اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، والغرائقة العلاء ، تلك الشفاعة ترتجى » .

والقرآن الكريم يقول : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر ، وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى (٢) . . إن هي إلا أسماء » سميتوها أوتم وأبواقكم ما أنزل الله بها من سلطان (٣) .

(١) الغرائيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق ، أو غرانق وهو طائر مائ يشبه السكرى ، ويطلق على الشاب الأبيض الجليل .

(٢) أى قسمة جائرة إذا جعلوا لهم الذكور ، ولله الإناث ، والذكور في عرفهم غير الإناث حتى أنهم لقد كانوا يمدون البنات .

(٣) سورة النجم آية ١٩٠ - ٢٢

ومدلول الروایتین الأولى والثانية يذبيء عن أن رسول الله قد ذكر في تلاوته لسورة النجم آلهة قريش بخير ، وجعل لها عند الله مكاناً علياً ، حتى إنها لتشفع عنده ، لمن يلتبس الشفاعة ، ويستأهلها منها . .

وتقول الرواية . . إن النبي حين بلغ آخر السورة سجد ، وسجد معه المسلمون والسكفار لما سمعوه أتى على آلهتهم « ١١

وقد تداخلت مع هذه الروايات روايات أخرى ، وكأنها تريد أن تفسر هذه الواقعة ، وتجد لها متجهاً تتجه إليه .

فتقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبي هذا القول الذي قاله في حق تلك الآلهة — اللات ، والعزى ، ومناة — وأنه صلى الله عليه وسلم كان قلقه ألم به ضيق وحزن شديد لما بينه وبين قومه من هذا الخلاف المستحکم ، وتلك العداوة الصارخة ، فتمنى في تلك الحال أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه ، أو ألا ينزل عليه شيء ينفهم عنه ، ويباعد شقة الخلاف بينه وبينهم . . ولهذا فإن النبي حين تلا سورة النجم ، وبلغ فيها الموضع الذي تذكر فيه تلك الآلهة ألقى الشيطان إليه هذه السكيات ، التي ترفع من شأنها ، وتجعل لها مكان الشفاعة عند الله . . ثم تستطرد الرواية فتقول : إن جبريل عليه السلام جاء النبي ، فعرض عليه السورة ، فلم يلبسها بلغ الكلمتين اللتين أدخلهما الشيطان عليه ، قال له : ما جئتك بهما ١١ فحزن لذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى تسليمة له : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (١) » ، وقوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذ لا تمدحك خليلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ؛ إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (٢) إلى قوله : « إلا رحمة من ربك ، إن فضله

(١) سورة آية ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٦ - ٨٨ .

كان عليك كبيراً ، قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) .

وقد كانت هذه الروايات مثار بحث وجدل ، بين علماء المسلمين أنفسهم ، ثم بينهم وبين غيرهم ، ممن يتربصون بالإسلام ، ويتمنون له العثرات ، وقبل أن يقول رأياً في هذه القصة ، وما تفرع لها من ذيول .. نعرض رأياً للقاضي « عياض » في كتابه « الشفا » .

فقد كان للقاضي « عياض » نظر عميق دقيق في هذه المسألة .. فيه عقل ، وفيه فقه ، وفيه لون واضح مشرق ، من ألوان النقد ، والنحص . يقول القاضي « عياض » :

« إن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين :

أحدهما : توهين أصله (في سنده ، وفي معناه) .

والثاني : على تسليمه — أي على فرض التسليم بصحته .

المأخذ الأول

(١) توهين اصل الحديث :

« أما المأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث — فيكفيك أنه حديث لم يخرج منه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل .. وإنما أولع به ، ومثله ، المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء ، والتفسير ، وتعلق بذلك الملمحدون ، مع ضعف نقلته (٢) ، واضطراب رواياته . واقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ..

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) أي نقلة حديث الفرائبي .

فقتائل يقول إنه في الصلاة^(١) ، وآخر يقول ؛ قالها في نادى قومه ، حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول . قالها ، وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسمها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأئك ، وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ما هكذا نزلت .. إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين ، والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب^(٢) .. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة وأهية .

(ب) توهين معنى الحديث :

ثم يقول القاضي عياض : « هذا توهينه — أى الحديث — من جهة النقل ، فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته عن فعل هذه الرذيلة ، إما من تمثيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتصور عليه الشيطان ويشبه عاينه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى ينهبه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممنوع في حقه صلى الله عليه وسلم .. أو أن يقول ذلك في نفسه من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر .. أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله .. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ، ولا سهواً ، أو أن يشبهه عليه ما يلقبه الملك بما يلقى الشيطان ، أو يكون لشيطان عليه سبيل ، أو أن ينقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه .. وقد قال تعالى : ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين »^(٣) .

(١) يشير الى بعض الروايات التي تقول ان النبي قرأ سورة النجم وذكر ما ذكر عن الغرابق في أثناء الصلاة .

(٢) أى صاحب لرسول الله « صحابي » .

(٣) سورة الحاقة آية ٤٥ ، ٤٦ .

ووجه ثان .. وهو استحالة هذه القصة ، نظراً ، وعرفاً .. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، متمزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حمله ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام عليه ؟؟

ووجه ثالث : أنه قد علم من عادة المنافقين ، ومهاندئ المشركين ، وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشتمات بهم الفينة بعد الفينة ، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام — لأدنى شهمة ..

ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قریش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا — مكابرة — في قصة الإسراء ، حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة ، وكذلك ما روى في هذه القصة ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت (١) ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت !! فما روى عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل — ذلك — على بطلها ، واجتثاث أصلها ، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع .. ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت — الآية — « وإن كادوا ليقتلونك عن الذي أوحينا إليك ، لتفتري علينا غيره ، وإذن لا تجدوك خليلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (٢) .. وهاتان

(١) أي أنه لو وقعت حادثة « الفرائق » على الوجه الذي رويته لكانت أعظم فتنة تخب فيها قریش وتضع . ويقول فيها اليهود ويتقولون .
(٢) سورة الإسراء آية ٧٣ ، ٧٤ .

الآيتان تردان الخبر الذي روه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته - الله - لسكاد يركن إليهم .

« فمضمون هذا ومنهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته ، حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيراً ؟

وهم - أى الرواة - يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء . بمدح آلتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريت على الله . وقلت ما لم يقل . . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهى تضعف الحديث لو صح . فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لطمت طائفة منهم أن يمشوك وما يمشون إلا أفتهمهم ، وما يضرؤك من شئ » (١) ، وقد روى عن ابن عباس - أنه قال - « كل ما فى القرآن « كاد » فهو لا يكون » (٢) قال الله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » ولم يذهب . و « أكاد أخفيها » (٣) ولم يفعل !

قال القشيري القاضى : « ولقد طالبتة - أى النبي - قريش وثقيف إذ مر بألتهم أن يقبل بوجهه إلیها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فافعل ، وما كان ليفعل » .

المآخذ الثانى

التسليم بصحة الحديث :

يقول القاضى عياض : « وأما المآخذ الثانى فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعادنا الله من صحته . . ولسكن على كل حال ، فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الفث والسمن . . فنها :

(١) سورة النساء آية ١١٢ « كاد » .

(٢) أى ماجاء من القرآن بلفظ « كاد » لعناه أنه لا يقع . ولا يكون .

(٣) أى « الساعة » فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » .

١ - ما روى عن قتادة ومقاتل .. « أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه السورة ، فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم » ! وهذا لا يصح ، إذ لا يجوز على النبي مثله ، في حالة من أحواله ، ولا يخلق الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ، ولا يقظة ، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو .

٢ - وفي قول « السكبي » إن النبي صلى الله عليه وسلم حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه .. وفي رواية « ابن شهاب » عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، قال : وسها - أي النبي - فلما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان .

ويرد التاضى عياض هذه الروايات بقوله :

وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا سهواً ولا قصداً ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه .

٣ - وقيل : لعل النبي صلى الله عليه وسلم قاله - أي هذا القول - أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، كقول ، إبراهيم عليه السلام : « هذا ربي » (١) على أحد التأويلات (٢) . . . (وأن النبي حين قال ذلك قاله) يعد السكت ، وبيان الاتصال بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .

يقول التاضى عياض : وهكذا يمكن مع بيان الاتصال وقريته تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو - أي ليس من القرآن - ..

ولا يعترض على هذا بما روى أنه كان - أي هذا القول - في الصلاة ، فقد كان الكلام قبله فيها - ما غير ممنوع (٢) . . . والذي يظهر ويترجح في

(١) يشير إلى ما حكاه القرآن عن إبراهيم في قوله تعالى : « فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي » فلما أفر قال : لأحب الأفلين » .

(٢) من التأويلات التي يذهب إليها المفسرون في قول إبراهيم عن القمر « هذا ربي » ، وعن الشمس : « أهذا ربي » أنه قال ذلك على طريق الاستفهام المراد به السخرية والاستهزاء أي « أهذا ربي » ؟ استصغاراً لشأنه !

(٣) أي كان الكلام أول ما فرضت الصلاة مباحاً فيها ، ثم حرم بعد ذلك .

هذا التأويل عند المحققين على تسليمه — أى التسليم بصحة الحديث — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك السكتات ، محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه — إل النبي — من الكفار ، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم . وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيها كما عرف منه .

وقد حكى موسى بن عقبة في « مغازيه » نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين ، وقلوبهم . . ويكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم إنما لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة . . وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (١) فعنى « تمنى » تلا ، قال الله تعالى : « لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » أى تلاوة . وقوله سبحانه : « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، أى يذمه ، ويزيل اللبس به ، ويحكم آياته .

٤ — مما يظهر في تأويله — أى هذا الحديث — أن مجاهداً روى هذه القصة . « والفرانقة العلاء ، . .

يقول القاضي عياض : فإن سلينا القصة ، قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآناً (٢) والمراد « بالفرانقة العلاء ، وأن شفاعتهن لترجي ، الملائكة (٣) على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبي ، الفرانقة أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون

(١) - سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) أى يقرأ على هذا الوجه : « أفرايم اللاب والزرى . ومناة الثالثة الأخرى ، والفرانقة العلاء ، تلك اشفاعتهن لترجي » .

(٣) يقول الله سبحانه وتعالى : « وكم من ملك في السموات ، لا نفى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .



الأوثان ، والملائكة بنات الله ، كما حكي الله عنهم (١) ، ورد عليهم في هذه السورة بقوله « ألكم الذكر وله الأنثى » ، فأنكر الله كل هذا من قولهم . . . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . . فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر ألهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه في قلوبهم ، وألقاه لإيهم نسخ الله ما ألقى الشيطان ؛ وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللغظتين اللتين وجد الشيطان بهما سهيلا للإلباس ، كالنسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته ، وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة . وفي نسخه حكمة ، ليضل به من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يضل به إلا الفاسقين ، و « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتنجب له قلوبهم ، وإن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (٢) .

٥ - وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى « خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها ، فسبقوا إلى مدحها بدينك الكلمتين . ليخطبوا في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ويشنعوا عليه ، على عادتهم . وقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلمكم تغليبون ، ونسب هذا العمل إلى الشيطان ، فحمله لهم عليه .. وأشاعوا ذلك ، وأذاعوه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، فحزن لذلك من كذبهم ، وافترائهم عليه ؛ فسلاه الله تعالى بقوله : « وما أوسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ؛ ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » (٣) . . وبين للناس الحق من الباطل ، وحفظ القرآن ، وأحكم آياته ، ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه تعالى في قوله : « إنا نزلنا الذكر . وإنا له لحافظون » (٤) .

(١) في قوله تعالى : « وانهم ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .
 (٢) سورة الحج آية ٥٣ ، ٥٤ .
 (٣) سورة الحج آية ٥٢ .
 (٤) من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ص ١١٩ .



تلك هي القصة التي جاءت في بعض كتب السيرة ، ونقلها بعض المفسرين ، وهي كما ترى أشبه برواية مهلبة النسخ ، متهدمة البناء ، أراد مخرجوها أن يخففوا عوارها ، ويستروا هزلها فألقوا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لسكاد يتخفى الأصل ، ولا يرى إلا تلك المرقعات التي أضيفت إليها .

فالمادة التي قامت عليها القصة مادة فاسدة ، لا يتخلق منها شيء يصلح أن يعيد في الحياة ، وأن يكتب له بقاء مع الأحياء .

إن فيصّل الرأي في هذه المسألة هو في كلمة واحدة : نبي ، أو غير نبي .

فإن كان « محمد » غير نبي .. فهذا موقف له حساب و تقديره ، وللكلام الذي يقال هنا حساب و تقدير .. فإذا كان « محمد » عند بعض الناس ليس نبياً ، فليس لنا مع من يرى هذا كلام .. فيما ينسب إلى « محمد » من أخطاء ، وما يليق إليه من تهم .. إنه والحال كذلك يتحدث عن إنسان ، مجرد إنسان يجوز عليه ما يجوز على الناس من أخطاء .

أما إن كان « محمد » نبياً ، فإن الذي يمتقد هذا ، ثم يلحق به ما يجري في حياة الناس من أخطاء و عثرات ، و تخبطات ، فهذا مما لا يستقيم بحال أبداً مع صفة النبوة . فإن النبي مبلغ عن الله ، وهو هذه الصفة معصوم من الخطأ والنسيان فيما يتصل برسائله ، وما هو من أصول شريعته أو فروعها ، إذ أن أي انحراف في هذا معناه سوق الناس إلى سبيل معوجة مليئة بالعثرات والخفر ، على حين أن دعوة السماء إنما تدعوهم إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

ذلك هو ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر أولاً عند من يؤمن بالأنبياء .. لأنهم إن يكونوا على غير تلك الحال التي توجب لهم العصمة ، وتحمي الرسالة التي يحملونها من أية شائبة تعلق بها .

ولأن فن الضلالة ، والجهل ، وسوء الفهم للنبوة — أن يقول قائل إن « النبي » ويقولها هكذا « النبي » — حين قرأ سورة النجم ، لم ي ، أو أخذته سنة أو غلبه هاطر قوى في نفسه ، أو ألقى إليه الشيطان ، فذكر الأصنام التي كانت تعبدها
(م ١١ - النبي محمد)

قریش ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها شفاعة عند الله !! أهدأ كلام يلتقى أوله مع آخره ؟

نبي يقرأ قرآناً منزلاً من السماء . . ثم تعدو عليه عوادي الشر فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريعته ! ؟

أهدأ قول يقول به عاقل ؟ وماذا يترك للجانبين بعد هذا ؟

قد يكون سائفاً أن تنفي عن محمد صفة النبوة ، على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال إنه قال في معبودات قریش ما قال !! إن ذلك يكون من شأنه هو ، ولحسابه هو ، وليس للسماء فيه شأن أو حساب !

أما وأن محمداً نبي فإنه في عصمة .. فرق الخطأ ، وفوق النسيان !

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قلت يا رسول الله . . أأكتب عنك كل ما أسمع منك ؟ قال : « نعم » .. قلت : في الرضا والغضب : قال : نعم ، فإنني لأقول في ذلك كله لإحقاء ، (١) .

ولتأسأل بعد هذا عما فتح ذلك الباطل من حديث « الفرانيق » ، وأمثاله - على المستشرقين ومن إليهم ؛ من مجالات فسيحة يصولون فيها ويجولون ويغمزون ويلبسون .. إذ اتخذوا من هذا الحديث الختلق الملقح حجة لإدانة الإسلام ، وسلاحاً لتجريح القرآن ، ووصفه بالصفة التي تجعله أحاديث متصيدة من هنا وهناك . بعضها من السماء ، وبعضها من الشيطان !

فأى كتاب هذا الذي تنازعه تلك القوي ، وتنازعه تلك الجهات ؟ وأي شريعة تقوم على هذا البناء الذي تعمل فيه يدان متغايرتان . . يد تبنى والأخرى تهدم ؟ وأي نبي هذا الذي يدعو إلى عبادة الله ، وإلى عبادة معبودات من دون الله ؟

هكذا يريد المستشرقون أن تكون شريعة الإسلام ، وعلى تلك الصورة يودون أن يكون مفهوم القرآن .. دستور الشريعة . وترجمان أحكامها . : ١ .
« يريدون ليطلقوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٢) » .

(٢) - سورة الصف آية ٨

(١) - التلغا ص ١٠٥

الباب السادس

الداعي وموطن الدعوة

مفارقات ، ومقابلات :

داعية أمي .. ماقراً كتاباً ، ولا خط يمينه سطرًا ..

وقوم أميون .. أغراب بادية ورعاة لابل وشاه ..

وموطن مقفر جذب .. لا يمسك ماء ، ولا يخرج حياً ..

ماذا يقع في حسابك من دعوة الداعي في هذا الموطن القفر ، ومع هؤلاء
الرعاة الأجلاف ؟

ولانظر في حسابك هذا لك أن الداعي هو محمد ، ولا أن الموطن هو
الجزيرة العربية ، ولا أن القوم هم أمة العرب !

واجعل نظرتك هذه لأية داعية أمي ، في أي بلد قفر ، وفي أي مجتمع يعيش
عيش البادية ، ويحيا حياة الصحراء !!

وانظر حينئذ ماذا يقع في تقديرك لدعوة هذا الداعي .. في بيئته تلك ،
وفي أقوامه هؤلاء ؟

أخرج بك التقدير لهذه الدعوة — في أحسن أحوالها — عن أن تكون
نسمة عالية بداية هبت في أعقاب يوم طويل من أيام السموم ، فاستروحت بها
النفرس ساعة ، ثم ذهب وذهب ريجها .!

أو أن تكون نغماً شجياً مؤلماً في وحشة الليل ، وفي هجمة سواده
الحالك .. ثم لا يلبث هذا النغم أن يذوب ، ويفرق في هذا السكون
المطبق العميق ؟!

- ١٦٤ -

أو أن يكون دوحه ظليمة ينزل بها السفر المتمتعون ساعة من نهار . يتقون
لفتح الهاجرة . ووهج الهجير . ثم يتركونها ليستقبلوا هواجس الشمس المحرقة ،
ولفتح السموم المستعرة !

لأنه إن يكون لهذا الداعي في هذه الأخوال وفي تلك المواطن إلا هذا الأثر
المحدود الموقوت ، الذي يلمع البرق في سواد ليل حالك ، ثم ينطفئ في فئمة
هذا الليل ، وينوص في ظلامه الدامس !

أرأيت الشعراء ، والمفنين ، والحدأة ، وأرباب الآداب والفنون . . ماذا
بقي في هذه المواطن من آثارهم ؟ وماذا خلد في الحياة من أعمالهم ؟ ذكريات
عابرة ، ووقعات قصيرة . يقفها المعجبون بتلك الآثار كما يقفون على الدمن
والأطلال !

حساب غير هذا الحساب :

ولكن الأمر يختلف أشد الاختلاف ، ومحصل النظر يجيء بما لم يقع في
التقدير والحسبان حين يستقبل الإنسان بنظره مطلع ، النبوة ، في الأمة العربية ..
في الصحراء البرية !

هنالك نجد الداعي على غير ما عرف الناس من الدعاة .

وهنالك نجد الصحراء ، وساكني الصحراء على غير ما عرفت الحياة من الصحارى
وساكني الصحارى !

ومن ثم كان هذا ، الحصول ، الوفور من معطيات الخير ، وثمراته ، فيما
غرس الداعي من غراس . وفيما أخرجت الأرض من طبيبات ، وفيما حصل الناس
من خير ، وفيما بلغوا من كمال .. كل ذلك قد جاء على أتم وأكمل ما قدر للبشرية
في هذه الحياة من تمام وكان .

وندع كل أمي غير محمد .

وندع كل صحراء ، وكل من يسكن الصحراء . . غير صحراء العرب ،
وسكان صحراء العرب .. ندع هذا كله ، ولا نطيل الوقوف عنده . ولا تردده
النظر إليه .. فإننا لن نحصل هناك على شيء ذي بل بهما طال وقرهنا ويرداد

نظرنا . إذ لاجديد بعد النظرة الأولى في هذا القفر .. الذى يضم كيانه كل شيء ،
ويحوى الداعى ومن دعا .. !

وليكن وقوفنا كله عند هذا الداعية العربى الأسمى ، وعند هؤلاء العرب
الأميين .. فى هذا الموطن القفر الذى استوطنوه .

ماذا هناك ؟

هناك آيات بينات ، ومعجزات قاهرات ، وأحداث خطيرة مشيرة ، وانقلاب
شامل . فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا .

فى أمى .. وقوم أميون .. وأرض مجدبة .. وحياة غليظة جافية .

ومع هذا فإنه من كل هذه « الأميات » مجتمعات ، تلد الحياة أكرم
مواليدها ، وتخرج فى الناس أطيب ثمراتها .. فتنفجر ينابيع الحكمة من فم
هذا النبى الأسمى ، وتقع فى عقول الناس وفى قلوبهم موقع الماء الغدق فى
الأرض القفر ، فإذا الناس غير الناس ، وإذا الحياة غير الحياة .. . وإذا أعراب
البادية ، ورعاة الإبل شامة فى الناس ، وأساتذة فى العلم ، وساسة الأمم ،
وإذا هذا البلد القفر مطلع النور ، ومشرق الهدى ، ومهوى الأفتة ، وقبلة
أنظار العالم ، وموضع اهتمامه .. . من عدو وصديق .

ما معنى هذا التوافق ؟

ولأنه لمن غير الطبيعى أن تجتمع هذه « الأميات » كلها فى موطن واحد ،
وتلتقى كلها على غاية واحدة ، ثم يكون منها هذا الفتح المبين ، فى ميادين الخير
والفلاح كلها .. . فى العلم ، وفى الخلق ، وفى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى كل
ما يسمو بالإنسان ويرفع قدره ، ويحفظ عليه وجوده الكريم فى الدنيا ،
ويفتح له الطريق إلى رضوان الله فى الآخرة .

من غير الطبيعى أن يكون لهذه « الأميات » من الخير ، والسجال والسمو
فى اجتماعها ما لم يكن لأضدادها مجتمعة أو متفرقة .. .

فما كان لداعية غير أمي ، بلغ ما بلغ في العلم والحكمة . . في أمة متحضرة
تزخر بالمدارس والجامعات ، وتفيض بالخيرات والثمرات - أن يحىء بمثل ماجاء
به النبي الأمي من علم وحكمة ، ولا أن تثمر دعوته هذا الثمر الطيب المبارك ،
الذي أخرجته الجزيرة العربية من بين صخورها ورمالها ، وأنضجته على سموها
وزمهريرها !

هذا هو واقع الحياة التي يحياها الناس : فلا يستوى الخصب والجذب ، ولا يتعادل
الحضر والبدو ، ولا يتوازن القاريء والساكنات والامي الذي لا يقرأ ولا يكتب .
ذلك إذا جرت الحياة في طريقها المرسوم . . ولكن حين يصطفي الله من يصطفي
من خلقه ، تنتصب لذلك أسباب خفية لا نعلمها ، فتحيء لهذا المصطفى سهيل الخير ،
وتمهده طريق الفلاح ، من حيث لا يتوقع الناس ، ولا ينتظرون !
ولقد اصطفى الله « محمداً » لأعظم رسالة ، واختصه بأفضل دعوة ، فجعله
مبعوثه إلى الناس كافة ، بل إلى الثقلين من الإنس والجن ؛ وجعل رسالته خاتمة
الرسالات ، والحكمة الأخيرة بين السماء والأرض !

ولم تكن تلك النفحة السماوية التي اختص الله بها نبيه الكريم محجوبة عن
موطن هذا النبي وقومه ، فكان لهم من هذه النفحة ميراث القريب من قريبه ،
وحق الجار على جاره !

وعلى هذا ، فأننا إذ نجد في « النبي » الأمي ما نجد من جلال النبوة وعظمة
النبي . . نجد كذلك عروفاً طيبة كريمة عمدة من هذا الجلال وتلك العظمة إلى
هذه المواطن وأهلها ، فإن رحمة الله واسعة ، وفضله عظيم (والله يختص برحمته
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

وسنرى كيف التقى النبي الأمي بقومه الأميين ، في تلك الصحراء القاحلة ،
فكان هذا اللقاء مقدوراً بقدر ، موقوتاً بميقات ، ايجمع بين أمية الرسول ،
وأمية المرسل إليهم ، وجذب الموطن وفقره ، وكان من هذا اللقاء الخير كله ،
والنور كله ، والهدى كله . . وذلك لا شك شاهد عدل من شواهد صدق الرسالة ،
وآية ناطقة من بينات آياتها . . !

هذا النبي الأُمي :

إنسان موطنه الصحراء ، ومرباه في اليتيم والفقير ، ونهأته على الأمية والبداوة ،
ومسرحه ومراحه بين الجبال وعلى الرمال !

هذا هو « محمد » بن عبد الله فيما كان يراه الناس ، وفيما كان يرى هو من نفسه
قبل أن يختاره الله لدينه ، ويصطفيه لرسالته !

فما كان « محمد » في مولده ، وفي نشأته ، وفي صباه ، وفي شبابه واكتماله إلا
واحداً من آخاد قومه ، وإلا نبتة من نبت الصحراء في هذا البلد القفر ، وفي هذا
الموطن الصحراوي الجديب .

ولكن ما يكاد هذا الإنسان يبلغ الأربعين من عمره حتى يصبح حديثاً عالياً
في فهم الوجود كله ، ثم لا ينقطع هذا الحديث أبداً . . إلى اليوم وإلى ما بعد
اليوم . . فسيظل « محمد » حديثاً متصلاً في أوليائه وأعدائه جميعاً ، ما دامت
الحياة ، وما عاش الناس في الحياة ،

نعم . . قد كانت في حياة « محمد » قبل الأربعين شواهد ومخايل ترفع مقامه
في قومه ، وتعلي منزلته فيهم ، وتفرض احترامه عليهم . . ولكن لم يكن ذلك
بالتقدير الذي يعزله عنهم ، ويقطع الصلة بينه وبينهم . .

فإن « محمداً » — على ما كان فيه من صفات كريمة بارزة ، وأخلاق رضية
عالية قبل بعثته — لم تأخذ هذه الأخلاق وتلك الصفات لونا صارخاً في حياته ،
ولم يتخذ هو منها موقفاً حاداً في قومه . . فعاشت فيه هذه الصفات وتلك
الأخلاق كما يعيش اللؤلؤ الكريم في أحماق البحر ، إلى أن يلقاه القدر بمن
يكشف عنه ، ويجليه . . بهجة للناظرين ، وعجباً معجباً للتوسمين !

ونعم . . كان « محمد » — قبل البعثة — حديثاً طيباً فواحاً بالحمد ، نفاحاً بالثناء ،
من كل من خالطه ، وانسل به من قرب أو بعد . . فلقد كان في خالقه السمع
الرضى ، وفي لسانه العف الطهور ، وفي سيرته المحمودة المستقيمة . . كان في كل
هذا المثل الذي يتمثله أصحاب المثل الفاضلة ولايحة قوته ، وكان القدوة التي
ينزع إليها أصحاب المهمة العالية ولا يستطيعونها . . ومع ذلك فقد كان هذا

الحديث الطيب عن محمد ، يجرى على السنة الناس ، في هيئة ورفق ، ويدور في
خواطيرهم على ترفق ومهل ، فلم يجتمع له الناس يوماً اجتمع المتفرجين على أمر
عجب ، أو - حدث غريب . . وإنما ظل محمد ، يابق الناس ويلاقونه ، دون أن
يروا فيه إلا ما يرون من نسمة عطرة ، تشرح الصدور وتنعش النفوس ! وإلا
ما يتوسم المتوسم من روض أنيق معجب ، في صحراء قاحلة !

النبا العظيم :

ولكن ما إن تلقى محمد ، رسالة السماء وأذن في الناس أنه رسول رب
العالمين حتى وقع هذا الانقلاب الشامل ، الذي لم تشهد الحياة له مثيلاً ، ولم يعرف
له الناس شبيهاً ، فيما حدث من أحداث !

وحين تلقى أهل مكة هذا النبا أول ما تلقوه وجوا له ، وجدوا . . شأنهم
في هذا شأن من يظلم عليه أمر مذهل لم يسكن في حساباته ، فتقلب معه مشاعره ،
وتخمد له أنفاسه ، ثم لا يلبث أن يضطرب كيانه ، وتعلوه رعدات ورعشات ،
وكذلك كان أهل مكة . . فما أن زابلهم صدمة المفاجأة حتى اضطربوا وماجوا ،
وركبهم رعدة حتى خبيثة راعشة ، كان منها تلك الأصوات المجلجلة لتكسر
العظام ، وتصادم الأسنان ! حتى لقد تجاوز صداها حدود مكة إلى من حولها
من العشائر والقبائل !

وشيئاً شيئاً تجمع من أبحرة هذه الحنى ما جعل مراحل الحقد والحسد تغلى في
الصدور ، وتز بين الأضلاع ، ثم لم تلبث أن تصدعت تلك الصدور ،
وأخذت تنفجر !

وبدأت أصوات الانفجار تسمع متقطعة . . هنا وهناك . . من السباقين
إلى الثر ، والمسارعين إلى داعي السناهة والغنى . . ثم تابعت تلك الانفجارات
وتمازجت ، حتى لسكانها بركان عظيم فتح فوهته ، وجعل يرمى باللهب والحرم !

هدوء العاصفة :

وكشكل شيء . له غاية ونهاية . . فقد انتهى هذا الغليان إلى غايته ، وبلغ
مداه ، فهدأت العاصفة ، وسكن البركان !

فلقد حرس الله الدعوة السماوية أن تحترق بلهب هذا البركان وتتحول إلى رماد ، كما عصم نبيه أن ينتقم لنفسه من قومه ، فيدفع هذه النار الممتدة إليه من ألسنتهم وأيديهم ، فتأخذهم ، وتدمدم عليهم . . . بل صبر وصابر ، واحتمل من الشدائد ما احتمل ، حتى سكنت ثورة البركان وبرد حممه !

وقد صنع الله للدعوة الإسلامية من هذه المحنة ما صنع من خير . . . فلو أن هذه الشرور البادية الصارخة التي ألقى بها قريش في وجه هذا النبي الكريم جرت على طبيعتها وامتدت إلى غايتها لسكان حريابها أن تفسد ما بين النبي وقومه ، كما أفسدت مثل هذه الشرور بين كثير من الأنبياء وأقوامهم ، ولما كان نصيب هذه الرسالة الكريمة الضياع وكانت خاتمة هؤلاء القوم الهلاك ، كما ضاعت كثير من رسالات الأنبياء ، وكما هلك كثير من أقوامهم ، لما كان منهم عن عناد وإعنت . . . وإنه لمعجزة أخرى من معجزات الدعوة الإسلامية ، وآية من آياتها أن تثمر هذا الثمر الطيب الكريم على فوهة هذا البركان ، وأن تمتد جذورها ، وتسمق فروعها في هذه الأرض المنحجرة الصلدة ، التي كان من شأنها ألا تمسك ماء ، ولا تخرج نباتاً . . . والله سبحانه وتعالى يقول وهو أصدق القائلين : ألم تر أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم أفلا يبصرون ، ؟ (١) .

مولد النبي :

تحدث كثير من كتاب السيرة النبوية ورواياتها عن عجائب كثيرة ، ومشاهد مثيرة ، صحبت مولد النبي ، ليجعل منها هؤلاء الكتاب وأولئك الرواة شواهد على تأكيد نبوة النبي ، وليقيموا منها دلائل على أنه مؤيد بالمعجزات من قبل أن يأتيه الوحي !

ولقد وقع في تفسكير هؤلاء الذين تصدوا لكتابة سيرة الرسول ، أو تحملوا روايتها — وقع في تفسكيرهم أن من كمال النبوة وشرفها ألا يكون النبي محكوماً بضرورات الحياة الإنسانية ، وألا يجرى عليه ما يجرى على الناس في شأن هذه

(١) سورة السجدة آية ٢٧ .



الضرورات ، ومخالطته لها . . وإلا فما الفرق - حسب تقديرهم - بين النبي
وغير النبي ؟

ولو استطاع تفكير هؤلاء أن يجد مخرجا يخرج به النبي عن أن يولد
لأبوين كما يولد الناس ، وأن يجوع كما يجوع الناس ، ويظمأ كما يظمأ الناس ،
ويألم كما يألمون ، ويفرح ويحزن كما يفرحون ويحزنون - لو استطاع تفكيرهم
أن يجد مخرجا يخرج به النبي من هذه الضرورات وما إليها ، لما وقف عند شيء
منها ، ولما جعل للنبي حالا من أحوالها .

وإذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذي قامت الحياة شاهدة عليه ،
مسجلة أن النبي قد حملت به أمه جنينا . وولده طفلا ، ثم كان له رضاعة
وفطام ، وكان له صبي ، وشباب ، واكتحال ، وكان له في كل هذه الأدوار نوم
ويقظة ، وطعام وشراب ، وغدو ورواح . . إلى أن بلغ الكتاب أجله ، وجاءه
رسول السماء يذمّه أنه نبي الله ورسوله - نقول إنه إذ لم يكن من المستطاع
إنكار هذا الواقع الذي عاش فيه النبي وشهدت به الحياة ، فقد كان من المستطاع
أن يدخل الداخلون على هذا الواقع بما يسعهم به الرأي من إضافة وحذف ،
ومن تعديل وتبديل بما يرضى نفوسهم ، ويسعد مشاعرهم . .

وقد كان للخيال هنا دوره في تلوين هذه المشاهد بلمسات فيها الخدق والمهارة
أحيانا ، كما يظهر عليها الغباء والبلادة في كثير من الأحيان .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة مع هذه الروايات والأخبار التي تتحدث عن
العجائب والمفارقات التي تناقلها الرواة والمؤرخون عن مولد النبي ، وما قام
بين يدي المولد أو سبقه منها . . ثم نعرض هذه الأخبار على الوثائق التاريخية
المحققة ، من جهة ، وعلى طبيعة النبوة ومناحي جلالها وكلالها من جهة أخرى . .
فما استقام من تلك الروايات وهذه الأخبار على هذا العرض رضينا به وقبلناه ،
وما لم يستقم على هذا العرض أعرضنا عنه ورفضناه .

على أننا نستطيع أن نسبق هذا العرض كله ، وأن نصدر حكما قاطعا في هذه
الروايات المحملة بالنرائب والعجائب من سيرة النبي قبل البعثة ، فنقول :

إن هذه الرويات . ماصح منها وما لم يصح ، وما وقع وما لم يقع -
ليس لها كبير شأن في مقام النبوة . ، في أي جانب منها .

وسواء أضيفت هذه المقولات جميعها إلى النبي ، أو ذهب جميعها من
سيرته ، فإن « مؤشر » ميزانه في مقام العظمة والسمو والجلال لا يتحرك يمينه
أو يسرة . بل ربما لورفعت هذه المعجبات من حياة النبي لكان ذلك أرفع
لمنزلته ، وأكرم لذاته . . . عند من يبحثون عن مواقع العظمة في العطاء . .
أما مقام الرسول الكريم في ذاته فقد جل عن أن يتأثر بشيء من هذا ، فقد
رفعه ربه ، وأعلى مقامه بما لا يخاطر على قلب بشر . . فما منزلة فوق هذه المنزلة
التي يخاطبه الحق جل وعلا بها ، فيقول له سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك
فترضى) . . . فهذا العطاء الموعود من رب العالمين يعلو النبي فوق كل مقام ،
ويرتفع فوق كل منزلة .

وها نحن أولاء نقف وقفتنا تلك التي أشرنا إليها من قبل ، مع ما يروى
من معجزات النبي الكريم ، ويضاف إليه .

الباب السابع

الرسول .. ومعجزات الرسالة

١- أصحاب الفيل

قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاد « أبرهة » (١) إلى مكة جيشاً جراراً يريد أن يهدم الكعبة ، إذ كان قد بنى له « بيعة » في « نجران » وأراد أن يتحول إليها الشجرة العظيمة التي كانت للكعبة ، وأن يحمل الناس على الحج إلى بيعته ، فلما لم ير لبيعته شيئاً ولا شأناً ، إلى جانب ما كان للبيت الحرام ، لم يجد طريقاً إلى بلوغ غايته إلا هدم الكعبة ، وإزالة معالمها من الوجود ، فإنه إذا خلا مكانها من الأرض لا يلبث الزمن أن يعمل عمله في إخلاء مكانها من القلوب . وإذا فرغت قلوب الناس من متعلق ديني يتعلقون به التمسوا غيره ، وصار من الميسور الدخول إلى قلوبهم الفارغة بأي شيء يملأ هذا الفراغ ، ولو كان حجراً !!

ولما بلغ جيش « أبرهة » مشارف مكة ؛ فزع أهلها فرحاً شديداً لما بلغهم من أبناء « أبرهة » وهو في طريقه إليهم ، وما فعل بمن وقفوا في طريقه ، وما حل بهم وبديارهم . ثم لما شاهدوه عياناً من أمة « أبرهة » وكثرة عدد جيشه وعدده ، واتخاذ « الفيل » ، مركباً ، الأمر الذي لم تعرفه العرب من قبل هذا ؛

وكان جيش أبرهة قد ساق ما صادفه في طريقه من ماشية قریش ، دون أن يقف أحد في وجهه ... وكان فيما حوى الجيش مثناً بعير لعبد المطلب بن هاشم جد النبي ... ثم إن أبرهة بعث رسله يقدمون عليه بسيد مكة ، وصاحب

(١) كان أبرهة حاكماً على اليمن من قبل النجاشي ، وكان على دين النصرانية الذي كان يدين به النجاشي .

كلمتها فجاءوه بعبد المطلب . . وكان نغماً ، رائع الطاعة ، مهيباً . . فلما رآه وأبرهه ،
أكبره ، ولكن أبي عليه كبرياؤه أن يجلسه على كرسيه . كما أبت عليه عظمة
عبد المطلب أن يجلسه دونه ، فنزل عن عرشه ، وجلس على البساط ، وأجلس
عبد المطلب إلى جانبه ! وكان فيما قال لعبد المطلب : إنه لا شأن لي بكم إذا أتم
خيلتم بيني وبين الكعبة حتى أهدمها ، فإن لم تفعلوا ، فيها أنت ذا وما ترى ! . .
فأجابته عبد المطلب : « دونك البيت . . ولكن رد علينا ما أخذت من
ماشيتنا » ! . .

وعجب وأبرهه ، لعبد المطلب . . يسأله في شأن الماشية ، ويدع البيت الذي
يقوم عليه دينه . ! . وخيل إليه أن عبد المطلب إنما يفتدى الماشية بالبيت ،
فاهتزت منزلته عنده ، وصغر في نظره ، ثم قال لعبد المطلب : قد كنت أعجبتني
حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كتبتني ! أتكلمني في مثنى بعير أصبتها لك ،
وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . . لا تكلمني فيه ؟ ! فقال له
عبد المطلب : أفارب الإبل ، وأن للبيت رباً سيمنعه ! فقال أبرهه : ما كان
ليمتنع مني ! قال عبد المطلب : أنت وذاك ! !

ثم إن عبد المطلب عاد إلى مكة فأخبر قريشاً بما كان بينه وبين أبرهه ،
وأشار على الناس أن يخرجوا من مكة ، وأن يتحرزوا في شعف الجبال
والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الحبش . . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب
الكعبة ، وقام منه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده ،
وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم إن العبيد	نع رحله فامنع حلالك (١)
لا يمنعن صليهم	ومحالمهم غدواً محالك (٢)
جروا جموع جمعهم	والفيل كي يسبوا عيالك
همدوا حماك بكيدهم	جهلا ، وما رقبوا جلالك

(١) لا هم : أي يا الله ، والحلال : القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا أهل البيت الحرام .

(٢) الحمال : من الحول والقوة ، وغدواً : يريد به غداً ، أي ما بعد اليوم .

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فمجزوا فيها . ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة ، وهياً فيله ، وعباً جينته ، وأمر بالتحرك إلى مكة ، فخرن النمل ، وأرسل الله عليهم طيراً ترميهم بحجارة من سجيل ، لا تمس أحداً إلا هلك .. وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، يستقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه (١) .

هذه قصة الفيل ، كما يرويها أصحاب السير على اختلاف في التفاصيل فيما بينهم ، وقد كانت أحداث هذه القصة مادة خصبة ، ومرعى ممرعا للعواطف والخيالات .. وكان الفيل ، والطير ، والحجارة ، ركازة قوية لمن أراد أن يسبح بخياله ، أو يروي ظمأ عاطفته .

فالفيل يحزن لأنه قد أسر إليه بعض العرب (٢) بكلمة حذره فيها من أن يشارك في هذا العمل الآثم ، ويزحف مع الزاحمين إلى هدم البيت ، فيعقل الفيل هنا القول الذي أسر له به ، وتعجز كل المحارلات والحيل عن أن يخطو به خطوة تجاه البيت الحرام !

والطير تتخذ في قصص القصص صوراً شتى .. فتارة تكون طيراً بحرية مثل الخنطاطيف والبلسان ، وتارة تكون طيراً برية مثل النسور والعقبان ، وتارات أخرى هي ذباب أو بعوض ..

وكذلك الحجارة ، تختلف أحجامها ، وصفاتها ، وأفعالها .. فمن المدس أو الحص ، أو هي خمار أو بئة وجراثيم أمراض .. ومن يدري ؟ فقد يحسن بعض مفسري القرآن في هذا العصر فيجعلها من بنات « الذرة » ومركيباتها ! !

(١) انظر سيرة ابن هشام : الجزء الأول ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) يقال إن الفيل بن حبيب هو الذي أسر إلى الفيل بالأقرب البيت الحرام .
وفيل هذا هو الذي جعله أبرهة دليلاً في الطريق إلى مكة على كره منه .

أما أصل القصة فثابت ثبتونا لاشك فيه بشهادة القرآن الكريم ، حيث أوردنا القرآن في سورة خاصة هي سورة الفيل ، فقال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول ، (١) .

وأنت ترى أن القرآن قد أجمل القصة لإجمالاً ، يبدو منه في وضوح المعنى الذي ضمت عليه القصة ، وهو أن الله قد امتن على أهل مكة ، وأكرمهم بكرامة البيت الحرام ، وحفظه من أن تمتد إليه يد معتدا

ولم يلتفت القرآن إلى الفيل ، ولا إلى صاحبه ، ولا إلى الطير وما تحمل من مهلكات . . وإنما الذي أبرزه القرآن هو تلك القوة القوية المضاربة التي جاءت إلى البيت الحرام في صورة مفرعة تريد أن تأتي عليه ، فردها الله بقوة قهرتها ، ودمدمت عليها . . !

ولعلك تقف من هذا المشهد الحربي موقف المعجب والمدمئن حين ترى قبيلة ضحاًماً لا تفقد السيوف في جلودها ، ولا تعمل الحراب في أجسامها . . هذه القبيلة تلقاها طيور صغيرة أشبه بالمصافير فتصرعها ، وتصرع من عليها من أبطال ! .

كل هذا قد جمعته خمس آيات من القرآن الكريم . . هن آيات السورة الكريمة «سورة الفيل» .

ولعلك تسأل : ما شأن قصة الفيل في المعجزات التي تضاف إلى الرسول ؟ والجواب على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد دفع عن البيت الحرام هذا السوء الذي كان يراد به ، ليظل هذا البيت قائماً يستقبل نبي الإسلام ، وليكون قبلة صلاة المسلمين ، ومنسكا يؤدي عنده ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وهو «الحج» ! .

فالمعركة إذن لم تكن لحساب قرين . . ولا كان هذا الطير المحمل بالصواعق

نجدة من السماء لها ، وإنما كان ذلك لحساب الدين الجديد الذى تنفس صبحه
بمولد النبي هذا الامام ، « عام الفيل » ، وما كان هذا الطير إلا طلائع لقوى السماء
التي ستمد — فيما بعد — وصحبه في هذا الصراع الذى سيقع وتمتد أيامه ،
وتتسع ميادينه ، بين المسلمين وأعداء الإسلام .

إن هذا المدد السماوى من الطير الابابيل لهو نجدة سماوية بلا شك ، وفيها
دلالة واضحة على أنها تقابل في جانب الحق ، وتنتصر له . .
وطبيعى أن جانب الحق كان مع البيت الحرام الذى تهباً لاستقبال الإسلام ،
وهو دين الله ، الذى أراد أن يظهره على الدين كله . . .

فهذه المعركة هي انتصار للإسلام ، وإعداد له ، وليست انتصاراً لقريش ،
ولا إمداداً من السماء لها . . إذ لو كان الأمر بين قريش وأبرهة . وكانت هناك
إمداد من السماء لأحد الفريقين لكان ذلك لأبرهة ، لأنه يدين بدين سماوى هو
« النصرانية » على حين كانت قريش على دين أو أديان فاسدة (١) .

ونخلص من هذا إلى أن «حادثة الفيل» وقد وقعت في السنة التى ولد فيها
النبي صلى الله عليه وسلم — قد كانت من غير شك آية من الآيات القائمة بين يدي
النبوذة ، وبشيراً من السماء يضع أول راية من رايات النصر للإسلام في مركز
الدعوة الإسلامية وفي مطلع الافى الذى بزغ منه نبى الإسلام .

ولهذا كان الخطاب في سورة الفيل موجهاً إلى النبي في مقام التذكير بنعمة
الله عليه ، ورعايته للإسلام ، قبل أن يحمل الرسول عبء الدعوة ، ويتولى
الدفاع عنها .. « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ .. » .

ففي هذا الخطاب امتتان على الرسول بهذا الفضل الذى أسبغته الله على نبيه
من قبل أن يكون له مع السماء شأن ، ومن قبل أن يحمل رسالة الله إلى الناس ،
وفيه أيضاً مدد عظيم من الطمأنينة التى يجدها الرسول من ريح هذا الفضل
السماوى الذى لا بد أن يمتد ويتصل ، ويصحب الرسول في كل أدوار حياته ،

(١) انظر تفسير ابن كثير الجزء الرابع « سورة الفيل » .

وهذا مما يشهد عزم الرسول ، ويشهد أقدامه في مراقب الضيق والعنت الذي كان يلقاه من قريش ا حين يلتفت إلى الراء فيرى كيف كانت عناية الله وحمايته لبيته . . فكيف تكون إذن عنايته ورعايته لصاحب رسالته ؟

أما قريش فقد كان من فضل الله عليها ببركة النبي ، وبجرمة البيت الحرام هذا الإيلاف الذي ألفوه في رحلتى الشتاء والصيف . . إلى الشام ، صيفا ، وإلى اليمن شتاء ، يتجرون ، ويتبادلون المنافع بينهم وبين هذين الإقليمين ، آمين مطمئنين في خفارة البيت الحرام ، لأنهم سددته والقائمون على شئونه ؛ وفي هذا يقول الله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . »

ونخلص من هذا كله أيضا إلى القول بأن حادثة الفيل كانت إرهاباً لبعثه النبي ، ولإذنا بأول صدام بين دعوة الإسلام والمتبرصين بها ، والضالين عنها . . يقول ابن قيم الجوزية : « وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب ، وكان ذينهم خيراً من دين أهل مسكة إذ ذاك . لأنهم كانوا عباداً أو ثناناً (١) . »

٢ - فداء الذبيح

تحدث كتب التاريخ عن واقعة لعبد المطلب جد النبي غير واقعة الفيل التي أشرنا إليها منذ قليل . تلك هي خلاص ابنه عبد الله ، والد النبي من الذبح ، ليقدم قرباناً في نذر نذره أبوه عبد المطلب . .

وللقصة حديث طويل يبدأ بحفر زمزم على يد عبد المطلب ، أمثالاً لها تفهتف به في منامه ثلاث ليال متواليه ا

وقد وثقت قريش من عبد المطلب موقفاً معتمداً عندهما هم بحفر البئر وبهتف حفره . وفي هذا الموقف شهر عبد المطلب بحاجته إلى الرجال من الأولا

(١) زاد المعاد جزء أول ص ٣٢ ،

(م ١٣ - النبي محمد)

والأحفاد ، فنذر لئن أكل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ليذبحن أحدهم .
فلبسوا تكاملوا عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله به .
فامشوا أمره ، وتركوا إليه أن يختار من يشاء منهم ، فضرب القداح بينهم فوقع
الامر على « عبد الله » وكان - فيما يروى - أحب أولاد عبد المطلب إليه !
ولم يجد عبد المطلب بدأ من أن يقود ابنه الحبيب إلى المذبح . فلما هم
بذبحه قامت إليه قريش من أنديتها ، وقالوا : والله لا نذبحه أبدا حتى تعذر
فيه . . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقساء الناس
على هذا ؟

وتتجرك أحداث القصة في اتجاهات كثيرة ، وعبد المطلب يدور معها في كل
اتجاه ، وينتهي المطاف بأن يفدى عبد المطلب ابنه بمئة من الإبل . . تبدأ بعشرة ،
ثم عشرين ، ثم ثلاثين إلى مئة . . لأنه كان في كل مرة تضرب القداح بين « عبد الله »
وبين الإبل يخرج سهمه ، فيزداد عدد الإبل عشرة ، وهكذا . حتى كانت المئة ،
فخرج السهم على الإبل . . وعد هذا العدد مقولا عند الله ، وفيه رضى له عن
« عبد الله » !

هذا هو ملخص القصة . . وقد رواها كثير من المؤرخين الثقات ! وعلى رأسهم
شيخهم « ابن إسحق » الذي قرن روايته لها بقوله : « فيما يزعمون ، والله أعلم » ،
فلم ينقها ، ولم يحققها ، بل جعلها مما يزعم أصحاب الأخبار ونقلتها .
وعن « ابن إسحق » ، أخذ « ابن هشام » في تاريخه « السيرة » (١) ؛ وكذلك
أثبتها « ابن سعد » في تاريخه : « الطبقات الكبرى » (٢) . .

ولم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى حسنه الواقعة فيما امتن الله به على
نبيه . ولم يكن قد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا
ابن الذبيحين » . .

(١) انظر الجزء الأول ص ١٤١ وما بعدها من كتاب السيرة لابن هشام .

(٢) انظر الجزء الأول القسم الأول ص ٥٣ من الطبقات لابن سعد .

والحديث ضعيف ، لم يوثقه رواة الحديث .

ويستند رواة الأخبار على هذا الحديث في واقعة عبد المطلب هذه مع ابنه عبد الله ، كما يستعدون إليها من جهة أخرى على أن « إسماعيل — الجد الأعلى للنبي — هو الذبيح لا أخوه « إسحق » .

وقد نازع كثير من العلماء في أن يكون « إسماعيل ، هو الذبيح الذي أراد أبوه « إبراهيم » أن يذبحه امتثالاً لأمر الله فيما أوحى إليه في منامه .

وقد ذكر القرآن هذه الرؤيا في قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني انى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبى أفعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ؛ وتله للجبين ، ونادىناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ؛ وقد بيناه بذبح عظيم (١) . » .

نقول إن كثيراً من العلماء وخاصة المتعصبين على الإسلام من علماء أوروبا نازعوا في أن يكون إسماعيل هو الذبيح المنفدى من السماء ، وإنما المنفدى هو « إسحق » .

ومن عجب أن نجد رجلاً كالجاحظ ، يذهب إلى هذا الرأى ويقول به (٢) وهذا ما يدل على شدة تأثر الجاحظ بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية ، كما يدل على كثرة مخالطته للعلماء غير الإسلاميين من نصارى ويهود .

والحق أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح ، وليس أخاه إسحق كما يظن خطأ بعض متفلسفة المسلمين ، وكما يقول زورا وبهتان المنحرفون من غير المسلمين . ولا تجد حجة أبلغ ولا أقوى من تلك الحجج القاطعة التى قدمها الإمام ابن تيمية ، فى تحقيق القول بأن إسماعيل . . هو الذبيح المنفدى من السماء .
بذبح عظيم !

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ ص ١٠٧

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ؛ جزء أول ص ٢٤٨ (طبعة الذروبى)

ولا يستمد ابن تيمية حججه من نصوص الكتاب الكريم وحده، إذ الذين لا يدينون بالإسلام لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه . . ولهذا يعتمد ابن تيمية إلى الواقع التاريخي لإبراهيم عليه السلام وذريته، وللظروف التي عاش فيها هو مع زوجته — سارة وماجر — . ويقدم على ذلك شواهد من التوراة نفسها . .
يقول ابن تيمية رحمه الله ،

« هذا القول — أى القول بأن إسحق هو الذبيح — متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : « إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره ، . . ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن « إسماعيل ، هو بكر أولاده !

« والذى غر أصحاب هذا القول — أى القول بإسحق — : أن فى التوراة التى بأيديهم : « ادع ابنك إسحق » . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « ادع بكرى ووحيدى » .

« ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأبى الله إلا أن يجعل هذا لأهله .

وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق ، والله تعالى قم بشر أم إسحق به ، وبأنه يعقوب ؟ فقال تعالى عن الملائكة : لمنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : « لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأتك قائمة فمتحرك ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، (١) فحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه !

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل فى البشارة ، فتتناول البشارة إسحق ويعقوب فى لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسياقه . .

ويقال أيضاً : إن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال : « فإنا أخذناها وتلقاها للجنة ، وفاديناها أن يا إبراهيم فكف نفسك

(١) سورة هود ٧١ .

الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، لأنه من عبادنا المؤمنين (١) . ثم قال تعالى : « وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين (٢) » . . . فهذه بشارة من الله تعالى له ، شكراً على صبره على ما أمر به ، وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول . بل هو كالنص فيه .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ؛ جزاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة !

قيل : البشارة وقعت على المجموع : على ذاته ، ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب « نبيا » على الحال المقدر ، أي مقدرأ نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضيلة . هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى .

« وأيضا : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . . . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنيانه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانا ومكانا ، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لسكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة .

أيضا : فإن الله سبحانه وتعالى سمي الذبيح « حليما » لأنه لا أحلم من أسلم نفسه للذبيح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحق سماه « عليا » فقال تعالى :

(١) سورة الصافات : ١٠٣ - ١١١

(٢) سورة الصافات : ١١٢

« وبشروه بغلام عليم (١) » وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من امرأة إبراهيم ، وهي
المبشرة به ، وأما اسماعيل فمن السرية !

« وأيضا : فإنهما — إبراهيم وامرأته — بشرا به — بإسحق — على الكبر
والياس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه ولد قبل ذلك .

« وأيضا : فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن يكون بكر الأولاد أحب
إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له تعلق
شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذ خليليا ، والخلة منصب يقتضى توحيد
المحبوب بالمحبة . وألا يشارك بينه وبين غيره فيها . . فلما أخذ الولد شعبه من
قلب الوالد جاءت غير الخلة تمنزعا من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ،
فلما أقدم على ذبحه - وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد - خلصت الخلة
حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما
هى فى العزم وتوطين النفس عليه .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود
ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول ، بل لم يحصل عند المولود الآخر
من مزاحمة الخلة ما يقتضى الأمر بذبحه . . وهذا فى غاية الظهور

« وأيضا . فإن « سارة » امرأة الخليل صلى الله عليه وسلم غارت من « هاجر »
وابنها أشد الغيرة ، فإنها — أى هاجر — كانت جارية عندما ولدت لإسماعيل ،
وأحبه أبوه . واشتدت غيرة سارة ، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر
وابنها ، ويسكنها فى أرض مكة لتبرد عن « سارة » حرارة الغيرة ، وهذا
من رحمته تعالى ورأفته — فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع
ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها ، وإبعاد الضر عنها ، وجبره لها !
فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ، بل حكمته البالغة اقتضت
أن يأمر بذبح ولد السرية ، حينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها !

(١) سورة الذاريات آية ٢٨

وتبديل قسوة الغيرة رحمة ! ويظهر لها بركة الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتا هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد ، والوحدة . والنزلة ، والتسليم إلى ذبح الولد - آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارها ومواطن أقدامها مناسك لعبادة المؤمنين ، ومتعبات لهم إلى يوم القيامة (١) .

وليس وراء هذا البيان شيء يقال في الكشف عن حقيقة الذبيح من ولى إبراهيم ، وأن إسماعيل هو الذبيح المنفدى من السماء لإسحق ! فالآب الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم ذبيح من غير شك ! فهل والده الأدنى « عبد الله » ذبيح أيضا ؟

لا نستطيع أن نجيء على هذه الواقعة بشاهد من الواقع الحى كهدا الشاهد الذى يشهد لواقعة إسماعيل . . فقد شهد لهذه الواقعة الكتب السماوية ، وإن اختلف المؤمنون بهذه الكتب فى تفسير محامل الألفاظ ومفاهيمها ، فاختلف تبعا لذلك القول بأن الذبيح هو إسماعيل أو إسحق . . ولكن القرآن يكاد يقول صراحة بأنه « إسماعيل » كما أن الأضحى التى يقدمها المسلمون فى عيد الأضحى هى شاهد متمثل على متابعة المسلمين أبائهم إبراهيم فى هذا الفداء الذى جعله الإسلام مذسكا من مناسك ، وقربة من قرباته .

هذا عن « إسماعيل ، الآب الأعلى للنبي !

أما عن « عبد الله » آخر آباءه ؛ فإن الأمر فى حقيقة « الذبيح » بالنسبة له مختلف عنه فى « إسماعيل » . . وذلك من وجوه :

منها أن أخبار « عبد الله » وعرضه على الذبح ليست إلا روايات نقلها المؤرخون للسيرة نقلا لا يستند رواة ثقة ، وإنما الذى نقله ابن إسحق عن هذه

(١) زاد المعاد الجزء الأول ص ٢٧ وما بعدها . . . وقد نسبنا هذا لرى إلى ابن تيمية لأن تلميذه ابن القيم يقول هذا عن شيخه ، وواضح ان الشيخ والتلميذ قد اشتركا معا فى تحقيق هذا الموضوع . . . الشيخ ينكرته والتلميذ بقلمه وأسلوه .

الواقعة كان أشبه بتسجيل لشاهدة تدور في الناس ، فصدر روايته تلك بما يفيد
التك ، فقال عند تسجيل هذه الحادثة : « فيما يزعمون » ! ! فجهلها من عم من المزارع ،
و الزعم مطية الكذب ، كما يقولون !

فلا تتقف هذه الواقعة إزاء واقعة « إسماعيل » التي ذكرت في الكتب المقدسة ،
واتخذت صورة عملية في حياة المسلمين منذ قام الإسلام !

ومنها أيضاً : أن واقعة « إسماعيل » لها دلالتها على تكريم إسماعيل وافتدائه
من السماء . . . وأن هذه الواقعة جرت في طريق الطاعة لله ، والامتثال لأمره ،
من كل من الأب والابن — إبراهيم وإسماعيل — وأن الجزاء المعجل لهذه الطاعة
وذلك الامتثال كان في هذا الفداء السماوي الذي كشف به الله الضر عن الولد
والوالد معاً . . . أما واقعة « عبد الله » — إن صححت — فإنها لم تجر في طريق ينبيء
عن أنها كانت امتحاناً من الله ، وبلاء لعبد من عباده . . . فإن ما حدث لعبد المطلب —
على حسب ماجاء في الرواية — لم يكن إلا ثمناً لما أخذ . . . فإنه قد تمنى على الله
عشرة أولاد ، وأنه إذا صححت أمهته ، وتحققت ، قدم أحد أبنائه العشرة قربانا لله !

فإذا كان في اختيار أحد هؤلاء العشرة ليكون القربان المطلوب — إذا كان
في هذا الاختيار دليل على فضل الولد المختار ، واعتباره الطيب المؤهل ليكون
قربانا لله — فإن هذا الاختيار لم يكن بوحى سماوي ، ولا برؤيا صادقة وإنما
جاء عن عملية أشبه بعملية القمار ، وعلى يد كاهن اقترح بقداحة بين الأبناء العشرة
فوقع الاختيار على « عبد الله » ، وكذلك كان الشأن في عملية الفداء . . . لم يكن
الفداء سماويا ، ولا عن وحن من السماء ، ولا عن رؤيا صادقة ، وإنما كان عملية
ضرب بالقداح ، ولعب بها كما يلعب بالقمار !

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن قصة « عبد الله » الذبيح — إن تسكن
صحيحة — فإنها لا تترك على شيء تدخل به في باب المعجزات التي وقعت تكريماً
للنبي ، وإعلاناً بمطلع صبحه المشرق . . . وأنها — إن صححت — فلا تتجاوز
أن تكون صدفة من الصدف التي تدفع عن الإنسان يد المعية وقد علمت به ، وكادت
تنشب أظفارها فيه .

والذي أراه في هذه القصة أنها من الإضافات الكثيرة التي وضعها القصاصون في السيرة النبوية ، اعتقاداً منهم أن ذلك مما يرفع في قدر النبي ونبوته ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما سنشير إلى ذلك فيما بعد . .

٣ - ماذا في جبين عبد الله ؟

ويتحدث الرواة والمؤرخون أيضاً عن فلقة من النور كانت تتألق في جبين عبد الله ، والد النبي !

ولا يتحدث الرواة والمؤرخون عن القطعة النورانية المتلازمة في جبين عبدالله — لا يتحدثون عنها حديثاً يكشف عن مشاهدات الناس لها ، ولا عن التفاتهم إليها ، واهتمامهم بها . كما لا يكشفون في حديثهم هذا عن الزمن الذي صحبت فيه هذه الشامة النورانية صاحبها عبد الله . . أهي معه منذ مولده ؟ أم عند بلوغه مبلغ الرجال ؟ أم أنها ظهرت في يوم ما ثم غربت كما تغرب الشمس ليومها ؟

والذي يفهم من مساق الرواية أن هذا « النور » كان كامناً في كيان عبدالله ، ثم تحرك فظهر على جبينه ، والذي يفهم أيضاً أن هذا النور لم يكن ملحوظاً إلا عند تلك المرأة « الخثعمية » التي دعت عبد الله إلى نفسها فأبى عليها ذلك . . ونورد هنا ما روى المؤرخون عن هذه الواقعة :

« فقد روى محمد بن سعد في طبقاته . . قال : إن عبد الله بن عبد المطلب تزوج آمنة وهو ابن ثلاثين سنة ، وقيل بل كان يومئذ ابن خمس وعشرين سنة (١) .

« وعن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي النياض الخثعمي قال : لما تزوج عبد الله آمنة أقام عندها ثلاثة ، وكانت تلك السنة عندهم (٢) .

(١) الطبقات : جزء ١ ص ٥٨ .

(٢) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٥٧ .

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق قال : « ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيده ابنه عبد الله - بعد أن نجا من الذبح بما افتداه به من إبل - فمر - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى - وهى أخت ورقة بن نوفل - وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه . أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبي ؟ قالت : لك مثل الإبل التى نحررت عنك ؛ وقع على الآن !! قال : أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافة ، ولا فراقه !! »

« فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه أمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش ، نسباً ، وموضعاً .. فزعموا أنه دخل عليها - حين أمملكها (١) مكانه ، فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟ قالت له : فارقت النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

ويروى ابن إسحاق لهذه الواقعة رواية أخرى ينقلها عنه ابن هشام أيضاً .. هكذا :

« قال ابن إسحاق : وحدثني أبي - إسحاق بن يسار - أنه حدث أن عبد الله لما دخل على امرأة كانت له مع أمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له ، وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت ما به من أثر الطين ! ، فخرج من عندها ، فتوضأ (١١ ؟) وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج حامداً إلى أمنة فمر بها - أى بتلك المرأة - فدعته إلى نفسها فأبى عليها !! وعمد إلى أمنة فأصابها ، فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ، فقال

(١) أملاكها - أى تزوجها - وملك أمرها .

لها هل لك؟ قالت: مررت بي وبين عيذك غرة بيضاء، فدعوتك فأبيت علي
ودخلت علي آمنة فذهبت بها ١١

قال ابن إسحاق: فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عيديه
غرة مثل غرة الفرس ١٠ (١) .

«وقتل ابن سعد في طبقاته عن الواقدي: أن هذه المرأة هي قتيبة بنت نوفل
أخت ورقة بن نوفل . .

«قال الواقدي: كانت — أي هذه المرأة — تنظر وتهتاف (٢)، فمر بها
عبد الله، فدعته يستبضع منها — أي يقع عليها، ولزمت طرف ثوبه، فأبى عاها
وقال: حتى آتيك، وخرج مسرعاً حتى دخل علي آمنة، فوقع عليها فحملت برسول
الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقيل إن المرأة التي مر بها عبد الله هي امرأة من «خشعم، يقال لها فاطمة
بنت مر وكانت من أجمل النساء، وكانت متهودة من أهل تبالثة قد قرأت
الكتب (٤) . .

وواضح من كل هذه الروايات ذلك التناقض والتهافت الذي يذهب بكل
قيمة تاريخية لها . . فقد اختلف الرواة في المرأة التي دعت عبد الله إلى نفسها،
فهي تارة أخت ورقة بن نوفل، وهي تارة أخرى امرأة من خشعم تدين باليهودية،
وتنظر في كتب الأديان! أو هي امرأة أخرى له إلى جانب امرأته، آمنة،!

وينظر شيخ المؤرخين «ابن إسحاق» إلى هذه الواقعة نظرة باردة فائرة فيليبها
لباس «الزعم» ويلقي عليها ظلالاً من الشك في كل طرف من أطرافها . . بما يقدم
بين يدي كل خبر من أخباره عنها بقوله «زعموا، وقالوا، ويقال ١١ .

- (١) السيرة لابن هشام: جزء أول ص ٤٧١ .
- (٢) أي أنها كانت صاحبة نظر وفراسة، ولها خبرة في عيافة الطير وزجرها .
- (٣) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٥٩ «قسم أول» .
- (٤) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٦٠ .

ثم إن التلميح والصنعة يدوان للعيان في أى رواية من هذه الروايات .
وحسبنا أن نشير إلى ما جاء في بعض هذه الروايات من أن « عبد الله » ذهب
ليتوضأ ويزيل الطين الذى علق به ! فهل كان عبد الله مسلماً قبل أن يظهر نبي
الإسلام ؛ وقبل أن تظهر كلمة « الوضوء » في لسان العرب بهذا المعنى ؟ ثم من
أين تستدل المرأة أو المرأتان من هذا النور الذى يقال إنه كان على جبين عبد الله
— على أنه نور النبوة ، وأن من اتصل بعبد الله ، وتحمل منه سيتصل بها هذا
النور ، وستلد النبي المنتظر ؟

الواقعة مزعومة بلا شك ، وهى من وضع القصاصين الذين كانوا يتخذون
من المساجد ندوات يجتمع إليهم فيها الناس ، ليسمعوا منهم ما عندهم من أحداث
الإسلام الأولى ما يغذى مشاعرهم ، من هذا الزاد الطيب الذى لم يكن لهم حظ
شهوده ، والمشاركة فيه . فاستجاب القصاص لهذا الظمأ الشديد ، فقدموا للظالمين
ما عندهم من ماء أو سراب !

ولم يكتف القصاص بالوقوف عند هذا الحد في شأن هذه الحادثة ، فنقلوها
إلى ميدان الشعر ، وأداروها على ألسنة الشعراء .. فقالوا : إن عبد الله حين
عرضت عليه المرأة ما عرضت ، فأبى عليها ، وقال — فيما قال لها — شعراً جرى
على لسانه ، فإذا هو :

أما الحرام فالمات دونه والحل ، لاحل فأستبته
فكيف بالامر الذى تنوينه ؟

وكان لا بد أن تقول المرأة شعراً ، أو يقال فيها شعر حتى تتم حبكة القصة !
وقد كان ، فزعم الرواة أن شباب قريش حينما بلغتهم ما كان من أمر المرأة
وعرضها نفسها على عبد الله ، وتأبىه عليها — شنعوا عليها ، وأكثروا المقالة فيها
فقاتل تدفع عن نفسها ، وكان موقفها حسب تخيله الرواة أشبه بامرأة العزيز مع
السوسة اللاتي جررن ألسنتهن بالحديث فيما كان بينها وبين فتاها « يوسف » عليه

السلام . . . فقالت هذه المرأة تسمع فتیان قرآن ، وتدفع عن نفسها اللاتمة
فيما كانت تطالب من عبد الله . . .

لاني رأيت خيالة عرضت	فتلات بجناهم الديبل (١)
فلمأتها نوراً يضيء له	ماحواله كإضاءة الفجر (٢)
ورأيت به شرفاً أبوء به	ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت	منك الذى سلبت وما تدرى (٣)

ثم لا تمسك عند هذا القدر من الشعر ، بل ترسل أشعاراً أخرى تبرز فيها
بين الحكمة وضرب المثل (٤) .

ولا حاجة بنا إلى التول بأن هذا الشعر مولد ، من صنع القصاص ، أو من
وحي قصصهم ، فذلك من الموضوع بحيث لا يحتاج إلى من يشير إليه .

٤ - حلم آمنة !

ويذكر الرواة عن آمنة ، أنها حين حملت بالنبي صلى الله عليه وسلم رأته
أحلاماً ورؤى عجيبة ، كانت تحدث بها من معها في تخافت وحذر !

فمن ذلك ما يرويه ابن سعد في طبقاته رواية عن محمد بن عمرو بن واقد
الأسدي ، قال — أي ابن واقد — حدثني علي بن زيد بن عبد الله بن وهب
ابن زمة عن أبيه عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول : ما شعرت أني حملت به ، ولا وجدت
له ثقله كما يجحد النساء ، إلا أني أنسكرت رفع حيضتي ، وربما كانت ترفعني
وتعود ، وأنا ناتي أنت وأنا بين النائمة واليقظي ، فقال : هل شعرت أنك حملت ؟

(١) الخيالة بضم الميم السجاية التي يخال أنها ممطرة ، ومرضت لاحت وظهرت . والحنام
جمع حنم ، والحنم تمر مستديرة أشبه بالحنم يصبغ به الشعر ، والقطر : المطر .

(٢) لمأتها : أبصرتها .

(٣) زهرية : تفضدها آمنة منك وهبأم النبي ، لأنها من بني زهرة .

(٤) انظر نهاية الأرب جزء ١٩ ص ٩١

فكأنى أقول ما أدري ، فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين (١١) قالت : فكان ذلك مما يقن عندي الحمل . ثم أهملني — أى هذا الآتى — حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتى فقال : « قولي أعينه بالواحد الصمد ، من شر كل حاسد ، قالت فكنت أقول ذلك » (١) .

ومنها ما روى ابن هشام صاحب السيرة عن أبي إسحاق ، قال : ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام . قد تواترت الأخبار الصحيحة بذلك (٢) .

ونقل شهاب الدين الدينورى فى كتابه نهاية الأرب قال : وحكى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي فى كتابه « الأعلام » عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان من دلائل حمل آمنه برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل بمحمد ورب السكينة ! وهو إمام الدنيا ، وسراج أهلها ، ولم تبق كاهنة فى قرىش ، ولا فى قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبها ، وانتزع علم الكهنة منهم ، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

قال : وقال كعب الأخبار (٣) : أصبحت أصنام الدنيا كلها منكوسة مذمومة فيها شياطينها .

قال : وقال ابن عباس رضى الله عنهما : وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك ، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات . وكذلك أهل البحار صار يذبح بعضهم بعضاً ، وله — أى للنبي — فى كل شهر من شهوره — أى شهور حمله — نداء فى الأرض ، ونداء فى السماء : أن أبشروا ، فقد آن لابن القاسم أن يخرج إلى الأرض ، ميمونا مباركا

(١) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٦٠ (القسم الأول)

(٢) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٦٢

(٣) كعب الأخبار هذا يهودى دخل فى الإسلام ليكفبه له ولأهله ، ولينسند على المسلمين دينهم كما فعل « بولس » وكان يهوديا فدخل فى النصرانية وأدخل فيها عقيدة الأب والابن وروح القدس .

وفي السيرة الحلبية : قالت فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن العاصي ، وكانت شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم — قالت : دحين وسمعت أمه ، وذلك ليلا ، فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو ، حتى لأقول لتقمن علي ، .

وفي السيرة الحلبية أيضاً : عن أمته قالت : لما ولدت محمداً — صلى الله عليه وسلم — ثم خرج من بطني نظرت إليه ، فإذا هو ساجد لله عز وجل ، رافع يديه إلى السماء كالمترشح المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى غشيتة ، فغيبته عن عيني برهة ، فسمعت قائلاً يقول : طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها ، وأدخلوه البحار كلها ليعرف جميع الخلائق كلها باسمه ، وصفته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لي ، لا يقس شيء من الشرك إلا ذهب به . . . قالت : ثم انجحت عني في أسرع من طرفة عين ، فإذا أنا به مدرج في ثوب أبيض ، أشد بياضاً من اللبن ، وتحتة حريرة خنزراء ، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، وإذا قائل يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم مفاتيح النصر ، ومفاتيح الدنيا ، ومفاتيح النبوة ، (١) .

وهذه الأخبار — ما صح منها وما لم يصح — لا تستند إلى مصادر تاريخية موثوق بها . وإنما هي أقول متهاففة ، ينسبها ناقلوها إلى شخصيات معروفة بالرواية والحفظ كابن عباس . ليكون هذا الاسم شقيقاً لهذه الأخبار أن تقبل بما فيها من أسقام وعلل !

وليس بمتكور أن يكون شيء من هذه الأخبار قد وقع فعلاً . . . مثل الذي قيل عن أمته لأنها حين حملت بوليدها أنها لم تشعر به . . . فذلك جدير به أن يقع لها . لأنها تضم في كيانها الرحمة كلها ، الرحمة المرسله للعالمين جميعاً ، فلا عجب أن يكون نصيبها من هذه الرحمة هذا اليسر الذي وجدته في حملته . وفي ولادته .

(١) السيرة النبوية جزء ١ ص ٤٠٤ طبعة مصر سنة ١٣٩٠ هـ .

وليس بمنكور أيضاً ما يروى عن أمّنة أنها ولدت « محمدًا » حين ولدته ؛
« ولدته طيباً نظيفاً كما يولد السنحل » .. فإن النبوة كلها طهر ونظافة مادية و نفسية
معاً . . . ومحمد خاتم النبيين ، قد خصه الله سبحانه بالصفات كلها ، وأذهب عنه
الرجس والخبث ، ومجىء ميلاده على تلك الصفة هو بعض ما ينبغي أن يكون له
في مولده .

وكذلك من المتوقع كثيراً أن ترى أمّنة رؤى وأحلاماً تملأ قلبها سعادة
ورضى بما في بطنها ، وقد احتوى الخير كله ، واشتمل عليه . . بل إنه لمن المحقق
أن تجد ريح النبوة يملأ عليها حياتها طمأنينة ورضى ، ويفيض عليها الروح
والراحة في يقظتها ونومها !

ذلك وكثير على شاكلته بعض ما ينبغي أن يعقب من طيب النبوة وأن يفوح
من عبير الأنبياء ، وهم أجنة في بطون أمهاتهم ، أو مواليد في مهد الطفولة . .
فهم أكل خلق الله ، وأفضلهم ، وأولاهم عند الله بكل فضل وكال . . .

وإذا كان هذا في أنبياء الله ورسله أجمعين ، فإنه في محمد صلى الله عليه وسلم
آتم وأكمل ، إذ كان خاتم النبيين ، وجامعة الحق الذي دعوا إليه ، والنور
الذي أرسلوا به !

ليس لأحد إذن أن يدفع هذه التفهات الطيبة التي يجدها أولئك الذين اتصلوا
بالأنبياء . . اتصال حياة كالأباء والأمهات ، أو اتصال مخلطة كالزوجات ،
أو اتصال مصاحبة كالأنباغ !

أما الذي يفسد هذه الصورة السكرية التي يتصورها أناس — وخاصة
المؤمنين — فهو هذه الأخبار التي يصطنعها الرواة ويخلطونها خلطاً ممسوخاً
مشوهاً ، فسهل يبلغ أحياناً من الشناعة وسوء الصنعة ما يقرر النفس ،
ويستحي العقل !

لأى عقل لا يقف موقفهم لهذا الخبر الذي يروى عن أمّنة « أنها حين
حملت بالنبي رأت نوراً خرج منها فرأت به قصور بصرى بأرض الشام ، !!

ولا نسأل عن هذا النور ، ولا عن مدى قوته وامتداده . . ولكن السؤال الذي يرد هو : لماذا كان اتجاه النور إلى « بصرى » ، هذه ؟ ولم لم تكن الرؤيا في دائرة متكاملة على جميع الجهات ؟ وإذا كان وجهة النور هي الشمال إلى « بصرى » ، فلم لا ينكشف لها بيت المقدس وهو ثانی قبلي « محمد » ؛ وفيه المسجد الأقصى ؟

كذلك يقف العقل موقف المتهم لذلك الخبر الذي يحدث عن وحوش الأرض وسباعها ، وأنه قد مشى بعضها إلى بعض بالبشرى ، بأن آمنة قد حملت « بمحمد ١١ » . . فمن كان يرصد حركات الوحوش وحالاتها تلك الليلة التي حملت فيها آمنة بمحمد ؟ وهل يقع ذلك في حيز الإمكان ؟ وإذا كان ممكناً فما دلالاته في هذا الوقت الذي لم يكن للنبي دعوة بعد ، وهل انتفعت الدعوة بهذه الحادثة العجيبة ؟ وهل اتخذها النبي حين حمل الرسالة — هل اتخذها آية على صدقها ، وجعلها معجزة من معجزاتها ؟ ثم من ترجم لغة الحيوانات وعرف ما نطقت به ، إن كان لها في هذه الليلة منطق ؟!

إن هذه الأخبار المخافية المنطق ، البعيدة عن التصور ، الفارغة من كل معنى طيب — هي في الواقع شهادات زور ضد الإسلام ونبي الإسلام . . فإنها حين تلتقي بهذا الركام من الزيف السخيف المفضوح على سيرة الرسول ، تفتح أبواباً واسعة يدخل منها مرضى القلوب ، وسفهاء الأحلام ، للنيل من مقام النبوة في صفاتها الرفيعة ، وسيرتها المطهرة . . إن هذه الأخبار الغثمة الباردة حين يطالعها المنطالع لسيرة النبي ، يجد لها ريحاً ثقيلة ، تفند عليه الجو الطيب الروحى . الذى كان حرياً به أن يجده في لقاءه مع الحق الثابت ، من سيرة النبي المبهوث هدى ورحمة للعالمين .

هـ - قصة الختان

ذكر كثير من مؤرخي السيرة روايات — إن اختلفت سنداً فقد اتفقت
متناً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد محتوناً ، ، مسروراً (١) !

وقد وقف ابن قيم الجوزية من واقعة الختان ، هذه موقف المتشكك في أمر
غير ذي خطر إذ لا يرى فيه دلالة ذات أثر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
إن صح أو لم يصح !

يقول ابن القيم :

اختلف فيه — أي في الختان — على ثلاثة أقوال :

أحدهما أنه ولد — أي النبي — محتوناً مسروراً . . وروى في ذلك
حديث لا يصح . . ذكره أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات — أي في
الاحاديث الموضوعية .

وليس فيه — أي في الختان — حديث ثابت !

وليس هذا — أي الختان — من خواصه — أي من خواص النبي —
فإن كثيراً من الناس يولد محتوناً . .

، وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن عثمان الخليلي المحدث ببیت المقدس :
أنه ولد كذلك ، وأن أهله لم يحتتموه !

، والناس يقولون إن ولد كذلك ، ختمه القمر ! وهذا من خرافاتهم

القول الثاني : أنه ختم صلى الله عليه وسلم يوم شق قلبه الملائكة ، عند

ظهوره حليمة !

القول الثالث : أن جدّه عهد المطلب ختمه يوم سابعه ، وصلح له مأدبة ،

() أي مقطوع السرة .

وسماه محمدا ... ويروى في هذا حديث غريب . . عن عكرمة ، عن ابن عباس :
« أن عبد المطلب ختن النبي صلى الله عليه وسلم يوم سابعه ، وجعل له مأدبة ،
وسماه محمدا — قال يحيى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد
من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند أبي السري — الذي نقل عنه عكرمة ، الذي
يقال إنه رواه عن ابن عباس —

« وقد وقعت هذه المسألة - مسألة الختان - بين رجلين فاضلين : صنّف
أحدهما مصنفاً في أنه ولد - أي النبي - محتوناً - وأجلب فيه الأحاديث التي
لا خطام لها ولا زمام ، وهو كمال الدين بن طلحة . . فنقضه عليه كمال الدين
ابن العديم ، وبين فيه أنه صلى الله عليه وسلم ختن على عادة العرب ، وكان عموم
هذه السنة عند العرب متغنياً عن نقل معين فيها . . والله أعلم (١) .

وهكذا يقضي ابن القيم في مسألة الختان ، وأنها كانت عادة عامة للعرب ،
وإذن فلا حاجة إلى نقل أحاديث تشهد لرسول الله بخصوصية فيها .

٦ - قصة شق الصدر !

وقصة شق صدر الرسول قصة مثيرة ، كانت مشار إعجاب لكثير من المسلمين ،
كما أنها كانت مصدر تهكم وسخرية من كثير من غير المسلمين !

وقد وقعت هذه الحادثة للنبي - كما يقول الرواة - بعد السنة الثانية من
عمره ، وهو لا يزال في حضانة حليلة السعدية . في بنى سعد بن بكر !

وقد روى عن حليلة السعدية خبر هذا الحادث . . قالت : « إنني لقي بهم لنا
خلف بيوتنا إذ أنا أنا أخوه - من الرضاعة ، وهو ابن حليلة - يشمد ، فقال
لي ولأبيه : « ذلك أخى القرش . قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض . فأخذاهما
فثما بطنه . فهما يسوطانه (٢) » ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوبهناه قائماً

(١) زاد المعاد جزء ١ ص ٣٥

(٢) -وطانه : أى يتلقاه بأيديهما فيما بينهما



منتقماً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك بابني ؟ قال : جاعني
رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقنا بطني ، فالتسا شيئاً لا أدري
ما هو ! قالت : فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لي أبوه : يا حليلة ، لقد خشيت أن
يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألقيه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك به — قالت :
فاحتملناه فقدمنا به على أمه . . فقالت : ما أقدمك به يا ظئر ؟ وقد كنت خريصة
عليه ، وعلى مكثه عندك ، قالت : فقلت نعم ! قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذي
علي ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته عليك كما تحبين ! قالت : ما هذا شأنك ،
فأصدقيني خبرك ! قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها ! قالت : أفتخوفت عليه
الشیطان ؟ قلت : نعم ! قالت : كلا ، والله ما للشیطان عليه من سبيل . . وإن
لابني لشيئاً ! أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . . قالت : رأيت حين حملت به
أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى بمن أرض الشام . . ثم حملت به ،
فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووضع حين ولدته ،
ولانه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء . . دعيه عندك . وانطلق
راشدة (١) . .

ويروي ابن هشام لهذه الحادثة طريقتين آخرتين من طرق الرواية . . يقول
ابن هشام : قال ابن إسحاق : وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم (١١)
ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي أن نقرأ من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : أخبرنا يا رسول الله عن نفسك ، قال : نعم . .
أنا دعوة إبراهيم (٢) ، وبشرى عيسى (٣) ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج
منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . فبينما أنا
مع أخ لي خلف يورتنا نرضى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض

(١) السيرة لابن هشام : جزء ١ / ص ١٥٥ /

(٢) هي الدعوة التي ذكرها القرآن على لسان إبراهيم : « ونبأنا إبراهيم رسولا منهم
يثقنا عليهم آياتك ، ويصامهم الكتاب والحكمة ويزكاهم ، إنك أنت العزيز الحكيم »
(البقرة ١٢٩)

(٣) وهي البشيرة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى « ومبشراً
برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » (الصف ٦)

بطبت من ذهب ، مملوءة ثلجاً ، فأخذاني فشقاً صدري ، واستخرج قلبي . فشفاه فاستخرجها منه علقمة سوداء فطرحهاها ، ثم غسل قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أتقياه . . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بمشرة من أمته ، فوزني بهم فوزنتهم — أى زدت عليهم — ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزني بهم فوزنتهم ، ثم قال : بألف من أمته ، فوزني بهم فوزنتهم . . فقال : دعه ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها ، (١) .

وموقفنا من هذه القصة هو موقفنا من جميع القصص التي رويت عن حياة النبي قبل البعثة ، أى أننا لا ننظر إليها بحسابها من دلالات النبوة ، ومعجزات النبي ، وإنما ننظر إليها جميعها على أنها — إن صحت — لم تكن لتزيد في قدر النبوة ، ولا في عظمة النبي ، وأنها إن لم تصح لم تكن لتنقص شيئاً من قدر النبوة ، ولا من عظمة النبي !

وقصة شق الصدر — هذه لم يقم عليها دليل قطعي من الكتاب أو السنة ، والحديث المروى عن رسول الله لم يضبط سنده ، إذ أسنده ثور بن يزيد إلى بعض أهل العلم (١١) ويقول ابن إسحاق في بعض أهل العلم هؤلاء : لأحسبه لإخالد ابن معدان الكلاعي . . ثم إن خالد بن معدان هذا يسند روايته إلى نفر من أصحاب رسول الله ، ولا يحقق واحداً منهم .
فهذا الحديث مضطرب السند ، لا يؤخذ به .

ثم إن عملية شق الصدر إذا نظر إليها من جانبها العملي . . أعطى الأثر الذي أريد لها أن تحققه في هذا الخبر ، وهو تنقية صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوسواس ، بانزعاع تلك النقطة السوداء التي قيل إنها انتزعت من قلبه حين شق ، وغسل ؟ وهل فعل ذلك بجميع الأنبياء حتى تخلى قلوبهم من وساوس الشياطين ؟ فإنه لاشك أن أنبياء الله جميعاً قد عسموا من هذه الوسواس . .

وإذا كان لرسول الله فضل على الأنبياء - وهو كائن فعلا - أفتحتاج قدرة الله حين يفيض عنايته على عبد من عباده إلى هذه العمليات الجراحية في وضوح النهار، وعلى ملاء من الناس، وإذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية - وهو مالا يكون - أفلا يكون ذلك في حال لا يشعر بها أحد حتى النبي نفسه . . كأن يكون ذلك في حال النوم مثلا ١٩ ..

ولعل واضح هذه القصة قد استلهم موحياتها من قوله تعالى مخاطباً نبيه :
وَأَمْ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ .. ، وسوغ له تخياله أن يجعل هذا الشرح المعنوي للصدر شرحاً بديعاً ، تتولاه الملائكة بعملية جراحية كاملة ، كما يفعل الطبيب بمبضعه .

٧ - إرهاصات بين يدي النبوة

في النفس البشرية قوى استطلاعية متخفية ، لا يدري أحد من أمرها شيئاً ، فلا تخضع لاستدعاء الإنسان لها . ولا تعطى حين يطلب إليها أن تعطى مما عندها، وإنما هي في الإنسان ذات سلطان لا سلطان عليه . . تظهر حيث تشاء ، وتعطى كيف تشاء ! ومتى تشاء !

هذه القوة يحد كل إنسان بعض آثارها في حياته ، على اختلاف في هذه الآثار . . . كثرة ، وقوة ، ووضوحا .

ولو رصد الإنسان - أي إنسان - معطيات هذه القوة الخفية فيه ، لوجد فيها أسراراً عجيبة . تجار لها العقول ، وتعجز عن الوقوع على تفسير صحيح لها !

فكم مرة يلقى في روع الإنسان أن أمراً ما ، قد وقع ، أو سيقع على صفة ما ، دون أن يكون هذا الأمر - في تلك الحالة - منظوراً له ، أو جارياً في تفكير . . ثم يقع على تلك الصورة التي استشعرها استشعاراً !

وكم من مرة ترسم لعبني الإنسان صورة شخص ما ، من غير أن يكون له مكان في خاطره ، أو مدار تفكيره . . ثم إذا بهذا الشخص يطلع عليه ، على غير انتظار ! !



وكم وكم من مثل هذه الرؤى اليقظى ترتفع صورها . فيراها الإنسان رأى
العين ، أو يحدد مسها في خفقات قلبه ، أو ما رب تفكيره !
ولهذه القوة الاستطلاعية فترات تستيقظ فيها ، كما أن لها فترات أخرى تخمد
فيها جذوتها ، ويفتر نشاطها .

والأحداث التي تنتظر الإنسان في خاصة نفسه، أو تنتظره مع الناس في دائرة
أوسع وأشمل — لهذه الأحداث أثرها في تحريك هذه القوة ، وفي انبعاثها من
مكانها !

فإذا كانت تلك الأحداث ذات طابع ثورى تنقلب به الأوضاع القائمة في
الحياة ، ويتحول به سبب الأمور على غير الوجهة التي هي عليها — فإن ذلك
ما يهيج هذه القوة المتدسية في الناس ، ويحرضها تحريضا قويا على أن تشيم بروق
هذه الأحداث ، وتنسم أرواحها ، وتفتح خياشيمها على مهاجمها ، فتجدها ، قبل
أن تولد في الواقع الذي يعيش في الناس ، وتعرف إليها قبل أن تقع عليها عين،
أو تلمسها يد ؟

ولك أن تسمى هذه القوة حاسة غير الحواس الخمس المعروفة — حاسة
خفية مهمتها أن تستقبل — أحيانا — ما لا تستطيع الحواس المعروفة استقباله
من أنباء وأحداث !

ففي المرصد — مثلا — أجهزة تنبيه عن العاصفة قبل أن تجيء ، وعن
الهزات الأرضية قبل أن تقع . . وإنما في هذه الأحوال ، لا تخلق العاصفة ،
ولا تصنع الهزات ، وإنما كل ما في الأمر أنها أدق حسا ، وأسرع تأثيرا من
تلك الأجهزة الكائنة في الإنسان . وعملها هنا أشبه بما يسمى السبق الصحفي في
عمل الصحافة اليوم . . . !

نقول إن الأحداث إذا كانت ذات طابع ثورى في الحياة هيجت هذه القوة
الاستطلاعية الكامنة في الإنسان ، ودعتها إليها ، فرأت ما لا يرى الناس . وعرفت
ما لا يعرفون . ثم عادت فألقت إلى الناس بأخبار ، يعجبون لها ، ويدهشون
بها ، ويقفون منها بين مصدق ومكذب ، حتى تلتقي بحواسهم وتقع تحت مبركاتهم .

والنبوة أمر عظيم . وحدث عجب ، قلنا تشهد الحياة مثاله ، إلا حين يظهر نبي ، وتظهر في الحياة دلائل نبوته . ١٠

إن النبوة صلة مباشرة بين السماء والأرض ، فحين يظهر نبي يكون معناه أن السماء قد التقت بالأرض ، أو أن الأرض قد تلاقت مع السماء على يد إنسان من الناس . . إنسان يتناول من السماء بعض ما فيها من رحمة ونور ، ليأخذ الناس بحظهم من هذه الرحمة ، ومن هذا النور .

ونبوة محمد ، آية الآيات في النبوات . . ولها من الآثار في الحياة بقدر ما تفرق في النبوات كلها . . إنها ليست لشعب ، أو قبيلة . أو بلدة ، وإنما ليست لجيل أو جيلين أو ثلاثة من أجيال الناس . . بل هي للإنسانية كلها ، وللأجيال جميعها . . منذ ظهور هذه النبوة إلى أن ينتهي دور الإنسانية على هذه الأرض . فإذا آن أو ان هذه النبوة ، وأطل زمانها ، وحن مولدها - كان لها في كيان تلك القوى الاستطلاعية الكامنة في الناس دوى عظيم ، يكاد يحيل هذه القوى إلى كائنات حية ، تحدث عن استطلاعاتها بلسان قوى مبین .

وقد حدث هذا أو ما يقاربه حين بدأت الخيوط الأولى من أشعة الفجر تظهر في آفاق الجزيرة الدرية مؤذنة بأن مطلع شمس النبوة سيجيء بعد هذا الفجر الوليد .

فلقد استيقظت في الناس قوى روحية تتلمس مواقع هذا النور ، وتهدي إليه ، وانقادت في صدور كثير منهم شرارة الإيمان ، فأوقدت في صدورهم جذوة مضطربة قلقة ، لم يستطيعوا معها صبرا على معتقداتهم الفاسدة التي وجدوا ريمها العفن ، حين طلعت عليهم ریح النبوة ، واستطابوا شميمها الزكي العطر .

وتسجل صحف التاريخ هذه الفترة التي قامت بين يدي النبوة أنباء وأحداثا كثيرة مستفيضة . قد بلغت حدا من الكثرة والغرابة دعا بعض الناس إلى إنكارها وتسكديها جملة وتفصيلا ، كما دعا بعضا آخر إلى قبول بعضها ، والتوقف عند بعض ، وإنكار بعض .

والذي نراه في هذه الأخبار ، ونسكاد تقطع به هو أن الاصول التي قامت عليها هذه الاخبار أصول صحيحة سليمة . . فإن ظهور النبي ؛ بل خاتم الأنبياء ،

لا يمكن أن يقع دون أن يقوم بين يدي موكبه من يعلن في الناس نبأه ، ويفسح الطريق لهذا الموكب الجليل المهيّب .

أرأيت إلى الشمس؟ أتراها تطلع في أفق من الآفاق دون أن تسبقها أضواء الصباح ، ودون أن تقوم بين يديها أنسام الفجر لتوقظ الأحياء لها ، وتهيئهم لاستقبالها ، وتملأ عيونهم نوراً هادياً مترفقاً قبل أن يضرهم غرورها ، ويغشى أبصارهم شعاعها ؟ !

ثم أرأيت إلى صديق الناس وتديرهم مع ملوكهم ورؤسائهم؟ أتراهم يلقون هؤلاء الملوك والرؤساء فجأة وعلى غير انتظار؟ أم تراهم يتخذون لذلك من الوسائل ما يوقظ الناس ويلفتهم إلى لقائهم قبل أن يطلعوا عليهم ، وتلتقي أعينهم بهم؟

وما الشمس في جلالها وعظمتها؟ وما الملوك والرؤساء في سلطانهم وهيبتهم؟ إنهم أرض والنبوه سماء ، وإنهم رعية والنبوة راعية . وإنهم جند والنبى قائد ، وإنهم صغار والنبى قيم على هؤلاء الصغار !!

فهذه الأخبار التى تروى عن الذين شاهدوا أنوار النبوة قبل أن تبرز ، وشاموا مخايل النبى قبل أن يظهر - هذه الأخبار تسند - كما قلنا - إلى أصول صحيحة ، وتقوم على واقع لا شك فيه ... والسكن الذى يؤخذ على هذه الأخبار هو ما دخل عليها من إضافات ، وما تلبس بها من عواطف ومشاعر ، وما زحف عليها من مفتريات وأكاذيب .. !

فلقد زين لكثير من القصاص أن يجعلوا من هذه اللبحات الخاطفة ، ومن هذه الرؤى العابرة ، التى وجدها بعض ذوى النفوس الواحمة ، والمشاعر المتوفرة من ربح النبوة - « خمائر ، الخلق ملاحم ذات طول وعرض ، كان لها أثر كبير فى أن جرأت بعض الكذابين والمنافقين ، وأعداء الإسلام ، أن يزيّدوا ، وأن يحتلقوا من الباطل صوراً شائمة كادت تفسد بهاء تلك الصور الجميلة ، التى وجدها أولئك الرواد الذين سبقوا إلى مطالعة أنوار النبوة ، قبل أن تبرز شمسها ، والتى سلم بعض ما نقل إلينا من أخبارها .

والأخبار التي بين أيدينا كثيرة — كما قلنا — ، وقد اجتمع فيها الصحيح إلى السقيم ، واختلط الحق بالباطل ! . غير أن التفرقة بين الصحيح والسقيم ، والفصل بين الحق والباطل أمر هين في هذه الأخبار ، فإن أدنى نظر يكتشف الزائف منها ويفضحه ، إذ كان الكذب فيها يكاد — لشناعته وسوء تصويره — يذيع عن نفسه ، ويدل على من ألقى به في هذا الوجه الأسود المشوه في موكب النبوة ، الفياض بالنور ، والجلال ! ! .

عمور من الحق :

ونذكر هنا بعضاً من هذه الأخبار التي نظمنا إليها ، ونرى أنها كانت جديرة بأن تقع ، وإن لم تكن قد رفعت فعلاً ، لأنها أقرب شيء إلى النبوة ، وأمس نسباً بها :

١ - دين الحمس

في العام الذي ولد فيه النبي أو قبيله أو بعده بقليل ظهرت في قريش موجه من الأفكار الدينية ، ذات الطابع الحماسي ، المتجه إلى فرض أعباء ثقيلة على النفس ، وحملها على الجانب الوعر العنيف من الحياة . .

فلقد تذب في قريش شعور قوى بالدين ، فأوقد في نفوسهم ذلك الحماس التوى للحياة الدينية في كياناتهم . . وخيل إليهم — إن حقاً وإن باطلاً — أن من كمال العقيدة الدينية وتمامها أن تكثر فيها التكاليف ، وتتضاعف القيود ، وأن الإنسان بقدر ما يحمل من تكاليف ، وما يحتمل من قيود يكون حظّه من الدين ومكافئه بين المتدينين ! .

وحديث الحمس ، كما يرويه ابن هشام ، في سيرته عن ابن إسحاق هو :

وقال ابن إسحاق : « وقد كانت قريش — لا أدري قبل الفيل أو بعده — ابتدعت رأى الحمس . . رأياً رأوا رأوه ، فقالوا : « نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمه ، وولاية البيت ، وقطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا . »

هذه هي حثيثيات القضية التي اجتمعت قريش لبحثها . وإصدار حكم يرتضونه فيها . . .

فهم يعرفون لأنفسهم هذه المسكاة التي شرفوا بها ، واستحقوا من أجلها الإجلال والتعظيم من العرب قاطبة .

لأنهم أبناء إبراهيم ، وولد إسماعيل .

وهذا النسب ، وإن شاركهم العرب فيه ليس كل ما لهم من شرف . . . إذ هم إلى هذا النسب ولادة البيت ، وقطنان مكة التي شرفت بالبيت الحرام ، ورفعت منزلتها فوق منازل القبائل العربية كلها ، فكانوا من أجل هذا موضع احترام العرب قاطبة ، يرحلون رحلتى الشتاء والصيف . إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم آمنين ، لا يعرض أحد لهم بسوء . . . حتى جاء الإسلام . وهم على تلك الحال . . . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى مذكراً قريشاً بهذه النعمة : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حوطهم ، ويقول سبحانه : « لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليجئدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف . . .

نقول : إن هذا الذى وقع فى نفس قريش من إحساسها بالميزات التي لها ، والتي سلم العرب لهم بها — إن هذا كان داعية لهم أن يجتمعوا هذا الاجتماع الكبير ، وأن يديروا فيه وجوه النظر فيما ينبغى أن يكون عليهم إزاء هذا الفضل الذى كان لهم .

وقد انتهى هذا المؤتمر إلى مقررات . . . كان على قريش أن تلتزم بها ، وأن تقوم على تنفيذها ، تنفيذاً صارماً لا هوادة فيه . . .

وأهم هذه المقررات :

أولاً : ألا يعظموا شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم . . .

- ٢٠٤ -

ثانيا : لا ينبغي لهم - وهم الخمس - أن يأخذوا الإقط (١)
أو يسألوا (٢) السمن وهم حرم .

ثالثا : ألا يدخلوا بيوتا من شعر ، وألا يستظلوا إذا استظلوا إلا في بيوت
الآدم (٣) ما كانوا حرما .

رابعا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل
إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاجا ، أو عمارا .

خامسا : لا ينبغي لأهل الحل إذا جاءوا حاجين أو عمارا أن يطوفوا
بالبيت إذا قدموا إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت
عراة فإن تخرج منهم - أى من أهل الحرم - رجل أو امرأة من الطواف
عريانا فطاف في ثيابه - ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسهما
هو أو أحد غيره أبدا . . . وكانت العرب تسمى هذه الثياب ، اللقي (٤) .

ويقول ابن إسحاق : في رواية ابن هشام عنه : إن هذه المقررات لم تصدرها
المؤتمرون دفعة واحدة ، ولكنها جاءت تباعا ، واحدة إثر واحدة . . . كلما أزموا
العرب أمرا منها جاءوا بغيره ، وهكذا .

وليس يعيننا أن نقف عند هذه الملاحظة التي نبه إليها ابن إسحاق . من أن
هذه المقررات لم تصدر مرة واحدة . . . وإنما الذي يعيننا هو تلك المقررات
نفسها . وما حملت من دلائل وأمارات .

وأهم ما يلقانا من هذه الدلائل أن قريشا قد عزلت نفسها عزلا روحيا
عن القبائل العربية كلها . . . فجعلوا البيت الحرام وحده هو مكان تقديمهم
واحترامهم . . . أما ما عداه من الشمامير الأخرى التي كان يعظمها العرب جميعا
ومنها قريش فقد أحلوا أنفسهم منها . . . فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة
منها ، وهم يعرفون حق المعرفة أنها من المناعر ، والحج ، ودين إبراهيم ، ويرون

(١) يأخذوا : أى يأكلوا ، والإقط شيء يتخذ من مخيض النعم .

(٢) يسألوا السمن : يطبخونه .

(٣) الأدم : الجلد المدبوغ

(٤) كتاب السيرة لابن هشام : الجزء الأول ص ١٨٩ وما بعدها .

لسائر الرب أن يقنوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : ونحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ، ولا نعظم غيرها . . نحن الخمس ا ، (١)

وهذه العزلة الروحية لاشك أنها دليل يقظة ، وأمانة تنبه لهذا الأمر العظيم ، الذى ستكتشف عنه الأيام بعد قليل ، والذى ستكون وجهته — أول ماتكون — الجانب الروحى فى الناس ، وأن قريشاً هى أول من تلتقى بهذا الأمر العظيم . . وحى السماء ، على لسان رجل من قريش . . هو محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه !

٢ — رجال فى الطبيعة

وهذه الدفعة من الخماس الروحى التى حملت قريشاً على أن تتخذ هذا الموقف — الذى أشرنا إليه — والذى انتفى بها إلى أن تفرض على نفسها وعلى الناس ما فرضت من مقررات — نقول إن هذه الموجة من الخماس الروحى كان لها عند بعض ذوى العقول الناضجة ، والمشاعر الحية أصداء بعيدة لم تقف بها عند هذه المقررات ، بل دفعت بها إلى آفاق أبعد مدى ، وأرحب ساحة من هذا الأفق الذى وقفت قريش عنده !

ويحدث ابن إسحق ، فيما يروى ابن هشام عنه ، فيقول : « اجتمعت قريش يوماً عند أصنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويدبرون به ، وكان ذلك عيداً لهم ، فى كل سنة ، يوماً . . فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكنتم بعضكم على بعض اقلوا أجل . . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . »

« وقال بعضهم لبعض : « تملوا (٢) . . والله ما قومكم على شيء . . لقد

(١) السيرة : جزء أول ص ١٨٩ ؛

(٢) تملوا اعلوا ،



أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . . . ما حجر نظيف به . ؟ لا يسمع ولا يبصر ،
ولا يضر ولا ينفع . . . ؟ يا قوم : التمسوا لأنفسكم . . . فإنكم والله ما أنتم
على شيء . . . !

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الخيفية ، دين إبراهيم (١) .
ويقول ابن إسحاق عن هؤلاء الأربعة : أما ورقة بن نوفل فاستحکم في
النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس ، حتى جاء الإسلام
فأسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان (٢)
مسلمة ، فلما قدم الحبشة تنصر ، وفارق الإسلام حتى هلك نصرانياً .

وأما زيد بن عمر نفيل فوقف ، فلم يدخل في يهودية ، ولا نصرانية ، وفارق
دين قومه واعتزل الأوثان ، والميثة والدم ، والذبائح التي تذبح على الأوثان ،
ونهم عن قتل الموءودة ، وقال : اعبدوا رب إبراهيم . وبأدى (٣) قومه بعبث
ما هم عليه .

قال ابن إسحاق : « وحدثني همام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي
بكر رضي الله عنهما ، قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً
ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو
بيده . ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري اثم يقول : اللهم ، لو أني أعلم
أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولستكني لأعبد ، ثم يسجد على
راحتيه ، (٤) .

(١) السيرة جزء ١ ص ٤٥ .

(٢) مهيبة هذه هي أم المؤمنين زوج النبي ، وقد تزوجها بعد أن طلقت من زوجها عبيد الله
ابن جحش الذي تنصر في الحبشة ، وكان التجاشي ، هو الذي تولى نصر تزويجها للنبي ،
واصدها عنه .

(٣) يادى قومه : أعلنهم وصرح لهم .

(٤) السيرة : جزء ١ ص ٢١٦ .

ثم لا يزال زيد بن نمير هذا يتقلب في البلاد باحثاً عن الدين الذي يستريح
إليه حتى يتمنى به المطاف إلى الشام ، فبليتقى براهب ينصح له أن يلتمس الحنيفية ،
دين إبراهيم عند نبي سيده في بلاده وأن زمانه قد أظلم ، فخرج من الشام سريراً
يريد مكة حتى إذا توسط بلاد الحزم عدوا عليه فقتلوه ، (١)

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد تضاربت أخباره ، ولم يعرف المصير الذي
صار إليه .

ولا نظن أن هذا الأمر قد وقف عند أولئك الأربعة الذين حفظ التاريخ
ذكرهم . إذ لا بد أن يكون هناك كثير غيرهم قد وقع في نفوسهم ما وقع في نفوس
هؤلاء وأنهم التمسوا ما التمس هؤلاء . ولمكن لم يقدر لهم أن يكون أمرهم في
سجل التاريخ ، وأن يكون حديثاً يروى ، وخبراً يتحدث به .

وشاهدنا على هذا ؛ أولئك الذين سبقوا إلى الإسلام ، واستجابوا لأول
دعوة من الرسول دون توقف أو تردد . كآبي بكر ، وعلي ، وعثمان ، والزبير بن
العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد
الله ، وزيد بن حارثة . . . ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو مسلمة بن عبد
الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم . . . وكثير غيرهم من السابقين الأولين (١) .
فهؤلاء السابقون إنما سبقوا بما وقع في نفوسهم قبل النبوة من إلهامات
ومشاعرها .

٣ - الرهبان .. والكهان

وإذا كان في الناس من يسبق إلى موارد الروح ، ويتهدى إلى مواطنها ،
فإن أكثر الناس استعداداً في هذا المجال ، وأقدرهم عليه هم الرهبان والكهان . .
لذا كان الرهبان قد وضعوا أقدامهم على أول الطريق منذ أسلموا مسلك
الرهبنة ، فكانت الروح هي مطلبهم ، وكان الانقطاع عن الدنيا ، وانزاع

(١) السيرة : جزءه أول ص ٤٦٤ .

(٢) انظر السيرة : جزءه ١ ص ٤٣٧ .

ما فيها هو زادهم الذى يتزودون به لقطع مراحل هذا الطريق الطويل .. ولا شك أن هذه الرياضة الروحية التى تقوم عليها حياة الرهبان ذات أثر كبير فى صفاء النفس ، وشفافية الروح ، وتهيئتها لاستقبال الرؤى عن الأحداث ، والإحساس بها قبل أن تقع فى مواطن الحس عند الناس .

وكذلك الشأن فى أصحاب السكينة ، فإنهم قد اتجهوا بأنفسهم إلى استكشاف ما وراء الحس ، ووجهوا قلوبهم وعقولهم إلى عالم الغيب ، لعلمهم ويمسبون شيئاً منه . . . وإنه لغير مستبعد أن يلتقط بعضهم بين الحين والحين إشارة من هذا العالم ، تنبئ عن الأحداث قبل أن تصير فى واقع الناس ، بزمن . . . قد يطول ، وقد يقصر ، بحسب ما عند المستطلع من استعداد للتلقى والاستقبال !

وعلى هذا فشكل ما يروى من أخبار الرهبان والسكبان من استطلاعات فى عالم الغيب ، وتنبؤات عن المستقبل هى من قبل السبق فى الرؤية بعين البصيرة للأمر قبل أن يقع فى متناول العين المبصرة ؟

وكذلك ما نقل الرواة والمؤرخون من أحاديث الرهبان والكهان عن مبعث الرسول إنما يضاف إلى هذا الحساب ، ويقدر بهذا التقدير .

ويرى « ابن إسحق » أن مصدر علم الرهبان والأخبار من اليهود والنصارى فى الإخبار بمبعث النبى — يرجع إلى ما عرفوا من كتبهم ، وما فيها من صفة النبى ، وأوصافه زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم لإيهم فيه .

ولا مناهة بين هذا الذى يقول به ابن إسحق ، وما نراه من تغبه الإحساس الروحى عندهم وتهيئهم للرؤى التى تسبق واقع الأمور والأحداث . ولا بأس من أن يكون هذا العلم الذى علمه الأخبار والرهبان من كتبهم عن مبعث النبى ، مجتمعاً إلى تلك الرياضة الروحية . فيكون لهذا العلم أثره فى حمل النفس على التطلع والبحث فى ثقة ، وفى يقين من أنها تبحث عن شىء لا بد من أن تجده وتقع عليه ، وأنها إن أخطأته يوماً ؛ فذلك لأنها لا تملك القدرة على الوصول لإيمه ، لأنه غير موجود . كما يكون لهذه الرياضة الروحية أثرها فى الإمساك بالنفس على النظر والتطلع ، دون أن يغلبها اليأس أو يستنفد طاقة صبرها القلق ! !

قال « ابن إسحق » وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى والسكمان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، لما قرب من زمانه :

و أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فما وجدوا في كتبهم من صفته ، وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأما السكمان من العرب فأتهم به الشياطين من الجن ، فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم . وكان السكمان والكاهنة لا يزال يقع منها ذكر بعض أموره — أى النبى — ، لالتقى العرب لذلك فيه بالاحتى بعثة الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ١ ، (١)

من أخبار الأحبار والرهبان :

كان أهل المدينة — وهم الأنصار من الأوس والخزرج — أسبق العرب إلى الإسلام .. فهم الذين بايعوا الرسول على الإيمان به ، وبما نزل عليه من الكتاب ، كما بايعوه على نصرته الذى جاء به .. وكان ذلك فى بيعت العقبة — الأولى والثانية — بمكة .. وهم الذين كانت إياهم هجرة الرسول ، ومن موطنهم — المدينة — ارتفع لواء الإسلام ، وبسيوفهم وسيوف من هاجر إليهم من المسلمين انتصر الإسلام وعز المسلمون ١

وهذا السبق إلى الإسلام الذى كان من أهل المدينة قد مهدت له أسباب ، ودعت إليه أحوال وملايسات لما أراد الله لهذا الحى من العرب من خير ، وعز وكرامة ، فى الدنيا والآخرة ١ .

أما هذه الأسباب وتلك الملايسات فهى ما كان عند اليهود بالمدينة من علم بمبعث نبى عربى ، بشرت به التوراة ، وكشفت لهم صفته وصفة زمانه ، وكان اليهود من أجل هذا العلم يندرون الأوس والخزرج — وهم الأنصار فيما بعد — يندرونهم بالنبى المبعوث الذى سيكونون له أتباعا وحواريين ، وأنهم فى جانب

(١) السيرة : جزء ١ ص ١٩٤

(م ١٤ — النبى محمد)



هذا النبي سينالون عزا وقوة، تأخذ لهم من الأوس والخزرج بمحبتهم، وتبدل من ضعفهم قوة، ومن خذلانهم نصراً ..

قال ابن اسحق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه - الأوس والخزرج - قالوا: بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود.. كنا أهل شرك. أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا.. وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ..

وإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فأمننا به، وكفروا هم به، ففئنا وفيهم نزل هزلأ الآيات من البقرة: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فأنه الله على الكافرين، (١) »

ويروى ابن هشام عن ابن اسحق خبراً آخر من أخبار اليهود، وما كان عندهم من علم في شأن النبي العربي ..

يقول ابن اسحق: عن سلمة بن سلامة بن رقيش - وكان سلامة من أصحاب بدر - قال: كان لنا جار من يهود، فخرج علينا يوماً من بيته ... فذكر القيامة، والبعث، والحساب، والميزان، والجنة - والنار .. قال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثا كائن بعد موت .. فقالوا له: ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائناً .. أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به، لو ددت أن حظي من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه، ثم يدخلونني إياه، فيطنونه على وأن أنجو من تلك النار غداً! فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، قالوا ومتى نراه؟ قال - سلمة - فظفر إلى

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣٠١ .

وأنا من أحدثهم سنأ فقال : إن يستنفذ هذا الفلام عمره يدركه ا قال « سلة ، فوانه ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو - أى اليهودى - حتى بين أظهرنا ، فأمّا به ، وكفر به ، بغياً وحسداً .. قال فقلنا له : ويحك يا فلان ا

ألسنت الذى قلت لنا فيه ماقلت ؟ قال : بلى ا « ولسكن ليس به (١) . »

وتحدث كتب السيرة عن كثير من أخبار الرهبان ، كانوا يرصدون مطلع النبوة فى الجزيرة العربية ، لما عندهم فى التوراة من أخباره ، وصفاته ، وصفاته زمانه ، والأفق الذى يطلع منه .. قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يحدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم (٢) . »

وهذه الأخبار المروية عن اليهود فى بعثة النبى إنما تستند إلى هذا العلم ، يظهرها ما كان عند أخبار اليهود من استعداد نفسى وروحى لاستقبال أول أنسام النبوة . والتهدى إليها ولسكن ليس كل من يعرف الخير ينتفع به فحين ظهر النبى ، ودعا الناس إلى ما أمره الله به أن يدعوهم إليه أضمو أذانهم ، وأعرضوا عنه بغياً وحسداً ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا جماعة قليلة ، أراد الله لها الخير ، وذل لها الطريق إليه .

ولنا هنا أن فلتفت إلى استيطان اليهود المدينة وتجمعهم حولها فما كانت بلاد العرب بالموطن الذى يعيش فيه غير أهله العرب ، ولا كان اليهود خاصة يستطيعون الحياة فى هذه البلاد القفر . وهم أبدأ طلاب صيد ، لا يمسكهم شىء إلا إذا وجدوا منه رجاً عاجلاً فاذا حمل اليهود على أن يحيوا هذه الحياة القاسية فى هذه البلد القفر ، غرباء مستضعفين ؟

(١) السيرة ج ١ ص ٢٠٢ ، نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٤٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

والرأى الذى نستريح إليه فى تعليل هذه الواقعة هو أن اليهود بما عندهم من علم من التوراة فى شأن النبي العربى الذى بشرت به التوراة، وذكرت أوصافه وأوصاف زمانه ومكانه — هذا العلم قد دعا كثيراً من اليهود إلى التطالع إلى البلاد العربية، وترقب ظهور هذا النبي، كما حمل هذا العلم كثيراً منهم إلى الهجرة إلى بلاد العرب ليكنونوا فى استقبال النبي عند ظهوره. وكانت المدينة أول بلد يلقاه اليهودى فى وجهته إلى الجزيرة العربية من أرض الشام. وكان من الطبيعى أن تكون المدينة محط رحال هؤلاء اليهود الوافدين على الجزيرة، انتظاراً لبعثة النبي. وكان أن ازداد عدد اليهود مع الزمن بالتوالد والتوافد حتى صار لهم فى المدينة مجتمع، له آثاره ومكائنه فى حياة المدينة. . الاجتماعية والاقتصادية والسياسية! حتى جاء الإسلام فوقفوا منه هذا الموقف اللئيم العنيد، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يجلوهم عن هذا البلد الطيب، وأن يطهروا منهم مواطن الإسلام.

ع - من أخبار الكهان

والكهانة ضرب من الرجم بالغيب، وادعاء بالكشف عن أحداث المستقبل وما يتوقع من أمور!

وقد عرف العرب الكهانة، وحفظ التاريخ أسماء كثير من الكهان والكاهنات.

وكان للكهان والكاهنات مكانة مرموقة بين القبائل، تجيء لإلهم الناس من كل جهة، يستقمونهم فى كثير من الشئون، ويتنافرون لإلهم، للحكم بينهم فيما يختصمون فيه، من نسب، أو شرف، أو غير ذلك من شئون الناس فى الحياة.

وقد لعب الكهان دوراً كبيراً فى حياة الأمة العربية، وفى تحديد اتجاهات أفكارها فى الحياة.

ويغلب على الكهنة أن يكونوا من الزمنى وذوى العاهات، الناجمة عن نقص فى الخلقة، أو شذوذ فى الطبيعة. فان غرابة الخلق فى إنسان من الناس توقع

في نفس من يراه أن هذا الخروج على الطبيعة في تكوينه لا بد أن يكون وراءه أسرار ومعجائب ، تظهر أكثر ما تظهر في الجانب الروحي منه ، وفي اقتداره على الاتصال بالملا الأعلى ، والتلقى منه . . كما يفرض هذا الخلق العجيب صاسبه بأن يكون شيئاً في الحياة ، وأن يجيء إلى الناس بما لم يجهتوا به ، إذ جاء هو إلى الحياة على غير الصورة البشرية التي جاءوا هم بها ، ونشهد نحن هذا في جماعات «المجازيب» وفي اعتقاد كثير من الناس فيهم . . فإن الذي يطلب عليهم هو هذا الشذوذ في الخلقة . . من نقص ، وتشويه !

وقد كان للسكان دور كبير قبيل البعثة النبوية . . إذ كثر لظلمهم ووسواسهم بهذا الأمر العظيم ، الذي سيتطاع على الناس من قريب !

وكان السكان يسندون علمهم هذا الذي يلقونه في آذان الناس إلى الجن الذين هم أقدر من الناس على التقاط أنباء السماء ، وما تصدر إلى الناس من أحداث ! فكان لكل كاهن أو كاهنة ، رثى ، أو رفيق من الجن ، تتووق بينه وبين صاحبه وأوصار الصداقة على طول الصحبة ، وامتداد الأيام !

ويذكر القرآن ما كان للجن من استطلاعات للغيب ، ومحاولات في استراق السمع . . فقال تعالى عن الجن واستراقهم السمع ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لآندرى أشراً أريد من في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً (١) .

يقول ابن هشام : فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر مبعثه حجت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد (٢) .

وهذه المستمعات التي كان يسترقها الجن إنما ليوسوسوا بها في صدور بعض

(١) سورة الجن آية ٩ ، ١٠ .

(٢) السير جزء أول ص ١٩٥ .

الناس ، وليجعلوا منهم متنبئين يفتنون الناس بهم ، ويلبسون عليهم أمورهم ،
بما يخلطون بين الحق والباطل من تلك الإنبياء التي يلقون لئليهم بها .

عن ابن عباس عن نضر من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال لهم : « ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ؟ قالوا : يابى الله . .
كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك . . ملك ملك . . ولد مولود
مات مولود ! » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك . .
ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حمة العرش ، فسبحوا ،
فسبح من تحتهم ، فسبح للتسبيحهم من تحت ذلك . . فلا يزال التسبيح يهبط
حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟
فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا للتسبيحهم ! فيقولون : ألا تسألون من فوقكم
مم سبحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حمة العرش ، فيقال لهم
مما سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا . . للأمر الذي كان . .
فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ،
فيسترقه الشياطين بالسمع ، على توهم واختلاف . ثم يأتوا به الكهان من أهل
الأرض فيحدثوهم به . فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضاً
ويخطئون بعضاً . . ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهنئذ النجوم التي
يقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم . . فلا كهانة (١) . »

ويقول ابن إسحق فيما يرويه عنه ابن هشام : « وأما الكهان من العرب
فأنتهم به — أى بما تحدثوا به من بعثة النبي — الشياطين من الجن فيما تسترق
من السمع ، إذ كانت وهي لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم . . وكان
الكهان والكهانة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أمورهم — أى أمور النبي —
لا تلتقى العرب لذلك فيه بالا ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي
كانوا يذكرون فعرفوها (١) . »

ويرى ابن خلدون أن انقطاع الكهانة ، كان موقوتاً في زمن النبوة ،
إذ أن ضوء النبوة أشبه بضوء الشمس يخفت فيه كل ضوء أتم لما انتهى زمن
النبوة لم يكن هناك ما يحول بين الكهانة وبين أن تظهر ، إذ غربت الشمس التي
كانت تلزمها أجاجارها ! وأنه وإن كان قد بطل الاستراق الذي كانت تسترقه الجن
وتلقى به في صدور الكهان ، فإنه قد بقي للكهان ما في نفوسهم من استطلاعات
خاصة ليست لغيرهم من الناس ، وهم بهذه الاستطلاعات يلقون الناس ، ويلقون
إليهم بما عندهم ، وبما ليس عندهم ، من مزاعم وأكاذيب .

يقول ابن خلدون : « وقد زعم بعض الناس أن الكهانة قد انقطعت منذ
زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين بدى البعثة ، وأن
ذلك كان لمنهم من خبر السماء ، كما وقع في القرآن . . والكهان إنما يتعرفون
أخبار السماء من الشياطين ، فبطلت الكهانة من يومئذ !

« ولا يقوم من ذلك دليل . . لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين ،
تكون من نفوسهم أيضاً .

« فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ،
وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا بما سوى ذلك .

« وأيضاً ، فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت
بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر . . لأن هذه المدارك كلها تخمد
في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس ، لأن النبوة
هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور .

« وقد زعم بعض الحسباء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا
مع كل نبوة وقعت ! لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلسفى يقتضيه ، وفى
تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها . ونقص ذلك الوضع عن التمام
يقتضى وجود طبيعة — مع ذلك النوع الذى يقتضيه — ناقصة ، وهو معنى
الكهان . . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ، ويقتضى

وجود السكّان ، إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم الوضع تم وجود النبي بكّاله ، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد (١) .

ونظرة الحسّاء هذه التي يرويها ابن خلدون عنهم في تعليل ظهور السكينة بين يدي النبوة وإضافة ذلك إلى أوضاع فلكية هي على حسب ما كان مقرراً في الفلسفة القديمة عن تحكّم الأفلاك في مسائر الأمور ، وقيام كل فلك على حال من أحوال الوجود !

ويمكن أن نجعل هذه النظرة في وضع آخر غير مستند إلى هذا النظام الفلكي . . وهو — كما قلنا من قبل — : أن الأحداث العظيمة . لا بد أن تقوم بين يديها شواهد ودلالات ، هي أشبه بالضوء الذي يحمله النجم بين يديه ، مؤذناً بطلوع الشمس . . فهذه الرؤى ، والاستطلاعات التي تقع للناس بين يدي الأحداث العظيمة هي من هذا القبيل . . !

وفي القرآن ما يكشف عن شيء من هذا . . فقد ذكر القرآن عن فرعون مصر تلك الرؤيا التي رآها في نومه ، وكانت تحمل في طياتها تصويراً كاملاً لهذا الحدث العظيم الذي ستلده الأيام بعد بضعة سنين ، والذي سيكون له أثره القوي في حياة الشعب الذي يقوم هذا الملك على تدبير أموره .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يا كاهن سبع عجاف . . ، وسبع سنبلات خضر وأخر يا بسات . . . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٢) .

ولم تكن هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، ولكنها كانت استطلاعاً صادقاً لما سيقع من أحداث . . ولم يكن عند فرعون ، ولا عند كهنته وسجراته من يحسن قراءة هذا الكشف الذي استقبلته نفس فرعون من العالم العلوي ! وكان لا بد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٤٣ ، ٤٤ .

من نفس مشرقة تكشف عن هذه الرموز ، وتقيم معها حروفاً ، وتبنى منها كلمات وجملًا واضحة مقروءة . . فكان يوسف عليه السلام هو الذي تولى هذا الأمر ، وأحسن القيام عليه . . وكانت قراءته لهذه الرموز هي ما ذكره القرآن الكريم عنه في قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله . . إلا قليلاً مما تأكلون . . ثم يأتي من ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه ينفاث الناس ، وفيه يعصرون » (١) .

وأنت ترى أن حكمة يوسف وتدبيره لم تقف به عند تفسير هذه الرؤيا على وجهها الصحيح وحسب ، بل إنه جاء بالتدبير الذي ينبغى أن يواجه به هذا الحدث الذي تكشف عنه الرؤيا . . فلم يقل يوسف للملك ومستشاريه من حوله : إنكم ستعيشون في خصب ، وفي زرع وحصاد سبع سنين ، ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين من الجذب والتحل . . بل قال هذا الذي ذكره القرآن عنه ، وفيه السياسة الحكيمة التي ينبغى أن يستقبل بها هذا الحدث العظيم . .

* * *

ونعود إلى السكينة والسكمان ، وما كان لها ولهم من حديث في شأن البعثة ! لقد حفظ تاريخ السيرة كثيراً من أخبار السكينة ، من رجال ونساء — عن النبي المبعوث ، وما يكون له من شأن في الناس ، وفي أوضاع الحياة !

شق وسطيح :

وكان « شق وسطيح » أشهر كاهنين في الجزيرة العربية قبيل مبعث النبي ، وإليهما كان المفرج في كل أمر ذي خطر ! وقد أبا مؤرخو السيرة أن يكون « شق وسطيح » بمنزل عن هذا الحدث العظيم الذي استيقظ له الوجود كله ! لجهلوا لها مشاركة في أحداث النبوة ، وأقوالاً مأثورة فيها !

(١) سورة يوسف : ٤٧ ، ٤٩ .

ولا نستبعد أن يكون اثنى وسطيح استطلاعات في موكب النبوة . . .
ولكن الذي نقف منه موقف الشك والحذر هو تلك القمص المشيرة التي
يروىها الرواة عنهما في هذا الأمر، والتي يظهر فيها التلفيق والاصطناع ! وأقرب
شاهد على ذلك ما يروى عن ربيعة بن نصر ملك الين ، وما كان بينه وبين هذين
الكاهنين . . ! فقد حملت هذه القصة صوراً أشبه بالأساطير ، في تناول الأحداث
وتدبير تحركها وانطلاقها على مسرح الحياة !

قال محمد بن إسحاق : كان ربيعة بن نصر ملك الين بين ملوك التباة . . فرأى
رؤيا هالته ، وفطع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ، ولا عائماً ، ولا منجماً من
أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي ، وفطعت بها . .
فأخبروني بها ، وتأويلها . . قالوا له : اقمصها علينا نخبرك بتأويلها ! قال : إني
إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ! فإنه لا يعرف تأويلها إلا من
عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى وسطيح وشق . .
فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فإنهما يخبران به بما سأل .

فبعث إليهما ، فقدم عليه وسطيح قبل شق ؛ فقال له : إني رأيت رؤيا هالتي
وفطعت بها ، فأخبرني بها . فإنك إن قصصتها أصبت تأويلها : قال : أفعل . .
قال الملك :

« رأيت حممة (١) . . خرجت من ظلمة . . فوقعت بأرض تممة (٢) . .
فأكلت منها كل ذات جمجمة (٣) ، فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا وسطيح ؛ فلما
عندك في تأويلها ؟ قال :

« أحلف ما بين الحرتين (٤) من حذس . . لتبهطن أرضكم الحبش . »

(١) قطعة نار .

(٢) أى أرض منخفضة .

(٣) يريد الرأس .

(٤) الحرة أرض فيها حجارة سود . . والبيت الحرام واقع بين حرتين . .

فليمسكن ما بين أوبن إلى جرش (١) .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح .. إن هذا لنا لغائط موجه .. ففتى هو كائن؟
أنى زمانى أم بعده؟ قال : لا بل بعده بحين .. أكثر من ستين أو سبعين ..
يمضين من السنين ! ، قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟ قال : لا بل
ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هارين ، .
قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم؟
قال : يليه إرم ذم يزن . يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً
باليمن !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع؟

قال : من يقطعه؟

قال : نبي زكى ، يأتيه الوحي من قبل العلى ؟

قال : ومن هذا النبي؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه
لأى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ،
ويشقى فيه المسيئون

قال : أحق ما تخبرنى؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفاق إذا اتسق ، إن ما أنباتك به لحق !
ثم قدم عليه شق ! فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر
أيتفتان أم يختلفان؟

قال شق : نعم .. رأيت حممة .. خرجت من ظلمه ، فوقعت بين روض
وأكمة ، أأكلت منها كل ذات نسمة .

(١) أين ، وجرش : الأولى بلد باليمن ، والثانية مخلاف بها .



فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولها واحد ، فقال له الملك :
ما أخطأت يا شق منها شيئاً ... فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرّتين من إنسان لتنزلن أرضكم السودان ، فليغلبن
على كل طنّلة (١) البنان ، وليلمكن ما بين أبين إلى نجران !

فقال له الملك : وأبيك يا شق . إن هذا لنا لناظ موجه ! فمتى هو كائن ،
أفي زمان أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بزمان .. ثم يستفتدكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقكم
أشدّ الهوان !

قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟

قال : ليس بدني لامدنة ... يخرج عليهم من بيت ذي يزن !

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل !

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يوم تجزي فيه الولاة ... يدعى فيه من السماء بدعوات ... يسمع
فيها الأحياء والأموات .. ويجمع فيها الناس للبيقات .. يكون فيه لمن اتقى
الفوز الخيرات !

قال : أحق ما تقول ؟

قال : أي ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك
به لحق ما فيه أمض (٢) .

(١) الطنّلة : الناعمة الرخصة من النساء .

(٢) الأمض : الشك والباطل .

قال ابن إسحاق : فوقع في نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور ، فاسكنهم في الحيرة .. فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر ، (١) .

هذا دور « شق وسطيح » ، في أخبار السيرة النبوية ! وهو دور كان لابد لهم أن يؤدوه إذا كان للكهان مكان في أحداث السيرة النبوية وأنبأها .

ويروى « النويري » في كتابه « نهاية الأرب » ، دورا آخر لكاهنة ، شليها بما كان من « شق وسطيح » .. يقول :

« يروى أن سفيان بن مجاشع بن دارم احتمل ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفن إلى حى من تميم ، فإذا هم بجته موم إلى كاهنة تقول :

« العزيز من والاه ، والذليل من خالاه (٢) والموفور من مالاه (٣) والموتور من عاداه .. »

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم .. وبطش وحلم ، وحرب وسلم ، رأس رموس ، ورائض يسوس ، وماحى بوس (٤) ، وماهد وعوس (٥) ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

قالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يقند ، اسمه محمد »

قال سفيان : لله أبوك ! أعربى هو أم عجمى ؟

(١) السيرة : لابن هشام جزء أول ص ١٤ * نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٥٤

(٢) أى تركه وتخلي عنه .

(٣) أى مالاه ، واجتمع لآيه .

(٤) أى بؤس .

(٥) أى مهد الصعاب .

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الاظنان . إنه لمن معد ابن
عدنان ، فقدك (١) ياسفيان .

فأمسك سفيان عن سؤاها . ثم إن سفيان ولد له غلام فسماه محمداً ، لما
وجه من أن يكون النبي الموصوف (٢) .

ويروى صاحب السيرة الحلبية خبراً بمجلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم .. قال :

دروى عن لبيب بن مالك اللبي قال : حضرت عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فذكرت الكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله نحن
أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند
القذف بالنجوم .. وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له ، خطر بن مالك ،
وكان شيخنا كبيراً ، قد أتت عليه مئة سنة وثمانون سنة ، وكان أعلم كهاننا ، فقلنا
له : يا خطر .. هل عندك علم من هذه النجوم التي يرى بها إنا قد فرغنا لها ،
وخفنا سوء عاقبتها ؟

فقال : اتنوني بسحر (٣) ، أخبركم الخبر ، بخير أم ضرر ، وأمن أم حذر ؟
فانصرفنا عنه يومنا . فلما كان من غد في وجه السحر أتيناها ، فإذا هو قائم
على قدميه ، شاخص إلى السماء بيمينه .. فنناديناها : ياخطر .. فأوماً إلينا أن
أمسكوا ، فأمسكنا .. فانقض نجم من السماء عظيم !

فصرخ الكاهن : أصابه لإصابه (٣) ، خامره عتابه ، عاجله عذابه ، أحرقه
شبابه ، زايه جوابه ... ياويله ما حاله ، بليله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت
حباله ، وغيرت أحواله .. .

ثم أمسك طويلاً ... ثم قال :

(١) قدك : أى كفاك .

(٢) نهاية الأرب : جزء ١٦ ص ١٦١ .

(٣) أى وقت السحر ، وهو قبيل الفجر .

(٤) أى أصابه دائره الذى فيه رداه .

« يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسمت بالسكبة ذات الأركان والباد المؤتمن السدان (١) ، قد منع السمع عتاة الجان ، بثأب بكف ذى سلطان ، من أجل مبعوث عظيم الشأن ، يبعث بالتنزيل والقرآن ، وبالهدى وقال الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان .. »

قال : قلنا ياخطر ، إنك لتذكر أمراً عجباً ، فماذا ترى لقومك؟ فقال :
أرى لقوى ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير بنى الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس يبعث من مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

قلنا : ياخطر ، ومم هو !

فقال : والحياة والعيش ، لأنه لمن قريش ، ما فى حكمه طيش ، ولا فى خلقه هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ، من آل قحطان وآل ريش (٢) .

قلنا : بين لنا : من أى قريش هو ؟

قال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحائم (٣) ، ولأنه لمن نجل هاشم من معشر أكارم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر .

ثم سكت فأغشى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاث .. فقال : لا إله إلا الله ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد نطق عن مثل نبوة ، ولأنه ليعت يوم القيامة أمة وحده . » والله أعلم (٤)

(١) أى سدنة البيت الحرام ، جمع سادن .

(٢) آل ريش : قبيلة من الجن

(٣) الأحائم : جمع الجمع لحوم ، وهى طيور مكة .

(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٩ .

معجزات الرسول .. بعد البعثة

وإذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة قد صحبها هبل وسبقها ، هذا الدوى العظيم في قلوب الناس وفي عقولهم ، فخلق من هذا الدوى تلك الأنبياء التي جاءت تسبق مولده ، وتذيع في الناس البشائر بقرب مبعث النبي الأُمي العربي !

وإذا كانت سيرة النبي قبل مبعثه جعلت لسكثير من رواة الأخبار والقصاص سبيلا إلى اصطناع الأخبار وتوليدها . وإلى الاستكثار بغير حساب من كل عجيبة وعجيب ، كما كان ذلك مدخلا مهدأ لأصحاب الأهواء والضلالات يدخلون منه إلى سيرة الرسول بمناقات الأخبار التي ينطبق ظاهرها بتمجيد الرسول ورفع منزلته ، بينما تطوى في باطنها تشويه سيرته وتعكير مواردها الصافية ، وإلقاء ظلال كثيفة عليها من الشكوك !

نقول — إذا كان هذا في سيرة النبي قبل بعثته فماذا يكون في هذه السيرة العظيمة بعد أن حمل بين يديه الكتاب الكريم ، وسجرت على لسانه كلمات السماء ؟ وماذا يكون في هذا النبي السيرة بعد أن يرى الناس رأى العين أنرار السماء تتصل بالأرض ، ويشهدون رسول السماء يغدو ويروح بآيات الكتاب يلقيها إلى النبي على مرأى ومسمع منهم ، ماذا يكون في هذه السيرة والأمر على هذا الوجه ؟ ونحن هنا من أخبار السيرة بعث البعثة في موقف غير موقفنا من تلك التي تروى عما قبل البعثة ، وعما قبيل المولد !

فإذا كان من الممكن أن يسلم - عقلا - بأن تخلو سيرة الرسول إلى مبعثه من غير إشارات ودلالات تشير إلى النبوة ، وتحدث عنها ، وأن يسمي الناس ويصبحون فإذا هم بين يدي نبوة ، وفي مواجهة نبي فجاءه على غير انتظار - إذا كان من الممكن أن يسلم بهذا ، وهو مالا يمكن أن يسلم به أو يقبل بحال أبداً - فإن إمكان عدم التسليم بهذا في الفترة السابقة من حياة النبي قبل مبعثه يرتفع إلى درجة المستحيل أن تخلو سيرة النبي خلال فترة النبوة من آيات ومعجزات .

تشهد له بأنه ذلك الإنسان الذي اختاره الله واصطفاه . ورفع منزلته على منازل
الناس جميعاً . . . في الدنيا والآخرة !

إن النبوة التي يحملها النبي في كيانه هي طاقة عظيمة من نفحات السماء وبركاتها
وهي حيث تكون لا تمنحى دون أن تترك أثراً من آثار نفحاتها وبركاتها في كل
من يتصل أو ما يتصل بها !

إن أى إنسان من الناس له امتياز في علم أو فن لا تمنحى حياته دون أن ترى
الحياة أثراً من آثار علمه أو فنه . . . وإلا فماذا يدل على أنه عالم أو فنان . ثم ماقيمة
علمه ، وماجدوى فنه إن لم تتفتح أكامه ، وتطلع شمراته ، وتصبح زاداً طيباً على
مائدة العلوم والفنون !

فما بالك بالنبوة والنبي . وماظنك بهذا الثمر الذي يطلع من شجرة النبوة .
إنه لثمر طيب موفور ، إن تعرفه الحياة إلا في عهود النبوات ، ولن تجد ثماره
إلا في حياة الأنبياء !

فإذا كان الحديث في نبوة النبي محمد . فلك أن تجمع ما تفرق في النبوات كلها
من خير ، وماكان في النبيين جميعاً من كمال ، ثم تصنيف كل هذا الخير ، وكل هذا
الكمال إلى محمد ، وإلى نبوة محمد ، ثم لا يدخل عليك ظن أنك قد بلغت به ونبوته
ماهو له من كمال ، ومافى نبوته من خير . . فإن كمال محمد فوق كل كمال ، وإن الخير
الذي حملته نبوته أكثر وأعظم من كل خير .

o o o

لقد كان هناك إذن معطيات كثيرة متدفقة تفيض بها يد محمد كل حين بإذن
ربها . . بحيث كان النبي كانت البركة ، وكان الخير ، وكان لا يحابه ما استطاعوا أن
يحملوا من هذا الخير ، وماشاءوا أن يصيبوا من هذه البركة .

ونحن ننظر إلى ماوقع من معجزات النبي في فترة النبوة على أنها أمور لا تعدو
أن تكون ففحة من نفحات النبوة ، وشذى طيباً من شذاها العطر ، وأنها ليست
من باب المعجزات التي تجيء للتحدى وتمجيز الناس عن الإتيان بمثلها ، وليهتروا
للنبي بنبوته .

(١٥ م) النبي محمد)

فأولاً: إن جميع هذه المعجزات التي ذكرها مؤرخو السيرة — ماصح منها وما لم يصح — لم يقل واحد من هؤلاء المؤرخين عن أية معجزة منها أنها كانت موضع التحدي، وإعلان الناس بها، ومطالبتهم بالإتيان بمثلها، أو الإذعان لها، وذلك هو شأن معجزات الأنبياء، وهو الشأن في معجزة النبي الخالدة، التي قامت منذ قيامها على تحدي الإنس والجن أن يأتوا بمثلها.. وتلك هي القرآن، ومعجزة الرسل، ولا معجزة أخرى غيره، وفي هذه المعجزة يقول الله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً(١)».. ويقول سبحانه: «أم يقولون افتراه.. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين..(٢)» بل ذهب في التحدي إلى أن يكون بسورة واحدة، فقال تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين.. فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين(٣)».

وثانياً: لم يقع بين النبي وبين الكفار من قريش أو غيرهم حديث حول هذه المعجزات، فلم يكن من النبي إلتمات لهم لإيها، ولم يكن من الكفار تكذيب لها أو امتراء فيها.. ولو أن هذه «المعجزات» كانت ذات طابع يراد به التحدي لذكرها القرآن، أو ذكر بعضها، أو أشار إلى موقف من مواقف الكافرين حيالها، أو حياها واحدة منها !!

ولكن الذي ذكره القرآن في هذا المقام هو القرآن الكريم وحده. وما دار حوله من تكذيب وتلبيس!

فإنه حين وثقت قريش ومن معها من المكابرين المعاندين — حاجزة أمام هذا التحدي عن أن تأتي بسورة أو بعض سورة، ذهب بها المناد، ولج بها الكفر

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) سورة هود آية ١٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

أن تقول في القرآن أقوالاً متخاذة منها فتة ، تستر بها ضعفها ، وتمسح بها العرق المتصيب من خزيمها . . . وكان من حصية هذه الأقوال المنكرة ما ذكره القرآن عنهم في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا فك افتراء ، وأعاناه عليه قوم آخرون . . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً . . . وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، (١) . . . وفي قوله تعالى : « إنما يعلمه بشر . . . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » (٢) . . . ويقول سبحانه عن الوليد ابن المغيرة ، وقد استمع إلى رسول الله وهو يتلو عليه من آيات الكتاب ما ملأ قلبه عجباً ودهشاً ، وأبى عليه كبره وعناده أن يلقى إليه السلم وينقاد . . . يقول سبحانه وتعالى : « إنه فكر وقدر . . . فقتل . . . كيف قدر ! ثم قتل . . . كيف قدر ! ثم نظر ، ثم عيس ويسر ، ثم أدبر واستكبر . . . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . . إن هذا إلا قول البشر ! (٣) . . . »

وقد رد القرآن مفترياتهم هذه في شأن القرآن ، وتخرصاتهم فيه . . . فقال تعالى : « إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين . . . » (٤) وقال سبحانه : « وما هو بقول شاعر . . . قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن . . . قليلاً ما تدكرون . . . تنزيل من رب العالمين » (٥) وقال جل شأنه : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » (٦) . . . »

وهكذا تجيء آيات الكتاب تدافع عن معجزة الرسول ، وتدفع الكافرين المتهولين بالكذب والبهتان . . . ذلك على حين لم تكن في القرآن كله آية تكشف عن موقف من مواقف هؤلاء الكافرين لإزاء خارقة أخرى ، مما جرى على يد الرسول من خوارق !

وعلى هذا ، فإن الذي نذكره من الأخبار التي تحدث عن هذه الخوارق إنما نذكره لعلنا نعلم أنه من معجزات الرسول ، ولا أنه كان من مقصد الرسول أن يجعل منه معجزة ، يؤمن عليها الناس ، وإنما كل ما ذكر في هذا الباب مما نذكره هنا

- | | |
|-----------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الفرقان آية ٥ | (٣) سورة النحل آية ١٣ |
| (٢) سورة المدثر آية ١٨ - ٢٠ | (٤) سورة الواقعة ٧٧ - ٨٠ |
| (٥) سورة الحاقة آية ٤١ ، ٤٣ | (٦) سورة يونس آية ٣٧ |

أولا نذكره هو من نفحات النبوة ، ومن شذاها العطر الذي لا يتفصل عنها بحال .. وكما أن المسك ينم عن طيبه حيث كان ، فكذلك طيب النبوة ، وهو فوق كل طيب !

وها نحن أولا نذكر بعض ما روى من هذه الخوارق :

١ - نبع الماء :

الماء عزيز نادر في صحراء العرب ، وكثيراً ما يمرض اساكئي الصحراء حالات يطلبون فيها الماء فلا يجدونه ، وكثيراً ما يهلك بعضهم عطشاً ، وخاصة إذا نفذ الزاد في السفر ! حيث يفرق المسافرون في متاهات الصحراء !

فإذا التمس الناس الماء حين الحاجة الداعية إليه ، وحين اليأس المستحکم منه كان لثورهم عليه ، وإسحاقهم به هزة رضى وحمد ، وكانت الجهة التي يجيء منها هذا الغائب العزيز بموضع الحب والإعزاز منهم !

والرسول الكريم حين يكون في صحابته ، وحين تطرقهم حال من تلك الأحوال التي تشتد فيها حاجتهم إلى الماء ، تتعلق آمالهم برسول الله ، وتفزع نفوسهم إليه ، كما يفزع الصغار إلى آبائهم عند الحاجة ، وحين الشدة والبأس ؟ وقد أكرم الله نبيه ، وأكرم الناس به . . فجعله نوراً يهتدى به الضالون ، وحمى يفزع إليه الخائفون ، وغيثاً يغاث به الملهوفون !

عن ابن مسعود قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه في إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) .

وعن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضى الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بن يديه ركوة (٢) ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك ، فوضع النبي صلى الله

(١) الشفاء جزء ١ ص ٢٤٦ .

(٢) الركوة : إناء من جلد ، يشرب فيه الماء أشبه بالقربة .

عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يتفجر من بين أصابعه كأشكال العيون .. قيل
كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكنا مائة .. كنا خمس عشرة مائة (١)

ويقول القاضي عياض : « وما يشبه هذا من معجزاته ، تفجير الماء ببركته ،
وابتماعه بمسه ودعوته ، فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل ، في قصة
غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشرك ،
فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيه وجهه ويديه وأعادها فيها ، فجرت بماء كثير فاستقى الناس .. قال
في حديث ابن اسحق فانخرق من الماء ماله حس كحس الصراعت .. ثم قال : - أى
الرسول - يوشك يا معاذ إن طال بك حياة أن ترى ماها هنا قد ملء جنانا ، (٢)

ولانريد أن نذكر هنا كل ما نقل في هذا الباب ، فهو كثير . وحادثة واحدة
تكفي في الدلالة على ما للرسول عند الله من كرامة وفضل وإحسان ..

ووقوع مثل هذه الآيات من الرسول أمر طبيعي — كما قلنا — لا ينكره
عقل ، ولا يابأه عاقل . وشواهد الحال كلها تشهد بوقوع هذه الآيات إذ
كانت على ملا من الناس ، وفي مواجهة جموع غفيرة ، ليس فيها واحد في غفلة
عن الوقوف عليها ، والمشاركة فيها ، إذ كانت حاجته إلى الماء ولطفته عليه هي
المسئولية على كيانه في تلك الحال ..

يقول القاضي عياض :

« ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة ، والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة
إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه ، لما جبلت عليه النفوس
من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل .. فهو لاء قد رووا هذا ، وأشاعوه
ونسبوا حمنور الجفاء الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم
أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كتحديق جميعهم له .. »

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

يريد أن يقول إن المحدث يمثل هذه الأخبار التي شهدها أعداد كثيرة من الناس لا يمكن أن يقبل خبره إلا إذا كان صادقاً ، وإلا وجد في هذا العدد الكثير من يكذبه ويرد عليه خبره ، إلا كان مشاركاً له في الكذب ومواطئته عليه بسكوته عن تكذيبه ، وهذا لا يمكن أن يكون من جمع كثير بحال أبداً ، وإن صح أن يكون من آحاد الناس ، فلن يصح أن يكون من المثات والألوف منهم .

٣ - تكثير الطعام :

وثنان الطعام في البادية شأن الماء . . قليل دائماً ، ومفقود أحياناً . . وكان للرسول مع صحابته مواقف يتندر فيها الطعام أو يقل ، فتكون يد الرسول المباركة هي التي تمدهم بما يشبع ويعنى !

عن سلمة بن الأكوع قال : « أصابت الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم نخصة في بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد (١) ، فجاء الرجل بالحشية (٢) ، من الطعام وفوق ذلك ، وأعلام الذي أتى بالصاع من التمر .. فجمعه على فطع . . قال سلمة فخرته - أي قدرته - كربيضة العنز (٣) ، ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملئوه ، وبق منه » (٤) .

وعن علي رضي الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبدالمطلب وكانوا أربعين . . منهم قوم يأكلون الجذعة (٥) ، ويشربون القرق (٦) ، فصنع لهم مداً من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقى كما هو ، ثم دعا بعس (٧) فشربوا حتى رووا ، وبقى كأنه لم يشرب منه . »

(١) جمع زاد وهو ما يتروء به المسافر .

(٢) الحشية : الغرفة باليد .

(٣) أي في حميم العنز الرابضة .

(٤) الشفا جزء ١ ص ٢٤٨ .

(٥) الجذعة الشاة بنت سنتين ، ومن البقر بنت ثلاث ومن الإبل بنت خمس .

(٦) القرق : مكيال يسع ستة عصر رطلا . (٧) العس : القدح الكبير يشرب فيه .

ويروى عن جابر رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أظعم يوم الخندق .
ألف رجل من صاع شعير ، وعناق (١) ، وقال جابر : أقدم بالله لأكلوا حتى
تركوه وانحرفوا . . .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حين ابتنى بزينب أمره أن يدعوله
قوما سماهم ، وكل من لقيت . . حتى أتت البيت والحجرة ، وقدم نورا (٢) فيه
قدر مد من تمر جعل حيساً (٣) ، فوضعه قدامه ، وغمس ثلاث أصابعه ، وجعل
القوم يتغذون ويخرجون ، وبقي التور نحواً ، ما كان ، وكان القوم أحداً أو
اثنين وسبعين . . .

والاخبار كثيرة هنا في هذا الباب ، ووإحد منها له دلالة العدد الكثير .

نطق الحيوان ، والنبات ، والجماد :

وإذا كان ينبع الماء وتكثير الطعام عند الحاجة لإيهما ، وتعلق النفوس بهما في
ساعة العسرة ، وعند الشدة - ما يبرر صنع معجزة لها بيد النبي ، يتحقق بها أمل
أصحابه فيه ونظرتهم إليه ، فهل نجد لنطق بعض الحيوان أو النبات أو الجماد بين
يدى الرسول حكمة ، كملك التي نجدها في ينبع الماء وتكثير الطعام بين يديه . . .

لاشك أن فرقاً كبيراً بين الحالين ، وأنتا إذا استطلعتنا في الحالة الأولى أن
نخرج هذه الخوارق من باب المعجزات ، وأن نضيفها إلى ما عند الرسول من نفعات
وبركات ، حيث تسلم بها نفوس ، وتستمسك بها حياة كثير من الناس - فإننا
لا نستطيع أن نجد للحالة الثانية ، من نطق الحيوان وما إليه ، وجهاً تتجه إليه لإجابة
المعجزة ، التي تقوم شاهداً على صدق الرسول ، وصدق ما جاء به ، ودعا إليه .
ويحسن أن نعروض هنا بعض هذه الحالات ، ثم ننظر فيها من وجهها الإعجازي .
إن كان لها وجه تتجه به إلى الإعجاز . . .

(١) العناق : الأثني من أولاد البقر .

(٢) التور : إزاء يشرب فيه .

(٣) الحيس : التمر يخلط بالسنن .

٣ - شجرة تسكلم :

عن ابن عمر قال : وكنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر . فذنا منه أعرابي ، فقال : يا أعرابي .. أين تريد ؟ قال لي أهلك ؟ قال هل لك إلى خير ، قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . قال : من يشهد لك على ما تقول : قال : هذه الشجرة السمرة (١) - وهي بشاطئ الوادي - فأقبلت تحمّل الأرض حتى قامت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت أنه كما قال .. ثم رجعت إلى مكانها .

وواضح أن هذه معجزة مستكملة كل ما للمعجزة من صفات . فهذا نبي الله يدعوا إلى الإيمان بالله وبالرسول .. ويأبى المدعو أن يؤمن للرسول إلا إذا قدم بين يديه شاهد يشهد له ، وهذا الشاهد كان ممكناً أن يكون في هذا الجمع الذي مع الرسول في سفره هذا ، من المؤمنين فكلهم يشهد أنه رسول الله .. ولكن الرجل يريد شاهداً لا يريد : ولا تحوم حوله مظنة عمالة أو متابعة عن غايته .. ولا يكون ذلك إلا ببرهان ساطع يعجز الناس عن الوقوف له ؛ وهو ما يجري على يد الرسل من معجزات .. فكان أن دعا الرسول تلك الشجرة القائمة على شاطئ الوادي لتشهد أنه رسول الله ؛ فأجابت مسرعة ؛ ونطقت بلسان مبين : أنه رسول الله !

ولم يجد الأعرابي إلا أنه أمام نبي ؛ سخر الله له ما لم يسخر لأحد من الناس فأمن ؛ إيماناً ملأ قلبه طمأنينة و يقيناً !

إننا هنا أمام معجزة لا شك فيها ! معجزة وقفت أمام هذا التحدي ؛ عالية متشاختة .. تنساقط أمامها كل حيلة وحول للناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ! ولكن لنا أن نسأل .. أتقوم معجزة من أجل إنسان فرد ! وأي إنسان هذا ، أعرابي من عرض الطريق .. تائه في الصحراء .. المتمطه النبي التقاطاً عابراً !

فما كان هذا الأعرابي ملكاً يؤمن بإيمانه أمة من الأمم ! ولم يسكن زعيم قبيلة تتابعه قبيلته على إيمانه .. وإنما كان - كما قلنا - إنساناً من الناس .. فهل تقوم لأجل إنسان فرد من عامة الناس معجزة ؟

(١) السمرة : بضم الميم .. شجرة الطلح . وهو الموز ، أو الشجرة الضخمة .



والنظرة إلى هذا الأعرابي بهذا التقدير نظرة خاطئة من وجوه :

فأولاً : هو إنسان قبل كل شيء .. له وجوده . وله حياته التي تدعو
الرسالات السماوية إلى استنقاذها من الهلاك .. فهو من هذه الجهة يتساوى مع
أى ملك وأى زعيم ..

ثانياً : لانظر الرسالات السماوية إلى الناس نظرة عديدة مادية .. تجعل لذوى
الغنى ، والجاه ، والسلطان . ما ليس للفقير ، الضعيف ، المهين بل إن الناس في
شريعة السماء إنما يوزنون بميزان الروح ، وما فيه من استعداد لتلقي الخير
والانتفاع به .. ولقد عوتب النبي الكريم من ربه في شأن ابن أم مكتوم ، الأعمى ،
الفقير . وقد استكثر من الحديث مع الرسول في التفتحه في الدين ، والرسول في
مواجهة جماعة من زعماء العرب ، جاءوا يجادلونه ، وهو يطمع في أن يسلبوا
له ، ويستجيبوا لدعوته ، فأعطى ابن أم مكتوم ظهره ، وشغل عنه بهؤلاء القوم ..
فكان هذا العتاب الرقيق الكريم : « عيس وتولى ، أن جاءه الأعمى .. وما يدريك
لعله يزكى ، أو يذكر فتنتعه الذكري . أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك
ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى . فأنت عنه تلهي ! كلا .. لأنها
تذكرة .. » (١)

فهذا الأعرابي قد يوزن بالآلوف من الناس في صفاء من روحه ، وفي تقبله
للخير ، وانتفاعه به ، وإن لم يكن في مرأى العين ذا وجاهة وسلطان !

وثالثاً : هذه المعجزة ، وإن تكن قد جاءت من أجل هذا الأعرابي ، فإنها
لا شك قد كان لها أثرها القوي فيمن شهدها من صحابة رسول الله ، فزادتهم
إيماناً على إيمانهم . وقيناً فوق يقينهم . . شأنها في هذا شأن المعجزات
أو الخوارق التي جاءت لغير التحدى ، ولغير الدعوة إلى الإيمان . . في تكثير
الظلم ، ونبع المساء !

ورابعاً : لعلك تلاحظ في هذا الخبر المروى عن ابن عمر قوله : « فدنا منه
أعرابي ، فإن دنو الأعرابي من النبي يستشف منه أن هذا الأعرابي قد استجاب

(١) سورة عبس الآيات من ١ - ١١ .

لداع خفي في كيانه ، يدعوهُ الى مداناة النبي ليتشمم منه ارواح الخير ، كما يتشم طير الصحراء مواقع الماء ، وقد كشف الرسول ببصيرته المشرقة مافي كيان هذا الاعراب من المشاعر التي تتمدى إلى الخير ، فدعاه إليه ، وأضاء له الطريق بتلك العجزة الباهرة .

٤ — معجزة النبي للنبي :

والنبي لإنسان قبل كل شيء . . . يعترض نفسه أحياناً ما يعترض النفوس البشرية ، من ضيق ، ومن ضعف ا

وأعباء الرسالة أعباء ثقال ، لا يستقل بحملها غير الانبياء ، ولا يجرى بها إلى غايتها إلا أولو العزم منهم .

وقد حمل الرسول الكريم أعباء الرسالة العظمى ، وواجه بها الناس جميعاً ، وكانت جولاته الأولى مع أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فكانوا أشد الناس عداوة له . وخلافاً عليه . . . ا

ولهذا كانت أمداد السماء لا تنقطع عنه ، لتشد من عزمه ، وتثبت من أقدامه ، وتمسك به قوياً راسخاً أمام هذه العواصف المزلزلة العاتية .

فإذا تجمعت في نفسه سحب الأسى واليأس . . . هبت عليه نسمة رقيقة رفيقة من السماء ، تزج هذه السحب ، وتكشف عن نفسه الهم ، والحزن ، واليأس . . . قال تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل (١) . . . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٢) » . . . « قد نعلم إنه ليحزنك الذي تقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٣) » . . . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبتبت به فؤادك (٤) » . . . « ولولا أن نبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً (٥) » . . . « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر ، أو جاء معه ملك » .

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأحقاف آية ٣٥ | (٢) سورة فاطر آية ٨ |
| (٢) سورة الأنعام آية ٣٣ | (٤) سورة الفرقان آية ٢٢ |
| (٥) سورة الإسراء آية ٨٤ | (٦) سورة هود آية ١٢ |

وهكذا تنزل آيات الرحمن على رسول الله ، فتسكب في نفسه من مشاعر
السكينة والاطمئنان ، ما يجلي عنه غواشي القلق والضيق ا

وبين الطمأنينة والقلق ، والسكينة والضيق يجد الرسول نفسه في حاجة إلى
الكشف على سلامة النبوة في كيانه ، وعلى مدى فاعليتها عنده ، وهل كان لهذه
الحالات العارضة التي عرضت لها ما يؤثر على مكانته كنبى يحمل رسالة السماء ،
ويتولى قيادة الإنسانية إلى الله ، وهدايتها إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، أم أنه
لا يزال النبى المصطفى ، والرسول المحتبى ، وأن ما بينه وبين السماء ان تقطعه هذه
العوارض ، ولن تحجبه تلك القاطع الممزقة من السحب .

ويمد الرسول بصره ، ويتجه بقلبه إلى السماء . يطلب لنفسه آية من ربه . يرى
فيها دلائل نبوته ، وشواهد صلته بالسماء ، ويستوثق أنه على الحق المبين .
وتجىء الآية ، واضحة بينة ، يراها الرسول رأى العين فتقر عينه ، ويطمئن
قلبه ، وتشيع في كيانه مشاعر النجاة والرضا .

عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى شجرة من
وراء الوادى . . ثم قال : اللهم أرني آية لا أبالي من كذبتى بعدها . . ثم دعا
الشجرة فأنت حتى وقفت بين يديه . . ثم قال : ارجعى . . فرجعت ، ا
وعن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم شكأ إلى ربه من قومه ، وأنهم يخوفونه ،
وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه ، فأوحى إليه ربه : أن ائت وادى - كذا ، فيه
شجرة ، فادع غصناً منها يأتك ، ففعل ، فجاء الغصن يخط الأرض خطأ ، حتى
انتصب بين يديه ، فحبسه ماشاء الله ، ثم قال له : ارجع كما جئت ، فرجع ،
فقال : يارب . . علمت ألا مخافة على ، (١) .

إنك على الحق المبين

وليس بمستغرب أن تجيش في نفس النبى مثل هذه الخواطر ، وأن يستمد
العون من السماء في تجليتها وكشفها . . وقد ذكر القرآن الكريم عن زكريا عليه

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٥٦ .



السلام ، وقد جاءه نداء الحق باستجابة دعائه ، حين طلب من ربه أن يهب له غلاماً — ذكر القرآن عن زكريا أنه طلب من ربه آية يستوثق بها من أن الصوت الذي سمعه هو صوت الله ، وأنه ليس قذفة شيطان ، أو هجسة خاطر متلطف إلى الولد . . ولم تضن عليه السماء بما طلب ، فجاءته الآية كاشفة مجلية . . استمع إلى قوله تعالى في هذا :

• هنالك دعا زكريا ربه . . قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبدرك بيحيي ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيداً ، وحصوراً ، ونبياً من الصالحين . . قال : رب أنى يكون لي غلام ، وقد بلغننى الكبر ، وامراتى عاقرة . . قال : كذلك الله يفعل مايشاء ! قال رب اجعل لي آية . . قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والإبكار (١) .

فكانت آية زكريا أن احتبس لسانه ثلاثة أيام لم يستطع النطق فيها بكلمة ! فكان هذا الاحتباس آية ، كما كان صوماً وقربانا لله ، ورزقاً ساقه الله إلى زكريا مع مساق من فضل البشرى بالولد على الكبر ! !

فإذا طلب النبي الكريم آية لنفسه ، يستوثق بها لحال من أحواله — وخاصة إذا كان هذا الحال متصلاً بالدعوة وبالرسالة — فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على ما عند النبي من حرص على هذا الفضل الذي آتاه الله إياه وأكرمه به ، من أن يلم به شيء يفصله أو يغير من طبيعته ، أو يذهب به !

ولانريد أن نعيد القول هنا فيما يدور في هذه المعجزات من جدل ، حول وقوعها أو عدم وقوعها على الوجه الذي رويت به ، وعلى تلك الكثرة الكثيرة التي تكاد تجعل حياة النبي ، وأعماله كلها خوارق ومعجزات . وحسبنا في هذا أن نقرر — كما قررنا من قبل أيضاً — أن النبي مشتمل على طاقات روحية

(١) سورة آل عمران : ٣٨ - ٤١ .

لا حدود لها ، وأن اتصاله بهذا الوجود ، واتصال الوجود به على غير ما ألف الناس وعرفوا !

فإذا تكلم الطائر ، وسبح الحجر ، ومشى الشجر ، وشكا البعير ، وحن الجذع — بين يدي الرسول — فذلك مما لا ينكر أو يدفع . ونحن نرى كثيراً من الناس لهم قدرة روجية على قراءة الأفكار ، وعلى الإيحاء والتأثير في أنفسهم ، أو في غيرهم ، من غير أن يكون لهم صلة خاصة بالسماء كصلة الرسل والأنبياء ..

• • •

ونعود فنقرر مرة أخرى أن كل هذه المعجزات والخوارق التي رويت عن نبي الإسلام لم تكن — إن كانت — لإشارات من جذوة النبوة ، ولإشاعات من شمسها المشرقة .. أما معجزة النبي الكبرى وآيته الخالدة فهي القرآن الكريم ، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

بقيت لنا وقفة هنا مع معجزتين من تلك المعجزات ، ورد لها ذكر في القرآن دون غيرهما ما روى في سيرة الرسول من معجزات .. وهما انشقاق القمر ، والإسراء .

انشقاق القمر :

في القرآن سورة سميت « القمر » ، وقد بدئ بهذه الآيات : اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. وكل أمر مستقر .. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة ، فما تغنى النذر (١) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن انشقاق القمر الذي ذكر في الآية الأولى من هذه السورة قد وقع فعلاً ، كجزء شاهدة على صدق النبي ، وهو في مكة ، قبل هجرته إلى المدينة .

يقول القاضى عياض في تفسير هذه الآية : « أخبر الله تعالى بوقوع انشقاق القمر

(١) سورة القمر آيات ١-٧ .

بلفظ المعنى ، وإعراض الكفرة عن آياته - أى ما فى انشقاقه من آيات - وأجمع
المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، (١) .

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : انشق القمر على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا ، (٢) .

وروى عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم
آية . فأراه انشقاق القمر فرقتين ، حتى رأوا حراء بينهما ، (٣) .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود - من رواية مسروق عنه - قال :
انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قرين هذا سحر ابن
أبي كبشة - يقصدون النبي - فقالوا انظروا ما يأتكم به السفار ، فإن سجدوا
لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . قال فجاء السفار فقالوا ذلك .

وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله تعالى : واقتربت الساعة وانشق
القمر ، وإن يروا آية يرضوا ويقولوا سحر مستمر ، (٤) قال : قد مضى ذلك ،
كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . .

ويعلق القاضى عياض على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر فيقول :
وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة . . والآية مصرحة . . ولا يلتفت إلى
اعتراض مخذول بأن لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شىء ظاهر
لجميعهم !

ويدفع القاضى عياض هذا الاعتراض بقوله : لم ينقل إلينا عن أهل الأرض
أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ، ولو نقل إلينا عن لا يجوز تماثلهم على
الكذب لكثرتهم لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل

(١) الشفا جزء ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) سورة القمر آية ١ ، ٢ .

الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سبحانه أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلها . . ذلك تقدير العزيز العليم . .

ويستطرد فيقول : وآية القمر كانت ليلاً ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واهتبل به ، ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبروا ، وكثيراً ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ، ولا علم عند أحد منها ، (١) .

هذا ملخص ما قيل في تفسير الآية : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر » . . وقد رأينا أن القاضي عياض يؤكد لإجماع المفسرين وأهل السنة - أي رواية الحديث - على وقوع انشقاق القمر للنبي ، كعجزة دالة على نبوته ؟ ويتخذ القاضي عياض من الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الفعل الماضي « وانشق القمر » دليلاً على أن الانشقاق حدث فعلاً ، وأن الآية نزلت مخبرة عنه . .

ونحن لا نرى في الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الماضي قرينة قاطعة على وقوعه ، فبما يدل الفعل الماضي على حدوث الفعل فعلاً ، ويخبر عن وقوعه ، في الماضي ، كذلك يعبر بالفعل الماضي عن الأمر الذي سيقع مستقبلاً ، وذلك لغرض بلاغي ، وهو أن هذا الفعل محقق الوقوع لاحتماله ، وأن وقوعه في المستقبل أشبه بوقوعه في الماضي ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقق وقوعه . . والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيراً في الأمور ذات الخطر التي

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٠ .

يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتياب . . فلا يلتقاهم القرآن اللقاء الذي ينتظرونه في شأن هذا الأمر الخطير ، ويجعل لقاءهم معه معلماً بالمستقبل بل يجذبهم إليه جذباً قوياً ، فإذا هم في مواجهة هذا الأمر وجهها لوجه !

يقول سبحانه وتعالى في شأن البعث : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض » . (١) . ويقول سبحانه في يوم القيامة : « وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت » . (٢) . . . وأكثر ما ورد في القرآن من صور البعث والجزاء والحساب قد جاء في صورة الماضي ، الذي وقع وعاش في الناس ، وعاش الناس فيه !

وإذن فليس في التعبير عن انشقاق القمر بالفعل الماضي دليل على أنه وقع ، بل ربما كان هذا التعبير بالماضي داعية إلى تأكيد وقوعه في المستقبل ، وقياسه على كثير من الأفعال التي جاءت على تلك الصورة . . فإن انشقاق القمر حدث عظيم ، والناس في تصور انشقاقه بين مؤمن ومكذب وشاك . . فكان التعبير عنه بالفعل الماضي أنسب شئ لتلك الحال ، بوضعه في صورة الواقع المحقق !

ثم من ناحية أخرى نجد القرآن الكريم يحدث عن أحداث القيامة فيذكر صوراً عما يترى الوجود من تغيرات في هذا اليوم العظيم . . « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » (٣) . . ففي هذا اليوم تتغير معالم الأشياء وتتحول أحوالها .

وتذكر القرآن الكريم في هذا ، انشقاق السماء ، « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت » . (٤) . . كما تحدث عن خسوف القمر ، واجتماع الشمس والقمر في فلك واحد . . « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٥) . كذلك تحدث عن انتشار السكواكب ،

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .

(٢) سورة الزمر آية ٨ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٤٩ .

(٤) سورة الانشقاق آية ٢٤١ .

(٥) سورة القيامة آية ٨-١٠ .

وتشقق السماء ، وتفجر البحار . . . وإذا السماء انقطرت وإذا النواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت . . . (١)

كما يذكر ما يقع للشمس والنجوم ، والجبال ، . . . إذا الشمس كورت
وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . . . (٢)

فإنشقاق القمر ظاهرة من الظواهر التي تعترى الوجود يوم القيامة ، وكما
تتكور الشمس في هذا اليوم كذلك ينشق القمر ، وتتناثر النجوم ، وتسير الجبال
وتفجر البحار !

وقد جاء انشقاق القمر في الآية السكرية مصاحباً لاقترب الساعة : ، اقتربت
الساعة ، وانشق القمر ، . . . وهذه المصاحبة تقوى الرأي الذي نذهب إليه ، من
أن انشقاق القمر سيقع حين تقترب الساعة ، وأن اقترابها هذا سيؤذن بتغيرات
كثيرة في مظاهر الوجود السماوي والأرضي ، كما جاء ذلك في كثير من آيات
الكتاب ، التي أشرنا إلى بعضها من قبل .

وقد تكون هذه الأحاديث المروية - إن صدقت - تفسيراً للآية السكرية ،
في ظل كسوف وقع للقمر في عهد النبي ، وربما كان كسوفاً كلياً ، رأى فيه الناس
يوماً ظاهراً عجيبة ، فأضافها المؤمنون إلى معجزات الرسول ، وصورها كل
إنسان حسب إحساسه بها !

وما يعضد هذا الاتجاه عندنا ما يروى عن ابن عباس ، في إحدى الروايات
عنه في هذا الأمر - أن القمر كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقالوا : سحر القمر !

فلا بن عباس هنا - فيما روى عنه - قولان . . . قول بانشقاق القمر ،
وقول بكسوفه .

والقول الأول يرويه ابن عثبة ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس ، والقول
الثاني يرويه عنه عكرمة (٣) .

(١) سورة الانفطار آية ٣-١ . (٢) سورة التكويز آية ٣-١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير - سورة القمر - الجزء الرابع .

(١٦ - النبي محمد)

وليس بمستبعد أن يكون القولان لابن عباس . وأن كسوف القمر
وانشقاقه بمعنى واحد !

فإذا كان القمر قد كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكسوف
القمر ظاهرة فللكية تحدث كثيراً ، وقل من الناس من لم يرها في عمره مرات
ذوات عدد - إذا كان ذلك قد حدث قبل هجرة الرسول ، وبعد نزول الآية ،
فانه من الطبيعي أن يتخذ المؤمنون - إذ ذاك . من هذه الظاهرة آية
مؤيدة للرسول !

وأمر آخر . . كسف القمر على عهد الرسول بالمدينة . يوم مات إبراهيم ،
فقال الناس . . كسف القمر لموت إبراهيم ، فدعا الرسول الناس إليه ثم خطبهم
فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا يخسفان لموت أحد ، ولا يحياتنه ،
فإذا رأيتن ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة » .

ولترك الرسول هذا الأمر يمتحن من غير أن ينبه له ، ويكشف عنه
لكان للناس فيه أقرال ومنقولات .

قصة الإسراء :

وفي القرآن الكريم سورة سميت « الإسراء » وفيها حديث هذه الرحلة
العجيبة ، التي دبرتها السماء لرسول الله ، بعد مبعثه ، وقبل هجرته إلى المدينة . .
وحدود الرحلة كما يذكر القرآن : من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد
الأقصى بيوت المقدس .

وزمانها لحظة من لحظات الليل كما يقول القرآن الكريم في الآية الأولى
من سورة الإسراء .

قال تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً . . من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى الذي باركنا حوله . . لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » (١) .

(١) سورة الإسراء آية ١ .

والآية صريحة في «الإسراء»، وفي أنه كان فعلاً للنبي الكريم.. وأنه
واقعة حقيقية، وليس رؤيا منامية؛ وإلا لما كان لها ذكر خاص في
سورة خاصة!

والذي يقف بحديث الإسراء عند هذا الذي نطقت به هذه الآية، يجد أن
تلك الإضافات الكثيرة، والذبول الطويلة التي علقته بحديث الإسراء لاستدعيها
غاية الإسراء، ولا يحتاج إليها السكال الذي ينبغي أن تكون عليه.

«فالإسراء» على ما تشهد به الآية لم يكن للإعجاز، وإنما هو رحلة روحية
إلى بيت المقدس، بجمع الأنبياء، وأول قبلة للإسلام.

ولا عجب أن تكون للرسول رحلة روحية كهذه الرحلة، في تلك المرحلة
الخرجة من مراحل الرسالة النبوية.

فقد كان الرسول إذ ذاك في وجه خصومة عنيفة ظالمة من قومه.. يدعرون
إلى الرشاد والخير فيلقونه بالكذب والبهت، ويرمونهم بالسوء والأذى..
وهو رحيم بهم، حريص عليهم.. فتمتلىء نفسه حسرة وألماً، إذ يراهم
يتمزقون شعياً، وينتطعون أوصالاً..!

وليس حال أدعى من هذه الحال للخروج من هذا الجو الثقيل الخانق،
إلى جو آخر فيه راحة للصدر، واسترواح للنفس!

وللذي أين المذهب لنبي قائم على دعوة السماء، موجه برسالتها، لأنه لا مفر
للنبي - إن أراد أن يظل في سجل الأنبياء - من أن يثبت في موقفه، لا يتحول
عنه أبداً.. وإن هلك..! وقد قالها النبي الكريم لعمه أبي طالب، «والله
ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن ترك هذا الأمر
ما تركته أو أهلك دونه».

ولكن الأحداث تزداد حدة، والشر يشتد اشتعلاً.. وللنفس البشرية
حدود للاحتمال، وإن كانت نفس نبي، وإن كان هذا النبي محمداً، خاتم النبيين
وصفوة المرسلين.. لأنه - مهما يكن - بشر.. وللبشرية حدود تنتهي إليها،
وتقف عندها!!

لقد كان في النبيين من اشتد به السكر في موقف الدعوة ، أو ضاقت نفسه عن الاحتمال أكثر مما احتمال ، فزایل موقفه ، وكادت تسقط رسالته من يمينه ، لولا أن تداركه لطف اللطيف ، ورحمة الرحيم .

ويقص القرآن الكريم عن يونس عليه السلام موقفاً مثل هذا الموقف . . . فيقول سبحانه وتعالى : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أتى إلى النملك المشحون ، فساهم في مكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت ، وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . . فنبذناه بالبراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا ، (١) » وانظر إلى تدبير ربك مع هذا النبي . . يونس عليه السلام .

لقد تعجل الفرار من الميدان الذي أقامه الله فيه . . . وتلك فلة ما كان للنبي أى يفعلها لأول بادرة سوء تصل إليه من قومه . . . وكان لابد من درس يتلقاه النبي ، لكي يتقوى على احتمال هذا الموقف ويصبر على شدائده !

وكان هذا الدرس أن يخرج من ضيق إلى ضيق أشد وأقسى . . . خرج من جوف مدينته التي ترمى بالشر ، وتقذف بالسوء — إلى جوف الحوت الذي سيتهول فيه بعد بضع ساعات إلى طعام مهضوم !

إن يكن يونس وجد ضيقاً في قومه ، فهناك ألوان من الضيق أشد وأقسى ، وفي جوف الحوت وجد المثل المائل ، والتجربة الواقعة ! ثم تجيء رحمة الله ، فتجعل ليونس طريقاً في بطن الحوت . . إلى جوف البحر . ثم إلى اليابسة !

وهنا يجد يونس كل شيء أرحب من جوف الحوت وأرحم . . . وأن مدينته التي فر منها هي رحمة واسعة بالنسبة لما كان فيه . فيعود إلى مدينته تلك ، وكأنها وما ينتظره فيها من شدائد ومحن — كأنها جنة تبسط له كتفا يديها بالطيب

(١) سورة الصافات آية ١٣٩-١٤٧ .

الموفور من الثمرات ! وهناك تثبت أقدامه في موطن الدعوة ، فيمدح برسالته إلى غايتها .. ويستجيب له قومه .. مؤمنين بالله رب العالمين !

ونظرة أخرى في معطيات هذه القصة تطلعك على مدى ما عند الأنبياء من صبر واحتمال ، وما لديهم من قوة وعزم ، وما في كياناتهم من طاقات نفسية وروحية وجسدية ، ليكون من هذا الرصيد الكبير ما يقوم بأعباء الرسالة ، وسد مطالبها !

فهذا النبي الكريم « يونس » قد احتمل من قومه ما لا طاقة للإنسان - غير نبي - باحتماله .. ولكن الأمر كان يقتضيه أن يحمل أكثر مما حمل ، ولو كان من أصحاب العزم من الرسل لصمد في موقفه ، فأريدت له هذه التجربة لتشد من عزمه ، وتخرج به أكثر قوة واحتمالاً .

وما كان لنبي أن يدخل في هذه التجربة ثم يخرج سليماً معافى كما كان ، بله أكثر مما كان .. فإن أى إنسان غير نبي لو وقع في هذه التجربة ، وقدر له أن يخرج من جوف الحوت ، وأن ينجو من البحر والموت فيه غرقاً ، ثم قدو له أن يضع قدميه على اليابسة ويحيش مع الناس - لو حدث هذا الإنسان من الناس لذهب ذلك بكثير من عقله ، وبكثير من ماسكاته وطاقاته الروحية والنفسية ، ولعاش - إن عاش - في الناس ، إنساناً مهزوزاً ، الشخصية ، مضطرب السلوك ، مختلج الخطأ .

ولكن ها أنت ذا ترى تلك التجربة في نبي من أنبياء الله ، ثم تراه وقد عاد بعدها أقوى قوة ، وأثبت ثباتاً ، وأحكم سياسة وتديراً !
أفليس ذلك إلا لأن الأنبياء - وهم بشر - هم أيضاً في حال فوق أحوال البشر ؟ بلى ! فالأنبياء ناس غير الناس ، وبشر فوق البشر !

• • •

ونعود إلى تجربة « الإسراء » في تلك الفترة التي أشرنا إليها من حياة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه .

ونحب هنا أن نبسط القول شيئاً ما في الحال التي كان عليها النبي قبيل



و الإسراء ، فذلك مما يعين على إدراك بعض ما للإسراء من حكمة ، وماله من داعية في الوقت الذي وقع فيه .

فأولاً : كان عناد قريش ، ودفعتها لدعوة الرسول ، قد بلغ غايته ، فاشتمد البلاء على المسلمين الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه هذا الطغيان وتسلسل الأقويام على الضعفاء ، حتى لقد مات بعضهم تحت سياط العذاب ، من ضرب مبرح ، وكى بالنار ، وشق بالحجارة الملتهبة في الهجير . . والرسول الكريم يرى هذا البلاء ينصب صباً على الرجال والنساء من أصحابه ، ويرى الموت يدنو منهم رويداً رويداً ، فلا يملك أكثر من الألم والأسى ، ولا يجد لأولئك المعذبين إلا أن يدعوهم إلى الصبر ، وأن يرغبهم في الاستشهاد ، لينالوا ما أعد الله للمتجاهدين في سبيله من الفوز بمجنات النعيم ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بعمار بن ياسر وأبويه وهم يعذبون في وهج الشمس ، ولفج الهجير - يقول : « صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة ، !

وثانياً : بعد أن امتنع رسول الله بقومه . من آل هاشم ، وآل عبد المطلب من أن تناله قريش بما أرادت أن تناله به من أذى ، ورأت أنها إن فعلت هذا كان ذلك هلاكاً لقريش ، وإفناء بعضها بعضاً ، وبعد أن فرغ كيدها ، وبطل تدبيرها في أن تلحق بالنبي ما أرادت به من سوء - اتجهت إلى أسلوب آخر يسوق الأذى إلى النبي ، وإلى آله الذين اجتمعوا على نصرته . حمية وتعصباً ، وإن لم يجتمعوا على دعوته عقيدة وإيماناً . . وكان هذا الأسلوب هو تلك الدعوة الظالمة إلى مقاطعة آل عبد المطلب ، مقاطعة كاملة ، وحصارهم اقتصادياً ، واجتماعياً ، فلا يتعامل أحد من قريش معهم في شيء أبداً . . لا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يأخذون منهم ، ولا يعطونهم .

وواجه بنو هاشم وبنو عبد المطلب هذه الحرب بشجاعة ، وصبر ، وأبوا أن يعطوا الدية في هذا الامتحان الذي تعرف فيه معادن الرجال . . فجمع أبو طالب - عميد آل هاشم - أهله ، واتحاز بهم إلى شعب أبي طالب (١) - ليرى قريشاً

(١) شعب أبي طالب : هو عملة اتحاز لآلها بنو هاشم مدة الحصار فسمى بهذا الاسم -

أنه قادر على أن يلتقي معها على الأمر الذي أرادت ، وأنها إن أرادت اعتزاله
واعتزال آله ، فليس هو بالحريص على أن يصل الحبل الذي قطعت . ١

وقد استمر هذا الحصار لآل عبد المطلب ، وآل هاشم نحو ثلاث سنين ،
بلغ بهم الجهد غايته ، حتى سمع أصوات صديانهم — يتضاغون جوعاً — من
وراء الشعب (١) .

وطبيعي أن النبي كان خلال هذه المحنة يحمل في نفسه كل مآل آل عبد المطلب
وآل هاشم من جهد ومشقة . فكل ما كان يقع في محيط أفرادهم ، فرداً فرداً ،
وفي جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع في مشاعر النبي ، ويهيج خواطر الألم ،
والإزعاج في نفسه ، قبل أن يصل إليهم — أضعاف ما كانوا يجردون من ألم
وإزعاج ذلك لأنه - وهو النبي - يألم لآلام الناس جميعاً ، ويود لو يحملها
عنهم ، أو يرمى بها في مكان سحيق . فكيف بما يقع في نفسه من هذا ، للآلام
التي في أهل وذوي قرابته ، والقائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى يرى
أن ما نزل بقومه من آلام وشدائد ، إنما كان بسببه هو . . وأن ذلك الذي
احتملوه من أجله كان بدافع القرابة والدم ، ولم يكن بسبب العقيدة والدين ،
ولو كان من أجل العقيدة لكان الأمر بعض الشيء ، ولما كان على أصحاب العقيدة
أن يؤدوا ضريبة الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذي ينتظرهم .
أما المحتملون إنما احتملوا من أجل القرابة والدم ، فماذا ينتظرون من جراءه ؟
لأنه لا شيء ! ، وإن يكن شيء فهو إرضاء لنداء العصبية . ذلك النداء الذي
لا يلبث أن تذهب أصداؤه . بعد أن تذهب الحال التي تلبس بها !

إن الآلام النفسية والروحية بل والجسدية التي احتملها النبي خلال هذه
المحنة التي عاش فيها أهله ، كانت أقصى ما لقي النبي في طريق دعوته من آلام . إنه
حمل آلام آل بني هاشم كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . فمن أجله كانت
هذه التجربة القاسية ، وفي سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجهه بنو هاشم هذه
القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . . ثلاث سنين !

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ١٢٢ .



وثالثاً : حين بلغ الأمر من الشدة والضييق مداه في نفس النبي ، وأصبح جو مكة ثقيلًا خانقاً — أراد أن يلتمس له متنفساً حول مكة ، لعله يجد أعواناً وأنصاراً يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته ، فربما وجد فيما حول مكة نفوساً تمسك هذا الخير الذي بين يديه ، وتمتفع به ، وتخرج منه ثمراً طيباً مباركاً .

كان لابد للرسول من أن يلتمس لنفسه ولدعوته مجالاً آخر ، خارج مكة ، بعد أن لقي هو وأهله الأذنون ما لاقوا من هذا البلاء الشديد .. وبما ضاعف من وقع هذه الآلام في نفس الرسول أن سقط الجناحان اللذان كانا يرفان عليه رحمة وحاناً . فما أن كادت تلتهي محنة الحصار ويفسد تدبير قريش ، وتقض صحتها التي أبرم فيها هذا العقد الذي عقده بينها لمقاطعة آل هاشم بعد أن سلط الله عليها الأرضة ، فأكلتها جميعاً ، إلا ما ورد فيها من ذكر الله عز وجل — ما كادت تنتهي هذه المحنة حتى مات أبو طالب بعد خروجه بقومه من الشعب بستة أشهر .. ثم لحقت به وخديجة ، بعد موته بثلاثة أيام . . .

فانظر كيف ابتلى النبي الكريم هذا الابتلاء .. في عمه ، وفي زوجه ؟ وكيف تفرغ يده من كل قوة مادية كانت تسانده في دعوته ، وتشد من أزره ؟ ومتى يكون ذلك ؟ إنه في أخرج مواقف الدعوة .. وبعد أن بلغ الأمر من الشدة مداه بين قريش وبين النبي !

لأنها عشر سنوات كاملة ، منذ أن تلقى الرسول الكريم أول إشارة من السماء ، إلى ذلك اليوم فقد فيه الرسول زوجه ، وعمه ، كما فقد فيه الأمن والسلامة في مكة . مع قومه من قريش .. فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ، ومحنة وعكاظ (١) ، ويقول : من يؤمنني ، ومن يؤويني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي .. فله الجنة .. فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه حتى إن الرجل ليرحل من

١٥٠. محنة وعكاظ : سوقان من أسواق العرب الموسمية .

مضر أو اليمن إلى ذى رحمه ، فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، (١) .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والحنن التي مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر كانت تربية وإعداداً للجولة التالية من الدعوة ، واستعداداً لاستقبال الطور الجديد من أطوارها . . . حيث ستشهد الأيام التالية أحداثاً ضخماً في حياة هذا الدين الجديد . . . سيلتقي الرسول الكريم بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة . . . وسيتلقى أجوبة مختلفة لما يلقى على الأسماع من آيات دعوته . . . وسينهج النبي موطنه ويهاجر إلى موطن آخر ، وأقوام آخرين غير قومه ، وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويبتلى النبي في نفر كريم عزين من أصحابه ، يسقطون في هذه المعارك . . . وسيقوم الرسول على توجيه مجتمع إسلامي ضخم ، بعد أن يجيئه نصر الله ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ۱۱ .

إن هذا البلاء العظيم الذي ابتلى به الرسول هو — كما قلنا — إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى . . . وإن هذا البلاء أشبه بما تعمل الحمايرث والقموس في شق الأرض وتقليب تربتها قبل أن يبذر فيها البذر . . . فذلك هو الذي يتيح لها الجو الصالح لأن تعطى خير ما فيها من عناصر الإنبات لما يلقى فيها من حب ۱ .

نقول : في هذا الجو الثقيل الخانق الذي كان يضيق به صدر الرسول في مكة — خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف - والمنعة بهم من قومه . . . وكان معه مولاة زيد بن حارثة . . .

ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم، فدعاهم إلى الله ، وكلهم بما جاءهم له . . . من نصرته ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فلم ير منهم إلا إعراضاً ، وتكديباً ، واستهزاءً . . . وكان فيما قال له قائلهم :

(١) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٣٢ .

« والله لا أكلك أبدا !! لئن كنت رسولا من الله كما تقول لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك السلام ! ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لي أن أكلك !! » إنها سفسطة أحمق ، وضلالة ظلوم جهول .

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خيرهم . . . وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . . . » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ذلك قومه عنه فيذترهم (١) ، ذلك عليه . . . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سباطين (٢) ، وجعلوا يرهونه بالحجارة حتى دميت قدماه . . . وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه . . .

ترك الرسول الطائف على تلك الحال ، وقد امتألت نفسه أسى فوق أسى ، وألمأ فوق ألم . . .

وإلى أين ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أية حال لا يزال يمسك منها على شيء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمح في خير من أهل أو صديق فيها .

وقبل أن يتخذ الرسول سبيله إلى مكة وجه وجهه إلى السماء يناجى ربه ، ويطلب العون والمدد ! يخفق قلبه بهذا النداء الدافئ العميق ، وتحركت شفثاه بهذا الدعاء الندى ، المعقود بأنفاس الأمل والرجاء في مالك المملك ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض . . . يقول رسول الله مناجياً ربه :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ... »

« يا أرحم الراحمين . . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي . »

« إلى من تكلمني ؟ .. إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ (٣) »

« إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي . »

« غير أن عافيتك هي أوسع لي . »

(١) يذترهم عليه : أي يفرهم به ، ويحرضهم عليه .

(٢) أي في صفين .

(٣) يشير بالبعيد إلى ثقيف ، وبالعدو إلى قريش .

« أعود بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليها أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك .

« لك العتبى حتى ترضى . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك،(١)

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله ، والمخلقة من أنفاس النبوة الطاهرة ، اتجه الرسول إلى ربه ، متضرعاً ، متوجعاً ، طالباً رضا ربه ورحمته ، فى صبر وحمد . . على السراء والضراء .

مدد غير منتظر :

وفى طريق الرسول من الطائف إلى مكة نزل منزلاً يمكن يسمى « نخلة » ، ثم قام من جوف الليل يصلى ، فصرف إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعروا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه قوله تعالى : « وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . . قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . . يا قومنا . أجيئوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويحرمكم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله ، فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين ، (٢) .

ولعلك تذكر من هذه الحادثة ما يقع فى نفس الرسول الكريم منها من ألس ، وما يشيع فى كسائه من رضى . . إنه ليس وحده . . إن صوت السماء متصل به ، وإن جنوداً من جنود الله ، — لا يراهم — يحفون به ، ويستمعون له ، ويصدقون بما نزل عليه .

ومن هذا الذى يستمع إلى كلام الله ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من

(١) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٣ .

(٢) سورة الحديد : آيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .



الجن . . الجن الذي يضرب به المثل في الخروج على كل نظام ، والتأني على كل نداء . . .

فكيف لا يكون لهذا القرآن في نفس الناس ما له في نفوس الجن ؟ وكيف يقبل الجن من إنسان ، ويؤمنون له ؟ على حين يأبى الناس الاستماع إليه ، والاستجابة لدعوته ؟ إن ذلك يكشف عن فساد في طبيعة تلك النفوس الإنسانية فساد خرج بها إلى أن تكون أكثر من الجن ضلالا وعنادا !

ثم لعلك تلتفت إلى ما امتلأت به نفس هؤلاء النفر من الجن من إيمان ، حتى لقد تحولوا إلى دعاة ، يبشرون في قومهم بهذا الدين ، ويدعون له: «يا قومنا أجيئوا داعي الله ، وآمنوا به .. يفقر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم» ففي هذا الصنيع من أولئك النفر من الجن تحريض قوى لأولئك النفر الذين استجابوا للرسول من الناس ، أن يبشروا بدعوة الإسلام في الناس ، ويدلوهم عليها . . .

وفي هذا كله قدر كبير من التنفيس عن نفس الرسول ، والتطبيب لحاظه ، بعد هذه التجربة القاسية ، التي مرت به في الطائف !

وكان الرسول قد أقام بنخلة أياماً ، قبل أن يتخذ سبيله إلى مكة .

وربما كان هذا التوقف منه — صلوات الله وسلامه عليه — في هذا المكان مراجعة لنفسه ، وتقليباً لوجوه الرأي في اختيار الجهة التي يتجه إليها . . . أهي مكة ؟ أم غيرها من بلاد العرب ومضارب خيامهم ؟ . إننا لا نجد تفسيراً لتوقف الرسول الكريم في هذا المكان ، ومكثه فيه أياماً ؛ أقرب من هذا التفسير ، الذي يناسب ما كان في نفس الرسول من ضيق بمكة وبأهلها . . . لقد خرج منها مكرهاً ومهوماً ، والعودة إليها ستكون أنسكى وأشد من قبل أن يخرج منها . . . ولكن بعد أن نزل عليه وحى السماء ، بما كان من أمر أولئك النفر من الجن ، انزاح عن نفسه كثير من الضيق والهم ، ووجد من إيمان الجن به ما يطمعه في إيمان قريش .. فإنها مهما تكن، ومهما يكن من التوائها وعنادها ليست أكثر

من الجن عناداً ، والتواءاً ، وأن هذا القرآن الذي لانت به قلوب الجن ،
واستجابت له ، سيؤثر هذا الأثر ، وربما أكثر منه ، في قلوب العتاة المكابرين
من قريش !! قال تعالى :

وقل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنما سمعنا قرآناً عجياً ،
يهدى إلى الرشده ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ،
ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، (١) .

وهنا ، يخرج الرسول من نخلة ميمها وجهه شطر مكة ، وقد زايله كثير من
الأمم والهم . فأسرع الخطا إليها ، ليرى ماذا أحدثت الأيام في قريش ، وفي موقفها
الظالم منه ؟ وهل كانت غيبته تلك الأيام المعدودة عن موطن الأحداث — هل
كان ذلك داعية للقوم أن يردوا ما عزب من أحلامهم ، وأن يستمعوا إلى صوت
العقل فيما يدعوهم إليه رجل منهم ، لا يريد الملك ، ولا المسال ولا الجاه ولا
السلطان . . وإنما يريد كشف ما في عقولهم من ضلال ، وشفاء ما في قلوبهم
من مرض . . إنه يتعامل مع الجانب الروحي منهم . . يتعامل مع الروح والعقل
والنفس . . أما جانبهم المادي فلا شأن له به ، إلا فيما تقتضيه سلامة العقل ،
وترتضيه طهارة النفس ، ويدعو إليه صفاء الروح !

فهل ترى غيرت هذه الغيبة شيئاً من سير الأحداث التي تركها الرسول منذ
أيام ، وهي تغلى وتفقور ؟ أما في قريش من ناس يدخلون في دين الله وينصرون
نبيه ؟ . يا لظلام العقول ، ويا لقسوة القلوب !

على أن الرسول الكريم ما كاد يبلغ مشارف مكة ، حتى تلوح له تلك الوجوه
المنكرة البشعة ، التي وقف أصحابها في وجه الرسول ، وامتدت أيديهم وألسنتهم
بالسوء إليه ، وإلى أصحابه الذين اتبعوه .

وربما قلب الرسول تلك الوجوه وجهها ، لعله يلح فيها من يقوم إلى جانبه
بعض مقام عمه أبي طالب ، الذي مات منذ قليل !!

وكان المطعم بن عدى هو الذى اختاره الرسول ليقوم منه هذا المقام .
« فأرسل رجلا من خزاعة إلى « مطعم بن عدى ، يقول له : أدخل في
جوارك ؟ » .

وقال : نعم.. ودعا بنيه وقومه ، فقال: البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان
البيت . فإني قد أجرت محمداً . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ومعه
زيد بن حارثة ، حتى اقتبى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته ،
فنادى : يا معشر قريش . إني قد أجرت محمداً ، فلا يهجه أحد منكم (١) . . فانتهى
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف
إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح ، حتى دخل بيته (٢) .
وكانت قريش على عهدهما الذى تركها الرسول عليه . من عداوة غليظة ،
وشر صراح .

لقد ظل الرسول الكريم عشر سنوات ، ينادى قومه ويرأوهم بآيات
الكتاب وبال دعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فما ازدادوا على
الأيام إلا عداوة له ونقمة عليه ، وتربصاً به !

ولقد خرج الرسول من مكة بعد أن ضاق بها — خرج إلى الطائف لعل
هنا فيها من زروع وكروم قد ألقى في نفوس أهلها نسمة رطبة ، تنعش الأرواح
وتشرح الصدور . فتمش بجمال الحق وجلاله ، وتستجيب له . . ولكن أهل
الطائف كانوا أفسى قلوباً من قريش . وقد سجل التاريخ هذا اللقاء الذى لقوا
رسول الله به . . فكان أسوأ صفحة سجلها التاريخ لنخوة العربى ومروءته .
وفقد الرسول الكريم مع هذا زوجه الوفى ، والسيدة خديجة ، وعمه أبا طالب
درعه الحصينة .

ثم بعد هذا كله يعود الرسول إلى قريش ، ويدخل عليها مكة ليبدأ دوراً
عنيفاً حاداً مع الصراع معها فى سبيل دعوته ، وتبليغ الرسالة التى بين يديه ؟؟

(١) يهجه : أى يثمه وينفضه .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٤ .

ولا يجد الرسول خلال هذه المحن من عزاء إلا فيما ينزل عليه من آيات الكتاب ، وفيما يقص عليه القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وفيما يدعوهم الله إليه من الصبر والثبات على موقفه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين .

فكانت آيات الكتاب هي روح الرسول وريحانه خلال هذا الضيق الذي نزل به . . وكان استماع الجن إليه واستجابتهم له اختياراً ناجحاً للكتاب الذي بين يديه ، وللقوة الروحية المشتمل عليها ، وذلك مما يبعث الأمل ، ويقوى الرجاء في استجابة القلوب القاسية له ، وتأثرها به .

ومع هذا كله ، فقد كان الرسول الكريم في حاجة إلى مزيد من المدد الروحي ، وإلى التزود بزيادة من الملائكة الأعلى ، حتى يقوى على مواصلة الجهاد والصمود في وجه المعاندين ، والكافرين ، والمتبرصين .

ولقد أبل الرسول ببلاءه في الأرض ، واستنفد كل ما يعطى أو يأخذ منها . ومن أهلها . فكان لا بد من عالم آخر يتعامل معه ، ويتزود منه بزيادة روحية ، يشبع في كيانه قوى مجددة ، لاتنفد على كثرة ما ينفق منها في هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وحتى يدخل الناس في دين الله أفواجا .

وفي الإسراء إلى العالم العلوى . . يجد الرسول من آيات الله ، ومن دلائل قدرته وعجائب ملكوته ما تذوب في عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضي وآلامه .

فلم يكن الإسراء في صميمه إلا رحلة روحية لرسول الله في عالم النور ، ولإلا استدناء له من مواطن الرحمة واللين . ولأنه هو الجزء الحسن للرسول على جهاده الصادق في سبيل الله ، وقيامه على أداء الرسالة التي أرسل بها ، واحتماله ما احتمل من أجلها .

وماذا يكون للرسول من جزاء في هذه الدنيا على ما لقي في سبيل الدعوة من عنت وإرهاق ؟ إن كل ما في الأرض لا يقوم ببعض هذا الجزاء . . وإن

الرسول لزاهد في كل ما في الارض ، وما عليها من مال وحطام .. فلم يكن إلا ما في السماء هو الذي يناسب حال الرسول ، ويليق به .

ثم إن الإسراء إلى العالم العلوي شهادة للرسول عند نفسه أنه في موضع الرضا والإحسان من ربه ، وأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل في تبليغ رسالة ربه .. وأن هذا النجاح الضئيل الذي صادفته مهمته خلال عشر السنوات التي مضت عن بعثته — لم يكن عن تقصير أو تهاون منه ، وإنما هو ابتلاء لرسول الله ، وتمحيص لما في صدور الناس .. ليميز الله الخبيث من الطيب .

وقد ذكر القرآن الكريم حادثة الإسراء في آيتين من أول سورة الإسراء : فقد قال تعالى : سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً .. من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير .
والذي تذكره الآيتان من أمر الإسراء أنه وقع ليلاً ، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن غايته كانت اطلاع الرسول على مافي ملكوت الله من آيات و لنريه من آياتنا .

يقول ابن إسحق : وكان في مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأول الألباب ، هدى ، ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .. فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد ، (١) .

وطلع الرسول على قریش بهذا الخبر ، وأنه قد أسرى به في ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فبهتوه وكذبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيء فيه ، وقال أكثرهم : هذا والله الإسر البين (٢) .. والله إن العير لشطرد شهرأ من مكة إلى الشام مدبرة وشهرأ مقبلة .. أفينذهب إلى ذلك محمد ، في ليلة واحدة ويعود

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢ .

(٢) الأمر — بالكسر — العظيم الشنيع .. « لقد جئت شيئاً أمراً » .

إلى مكة ١٩ ، . . ولم يقف الأمر عند كفار قريش بل تجاوزه إلى ضعاف الإيمان من أسلموا .. فارتدوا عن الإسلام . . وذهب الكفار إلى أبي بكر ليطلعوا على هذا النبا المثير ، واهلهم يحدون عنده ما وجدوا عند ضعاف الإيمان ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس . وصلى فيه . ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر . أنتم تكذبون عليه ! فقالوا : بلى . . ها هو ذلك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر لئن كان قاله لقد صدق . فما يهيجكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ! (١) .

قال ابن سحوق : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك الحادث : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الموعونة في القرآن ، وتخوفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ، (٢) . .

والإسراء — كما قلنا — إنما كان شأننا خاصاً بالنبي ، ورحلة روحية تشرح صدره . وتنعش نفسه ، وتذهب بكثير مما ألم به من ضيق وحزن بموت زوجته وعمه ، وبثأب قريش عليه وعلى آله ، وبما لقي من أهل الطائف من لقاء بارد غث . ورد سمج قبيح .

وفي مضمون هذا المعنى ينبغي أن نحدد نظرنا إلى الإسراء . . فهو بهذا المعنى ليس معجزة للتجدي ، تقف من الناس موقف التعجب لهم ، والتجدي بالإيمان بمثابة . . وإنما هي إخبار بأمر شهده الرسول وحده ، فإذا حدث به كان حديثه الصدق كله . . لا ينبغي لمن آمن بأنه نبي أن يكذبه في شيء مما يقول . . ولهذا كان جواب أبي بكر على من أراد أن يفريه بتكذيب النبي ذلك الجواب الحكيم : والله لئن كان قاله لقد صدق . . لأنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ، . . لأنه أمين السماء . . لا يكذب أبداً . هذا مبدأ . . يجب أن يسلم به كل من يدخل في هذا

(١) زاد المعاد جزء ٢ ، والسيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٠ .

(١٧) — النبي محمد



الدين ، ويؤمن بالله وبرسوله . . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ،
وما نهاكم عنه فانتهوا ، » (١) .

ولا على المسلم أن يرد أو يقبل كل ما روى عن الإسراء من أحاديث ،
وما ذكر من قصص ، وحسبه أن يؤمن بأن الإسراء برسول الله من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى أمر لا شك فيه ، كما نص على ذلك القرآن الكريم في قوله
تعالى « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
الذي باركنا حوله . . لتريه من آياتنا . . إنه هو السميع البصير » .

هذا ما يجب على المسلم الإيمان به من حديث الإسراء . . أما ما وراء ذلك
بما اتصل بالإسراء ، وكان مشار جدل وخلاف ، كالخلاف حول الإسراء : أكان
بالروح أو الجسد ؟ وكالخلاف في مواطن الإسراء : وهل انتهى عند بيت المقدس
أم أن الرسول قد صعد في رفقة جبريل إلى السموات السبع ، ثم انتهى إلى سدرة
المنتهى ؟ كل ذلك إن صح على وجهيه ، أو على وجه واحد منه ، فإنه لا يزيد من
قدر الإسراء : ولا ينقص من قيمته . . فالإسراء كما قلنا رحلة روحية للرسول
وقد تطول هذه الرحلة أو تقصر ، فليست العبارة في طولها أو قصرها ، وإنما في
الآيات الكبرى التي رآها الرسول من آيات ربه . . وقد يتطوى الوجود كله في
لحظة واحدة للرسول فيرى فيه ما شاء أن يرى ، وقد تطول الرحلة وتمتد ، دون
أن يشهد ما يشهد في تلك اللحظة الواحدة .

ومع هذا ، فإن آيتي الإسراء تحددان مبدأ الإسراء ومنتهاه . . « من المسجد
الحرام إلى المسجد الأقصى » . . ولا نذكران شيئاً عن « المعراج » ، إلى السموات
العلا . .

والذي يقرأ القصص التي صورت فيها « رحلة المعراج » يشم منها ريح الصنعة
والتلفيق ، وتبرز في أثنائها انعكاسات عجيبة ، لما يدور في بعض العقول ، من
تصورات خاطئة لكمال النبوة وجلالها . .

فتلازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش . منطلقته متبناه
في يد بن حارثة - هذا الزواج كان لحكمة عالية - أرادتها السماء لإبطال التبني .

(١) - ورة الحشر آية ٧ .

محافظة على الأنساب . فقد كان النبي شائعاً عند العرب .. يلحق الابن بنزيل أبيه ، من يريد إلحاقه به ، فيأخذ في الحياة حكم الابن الحقيقي .. وقد كان زيد بن حارثة مسمى للنبي ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فأراد الله إبطال هذه العادة بتشريع سماوي فقال تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، ادعوهم لأبائهم ، هو أوسط عند الله . فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » (٣) .

وقد أراد الله سبحانه أن يرى المسلمين تجربة عملية لإبطال هذا النبي ، فأمر نبيه أن يتزوج مطلقة متبناه زيد .. « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكم لى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، » (٤) . وللهك تلح في قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكم .. » أن التزويج كان عن أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا ما يدل عليه الفعل « زوجناكم » .

هذه هي واقعة زواج الرسول من زيب بنت جحش ، المطلقة متبناه زيد ابن حارثة .. وقد كان هذا الزواج مشار غنن ولمز من المشركين ، والمنافقين ، وداعية فتنة لمن كان في قلبه مرض ، من دخلوا في الإسلام .

وقد اتهمز واضع قصة المعراج الحجاج النسيح للأحداث في هذا العالم الروحاني ، الذي لا حدود له لجعل لزيد بن حارثة ولزواجه مكاناً هناك ، ليقال إن النبأ هي التي دبرت أمر هذا الزواج والطلاق .. وحسب أنه في هذا يدفع باطل المشركين والمنافقين الذي تسجوه من هذه الواقعة .

يقول واضع — أو وضعوا — قصة المعراج ، فيما يروى عن رسول الله : « ثم دخل بي — أي بالرسول — إلى الجنة فرأيت فيها جارية لعماء ، فسألتها لمن أنت ؟ وقد أعجبني حين رأيته . فقالت لزيد بن حارثة ، فبشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة (٢) » ٤١ .

(١) سورة الأحزاب : ٤ ، ٥ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ١٥ .

أهذا قول يقبله العقل ويظمن إليه القلب في مسرى رسول الله إلى الملائ الأعلى ؟ وهل لمثل هذا كانت رحلته صلى الله عليه وسلم إلى عالم النور والحق ؟ وهل نزلت الجنة من مظاهر الجمال والجلال فيقف الرسول عند تلك الجارية اللعساء ويسألها هذا السؤال : لمن أنت ؟ كأنما يريد لها لنفسه ؟ وهل نزلت الجنة من الحور العين .. أشكالاً ، وألواناً ، حتى يقف ويطيل الوقوف عند هذه الجارية اللعساء ؟ .
لقد كانت لحظات الرسول خلال الإسراء مشحونة بالأحداث المثيرة المذهلة ، التي تبهج الأنفاس فلا تدع مجالاً لمثل هذه التوافه من الأمور .

ثم إن كان قصة زيد وزواجه بزيب صدى في مستقبل الأيام ، فهل يقتضى ذلك أن يكون بحيث يبشر به ، وتنصب له الأعلام قبل أن يقع ببضع سنين ؟ . إن ذلك من إلهاء الفهم الخاطيء للحكمة من زواج الرسول الكريم بزيب بنت جحش طيقة متبناه زيد بن حارثة - أولاً ، ثم للفهم الخاطيء ثانياً للحكمة من الإسراء برسول الله ، تلك الحكمة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى : « لتريه من آياتنا » .. وبعيد أن تكون رؤية الرسول لهذه الفتاة اللعساء في عرصات الجنة آية أبدأ ..

هذا ، ويرى بعض أهل العلم أن الإسراء كان بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى دون عروج إلى السماء كما قلنا ، وبعض أهل العلم أيضاً يرى أن الإسراء كان بالروح لا بالجسد وأنه كان رؤيا منامية . ورؤيا الأنبياء حق تنزل منزلة الوحي ، وقد جعلها إبراهيم عليه السلام وحياً أوحى به الله سبحانه وتعالى إليه في ذبح ابنه إسماعيل : « قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر .. ستجدني إن شاء الله من الصابرين .. فلما أسلما وتلاه للجبين ، وناديه أن يا إبراهيم قد صدقت الرويا إنا كذلك نجزي المحسنين ، (١) . وهل كان الوحي يحمل إبراهيم على أكثر من هذا ؟ لقد قدم ابنه للذبح بيده ، واستجاب الابن لدعوة أبيه ، لأنه يعلم كما يعلم أبوه أن هذا أمر من الله . وأن الرؤيا تنزل منزلة الوحي عند الأنبياء .

(١) سورة الصافات آية ١٠٥ .

وحدث ابن إسحاق قال : حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه ، (١) .

وقال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة بن المخيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن ممسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله تعالى ، صادقة .. فلم ينكر ذلك من قوله ، لقول الحسن إن هذه الآية أنزلت في ذلك ، وهي قول الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ، ولقول الله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه : « يا بني : إنى أرى في المنام أنى أذبحك » ، فمضى ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً .. ثم يقول ابن إسحاق : والله أعلم أى ذلك كان قد جاءه ، وعان فيه ما عان من أمر الله ، على أى حاله كان ، نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق ، وصدق ، (٢) .

وقد فصل القاضى عياض فى كتابه « الشفا » مذاهب القول فى الإسراء ، والمعراج .. وهل كان مع الإسراء معراج . وهل كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد . قال . « اختلاف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات . فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحى ، وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكى عن الحسن ، والمثهور عنه خلافه ، وإليه أشار محمد بن إسحاق ، وحجتهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » وما حكوه عن عائشة رضي الله عنها : « ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٥ .

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٦ .

(٣) الذى يروى عن عائشة أنها كانت تقول ما فقدت جسد رسول الله ، ولكن أسرى بروحه ، وهذا هو الذى يمكن أن يستقيم عليه القول ، لأن الإسراء كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، والرسول لم يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة . فكيف تحدث بأنها ما فقدت جسد رسول الله ؟ وإنما يصح أن تروى خبراً من أخبار الإسراء ، سمعته ممن يحدث به ، أو سمعته عن النبي صلى الله عليه وسلم .



وقوله — أى قول النبي فيما يروى عنه فى حديث الإسراء — «بينا أنا نائم فى المسجد الحرام .. ، وذكر القصة ، ثم قال فى آخرها : فاستيقظت وأنا فى المسجد الحرام .»

وذهب معظم السلف ، والمسلمين ، إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى اليقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبى حية البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج .. وهو دليل قول عائشة .. وهو قول الطبرى ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين ، والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .. قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ فى المدح !»

وبعد أن ينتهى القاضى عياض من عرض هذه الآراء ؛ يعرض رأيه هو ، فيرجح -انب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً .. يقول :

«والحق من هذا ، والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها — أى إسراء . والمعراج — وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده ، وحال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى : «ما زاغ البصر وما طغى» (١) ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبداده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من

(١) سورة النجم : آية ١٧ .

أسلم ، وأفتنوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا يتكرر .. بل لم يكن ذلك —
 أى الإنكار — منهم — إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال
 يقظته ا (١) .

ونعود بعد هذا فنقول إن الخلاف فى الإسراء بالجسد أو الروح خلاف
 لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول فيه من أمداد ، وما رأى من آيات ..
 وأن قدرة الله لا تقيد بتلك القيود التى تقتضيها الضرورات البشرية .. وخير
 من هذا الخلاف الذى يذهب بعضه الإسراء ، ويمزق حجب الجلال الذى يحف
 به ، ويعبث بالستر الملقى عليه من عالم الروح — خير من هذا أن ندع الرسول
 الكريم فى موكب جلاله وعظمته ، تحف به أُلطاف ربه ، وتمدوه رعايته
 إلى حيث يسبح فى أنوار الحق ، ويطعم بروحه من طيبات الملائ الأعلى .

أما أن نجسد العالم العلوى ، ونحيله إلى أشياء من عالم التراب الذى نعيش فيه
 فذلك مما يهون من خطر الإسراء ويبخس من قدره .. فإن الذى يطالع قصة
 الإسراء على تلك الصورة المجسدة التى صورت بها ، لتتوت فى نفسه كثير من تلك
 المشاعر الروحية، التى كان حقيقةً أن تثيرها فيه حادثة الإسراء لودهب من طريقها
 هذا الركام الكثير من العوائق والسدود . ولا تتخدع بتلك الأصباغ الساذجة
 التى يلطخ بها الفصاص وجه الحقائق المادية ليجعلوا لها من تلك الأصباغ وجهاً
 تدخل به إلى العالم العلوى .. فإن هذا المسكياج ، المقضوح يجعلها مسخنة أكثر
 منها حقيقة .. فالبراق الذى يهب للرسول ليتمطيه إلى العالم العلوى ليس إلا أنانا
 ركب عايمه جناحان من ريش ا فصار لعبة من لعب الأطفال التى يؤلفونها من
 حطام بعض لعبهم التى انتهى دورها معهم .. ثم هذا الحجر الذى يشد إليه الأنبياء
 دوابهم عند بيت المقدس ، والحلقات المغروسة فى ذلك الحجر لتمسك المفؤود
 واللحم .. لأنها جميعها لتمسك بالمعانى الكريمة الطيبة التى كان ينبغى أن يجدها المرء
 فى نفسه من حادثة الإسراء لو انزاح هذا الحجر من طريقتهما ، وانزاحت معه
 الدواب ، واللحم ، والمقاود ، والسروج وغيرها ، مما يكون فى سرايط الحيوان !

(١) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ١٥١ .

وعلى أى فإن الإسراء على أية صورة وقع ، لم يكن فيه ما يخرج الرسول عن بشريته ، ويأعد ما بينه وبين الإنسان الذى يعيش فيه . . فقد عاد الرسول بعد الإسراء لم ينكر الناس من ظاهره شيئاً . حتى أعداؤه أنفسهم لم يروا عليه أمانة من أمارات هذه الرحلة المباركة . . فإن خيرها كله كان مخبوءاً فى كيانه ومنطويها فى صدره ، وسارياً فى روحه . . لأنه شأن من شأن الله مع نبيه ، وزاد روحى زوده به ، تكريماً له ، وترويحاً عن كيانه المحمدي المسكدر .

* * *

ونف عند هذا القدر من عرضنا لمعجزات الرسول ، وما دخل عليها من إضافات ، ومرقات . . بيد المتنظعين من المسلمين ، والمتعصبين من غير المسلمين .

ولكن قبل أن نرسلها من أيدينا نعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المعجزات — ما صح منها وما لم يصح — ليست هى المعجزة التى أودعتها السماء يد النبى ، والتى بها كتب الله لرسالته الشمول والخلود .

وإن يكن فى حياة النبى من خوارق — ولا بد من أن يكون — فإن هذه الخوارق تكريم له ، وفضل من الله على نبيه ، ونفحة من نفحات النبوة ، وشذى من شذاها العطر . . ذلك فضل الله يؤتية من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، . . وللنبى الكريم من هذا الفضل ما لم يكن لبشر غيره . . والله سبحانه وتعالى يقول له . « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

أما المعجزة الكبرى التى وضعها الله بين يدى الرسول . فهى تلك المعجزة الباقية الخالدة ، أبد الدهر . . « هى القرآن الكريم » .

الباب الثامن

الرسول .. والمعجزة الكبرى

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ
لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..
وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ..
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القرآن هو معجزة النبي .. المعجزة التي قامت عليها دعوته ، واستقامت بها
حجته ، وانتمت لإلها شريعته !
فالقرآن — من بين الكتب السماوية — ليس كتاب شريعة وحسب ،
ولإنما هو كتاب شريعة ، ودلائل نبوة ! وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى
حيث جاءت الكتب والمصحف يحملها أنبياء الله ورسله في يد ، بينما يحملون
في اليد الأخرى معجزات مادية تدل على صدقهم ، وتشهد انبيوتهم !
فالديانة الموسوية .. كتابها السماوي هو التوراة ، وهو دستور شريعتهما .
ولإى جانب هذا الكتاب قامت معجزات تشهد له كما تشهد للرسول الذي حمله ..
فكانت عصى موسى ، وأفعالها الخارقة ، وكانت يده التي يدخلها في جيبه فتخرج
ببيضاء من غير سوء !

والديانة المسيحية .. كتابها السماوي الإنجيل .. وهو — مع التوراة —
دستور هذه الديانة ، وإلى جانبه قامت معجزات السيد المسيح ، لتشهد له ،
وللكتاب الذي جاء به . فكانت معجزاته التي طمع بها على الناس ليصدقوا به ،
وبرسالته .. من إحياء الموتي ، وإبراء الكهه والبص ، وإنزال مائدة من
السماء وغير ذلك من المعجزات التي وضعها الله بين يدي السيد المسيح !



وقد جاءت الرسالة الإسلامية في أسلوب آخر غير هذا الأسلوب . . جاءت بكتاب يشرع شريعة كاملة ، تتناول كل ما يمس حياة الإنسان الروحية والعقلية ، والمادية ، في جانبيها ، الدنيوي والآخرون . دون أن يحيل إلى كتاب آخر ، أو يشد أتباعه إلى شريعة أخرى — ثم جعل في كيان هذا الكتاب الدلائل الناطقة بصدقه ، والشواهد القائمة على أنه من عند الله ، وأن الرسول الذي جاء به ، هو رسول الله !

وحجى القرآن على تلك الصورة الفريدة العجيبة ، قد جعل له سلطاناً على العقول والقلوب ، بما أودع فيه من صور الإعجاز التي يشهد بها المتأمل به — قارئاً أو مستمعاً — في كل آية من آياته ، من غير أن يكون في زمن نبوة ، أو في حضرة نبي !!

وقد استمعت الجن إلى القرآن فأسكت آياته قلوبهم ، واستولت روائعه على عقولهم ، فوقفوا منه موقف العجب والدهش . ثم الإذعان لسلطانه ، والإيمان بدعوته ، التي يدعو إليها .

قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك قرآناً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا : فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا : إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه . يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم » (١)

وقال جل شأنه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجيباً ، يهدي إلى الرشيد ، فأماننا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » (٢)

إن الجن لتعجب من هذا القرآن ، وتجد فيه ما لا تجد فيما تسمع من حكم الحكياء ، وأشعار الشعراء ، وفلسفة الفلاسفة ، وقصص القصاص ، وسجع السكمان ، وترانيم الأحبار والرهبان .

فهذه شهادة تجيء بإعجاز القرآن من أمة الجن التي من شأنها أن تستعلى على

(١) سورة الأحقاف آية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الجن آية ١ — ٢

كل شيء في عالم الإنسان ، وتستصغر شأنه . . فإن الجن تملك من القوى ما لا يملك الناس ، وتأتي من الأعمال ما يعجز عنه البشر . ولهذا ينسب إليها كل عمل رائع ، ويوصف بها كل ذى حيلة وحول من الناس ، وقد سخر الله الجن لسليمان عليه السلام لتخرج له من الأعمال ما يعجز الناس عنه . . يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتمائيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات ، (١)

ولما للقرآن من هذا الشأن وتلك المنزلة ، وهذا الامتياز على الكلام ؛ فقد أضحى عليه سبحانه وتعالى من الصفات ما يشهر بأنه ذات لها حياتها ، وكالاتها ، ولها فاعليتها في الحياة ، وتمصرفها في الوجود .

« يس . . والقرآن الحكيم » . . « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٢)
فقد وصف القرآن بالحكمة . . وهي صفة «الذات» العاقلة المدبرة ، المتصرفة . كذلك وصف بالعزة في قوله تعالى : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٣)

والعزة صفة للعاقل الذي ترفعه صفاته إلى حيث لا يناهه هون ، ولا يلحقه ضعف ، ووصف كذلك بالمجادة في قوله تعالى : « ق . . والقرآن المجيد . . والمجادة مقام من مقامات القوة والمنعة ، من بلغها فقد جانبه الخزي والضعف .

وليس هذا بالكثير على كلام ، هو من كلام رب العالمين . . نزل به الروح الامين على رسوله الكريم . . « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٤) .

ومن أجل هذا كان للقرآن هذا السلطان الأسر على النفوس . . فما استمع إليه مستمع حتى وجد له من الرهبة والجلال ما لا يجحد شيئاً منه لأروع آيات البيان ، من صور الكلام

جاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ، موفداً إليه من قريش ، يدعو له إلى ما أرادت قريش أن تدعوه إليه ، من ترك هذا الدين الذي فرق به بين قومه . .

(١) سورة سبأ: آية ١٥ .
(٢) سورة الزخرف: آية ٤٣ .
(٣) سورة فصلت: ٤١-٤٢ .
(٤) سورة الحشر: آية ٢١ .



وأثار دواعى العداوة بين الصديق والصديق ، والتقريب والتقريب ، وعرض عليه ماعرض من صور الإغراء للتخلي عن دعوته . وكان فيما عرض له . أن تلتصق له قریش كل من حذق فى معالجه الصرع والجنون من الكهنة والعرافین ، إذا كان مابه مس من الجن ، أو عارض من الجنون . وأن يجهروا له مايشاء من المال إن كان ذلك غايته من هذه الدعوة التى يدعو إليها ، أو يجعلوه ملكا عليهم إن كان يعنى الملك والمظان .

فقال له الوليد فيما قال : يا بن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نتقطع أمراً دوفاك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبدلنا فيه أموالنا حتى نرتك منه . !

فلما فرغ عتبة ورسول الله يسمع قال : أقد فرغت أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع منى ؟ قال : أفعل ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ؛ قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (١) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد . ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك !

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخاف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! ! فلما جاس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأى أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ؛ ولا بالسحر ولا بالكهانة . . يامعشر قریش : أطيعونى واجعلوا بينى وبين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه

(١) سورة فصلت الآيات ١ - ٤ .

العرب فقدت كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فللكم ملككم وعزه عزكم ،
وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ١ ، فقال هذا رأي فيه
فاصنعه واما بدا لكم ، (١) .

والرسول الكريم يصف القرآن بصفات تكشف عن الخبير الكثير الخجوة
فيه ، وتبين عن الزاد الطيب المشتمل عليه . .

يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « لأنه ستكون فتن كقطع الليل .. قيل
فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى .. فيه نباء من قبلكم ،
وخبر ما بعدكم . . وحكم ما بينكم . وهو فصل ليس بالهزل . . من تركه تجبراً
قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين . ونوره
المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم . هو الذي لا تزيغ به الأهواء
ولا التلذذ مع الآراء . ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأنبياء ، من علم عليه
سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى
صراط مستقيم ، (٢) .

وقال صارات الله وسلامه عليه : « من أراد علم الأولين والآخرين فليشق
بالقرآن . »

من أجل هذا الذي ضم عليه القرآن من جلال ورواء ، مع ما فيه من العلم
والحكمة — فقد وقف القرآن شاخراً عالياً عن أن يطاوله قول ، أو يدانيه بيان . .
غرست الألسنة أن تسلك مسالكه ، وأن تبلغ مراميه . . وعرف أصحاب اللسن
والفصاحة مكانهم من الاستخزاء والعجز إذ بدأ لهم أن يحاكوه ، أو يجروا على
سننه ، فأمسكوا ما جرى على ألسنتهم من كلام أرادوا أن يجروه في ميدان القرآن ،
يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره المسمى « الجامع المحرر » : « ويظهر لك قصور
البشر مطاولة القرآن — أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده

(١) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٢١٣ .

(٢) صحيح مسلم

ثم لا يزال ينتقحها حولاً كاملاً ، ثم تعطى لأحد نظيره ، فيأخذها بقريحة خاصة ، فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد » (١)

سمع أعرابي قارئاً يقرأ : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله . . . » ثم جعل فاصلة الآية . « والله غفور رحيم ، فقال الأعرابي : ما هذا ؟ فقبل له قرآن ، فقال ما هذا بقرآن . فتنبه القارئ ، فصحح فاصلة الآية بقوله تعالى : « والله عزيز حكيم . . . » فقال الأعرابي : عز ، لحكم ، فقتل » ١١

فأجاز القرآن في ذاته حقيقة مقررة لم ينازع فيها أحد من أولياء الدعوة الإسلامية أو خصومها ، فقد وقف متجدياً كل ذى لسان منذ نزل إل اليوم أن يأتي بآية أو سورة من مثله ، فلم يكن في الناس من وقف في وجه هذا التجدي وان يكون أبد الدهر .

يقول الجاحظ : إن محمدآ ، صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها في العقل مرقع كواقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة ، مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحلماء ، وأصحاب الرأي والأكيدة والتجارب والنظر في العاقبة — إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقت في تكذبي . ١

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم ، واختلاف علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيمانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغالبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب : والكلاب ، والحنافس ، والجعلان ، والخبير ، والحمم ، وكل مادب ودرج ، ولاح لعين وخطر على قلب ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج

(١) مقدمتان في علوم القرآن . . . نشرها آرثر جفرى سنة ١٩٥٤ م ص ٢٧٩ .

والجائس ، والأسجاع ، والمنشور.. وبعد ، فقد هاجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا أخطاءهم وحاجوه في المواقف وخاصموه في المواسم وبادروه العداوة ، وناصروه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه ، وهم أثبت الناس حقداً ، وأبعدهم مطلباً ، وأذكرهم لخير أو لشر ، وأهجمهم بالعجز ، وأمدحهم بالقرّة— ثم لا يعارضه معارض . ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ! ؟

ومحال في التعارف ، ومستنكر في التصادق ، أن يكون الكلام أخصر عندهم ، وأيسر ماثونة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبه ، وأقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مخرجهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم ، في إطفاء أمره ، وفي توهين ماجاهبه - ولا يقولون بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم وتستسلمون أموالكم وتخرجون من دياركم؟ والحيلة في أمره يسيرة والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها . (١)

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« فالإسلام في هذه الدعوة ، والمطالبة بالله ووحدايته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والنسك الإنساني الذي يجري على نظام نظري ، وهو ما نسميه النظام الطبيعي .

« فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخذش لسانك بمقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بمسيحة إلهية (٢) .

ويقول أيضاً :

« ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ، والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ،

(١) رسائل الجاحظ ص ١٤٣ .

(٢) الإلهام والنصرانية ص ٥٤ .

وليس من اختراع البشر. هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال ، مقوما للعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم . . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتمى إليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على الداعي فلهيهم أن يأتوا به . . قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله . معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما بما يتناوله العقل بالفهم فهي معجزة عرضت على العقل . . وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أنثائها . . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما نشاء منها . أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقطع عنه العقل ، ويحمد لديه الفهم ، وإنما أتى بها الله على يد رسوله لإسكات أقوام غابهم الوهم ، ولم يضيء عقولهم نور العلم . . وهكذا يقيم الله بقدرة الآيات للأمم على حسب الاستعدادات ، (١) .

• • •

لا يعرف التاريخ البشرى كتاباً لقي من العناية والاهتمام ما لقي القرآن الكريم من عناية أتباعه ، واهتمامهم به ، والتفاتهم إليه .
نقول ذلك . . وبين أيدينا الحجة القاطعة في هذا العدد العديدين المؤلفات التي خلصت لخدمة القرآن . وقامت لاستكشاف أسراره ، واجتناء ثمرات هديه .
ومن أجل هذا كانت تلك الألوف المؤلفات من كتب التفسير التي ضمت عليها المكتبة العربية ، والتي ذهب أضعافها في ثمانية الفتن والأحداث التي مرت بالمسلمين ، وإذا كانت كتب التفسير هي الطريق المباشر الذي سلكه المفسرون لخدمة القرآن ، فإن هناك طرقاً أخرى سلكها السالكون لخدمة كتاب الله ، وهي لا تقل أثراً في خدمته عن هذا الطريق .

(١) المصدر السابق ص ٥٥ .

فهنالك العلوم الكثيرة التي عنى بها المسلمون دراسة وتأليفاً .. بعضها عربي صميم ، وبعضها أخذه العرب عن غيرهم من الأمم ، فعلوم القراءات ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، والرياضة ، والفلك .. وكثير غيرهما إنما اتجه إليها المسلمون أول ما اتجهوا لخدمة القرآن ، وتمهيد الطرق لفهمه ، وتمهية الأجواء للدلالة على إعجازه ..

فكانت علوم اللغة مثلاً لصيانة مادته .. وكان علم النحو لحفظ إعرابه ، والأدب لتذوق أساليبه ، كما كان المنطق والفلسفة للرد على خصومه .. وهكذا .

ومن عجب أن يكون هذا كله من عمل الأفراد ، ومن وحى ضمائرهم ، دون أن تقوم عليه دولة ، أو تجمعه جماعة .. ولهذا كان ذلك الاختلاف المتشعب في كل علم ، وفي كل فن من فنون البرية وعلومها .. إذ كان كل فن . وكل علم قد اشترك فيه أفراد الأمة — أعني علماءها — فرداً فرداً ، كل فرد له رأيه ، وله فهمه ، ما وسعه الرأي والفهم .

فالمسألة الواحدة يلغاها المفكرون جميعاً ، كل برأيه ، يتناولها حسب استعداده ، واجتهاده .

ومن هنا كان الاختلاف الذي لا يكاد يحصر ، والذي لا نجد له شبيهاً عند أمةٍ من الأمم ، أو في لغة من اللغات .

وحسبنا أن نشير إلى الفقه وما في أحكامه من آراء ، والنحو وما في مسأله من خلاف .

وقد كان لهذا الخلاف في الرأي آثاره المحمودة ، وآثاره السيئة معاً .. فمن آثاره المحمودة أنه يرى في أي مسألة ، وفي أي حكم آفاقاً من النظر وأنماطاً من الفهم ، يستطيع الواقف على هذه الآراء المتخالفة أن يرى الأمر من جميع جوانبه ، وأن يلتقاء من كل وجه من وجوهه .

فإنه في مجال هذا الآراء المتخالفة ، والمقولات المتباينة . يتحرى الشيء من لقائف النموذج ، ويتبدى لعين النظائر من غير حجاب .

(١٨ — النبي محمد)

وهذا المحمود ذاته هو المذموم أيضاً ، فكثيراً ما يشير هذا التناقض للفكرة بطلية في الفكر ، واضطراباً في الرأي ، تذهب بالمرء فيه المذاهب ، فتركبه الحيرة حين تتصادم أمامه الحجج ، فلا يدري ما يأخذ وما يدع ، وما يميل منها أو يميل .
وعلى أي فإن كثرة الآراء حول موضوع من الموضوعات إنما هو تمحيص لله آخر الأمر ، ولا يلبث أن يتهدى الناس — مع الزمن — إلى الرأي الراجح فيه ، والوجه السليم منه .

فلا ننزع إذن لكثرة الخلافات التي دارت حول المسائل الإسلامية - وهي في الغرور لاني الأصول — ولا ننظر إليها إلا على أنها أضواء كاشفة ، وشعاعات مصنيئة إن زاغت بها بعض الأبصار ، فإنه يهتدى بها معظم الأبصار .

• • •

ونعود إلى حديثنا عن القرآن . . فنقول :

لقد بلغت عناية المسلمين بالقرآن أن عدوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وكلماته كلمة كلمة ، وآياته آية آية . . بل وأكثر من هذا . . لأنهم ردوا حروفه إلى حروف المعجم كلها ، وحصروا حظ كل حرف منه .

عناية لانظن أنها وجدت لآي أمر انصل بحياة الناس ؛ أفراداً أو جماعات . . ولم تسكن هذه العناية بالقرآن إلا من وحى الإيمان به ، وبأنه من عند الله ، وأن كلماته من كلام الله .

فلم تكن نظرة المسلمين إلى القرآن نظرتهم إلى كتاب سماوي يحمل إلى الناس شريعة ، ويقوم لهم ديناً ، وإنما هو فوق ذلك كلام الله الأزلي الأبدي . . ففي كل كلمة أسرار ، وفي كل حرف سر وبركة .

وقد سمح القرآن بأن يفندى هذا الشعور عند المسلمين ، وأن يميل أيديهم من أسرارهِ وعجائبهِ ، وأن يصدقهم القول بأنه من عند الله ، وأنه كما يقول الله تعالى

« لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) .

وهذا التحدى للجن والإنس على مدى الأزمان هو الذى يقطع كل اجل بأن القرآن هو كلام الله ، وأنه معجزة الرسول الخالدة ، وأن هذه المعجزة قائمة ، وأن هذا التحدى قائم لا تنقضه الأيام ، مهما ولدت الحياة من ذكاء وعبقرية ، ومهما جاء فى الأجيال من أذكىاء وعباقره .

* * *

والظاهرة الواضحة فى التحدى بالقرآن أنها لو ن فريد فى التحدى . . فاعرف الناس قولا لقائل مهما بلغت بلاغته ، وعلت فصاحته ، أن يتحدى الناس جميعاً أن يقولوا مثل قوله . .

إن موازين الكلام لا تخضع لقاعدة محددة ، ولا تنزل عند شرط معين . . وإنما هى موازين تخضع — فى قدر كبير منها — إلى المزاج ، وإلى العاطفة والوجدان . . إلى جانب العقل ومنازع التفكير .

إن فن القول واحد من الفنون الجميلة كالموسيقى ، والنحت ، والرسم . . تتفاوت أقطار الناس فيها ، وتختلف معاييرهم لها . .

ومن هنا لم يحفظ التاريخ الإنسانى حكماً قاطعاً على عمل فنان أو جانب من عمله؛ أنه نهاية القمة ، التى لا يلقى لها مرتق ، أو لا يحاوزه أحد .

وغاية ما يمكن أن يقال إزاء عبقرىات الفنون وروائعها أنها أعمال خالدة ، أو أنها فريدة من فرائد الفنون .

خذ مثلاً لذلك الشعر الجاهلى . .

لم يستطع النقاد على كثرة محاولتهم وطول نظرهم فيه ، أن يضعوا شعر شاعر فى المنزلة المنفردة وحدها بالمسكان الأول . . وغاية ما بلغوه فى هذا أن عدوا جماعة من كبار الشعراء ، ورفقوهم إلى المسكان الأول جميعاً ، وأفسحوا لكل واحد طريقاً يدخل منه إلى هذا المسكان . . أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ،

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

والناطقة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب (١) . . إلى آخر هذه الأحكام التي كانوا يحكمون بها على عمل شاعر من أولئك الشعراء الكبار .
وأكثر من هذا ، فإنهم في ديوان الشعر العربي عامة لم يتفقوا على البيت الأول أو القصيدة الأولى في هذا الشعر .

وهذا الذي نقوله في الشعر العربي نقوله أيضاً في الشعر الأوربي . . فهذا « شكسبير » قد غاش زمناً في منزلة الرجل الإلهي ، ثم لم يلبث الزمن أن أضاف أدبه إلى المتحرف الذي يضم كنوز التراث الإنساني .
إن شعر « شكسبير » وإن كان آية الآيات في روعة البداهة ، وعمق الفكرة ، وورصانة الأسلوب . . فإنه قد مضى زمنه . . وأصبح من مخلفات القرون ، وآثار الأولين . . لا يلائم روح العصر ، ولا يجري مع أسلوب التعبير الذي يتفق مع أذواق الناس . . إنه أشبه بالخلي التي كان يلبسها ملوك العصور الوسطى . . رائعة ، معجبة بألوانها ، وأصباغها . . إلا أنها لا تلبس في هذا العصر إلا في حفلات التنكر ، وعلى مسارح التمثيل في الروايات التاريخية .

* * *

وإذا كان القرآن بهذه المنزلة في قلوب المسلمين ، وإذا كان ذلك هو إيمانهم به ، وتقديرهم له ، واجتماعهم عليه ، فإن أعداء الإسلام وقفوا من القرآن موقف المستخف به ، العائب له ، المشكك في منبئه الذي فاض منه ، وفي الوحي الذي نزل به ، وفي الرسول الذي دعا الناس إليه !
وسنرى كيف كان كيد أعداء الإسلام لكتاب الإسلام ، ولنبي الإسلام .
وكيف كانت رمياتهم الطائشة تكاد تصيب المقاتل من رمايتها .

ويلوح هنا سؤال : إذا كان القرآن على تلك الصفة الذي يجعل له ذلك السلطان القاهر على النفوس ؟ وإذا كان يحمل في كيانه دلائل إعجازه . فما الحاجة إلى النبي ؟ وإذا كان هناك ما يدعو إلى نبي يقدمه للناس ، فإن مهمة النبي

(١) أي أن كل شاعر من هؤلاء كان مبرزاً في فن من فنون الشعر ، فأمرئ القيس في الصيد ووصف الخيل ، والناطقة في الاعتذار ، والأعشى في وصف الخمر ، وزهير في المدح .



للا تعذرو أن يعرض القرآن عرضاً ، ثم يدعه يحدث عن نفسه ، ويشهد لإعجازه .
وإذن تكون مهمة الرسول هينة محددة ، ويكون دوره في الرسالة الإسلامية
دوراً ثانوياً ، يستطيع كل إنسان أن يؤديه من غير أن يكون مزوداً بقوى خاصة
في كيانه الروحي ، والنفسي ، والعقلي ، والجسدي . . فما تأويل هذا ؟

ونقول :

أولاً : لابد من رسول يبلغ دعوة الله ، وينقل كلماته إلى الناس . . وهذا
ما ينبغي أن يسلم به باديء ذي بدء ، فإن كلمات الله إنما تحمل إلى الناس بوساطة
رسل يتخيرهم الله لهذه المهمة العظيمة . . فكان محمد ه هو الرسول المتخير لتلقي
القرآن وتبليغه .

وثانياً : كون القرآن يجعل في كيانه دلائل صدقه وإعجازه لا يخفف العبء
الملقى على كاهل النبي ، ولا ييسر مهمته في تبليغ دعوته ، بل إن ذلك الموقف ذاته
يدعو إلى أن يكون النبي الذي يحمل هذه الرسالة مزوداً بصناعات . . أقوى وأعظم
من تلك الصفات التي زود بها إخوانه من الأنبياء . . فيكون هو في ذاته معجزة
يتأدى منها إلى الناس شواهد تشهد له ، وتذنب عن صلته بالسماء ، بما يحمل في
كيانه من أمارات السمور ، والعظمة ، والنبيل ، التي لا ترى على صورتها الكاملة في
أحد غيره .

إن دلائل الإعجاز في القرآن مع أنها تنتظم القرآن كله ، وتجرى في كل آية
من آياته . . لا تكفي وحدها في حسن استقبال الناس لها ، وفي صدق نظرهم
إليها ، ووزنها بميزان الحق والإنصاف . . فإن الضلال والعتاد الذي يستولى على
كثير من النفوس يهمل على الناس سبيل الهداية ، وينيف عليهم حقائق الأشياء ،
فإذا الخير في أعينهم هو الشر الصراح ، وإذا النعمة المسافة إليهم نقمة وبلاء .
وشواهد التاريخ أكثر من أن يرصدها عد .

فلقد جاء موسى إلى فرعون بالمعجزات المحسوسة القاهرة : فألقى عصاه فإذا
هي ثعبان مبين ، ونزع يده . فإذا هي بيضاء للناظرين ، (١) . فكان ذلك في نظر

(١) سورة الأعراف : آية ٢٠٨ .

فرعون سحر ساحر، وشعوذة مشعوذ .. وقال فرعون : « إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم . فإذا تأمرون ؟ قالوا أرجه وأخاه ، وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم » (١) .

واجتمع السحرة ليطلوا سحر « موسى » . واجتمع الناس ليشهدوا هذا الأمر .. وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلمنا تتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، (٢) .

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم لذن لمن المقربين » (٣) .

« قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون .. فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون .. إما لنحن الغالبون .. فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون » (٤) .

« فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، واتقبلوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون » (٥) .
إن أهل الدراية والخبرة هم الذين عرفوا فرق ما بين الحق ، والسحر .. وتكشفت لهم المعجزة فأمنوا .. أما فرعون فقد ظل سادراً في ضلاله حتى بعد أن خذله من اعترابهم واستنصر .. فقال « أمتم له قبل أن آذن لكم ؟ لأنه لسكير كرم الذي عليكم السحر .. فسوف تعلمون ، (٥) .

ثم ، كم من آية جاء بها موسى إلى بني إسرائيل فما تكاد تغرب شمس يومها يزحف ظلام الكفر والضلال على قلوبهم .. ويتأج الأمر إلى معجزة جديدة ، ثم لا تلبث أن تغرق في طوفان الظلام . وهكذا تتتابع الآيات ، وتترى المعجزات واحدة إثر أخرى ، والظلام يزداد تكاثفاً ، والقلوب تزداد صلادة وقسوة !

(١) سورة الشعراء: آية ٣٤، ٣٥ .

(٢) سورة الشعراء: آية ٣٩-٤٠ .

(٣) سورة الشعراء آية ٤٢، ٤٠ .

(٤) -ورة الأعراف: آية ١١٨-١٢٢ .

(٥) سورة الشعراء: آية ٤٩ .

وعيسى عليه السلام يرى الناس معجزات قاهرة باهرة : يحيى الموتى ، ويرى العليل التي لا يعرف الطب لها دواء ، وينزل مائدة من السماء . . فما تفعل كل هذه المعجزات في قلوب القوم شيئاً ، ولا تزيدهم إلا إصراراً على ما هم فيه من كفر وضلال !

فإذا كان هذا هو شأن الناس مع المعجزات المحسوسة التي تقع بين أيديهم ، وتحت أسماعهم وأبصارهم ، فإن ذلك يكون أشد وأقوى ، في وجه المعجزات التي يسدل عليها من وحى الكلمات وهدلول الألفاظ ، في القرآن الكريم ؟

إن الإعجاز القرآني يخاطب العقل ، ويناجي الوجدان ، على حين أن الإعجاز في معجزات الرسل إنما يجابه الحواس ، ويصادم ناموس الطبيعة القائم في الناس ، فيحدث في الحياة زلزلة عنيفة ، تذب الغافلين ، وتوقظ النيام .

لهذا كان الإعجاز القرآني في حاجة ملزمة إلى قوة تظاهرة ، وتفتح له القلوب ، وتوجه إليه العقول ، وتقيم له في الحياة مكاناً راسخاً ، وتجعل له في الناس قدماً ثابتة .

وهذه القوة التي يحتاج الإعجاز القرآني إلى مظاهرتها ينبغي أن تكون هي ذاتها معجزة ، تتكشف في كيانها آيات القرآن ، وتجل في أفعالها وتصرفاتها أضوائه وأنواره . . وذلك ما كان عليه الرسول الكريم ، الذي حمل إلى الناس معجزته الخالدة .. « القرآن » ، فكان هو صلوات الله وسلامه عليه عنوان هذا الكتاب الكريم . قرأ فيه الناس — قبل أن يقرأوا آيات الكتاب — آيات محكمة معجزة .. من الخلق العالی ، ومن الأدب الرفيع .. فكان كما يقول عن نفسه : « أدبني رب فأحسن تأديبي ، . . وكما وصفه القرآن بهذا الشاء العظيم من رب العالمين : « ولأنك لعلى خلق عظيم » (١) . . وكما تقول السيدة عائشة في كتبها الجامعة لصفاته : « كان خلقه القرآن » .

فليس في إعجاز القرآن على تلك الصفة التي اشتمل عليها في كيانه ما يخفف

(١) - ورة القلم آية ٤ .



من مهمة الرسول الكريم في أداء رسالته ، وفي تجلية حقيقتها للناس . . بل إن الرسالة التي تجيء على تلك الصورة، فتحمل الإعجاز بين طياتها. وفي ثنايا حروفها و كلماتها في حاجة أشد الحاجة إلى مبلغ يتخير لها من الصفوة الكرام في الرسل .
ليستطيع — كما قلنا — أن يفتح لها القلوب ويوجه إليها العقول ، ويهيء لها مكاناً آمناً مستقراً في الحياة ، لتظل كهذا أبد الدهر مصدر إشعاع للمؤمنين ،
ومنار هدى للسالكين . .

ولو لم يكن من وراء القرآن تلك الشخصية العظيمة التي وقفت تلتقي به على الأسماع آية آية ، وسورة سورة ، خلال ثلاث وعشرين سنة — لظل القرآن —
إن يكن قدر له وجود على غير تلك الصورة — لظل كنزاً مخبوءاً ، لا يعرف
للناس ما يضم من خير ، وما يحوى من رحمة وهدى !

إن الذي يقرأ القرآن غير متمثل تلك الذات الكريمة التي حملته إلى الناس ،
وأذنت به فيهم ، ليفقد كثيراً من ذلك الجلال والجمال الذي كان جديراً أن يجده
لو أنه قرأه متمثلاً صاحب الرسالة . . يتلقاه من السماء ، ويحرك به لسانه قرآناً
عريباً لقوم يؤمنون !

إن أنفاس الرسول الكريم لتسرى في آيات الكتاب آية آية . . وإن شميم
سيرته الطيب ليفوح في ثنايا كلمات الكتاب الكريم وحروفه .

ومن هنا ندرك العبء الثقيل الذي حمله الرسول الكريم في تبليغ الرسالة،
وحملها إلى مواطن الإقناع والإيمان من الناس . . فإنهم يطالبون النبي بمعجزات
محسوسة تصدق دعواه ، وهو لا يملك معجزة غير هذا الكلام الذي يوحى إليه:
« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى
لقوم يؤمنون » (١) .

ومن هنا أيضاً ندرك ثقل هذه المهمة ، التي يقوم بها الرسول وليس بين يديه
معجزة محسوسة . . يغشى بها الأبصار ، ويخرق بها الأسماع ، ويذهل بها العقول .

(١) سورة النسكوت : آية ٥١ .

إن كل ما بين يديه هو هذا الكلام الذى يوحى لإيه . وهو معجزات تملأ الوجود ، لو وجدت عقولا سليمة وقلوباً واعية . . . وهيات أن تجد تلك العقول ، وهذه القلوب فى ظلام الجاهلية ، وفى عمىة قريش وكبريائها .

ومن أجل هذا دعا الله نبيه أن يحمل عبء هذه الجهاد ، وأن يصبر له . . . فإن العبء الذى ألقى عليه عبء لا يستقل بحمله غير أولى العزم من الرسل . . . « فاضرب كما صبر أولو العزم من الرسل (١) » . . . « وإنا سنلقى عليك قسولا ثقيلا ، (٢) . . . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ، (٣) »

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . . . وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الله لى . . . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

يقول القاضى عياض : « معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ، ما بقيت الدنيا . . . وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزات القرآن يقف عليها — الناس — قرناً بعد قرن عياناً ، لا خبراً ، لى يوم القيامة ، (٤) » .

ومعنى هذا أيضاً أن معجزات الرسل معجزات تحمل فى كيانها قوة قاهرة ، يخضع لها الناس لمجرد ظهورها فيهم . . . فإن أية ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة يجتمع لها الناس ، ويقولون فيها ما يقولون ، ثم يجتمعون عليها ويستجيبون لها . . . فما أكثر ما تجرف العجائب والزرائب — حتى الزائف منها — أفئدة كثير من الناس ، وتستهوئ، قلوبهم . . .

ونحن نشهد فى الحياة ما بفعل مهرة المشعوذين بألباب الناس ، بما يبدون لهم من ضروب الخوارق الزائفة التى تعتمد على الخداع والتضليل . فكيف بالمعجزات السماوية التى تطلع على الناس على غير مألوف الحياة كما لو تطلع الشمس فى منتصف الليل ، ووسط ظلامه الحالك ؟ .

(١) سورة الأحقاف: آية ٣٥ . (٢) سورة المزمل: آية ٥ .
(٣) سورة الأحقاف: آية ٥٢ . (٤) الشفا فى التعريف بحق المصطفى ص ١٣٥ .

فتلك هي معجزات الرسل ، يؤمن الناس على مثلها ، ولو لم تقع على يد رسوله
يتحدى الناس بها . . .

أما معجزة « محمد » فهي وحى أوحى الله إليه . . . تدرك المعجزة فيه عن
طريق العقل . . . والعقل يصحب الناس جميعاً ، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .
إن معجزات الأنبياء أمام مشاهديها وحدهم ، وليس لتغيرهم حظ منها ،
أو نصيب فيها . . .

أما معجزة « محمد » فهي تجاه العقل الإنساني كله . . . لسلك إنسان نصيبه فيها ،
وحظه منها . . .

« إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا « محمداً » كانت في الواقع معجزات وقتية ،
وبالتالي معرضة للضياع السريع . بينما تستطيع أن تسمى معجزة الآيات القرآنية
المعجزة الخالدة . . . وذلك أن تأثيرها دائم ، ومنعوتها مستمر ، ومن اليسير
على المؤمن — بل وغير المؤمن — أن يرى في كل زمان ومكان — أن يرى
هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله .

وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام .
ذلك الانتشار — الذي لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يحملون القرآن ،
أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ، فضلاً عن أنها
غير دقيقة (١) .

ويقول ابن خلدون: « فاعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها
دلالة — القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الخوارق
في الغالب تقع مغايرة الوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ،
والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز . . . فشاهده في عينه ،
ولا يفتقر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوحي . . . فهو أوضح دلالة ،
لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من

(١) محمد رسول الله . . . ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلی، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة . . .
يشير إلی أن المعجز متى كان بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي — كان المصدق لها أكثر، لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن، وهو التابع والأمة (١).

ويمكن أن نحصر مقولات أولئك المدعين على القرآن تلك الادعاءات الباطلة في أمور . . . منها:

أولاً - أسلوب القرآن:

فقد وقف الغربيون من أسلوب القرآن مواقف متناقضة، فبينما يرفع بعضهم إلی منزلة الإعجاز التي أودعها الله فيه، إذا يزحزحه بعضهم عن تلك المنزلة، ويرميه بالغموض، وبالتكرار، وبما شاء خياله المريض أن يصوره من صور الزرارية والتجريح!

بل إن الكاتب الواحد ليقع في هذا التناقض في مقرراته التي ينتهي إلیها في أية نظرة ينظرها إلی القرآن . . . فإذا قال قولاً لم يثبت عليه، وجاء في أعقابها بتدليلات وتعليقات، تقف منه موقف الخلاف والمناظرة.

وأغلب ما يقع من ذلك التناقض عند أصحاب الآراء المحررة من الهوى والتعصب إنما هو نتيجة عدم الفهم لطبيعة الوحي، وللأسلوب الذي نزل به القرآن .

وقد قلنا من قبل إن علماء الغرب عامة يعتقدون أن القرآن من «نوح ومحمد» وأنه إذا كانت بينه وبين السماء صلة فهي صلة غامضة يتلقى منها إشارات مبهمه يحولها إلی أفكار، ثم يترجمها في ألفاظ وعبارات هي «القرآن» .

(١) مقدمة ابن خلدن ص ٩١ .

وإلى هذا الجهل بطبيعة الوحي، وبصلة محمد بالسماء جهل آخر بمعرفة اللغة العربية، ويتذوق أساليب الجمال فيها. والاهتداء إلى مواطن الحسن منها. . .
قلو أن هؤلاء الباحثين في القرآن من أولئك العلماء حضا من الحس الفني وأساليب البيان لوقاهم ذلك شر هذه المزالق التي كشرت فيها عناتهم وسقطاتهم في القرآن، فقتلوا تلك المقولات الهزيلة الباطلة.

محمد والقرآن عند غير المسلمين :

أشرنا من قبل إلى أن الذين عرضوا للبحث في العقيدة الإسلامية من غير المسلمين كانوا من أمرهم على غير بينة . . . سواء منهم من جاء إلى تلك الدراسة بقلب مريض، يحمل للإسلام الحقد والعداوة، أو من جاء إليها باسم العلم، وتحت راية البحث عن الحقيقة.

ذلك أن هؤلاء جميعاً ينسبون القرآن إلى «محمد»، ويجعلونه من صنعه، وتدبيره . . . وأهداهم طريقاً في هذا الشأن — وهم ففر قليل — من يرى أن محمداً كان يتلقى أمر السماء في صورة إشارات ورموز أشبه بالخواطر التي يجدها الإنسان عند شأن مع الكشوف التي يهتم لها ويعنيه أمرها . . . ثم يتولى «محمد» صياغة هذه الإشارات أو الخواطر، في قوالب لفظية هي ما عرف باسم القرآن.

ونقول : إننا قد أشرنا إلى هذا من قبل، وكشفنا عن الدوافع التي تولدت عنها هذه الأباطيل — سواء أكانت متعمدة أم غير متعمدة — ونريد أن نقف هنا ووقفه خاصة مع أولئك الباحثين الذين نرى أنهم طلبوا وجه الحق في هذا الأمر، فأخطأهم التوفيق للوصول إليه. أما تلك المفتريات المتعمدة فإنها تحمل في كيانها معاول هدمها، التي ينكر آخرها أولها، وينقض لاحقها سابقها . . .

واستمع في هذا إلى قول عالم نحسبه من أصحاب الآراء الحرة، ونراه من طلاب الحقيقة فيما يعرض له من دراسة وبحث في الشريعة الإسلامية . . .
هذا العالم هو «جرونيباوم»، مؤلف كتاب «حضارة الإسلام» . . .

وهو على ما به من هذه الصفات التي نراها فيه، وعلى ما بذل من جهد في التحقيق والتمحيص — لم يستطع أن يحفظ توازنه وهو يعبر الطريق إلى الحقيقة التي كان يندش الوصول إليها — حسب رأينا — في شأن القرآن .

استمع إليه في حديثه عن أسلوب القرآن . يقول :

« لقي أسلوب القرآن من الغربيين نقداً إجماعياً شديداً ، وشاركهم في ذلك بعض المسلمين ، »

هذه حقيقة يقررها « جرونيباوم » في شأن حملات النقد التي لقيها القرآن من الغربيين عامة ، ولا شيء في هذا ، فذلك أمر معروف سلفاً . . أما مشاركة بعض المسلمين في هذه الحملات فلا يمكن أن تكون .. ولا ندفع هذا بمسند تاريخي ، وإنما مستندنا في دفعه هو أن المسلم الذي يستحق هذه الصفة لا يمكن أن يكون مسلماً وفي قلبه شيء من الارتياب أو الشك في أن القرآن كله كلام الله . . وهيهات أن يعقل أن إنساناً يؤمن بالله ثم يطعن في كلامه !

ثم يقول « جرونيباوم » :

« وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره .

« على أن غلو الغرب عامة في هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية ، وإسناد التكرار وغيره إليه ، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن في شيء . .

إذن ما هو الإنصاف وما هو التقدير الحسن عند « جرونيباوم » ، إذا كان يأخذ على قومه عدم إنصافهم للقرآن وسوء تقديرهم له ؟ .

لنستمع إلى رأيه في هذا .. يقول :

« فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمداً ، .

ياخيبة الأمل . أهذا هو الإنصاف ، أهذا هو التقدير الحسن ؟ .

واستمع إلى ما هو أدهى وأمر . . . يقول :
 « بل الواقع أن كتاباً بأكله لم يوح إليه قط .
 « بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة ، ووصايا ، وأمثال ، وقصص ذات
 هزري ، أو أحاديث في أصول العقيدة » (١)

ما مصدر هذه الرؤى ؟ وما طبيعتها ؟ أمى منزلة من السماء أم هى أبنخة
 تفيض من خواطر «محمد» وتندرب من مسارب تنمكيه ؟ أمى رسالة سماوية
 يحملها ملك كريم ، إلى نبي كريم أم هى همسات جن ووسوسة شيطان يلقى بها
 فى قلب كاهن ، أو سمع ساحر ؟

لا تعدو المسألة أحد هذين الأمرين : نبي ، أم مشعوذ . . .
 فإن كان نبياً فالصلة التى تكون بينه وبين السماء لا تكون صلة رؤى وأحلام ،
 وإنما هى صلة واعية مدركة ، تلمس الحقائق ، وتملاها يديها .

وإن كان مشعوذاً ، فهذا شأن آخر !

ثم يقول :

« ولعله — أى النبي — كان ينوى أن يجمع شذيت أجزاء المتعددة — أى
 أجزاء الرؤى التى صورها محمد قرآناً — وأن يجمدها — إن صح هذا القول —
 حتى تتخذ صورة القوانين الدينية ، وإن لم يكن فى الإمكان إثبات ذلك » .
 ولعل هذا القول هو أشنع قول وأنكره فى شأن القرآن .

أترك «محمد» حقاً هذه الدنيا ، وأخلى مكانه منها قبل أن يتم رسالته التى
 فدته السماء لها ؟ أم هذا عمل يلىق برسالة دنيوية بعث بها مبعوث من دولة أو سلطان ؟
 أىكون من حسن الرأى والسياسة أن يكون هذا المبعوث قائماً بين يدي من
 بعث إليه يؤدى ما أرسل به ثم يعزل قبل أن يتم رسالته ؟ وإذا جاءت ظروف
 قاهرة اقتضت عزله ، ألا يكون هناك من يقف موقفه ويكمل ما بدأ به ؟ ذلك
 أقل ما ينبغى أن يحدث لسد هذا الخلل ، الذى لا يمكن أن يقع إلا تحت ظرف
 قاهر لا يستطيع الناس دفعه . ١

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٨ .

فهل يتصور أن تعجز السماء عن أن تضمن لرسولها المبلغ عنها أن يقوم على أداء الرسالة إلى غايتها؟ أين تدرة الله إذن؟ وأين الحكمة المرادة من رسالته؟ لا، لا، إن ذلك القول لا يستقيم مع منطق، ولا يجرى مع تفكير سليم أبداً.

أما وثائق التاريخ الوثيقة المحررة، فإنها تشهد بأن رسول الله قد بلغ الرسالة على وجهها الأكل، وأنه ظل قائماً عليها يتلوها آية آية حتى فرغ منها في ثلاث وعشرين سنة.

لقد كان من تدبير السماء أن تمد للرسول أسباب البقاء في مقام التبليغ، وأن تلقى إليه بين وقت ووقت بحافب منها. فكان كل يوم — خلال الثلاث والعشرين سنة — يتوقع رسالة جديدة من السماء يضيئها إلى رسالته. حتى إذا بلغ الكتاب أجله، وتمت كلمة الله آذنت السماء النبي بذلك، وأعلنته بانتهاء مهمته. فجاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام يوحى إليه قول الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً». فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن، وفهم كثير من المسلمين عند نزولها أنها تنهى لإيهم رسول الله.

هذا ما نزل به القرآن صريحاً في هذا الشأن. وهو وثيقة لا تقبل شكاً، ولا جدلاً باتفاق المسلمين، وغير المسلمين.

أما ما وردت به الأخبار الصحيحة، فهو أكثر من أن يحصى أو يحصر، وجميعها تجتمع على أن القرآن قد تم على هذه السورة التي بين دفتي المصحف قبل أن يترك الرسول هذه الدنيا، وأنه كان محفوظاً حنظلاً موثقاً في كثير من الصدور، كما كان مجموعاً جمعاً كاملاً عند كثير من الصحابة.

وثابت من الأخبار الصحيحة أن جبريل كان يراجع النبي ويدارسه القرآن مرة في شهر رمضان، وفي السنة التي توفي فيها الرسول قرأه عليه مرتين لا مرة واحدة. فكان ذلك إشارة وداع بين جبريل، وبين النبي.

أما ما صنعة « أبو بكر » في شأن القرآن ، فلا يبدو أن يكون نقلا له من الصدور التي حفظته بعد أن استشهد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة ، وفي حرب « اليمامة » ، بالذات ، مع مسيلة الكذاب !

إن الذي فعله أبو بكر هنا هو أن يكتب القرآن في صحف حتى يظل بآمن من خطر النسيان عند من حفظوه ووعوه في صدورهم ، أو من خوف افتقاد حفاظه بالموت في مواطن الجهاد .

فيكون من الحزم أن يقع هذا العمل ، وأن يكون بين يدي خليفة رسول الله وثيقة كاملة من كتاب الله .

أما ما كان مكتوباً من قرآن بصورة كاملة ، أو غير كاملة عند الصحابة ، فلم يكن على الصورة المطلوبة لحفظه وصيافته . . . إذا كان الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن إنما فعلوا ذلك لغاية أخرى غير التي قصد إليها أبو بكر ، وهي أن يستأنسوا لما حفظوا بما كانوا يكتبون ، وليكون ذلك المكتوب مرجعاً خاصاً لهم عند النسيان أو الشك في آية أو كلمة ، أو حرف ! .

وفضلاً عن ذلك . فإن هذا المكتوب كله كان في رقاع مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع . . . فكانت صحف القرآن عند جامعيه أنماطاً غريبة من كل ما كان يكتب فيه ذلك الحين . . . فبعض الصحف من العظام . وبعضها من سعف النخيل ، وبعضها من قطع الجلد ، وبعضها من الفخار أو الخزف . . . إلى عديد مما كان يصلح للكتاب ويهيئونه للكتابة من أية مادة تصلح للخط عليها . . .

وفضلاً عن ذلك أيضاً ، فإن المداد الذي كان يكتب به كان في اختلاف صورته وألوانه على صورة أشد مما كان عليه اختلاف الصحف والرقاع .

إن الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن لم يكن بين أيديهم شيء من وسائل الكتابة في صورة مهياة لأداء هذه المهمة ، يجدها السكاتب حاضرة بين يديه في كل حال ، وإنما كانت تنزل آيات السكاتب على رسول الله ، فيتلوها على أصحابه فيحفظونها . ثم يبادون إلى كتابتها بما يقع لايديهم من رقاع أو مداد .

فهي على صورتها تلك لا تصلح أن تكون مستنداً قريب المأخذ سهل التناول، واضح المعالم يمكن الرجوع إليه بعد فترة من الزمن .

أما الصور التي كتب القرآن في عهد أبي بكر فقد كانت أقرب إلى السكال من أية صورة كتب بها إلى ذلك الحين .

فلقد اجتمعت الدواة لهذا العمل ، وحسبت له ما عندها من إمكانيات مادية وإنسانية . ليحيى على الصورة التي تحقق الصور المنشودة ، وهي تسجيل القرآن في سجل من صحف خفيفة الخمل ، مصقولة ، منسقة أشبه بمانرى في تلك الخطوط التي سجلت في القرن الأول أو الثاني .

أما ما صنعه « عثمان » رضى الله عنه فقد كان غايته جمع المسلمين على قراءة واحدة بعد أن كثرت اختلافات القراء مما عده المسلمون أمراً خطيراً ، قد تصمق جذوره وتمتد ، فتصل إلى القرآن في أصوله ذاتها .

فأراد « عثمان » أن يضع حداً لهذا الخلاف ، وأن يجمع المسلمين على قراءة واحدة هي قراءة زيد بن ثابت .

وليس الخلاف الذي اهتم له « عثمان » وفزع منه خلافاً في ترتيب الآيات في السور ، ولا في زيادة آيات ونقصها . فقد كان القرآن مرتب الآيات والسور على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقع خلاف في وضع آية مكان آية ، ولا زيادة أو نقص في آيات آية سورة ، وإنما كان الخلاف في النطق ببعض الكلمات من إمالة أو إثمَام أو إدغام ، أو في صورة الكلمة التي لا يخرج الاختلاف فيها عن معناها ، وذلك على ما نراه في القراءات المعروفة التي يقرأ بها القراء اليوم .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : مرتت بهشام بن حكيم بن حزام وهو يقرأ الفرقان - أى سورة الفرقان - في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعت قراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئها رسول (١٩٣ - النبي محمد)

الله صلى الله عليه وسلم ، فكادت أساوره (١) في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، فلما سلم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي أسمعك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أقرأني هذه السورة التي تقرؤها . . قال : فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله . . إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ! قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . . اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التي سمعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . . ثم قال : اقرأ يا عمر . . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هكذا أنزلت . . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأ منه ما تيسر (٢) .

وعن أبي بن كعب قال : اختلفت أنا ورجل من أصحابي في آية ، فترافعنا فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يا أبي ، فقرأت ، ثم قال للآخر ، اقرأ ، فقرأ فقال : كلا كما محسن بجمل ، فقلت : ما كلانا محسن بجمل (٣) ؟ قال : فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدري ، وقال : أي أبي إن القرآن أنزل على . . فقلت لي أعلى حرف أم حرفين ؟ فقلت : بل على حرفين . . ثم قيل لي : أعلى حرفين أم أربعة أحرف ؟ فقلت : بل على أربعة ، فلم يزل بي حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، كلها كاف شاف ، مالم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . . وإذا كانت « عزيز حكيم » فقلت « سميع عليم » ، فإن الله « سميع عليم » (١) .

(١) ساوره : أخذ برأسه ، أو وثب عليه .

(٢) مقدمتان في : علوم القرآن ص ٢٠٧ ، والرسالة للأمام الشافعي ص ٢٧٣ .

(٣) « ما » هنا استفهامية وليست نافية .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٠٨ .

والاختلاف في القراءات يقع على وجوه منها :

أولاً : الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركات بنائها ، لا يزيلها عن صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها نحو قوله تعالى : «من أظهر لكم» (١) .
«من أظهر لكم» .. وقوله : «وهل يجازي إلا الكفور» (٢) ، و «هل يجازي إلا الكفور» .. وقوله : «ياأمرون الناس بالبخل» (٣) و «بالبخل» .

ثانياً : الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها ، بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها ، نحو قوله تعالى : «ربنا باعد بين سفارنا» (٤) و «ربنا باعد بين أسفارنا» ، وقوله : «واذكر بعد أمة» (٥) ، و «بعد أمة» .

ثالثاً : أن يكون الاختلاف في حرف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، ونحو قوله تعالى : «وانظر إلى العظام كيف ننشرها» (٦) .
ونشرها» .

رابعاً : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها ، كقوله تعالى : «إن كانت إلا صيحة واحدة» (٧) و «صيحة واحدة» و «كالن المنفوش» (٨) و «كالصوف» .

خامساً : أن يقع الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : «وجاءت مسكرة الموت بالحق» (٩) و «جاءت مسكرة الحق بالموت» .

سادساً : أن يكون الاختلاف بما يزيل صورة الكلمة ومعناها ، كقوله تعالى : «وظلح منضود» و «وظلح» (١٠) .

سابعاً : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ... كقوله تعالى :

- | | |
|--------------------------|------------------------|
| (٢) سورة النساء : ٢٧ . | (١) سورة هود : ٢٨ . |
| (٤) سورة سبأ : ١٩ . | (٣) سورة البقرة : ٣٧ . |
| (٦) سورة البقرة : ٢٥٩ . | (٥) سورة يوسف : ٤٥ . |
| (٨) سورة القارعة : ٥ . | (٧) سورة يس : ٢٩ . |
| (١٠) سورة الواقعة : ٢٩ . | (٩) سورة ق : ١٩ . |

« وما عملت أيديهم » وما عملته، (١) .. وقوله : « فان الله هو الغنى الحميد » (٢) .
و « فان الله الغنى الحميد » .

ففي هذا المجال كان يقع الخلاف بين القراء والدارسين لكلام الله .. فيشير هذا الخلاف بينهم جدلاً ، ويبعث فيهم شيئاً من القلق والشك .. فعلم عثمان رضى الله عنه بمشورة أصحابه رضوان الله عليهم ، وأمر بجمع الناس على قراءة واحدة من تلك القراءات .

عن مصعب بن سعد قال : لما كثرت اختلاف الناس فى القرآن قالوا : قراءة بن مسعود ، وقراءة أنى ، وقراءة سالم مولى أبى حذيفة (٣) ا لجمع — عثمان — أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال : لاني رأيت أن أكتب مصاحف على حرف — أى قراءة — زيد بن ثابت ، ثم أبعث بها إلى الأمصار .. قالوا : نعم ما رأيت .. قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص .. قال : فأى الناس أكتب . قالوا زيد بن ثابت .. كاتب الوحى فليمال سعيد . وليكتب زيد بن ثابت .. قال : ثم كتب مصاحف ، فبعث بها إلى الأمصار .. قال : فرأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : أحسن والله عثمان .

وكان عثمان بعد أن كتب القرآن على قراءة زيد بن ثابت أمر بتحريق المصاحف التى ليست مع هذه القراءة .. فكثرت من بعض الناس القول فى عثمان رضى الله عنه بأنه حرق المصاحف ، ا .

يقول صاحب مقدمة كتاب المباني : « وأما المصاحف التى أمر — أى عثمان — بتحريقها ، فإنها — والله أعلم — كانت على هذا النظم أيضاً — أى النظم الذى عليه مصحف عثمان — إلا أنها كانت مختلفة الحروف على حسب ما كان النبى صلى الله عليه وسلم سوخ لهم القراءة بالوجوه إذا اتفقت فى المعنى ، وان اختلفت

(١) - سورة يس : ٣٥

(٢) سورة الحديد : ٢٤ .

(٣) أى أن كل جماعة تزكى قراءة من هذه القراءات وتنضت لها .

اللفظ ، ثم بان لنا بانفاقهم على هذا الوجه الواحد أن الإباحة التي كانت في قراءة القرآن من اختلاف اللفظ بالكلمة إذ اتفق المعنى قد نسخ ، وأنه لا تجوز القراءة بما يخالف هذا المصحف المتفق عليه ، (١) .

هذا ما كان من عمل الخليفةين أبي بكر وعثمان في كتابة المصحف ، لم يجاوز عملهما ما كان من شأنه صيانة القرآن وحفظه كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . . لم يزيدوا فيه حرفاً ، أو نقصوا منه كلمة !
ولسكن لعلماء الغرب رأياً آخر في هذا . .

فهذا « جرونيباوم » الذي تقف إزاء آرائه هنا يقول في صدد هذا العمل الذي كان من الخليفةين أبي بكر وعثمان :

« ومن الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها بما تبقى لدينا من معلومات — استبانة الأسباب التي دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة عثمان ، إلى تنظيم ما خلقه الرسول من الوحي . . »

ثم يقول : « والراجح أنه — أي القرآن — لم يفقد أو ينسى منه إلا جزء يسير جداً (؟؟) في ١١٤ سورة بالضبط تختلف في طولها اختلافاً بعيداً . . »

« كذلك ليس في الإمكان في كل حالة من الحالات تقديم تفسير مرض عن السبب الذي من أجله ضمت هذه الفقرة إلى تلك لتتكون سورة واحدة . . أو لماذا قرر الكاتب أن يضعوا السور الطويلة أولاً ، وقصار السور أخيراً ، وإن كانت الأخيرة تحتوي في معظم الحالات على المواد القديمة . . » (٢)

هذا هو رأي « جرونيباوم » في حقيقة القرآن ، وقد تولى السلف الرد على مثل هذا الافتراء . .

يقول صاحب كتاب مقدمة المباني :

« ولئن ساغ لاحد أن يشك في أن هذا القرآن بجميع سورته وآياته هو الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على أصحابه رضوا الله عنهم ، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله فلم يجيبوه إلى ذلك . . وهو الذي تلقى المهاجرون والأنصار

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٤٤ . (٢) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

وتلاوته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلوه من بعدهم ، وهلم جرا ، إلى أن اتصل بنا — ليسوغن له أن يشك في أن محمداً قد كان بمكة ، يدعى النبوة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وأنه قد كان بينه وبين المشركين وقعة بدر ، ووقعة أحد ، وسائر الوقائع ، ثم توفي بالمدينة ، وهو المدفون بها ۱۱

وإذا كان من أظهر الشك فيما ذكرناه مكابراً لنفسه ، إذ لا يمكن الشك في ذلك لمن خالط الناس فسمع أخبارهم ، كذلك لا يمكن في أن هذا القرآن هو الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على الناس — شك ألبتة ۱

ثم يقول :

« ولو قد اقتصرنا في دحر الملحد وقذعه على هذا القدر ، لقد كان ذلك كافياً ، غير أنا يجب أن نذب عن هذا الخبر ، إذ قد يمكن أن يقع فيه ريب . وإن لم يمكن ذلك فيما قلناه من أن القرآن هو ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى .

« فأقول : إن القرآن كان مجموراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يسكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا . . . ومن المعلوم الذي لا يخفاء به أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم أصحابه في الصلوات الخمس ، لا يخجل بذلك في سفر ، ولا حضر ، فقرأ في الركعتين من كل صلاة بسورة مع فاتحة الكتاب . . . ويسمعهم ذلك في النداء والعش . . . فإذا كان يسمعهم — ليت شعري — إن كانت آيات القرآن متفرقة ، ولم تنظم السور حتى أنها نظمت في أيام أبي بكر ، أو أيام عثمان ؟ فإذا كان يقرع العرب حيث يقول الله تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١) ، وذلك مما نزل بمكة . ثم قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله ، ونزل ذلك بالمدينة ؟ . . . ولو كان ذلك على ما خيلوا لم يسكن العباس بن عبد المطلب يهدر (٢) يوم حنين حيث انهزم القوم ، فيقول : يا أصحاب سورة البقرة ، وسورة

(١) سورة هود آية ١٣ .

(٢) في الأصل يهرب ، وهو خطأ ، أو تصحيف .

آل عمران . . هذا رسول الله . . يستدعيهم بذلك إليه !

« ومن مشاهير ما نقلت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « اقرأ القرآن في كذا ليلة . . » يدعوه إلى التيسير . . وهو — أي عباده — يقول : « لاني أطيق أكثر من ذلك . . إلى أن قال له : « اقرأ القرآن في ثلاث ليال ، . . »

« وعن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علي » فقلت : « عليك اقرأ ، وعليك أنزل ؟ فقال لي : « أحب أن أسمع من غيري » قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال : فرأيت عينيه تذر فان ، فقال لي : « حسبك . . » (١)

ثم يعرض صاحب المبانى للحديث الذي يروى عن زيد بن ثابت في جمع القرآن أيام أبي بكر . . فيقول :

« الوجه في ذلك عندنا أن القرآن قد كان يجملته معلوما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وكانت السور معدودة ، لا يريب فيها أحد منهم ، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها ، فكان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ سورة النساء أو الأعراف ، أو نحو ذلك ، من غير ولاء (٢) للسور . . .

« وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج في سرية ، فنزل في وقت تغيبه سور ، فإنه كان إذا رجع فأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتبع ما فاتته على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما كتبه تقديم وتأخير على هذا الوجه (٣) ،

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٧ .

(٢) أي من غير ترتيب مخصوص للسور .

(٣) أي أن هذا التقديم والتأخير يقع في السور لا في الآيات .

و قد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب ، على ما كان من عادة العرب في حفظها أنسابها ، وأشعار شعرائها من غير كتابة .

و منهم من كان يكتبها في مواضع مختلفة من قرطاس ، أو عسيب ، أو لخاف — على ما يروى في الحديث — ثقة منهم بما كانوا يعملونه من جد المسلمين في حفظ القرآن ، وشدة تعهدهم له . . . (١)

ثم يتظنى « جرونيباوم » سبباً من عنده يراه الباعث على ترتيب السور . . فيقول : « فقد يكون تشابه الموضوعات في حين ، ويكون تماثل الفواصل في آخر هو السبب الذي دعا إلى الجمع بين آيات كانت في الأصل مستقلاً بعضها من بعض » (٢) وأنت ترى ما في هذا القول من جرأة على الحق ، واعتداء على حرمة التاريخ . . إذ ضرب هذا العالم بالمستندات التاريخية الثابتة الموثقة التي بين يديه ، والتي تحدث عما كان من عمل لأبي بكر وعثمان في جمع القرآن — ضرب بهذه المستندات عرض الحائط وراح يصطاد من عالم الخيال تلك الآراء المضطربة المشوهة التي لا تقوم على أصل ، ولا تستند إلى دلائل . .

فالقرآن — كما قلنا — قد تم نزوله ، وجمعه وترتيبه قبل أن يرايل الرسول الكريم مكانه من الدنيا ، وأن آلافاً عدة من صدور المسلمين كانت تحفظه كله كما نراه اليوم بين دفتي المصحف .

وبحسبنا ما قلنا في هذا من قبل لدفع هذا الضباب عن أضواء القرآن الكريم . . وبحسب هذا القول الذي يقوله « جرونيباوم » ، — بحسبه من التفاهت والسقوط من عيني صاحبه أن يجيء عقب هذا القول فيقول :

« ومهما يكن من شيء ، فلا علينا إذا افترضنا أن محمداً لم يقصد ألبيته أن يجعل التوجيهات السياسية ، والمواد التشريعية ، وأساطير (كذا) الكتاب المقدس ، والحاجة للكفءار مجتمعة كلها في فصل واحد ، أبعاد محدودة تحديداً دقيقاً ، لا سبيل إلى نقضه » (٣) . .

(٣) حضارة الاسلام ص ١٠٩ .

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق — نفس الصفحة .

إذن « فمحمد » هو الذي رتب القرآن وأخرجه على هذه الصورة التي عرفها المسلمون ! فإن لم يكن « محمد » هو الذي عمل هذا ، فقد عمله أصحابه . . وإن لم يكن قد عمله أصحابه فقد عمله هو ! ! .

كل شيء جائز هنا عند السكاتب إلا أمراً واحداً لا يدخله في حسابه ، ولا يجعله فرضاً بين هذه الفروض ، وهو أن يكون القرآن من عند الله ، وأن يكون ترتيبه وجمعه بتوقيف من الله ! ولو أنه كان يضع في حسابه هذا الفرض لوجد في قول الله تعالى لنبيه الكريم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إنا علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » (١) - لوجد في هذه الآيات عاصماً يعصمه من الانزلاق في هذا الخطأ المبين . . فالنبي لا يحرك لسانه إلا بإذن من الله ، وإلا بعد أن يستمع إلى ما يلقى إليه من وحي ، . وأن الله هو الذي يتولى جمع القرآن . وأن محمداً متبع يتبع ما يتلقاه من السماء . . بل وأكثر من هذا ، فإن كلام الرسول ذاته الذي يبين به الشريعة هو من عند الله أيضاً . وإن لم يكن من القرآن المقروء ، فالله هو الذي يتولى بيان القرآن وشرحه على لسان النبي . . « ثم إن علينا بيانه » . . فالنبي يستمد أقواله من أمداد السماء : « وما ينطق عن الهوى » (٢) .

ثم يعود « جبرونيبيانوم » بعد هذا مباشرة فينسب ترتيب القرآن إلى الصحابة . يقول : « وربط جامع القرآن عدداً من قصص الأنبياء بعضه مع بعض ، فتولد عن ذلك في بعض الأحيان شيء من الرتابة المملة (كذا) لم يكن النبي مسؤولاً عنه بحال ! ! في القرآن رتابة مملة .

لأن الذين جمعوا القرآن ربطوا قصص الأنبياء بعضه مع بعض !

وهي تهمة لا يخفف منها ، بل ربما يزيد من شناعتها - القول بأن النبي لم يكن مسؤولاً عنه بحال .

(١) سورة القيامة آية ١٦ - ١٩ .

(٢) سورة النجم آية ٣ .

ومفهوم هذا القول أن المسلمين قد عبثوا بالقرآن بعد النبي وجموعه جمعاً
مخلاً ، ملاً . . . ومفهوم هذا المفهوم أيضاً أن القرآن الذي مع المسلمين ليس هو
القرآن على الصورة التي كانت مع النبي .

والنبي غير مسئول عن هذا الذي حدث في القرآن من هدم وتخريب !
ولو كان هذا السكاتب يثبت على وجه واحد ويقف عند رأى لكان في
ذلك ما يضيّق مجال الأخذ والرد معه . . . ولكنه يراوغ ، ويتقلب من رأى إلى
رأى . . . وها هو ذا يعود للمرة الثالثة أو الرابعة مناقضاً لرأيه في مسألة واحدة .
يقول وكأنه يبرر لهذه الرتابة التي جاءت — كما يقول في القرآن — وكأنه
يراهما ضرورية في الرسالة التي كان يقوم بها النبي . . . يقول :

« وكذلك أيضاً يجب ألا يغرب عن البال أن محمدًا ، إنما كان ينبغي أن
يعلم وأن يصلح . . .

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل إلى التكرار
بنفس الانماط تقريباً . . .

« ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب
الخالق لنفوسنا تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات السكاتب !
« فإن كثيراً من الآيات لم يكن قصد النبي من نقله إلى الناس هو الاستمارة
الذهنية ، بل توطيد مبادئ جديدة للتقوى والأخلاق (١) . . . »

ثم يأخذ لهذا الرأى سنداً من مقولات بعض علماء الإسلام في معرض
الاستدلال على حكمة التكرار في القرآن . . . فيقول :

« هذا أحد كتاب المسلمين في القرن العاشر (٢) يقول : « ولأن الإنسان
قد يقرأ بعض القرآن ، ويحفظ شيئاً منه دون شيء — فلم يخل الله عز وجل كل
موضع منه من ترغيب أو ترهيب ، وادكار واعتبار ، تفضلاً منه على عباده ،

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

(٢) هو أبو بكر الصولي المتوفى سنة ٩٤٦ .

واستدعاء لطاعتهم ، ونهياً عن عصيانهم ، فوقع التكرار لذلك (١) .

ويعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« والواقع أن ما يبدو لنا من مأخذ في طريقة العرض يكون له معنى مخالف
لذلك تماماً — أى التلك التي تبدو أنها مأخذ — حين يوضع القرآن موضعه الحق
من التاريخ الأدبي للعرب . . .

« ذلك أن النثر العربي لم يكن يستخدم قبل عصر النبي إلا في تسجيل
الذكريات القبيلية المتصلة بالوقائع الحربية ، أو ما عدناها من حوادث البادية ،
ثم صوغ الأمثال الموجزة ، وقواعد التشريع . . . ويلوح أن النثر المسجوع كان
قاصراً على المأثور من أقوال السكمان . . . أما الشعر الذي كان قد تطور تطوراً
كبيراً في العبارة والصياغة الفنية فإنه تماشى الموضوعات الدينية ، ولم يكن هناك
أسلوب معتمد يمكن أن تقدم فيه المباحثات الكلامية أو التشريعية . . . ولا سوابق
أو شواهد للشعر تتعاقب يشتمون الآخرة .

ثم يقول :

« لم يستعمل محمد ، ألبتة في القرآن شيئاً من أوزان الشعر التقليدية ، بل
راح يفك لإسار النثر المسجوع ، ويقوم اعوجاجه ، ويملاً نضائفه حتى أصبح
مركباً ذلولاً لرؤاء العجيبة (كذا) عن عذاب اليوم الآخر . . . كما أنه دخل قسراً
على نثر مستعص غير فاضح طريقة التعبير بعبارة جلية محدودة ، عن مبادئ
تجريدية ، أو شرائط قضائية ونظرات سياسية . . .

ثم يقول :

« ولكن محمد ، هو الذي وجد الصيغة العربية للتعبير عما صار أخص
خبراته الشخصية ! ولن يستطيع إدراك المدى الكامل لما بلغه من نجاح في إدخال
هذه الموضوعات الجديدة في ذلك الأدب العربي المقيد بالأوضاع والتقاليد

(١) من أدب السكاتب للصولي . . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

إلا بملاحظة إجماع الأجيال التالية في مواصلة الحديث في تلك الموضوعات
الشعرية السابقة - موضوعات الجنة والنار واليوم الآخر والحساب وتضمينها
في أشعارهم (١)

لقد طأبل وقوفنا في هذه المسألة - مسألة أسلوب القرآن وما جاء فيه من
تكرار ، وما قيل في جمعه وترتيبه - ولكن لم يكن بد من هذه الوقفة الطويلة
إذ كان الرجل الذي تخبرناه ليكون مثلاً للناقد العالم الحر من كتاب الغرب ، لم يستطع
أن يستقيم على الحياد ، وأن يتحرر من موروثات العصبية . بل حشد ذكاه
كله للدراغة والمخاتلة . . يلوح لك بقولة الحق ، فيخيل إليك أن الرجل رجل
عدل وإنصاف ، فإذا أنت لم تنفطن إلى هذه الخدعة وقعت في مزلق من تلك
المزلق الكثيرة التي يلتقي بها فيما لوح لك به حق . .

لأنه بهذا الأسلوب المموه بمهارة وحذق يستطع أن يخدع كثيراً من يلقاهم
بالحقائق ملففة في لفائف رقيقة من الزور والبهتان ، فيختلط عليهم الأمر ،
وتضطرب في قلوبهم أمواج الشك . .

إن في كلام الرجل كثيراً من الحق ، كما أن فيه كثيراً من الباطل . .

وأعجب ما في هذا أن يجيء الرجل بالحقيقة واضحة ، ثم يجيء كذلك بالباطل
صريحاً واضحاً في الأمر الواحد ، ويجمع بينهما في صور شتى . . وهذا أبعد في
السيكيد ، وأمن في التضليل ؛ بمن يجيء بالحق متلبساً بالباطل ، أو بالباطل متستراً
في الحق !

ولعل أصدق ما قاله الرجل هنا في قوله في تفسير التكرار الذي جاء في
القرآن . . حين يقول :

« والواظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل التكرار
بنفس الألفاظ تقريباً . . . »

وذلك لاشك وجه من وجوه الحكمة في تكرار ما تكرر من عبارات

(١) حضارة الإسلام لجرونيانوم ص ١٠٨ وما بعدها .

ومعان في القرآن .. كما هو الحال في سورة الرحمن ، وفي سورة المرسلات ، كما هو الحال أيضاً في قصص الأنبياء ..

واسكن هذا التكرار ليس من عمل محمد ، وإنما هو من تدبير الله في إنزال القرآن ، وفيه هذه المواقف التي تتكرر فيها الألفاظ والمعاني، حيث تقتضيها دواعي الحال ، في الأمور ذات الصفة المهمة الخطيرة ، أو في الحالات التي تزدهم فيها النفس بالخواطر المزعجة ، فيرسل إليها العزاء ، والسلاوان ، حالاً بعد حال .. وقد كان من عادة النبي عليه الصلاة والسلام أن يعيد الكلمة أو الجملة ثلاث مرات .. وذلك في المواقف التي تقتضي العناية والاهتمام ..

عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم .. وإذا أتى على قوم سلم عليهم ثلاثاً حتى يفهم (١) .

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها : «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عدّه العباد أحصاه» .

ونكتفي بهذا القدر في مواجهة هذا الباطل الذي يقول به علماء الغرب في أسلوب القرآن ، وفي تكراره وفي جمعه وترتيبه .

التشريع في القرآن :

والأمر الثاني الذي يقف منه الغربيون موقف التهجيم والتطاول على القرآن هو الأحكام التي جاء بها ، والشريعة التي دعا إليها ، وأقام دعوة الإسلام عليها . والمفتريات هنا كثيرة متشعبة ..

تجيء أحياناً على طريقة المقايسة إلى الشريعة الموسوية أو العيسوية . وتجيء تارة بالمناظرة مع الأظمة والشرائع المادية التي يعيش فيها الناس . وتلتقي جميعها عند القول بأن الإسلام — سواء كان ديناً سماوياً أم وضعياً —

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد جزء ٢ ص ٦٥ .

(٢) الشفا للقاضي عياض جزء ١ ص ١٠٨ .



فإنه إنما وضع لحياة البادية ، وجاء مقيداً على أحوالها وظروفها ، وأنه إذا خرج إلى محيط غير هذا المحيط ، وإذا جاوز هذه الأحوال والظروف اصطدم بظروف وأحوال لا يستطيع مواجهتها ، ولا الحياة فيها .

إن الشريعة الإسلامية — عن هؤلاء الغربيين — شريعة بدائية ، لا تستقيم أبداً مع الحياة المتحضرة ، ولا تتجاوز مع حاجات الناس في تلك الحياة !

وغاية القائلين بهذا القول أن يحصروا الإسلام في دائرة ضيقة من الزمان والمكان .. فهو لا يصلح إلا للجماعات البدوية ، ولا يعيدش إلا في البيئات المختلفة التي لم تطلع عليها شمس الحضارة الحديثة ، ولم تنفذ إليها شعاعاتها .

وهم بهذا إنما يرون أن يضعوا « متاريس » من الوهم والخداع أمام زحف الإسلام ، وأن يكسروا من حدة انطلاقه في مشارق الأرض ومغاربها ، على رغم ما يلقي من مقاومة المبشرين ومحاربه بكل سلاح ، واضطهاد الداخلين فيه ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية ..

ثم هم من جهة أخرى يحاولون أن يضعوا حواجز ففسية بين الإسلام وبين المؤمنين به ، بما يخيلون لشعاف المقول ، ولذخورين بالمدنية الغربية والمأخوذون يريقها — أنهم إنما يحقرون عقولهم ، ويرخصون مواهبهم ، ويشزلون من شخصياتهم إذ يلبسون هذا الزي البدوي ، ويعيشون فيه ، على حين يعيش الناس في عصر الذرة ، ويستعدون لغزو الغنضاء وسكنى السكواكب !

وقد كان لهذه المفتريات سلطان على كثير من أصحاب الشخصيات والمهزوزة ، التي لم تنهأ لها المعرفة الصحيحة بالإسلام ، ولم يتح لها حظ من الإيمان القائم على العلم والمعرفة ، فكان من السهل الميسور أن تغزو هذه الأفكار الخبيثة تلك القلوب التي عاش فيها الإسلام من غير أن يشير فيها عاطفة ، أو يحرك شعوراً .

وشتان بين هذه الدعوى التي يدعيها الغربيون وأشياع الغربيين على الإسلام وبين حقيقة الإسلام والغايات الكبرى التي جاء لتحقيقها في هذه الحياة !

لقد جاء الإسلام لهداية الإنسانية كلها ، وإحياء مجتمعاتها جميعاً ، على مدى الأزمان ، وفي مختلف المواطن

والقرآن الكريم يحمل بين آياته الكريمة مضمون دعوته تلك ، ويؤذن في الناس بها . . . وفي موضع آخر من هذا الكتاب تحدثنا عن إنسانية الإسلام ، ودعوته الشاملة لكل من يدخل في معنى الإنسانية من بنى آدم . . . فما جاء الإسلام إلى العرب وحدهم ، وما قصر خطابه عليهم ، بل لأنه لم يوجه إلى العرب خطاباً أبداً ، وإنما جاءت أوامره ونواهيته كلها متجهة إلى الناس جميعاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (١) . . . يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وقوله : « يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . . . إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » (٢) . . . يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . . » (٤) .

قلنا هذا ، وقلنا إن الإسلام هنا جاء على غير ما جاءت الديانتين الموسوية واليعيسوية ، حيث كان متوجه شريعتهما إلى بنى إسرائيل وحدهم دون الناس . . . كما قلنا إن الذين آمنوا بهاتين الديانتين من غير بنى إسرائيل إنما هم يتعاطون طعاماً لا يصلح لهم ، ولا يصلحون له . . . إذ كانت هاتان الشريعتان لشعب له ظروف خاصة ، وأحوال متصلة به . . .

ونقول هنا إن الإسلام في دعوته العامة التي حملتها أوامره ونواهيته ، كانطبق بها القرآن . لم يكن مجرد دعوة تهتم بالناس جميعاً ليوسع دائرة اختصاصه ، وليمد في قطر دائرته ، وإنما كان إلى جانب هذه الدعوة يحمل كل أسباب الحياة

(١) سورة لقمان آية ٣٣ .
(٢) سورة يونس آية ١٠٨ .
(٣) سورة لقمان آية ٣١ .
(٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .



المادية والروحية لكل من تبلغ أسماعهم دعوة الإسلام ، في أى مكان ، وفي
أى زمان .

والجدل في مجال عرض المبادئ الإنسانية التي جاء بها الإسلام ، ومقايستها
لإل الشرائع السماوية أو الوضعية قد تشتمد فيه معارك السلام ، ويحتمد الصراع ،
فتغرق الحقيقة في دخان هذا الصراع ، وتضيع معالمها في غبار هذا العراك . .

فلانتهجه هنا إلى عرض حقائق الإسلام ، ولانستعرض مقولات الخصوم
فيها ، وما تحمل من بهتان وزور . . فذلك - كما قلنا - قد لاينهى النزاع بانتصار
حاسم لأى عن الفريقين المتنازعين .

ولإنما الذى تقدمه شاهداً يشهد للإسلام بسلامته ومبادئه ، واستقامتها مع طبيعة
الحياة ، وتقلب المجتمعات البشرية فيها ، وتقلبهم معها جيلاً بعد جيل - الذى
تقدمه شاهداً لهذا هو التطبيق العملى للإسلام ومبادئه ، وما كان لهذه المبادئ
من آثار في الحياة الإنسانية : المادية والروحية على السواء .

جاء الإسلام إلى الحياة ، فتخبر أجذب بقعة فيها . . ونزل بين جماعات ضائعة
ضالّة في غياهب الصحراء ، وفي بطون أوديتها وجبالها . . قد ركبتهم طباع تنضح
بالشر ، وترمى به كل من يتصل بها من قريب أو بعيد . . فلا يلقى لإنسان إنساناً
بمودة ، ولا يمد إليه يداً مودعة مسالمة ، وإنما هو البغى والعدوان ، وهو الصراع
بالخالب والأنياب لتتجلى المعركة عن قاتل أو مقتول . . « فن لم يكن ذمياً أكلته
الذئاب » ، ومن لم يكن قاتلاً فهو المقتول .

لتقد تخبر الإسلام هذا الوطن بالذات ليبدأ منه رحلته الطويلة مع الحياة .
هذا أول شاهد يشهد للإسلام بأنه جاء من جهة عليا . . حكيمة مدبرة . .
وأنه وضع أقدامه على أول الطريق الصحيح لإصلاح الحياة ، وعمرانها . . حين
بدأ بالجدب والفقر منها ، فأخرج منه جنات تفيض بالخير والشر .
إن الغيث لا يعرف فضله ، ولا تشهد آثاره إلا في مواطن القفر والجدب . .

حين تستقبله هذه المواطن فتجيب به ، وتتحرك في أحشائها أجنة النبات ثم تنشق عنها ، فإذا هي زروع ناضرة ، وأزاهير متفتحة ، وثمرات دائية القطوف مختلفة الطعوم ..

وليس كهذه الشهادة شهادة تنطق بفضل النيث ، وتحدث عن آثاره : فانظر إلى آثار رحمة الله . . كيف يحيي الأرض بعد موتها ، (١) . وترى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، (٢) وهكذا جاء الإسلام بحياة النيث إلى هذه المواطن المجدبة المقفرة ، فاهتمت به وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج !

ولا يستطيع مكابر - مهالج به العناد - أن ينكر آثار هذه الرحمة الشاملة التي أخصب بها كل جديد ، وعمر بها كل خراب في أنحاء الجزيرة العربية ؛ منذ دخل الإسلام في قلوب القوم ، وعمرت تلاوة القرآن دورهم ومساجدهم ! فهذه الأمة التي جمعها الإسلام من أشلاء ممزقة ، وأقام بنيانها من ألقاض متهاككة .. هذه الأمة التي أتم الإسلام إعدادها في ثلاث وعشرين سنة - هي مدة الدعوة الإسلامية - هذه الأمة قد واجهت أكبر قوتين كانتا تقسمان العالم بينهما .. واجهتهما ولم تسكن قد تمرست بالحروب العامة الشاملة ، ولم تكن تعرف من فنون الحرب ما تعرف أمة الفرس وأمة الروم - ومع هذا فقد هزمت الدولتين العظيمتين معاً .

فوضعت يدها على دولة الفرس كلها ، واستولت على بلاد الشام ومصر من دولة الرومان . . كل هذا في بضع سنوات من وفاة النبي !

وقد يبدو لحاسد أو مجادل أن يقف من هذا الإعجاز الرائع لقوة الإيمان التي كان بها هذا النتيج فيقول : إن هذه الفتوح الإسلامية لم تكن عن فعل الإيمان ، ولا من وحى الإسلام . . وإنما هي قوة مخربة مدمرة من قوى الشر .. انطلقت من قلب الصحراء كما يطلق الإعصار العاق فيدمر كل شيء ! وفي التاريخ فعملات

(١) - سورة الروم آية ٥٠ . (٢) سورة الحج آية ٥ .

(٢٠٢ - النبي محمد)

لمثل هذا .. فلقد اجتاحت التتار دولة الإسلام في وقت أقل مما اجتاحت فيه جيوش المسلمين دوأتي الفرس والروم !!

وهذا القول ، وإن يكن في ظاهره ما يضلل ويخدع ، إلا أنه مع قليل من النظر تتضح فيه أوجه الخلاف الشديد بين الأمرين ، فلا يبدو بينهما وجه يلتقيان فيه .

فأولاً : لم تكن قوة الإسلام الزاحمة حمة عسكرية تحمل إلى الناس الموت والخراب ، والدمار ، شأن الحملات العسكرية المعبأة بروح النعمة ، وحب السيطرة والغلب .

وإنما كانت قوة الإسلام الزاحمة شعة منيئة ، تحاول أن تحترق بشعاعاتها سحب الظلام المتكاثف على قلوب الناس وعقولهم ..

كانت قوة الإسلام الزاحفة بعثة إنقاذ ، تحمل إلى الإنسانية الضالة أطراق النجاة ، ملقبة بنفسها في مواطن الموت في سبيل الحق والخير الذي تجمله بين يديها ، ليأخذ الناس بحظهم من هذا الحق والخير !

كانت قوة الإسلام الزاحفة لا ترفع سيفاً في وجه من يقول كلمة التوحيد ، وينضم إلى موكب النور إنه حينئذ يصبح واحداً من تلك الجماعة ، له مالها وعليه ما عليها .

فهل كان شيء من هذا في حملة التتار ، أو غيرها من حملات الفتح والغزو؟
لا يجيب على هذا ، فقد تولى التاريخ الإجابة الواضحة المسببة !

وثانياً : كانت قوة الإسلام الزاحفة تعمل للبناء ، لا للهدم .. وكانت يدها البانية قوية ، حكيمة ، عادلة ، خيرة .. تبني للحق وللخير .. وتقيم ما تبني على دعائم متينة من العدل والإحسان .. ومن أجل ذلك فقد رسخ ما بذت ، وزاد مع الأيام قوة ، وارتقاء .. حتى أن النكسات التي كانت تصلب هذا البناء بين حين وآخر لم تكن لتقوض البناء ، أو تضيق معالمه . وإنما هي صدوع وشروح لاتبث يد الإسلام أن ترأب الصدع ، وتسد الثلثة !

وهذه حضارة الإسلام التي عرف الغرب آثارها وأقام حضارتها الحاضرة

على أضواء مشاعلها — هذه الحضارة لا تزال قائمة في بطون السكتب ، وفي معالم الحياة التي يقوم عليها اليوم مجتمع يضم أربع مئة مليون مسلم .

أفهدا كان شأن التتار ، ودولة التتار ؟

إن دولة التتار لم تقم إلا في ظل الإسلام ، فقد أعلن قائدها إسلامه — إن صدقا وإن كذبا — ليضمن لدولته الناشئة — حياة تحت راية الإسلام . . . ومع هذا ، فقد ذاب التتار في الدولة الإسلامية ، كما ذاب غيرهم من الأمم والشعوب التي ضمها الإسلام إليه وصبغها بصبغته .

فالتقول بأن القوة العربية التي عبأها الإسلام لتكون طبيعة بمركب النور — القول بأنها كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة العاتية قول لا يستقيم مع الواقع ، ولا يستند إلى شيء من مرويات التاريخ ؛ حتى الضعيف المكذوب منها .

قلنا إن أول الشواهد على أن الرسالة الإسلامية رسالة سماوية تستند إلى قوة عليا لا حدود لقوتها — أنه تخير لدعوته هذا المكان الجديب المقفر ، الذي لم يشهد يوما من الأيام أبهة سلطان ، ولا سطوة دولة ، كما عرف اليونان ، والرومان ، والفرس ، وكما عرف الفراعنة ، بل والتابعة باليمن .

من هذا المكان المقفر الجديب كانت نقطة انطلاق الإسلام ، ومركز دعوته . فإن الطبيب — كما يقول السيد المسيح — لا يزور إلا المرضى .

ومن جهة أخرى . . . فإن قيام الدعوة الإسلامية في هذا الموطن كان خير مكان يصلح لتربية إنسانية تستقيم مع مبادئ الإسلام ، وتستجيب مشاعرها للذءاء الطيب الذي يحمله إلى الناس .

والأمة العربية — على ما كان بها من فقر ، وما في حياتها من مخلفات الفقر والحاجة كانت لا تزال في صميمها سليمة نقيمة من العوارض والآفات التي أصابت الشعوب التي تمرست بالمدنية وعاشت فيها زمناً ، ثم خذلتها الحياة ، وتركتها أشبه بالهشيم .

ومن هنا كان أثر الإسلام في الأمة العربية قويا واضحا ، منجزاً . . كالنيث .
يصيب أرضا بكرا ، لم يمتص مادتها الغذائية نبات أو شجر .

وهذا ما يمكن أن يفسر به قوة الجماعة الإسلامية الأولى ، مع قلة عددها ،
وشح مواردها ، وهذا ما يفسر أيضا ظهور هذا العدد الكبير من عظماء الإنسانية ،
بمثلا في صحابة رسول الله ، وما أظهره من عظمة في فنون السياسة ، والحرب
وفي تنظيم الدول ؛ وبنام الشعوب . إلى ما اشتملت عليه نفوسهم العالية من ترفع
عن ماديات الحياة ، واستعلاء على مطالب الجسد والنفس الأمارة بالسوء .

ولا نذكر الأسماء ، ولا نضرب الأمثال . . فكل صحابة رسول الله مثل
لهذا ، وكل أعمالهم شواهد له .

فالذين يحاولون أن يصوروا الشريعة الإسلامية بأنها شريعة متخلفة ، لا تصاح
إلا في الحياة البدائية ، ولا يهيش عليها إلا من يسكنون الغابات والكهوف —
هؤلاء الذين يضعون شريعة الإسلام في هذا الوضع هم — كما قلنا — ليسوا
أعداء الإسلام وحسب ، بل هم أعداء الحياة نفسها ، أعداء الإنسانية كلها . .
إذ يحاولون أن يجربوا عن الناس هذا الخير الذي نزلت به آيات الكتاب الكريم ،
ليكون رحمة للناس ، وشفاء من تلك الأدواء التي تغتال ما بينهم من أواخر
الأخوة ، وصلات المودة والرحمة ، وتوقد بينهم العداوة والبغضاء التي تشعل
نيران هذه الحروب المدمرة . والتي تبيت الناس دائما على ذعر وفزع .

إن شريعة الإسلام هي التي جعلت من تلك الجماعة المبددة الضائعة في رمال
الصحراء أمة تظلال بأجنحتها أمتا ، وشعوبا . . تدرش فيها العدل ، والأمن ، وتقيم
في ربوعها مدنية مزهرة ، وحضارة قائمة على أصول راسخة من العلم والفن .

يقول «ول ديورانت» في كتابه قصة الحضارة :

لم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبي إلا في مسميات
اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم :
«السر كسوى» ، ويلوح أنه هو نفسه مشتق من لفظ «الشرقيين» العرب .

و كانت قلة سبيل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً في نمو روح العزلة فيهم .
و فالعربي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولاءه تتناسب عكسياً مع سعة الجماعة التي يدين لها بالولاء (١) .

ذلك هو الوصف الدقيق للحالة التي كانت عليها الحياة الفردية أو الجماعية للعرب في صحراء الجزيرة . لم يسكن العرب أمة من الأمم ، وإنما كانوا جماعات متناثرة ، هنا وهناك ، يركوفون وحدات . . كل وحدة تسمى قبيلة ، وتلك هي الوحدة الكبرى ، أو الأمة التي ينتمى إليها العربي ، ويدين لها بالولاء . . أما ما وراء هذه الوحدة القبلية فلم يكن بموضع تفكير عند أحد منهم .

فكان من معجزات الإسلام أن أقام من هذه الجماعات المشتتة المتناثرة ، مجتمعاً متماسكاً متجانساً . . يشد بعضه بعضاً ، فمكان كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسبحي والسهر .

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها (٢) .

ولا يذكر التاريخ مجتمعاً إنسانياً جمعت بين أفرادها روح الإخاء ، والمودة ، والإيثار مثل المجتمع الإسلامي الذي أقامه الرسول ، وورثه خلفاؤه الراشدون من بعده .

فقد كان هذا المجتمع أشبه بأسرة تجمع بين أبوين عطوفين ، وأبناء بررة كرام ، لا يلقى أحد أحداً إلا بالمودة ، ولا يبغض أحد مع أحد إلا على حب وسلام . فإذا تحدثت المجتمعات الراقية اليوم عن التسكافل الاجتماعي ، وعن التقارب بين الطبقات فيها ، فإنها لتستخزي إذا نظرت إلى ما حققه المجتمع الإسلامي من

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ١٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣



هذا التكافل والتقارب على صورة كاملة ، لا يقوم عليها سلطان غير سلطان الضمير ، ولا يزعمها وازع غير وازع الدين .

يقول « ول ديورانت ، المؤرخ العالم الفيلسوف :

« ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ، ما فرض عليهم « محمد » لإعانة الفقراء .

« وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء .

« وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير » (١) .

وليس الذي فرضه الإسلام من بر بالفقراء والمساكين هو ضريبة بالمعنى المفهوم في العرف الاقتصادي اليوم ، وإنما هو زكاة . . . والزكاة معناها : النماء والزيادة ، والطهارة ، والطيب . . . فيقال : زكا الغلام يزكو زكاة ، إذا نما وشب . . . ورأته زكية أى طيبة . . .

فالزكاة التي يؤديها المسلم عن ماله فيها زكاة لهذا المال أى نماء له ، وفيها طهر وطيب لصاحب المال المزكى . . . وهذا ما نجده في الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكهم بها » (٢) . والآية الكريمة :
« الذي يؤتى ماله يتزكى » (٣) .

وشتان بين من يبذل المال في سبيل الفقراء والمحتاجين وملء مشاعره أنه يعقد صنفقة رابحة ، ينال بها نماء ماله ، وطهاره نفسه ، ومرضاة ربه ، وبين من يدفع ، الضرائب وليس في نفسه أى معنى من تلك المعاني الطيبة الكريمة . . . وإذا تحدثت المدينة الحديثة عن فضلها في تخليص رقاب الأرقاء ، وفي القضاء على الرق ، فلتذكر أولاً صنع الإسلام في تحرير الرقيق ، وما حملت

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ٥٩ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) سورة الليل آية ١٨ .

تعاليمه من مساواة مطلقة بين الناس ، لا يتفاضلون إلا بالعمل الطيب ، فلا حساب للأحساب ، والأنساب ، والألوان ، والدماء ، في موازين الإنسانية . ومنازل الناس في المجتمع الإنساني . .

لتذكر المدنية الحديثة هذا ، ولتذكر معه أن مجتمعاتها وإن تخلصت من الرق على الصورة التي كانت معروفة من قبل ، وهي تملك الإنسان وعده سلعة . تباع وتشترى — فإن هناك صوراً كثيرة للرق لا تزال قائمة يمثلها الاستعمار الذي لم يتخلص منه بعض الجماعات الإنسانية إلى الآن ، كما تمثله التفرقة العنصرية بين زنوج أمريكا والأمريكيين ، وبين السود في أفريقيا وبين الأوربيين . . كما يمثلها المحتكرون وأصحاب رؤوس الأموال في أوروبا وأمريكا .

لتذكر المدنية الحديثة هذا كله ، ولتقف وقفة لإجلال وإكبار وخشوع أمام عظمة الإسلام ، وسمو المعاني الإنسانية التي غذى بها مشاعر أتباعه ، ليتعاملوا بها فيما بينهم . . وفيما بينهم وبين الناس جميعاً .

سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : « كم أعفو عن الخادم ؟ » . فصمت النبي الكريم ثم قال : أعف عنه كل يوم سبعين مرة . .

وليس حصر عملية العفو في هذا العدد بواقفة به عند هذا الحد ، بل غاية ألا تكون له نهاية . . وأن يتعمل العفو حالاً بعد حال .

وعن ابن المنكندر أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له ، فجعل العبد يقول : سألك بوجه الله ، فلم يعنه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأى الرجل رسول الله ، أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعنه ، فلما رأيتني أمسكت يدك ؟ فقال الرجل : هو حر أوجه الله يا رسول الله . فقال له النبي : لو لم تفعل لسفجت وجهك النار . .

ولم يكن هذا مجرد مبادئ وتعاليم يلقها الرسول في آذان أصحابه ، وإنما كان

صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في كل ما يأمر به
أو ينهى عنه .

عن أنس — خادم الرسول — قال : « خدمت الرسول عشر سنوات ،
فما قال لشيء عملته : لم عملته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ، ٩ .

فليست منزلة الخادم عند من يخدمه أو العامل عند صاحب العمل بالمنزلة
التي دون من يخدمه أو يعمل معه ، وإنما الأمر بينهما قائم على التعاون لدفع
عجلة الحياة . . هذا هو وضع العامل عند صاحب العمل في الإسلام .

يقول النبي الكريم : إخوانكم خولكم . . استعينوا بهم على ما غلبكم ،
وأعينوهم على ما غلبهم ، ١ .

فأى نظام من أنظمة العمل ، وأي قانون من قوانين المال يرتفع إلى هذا
المستوى الرائع الكريم الذي رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل
جميعاً ؟ .

وأي عقد من عقود العمل يضمن للعامل هذا الحق الأدنى عند صاحب
العمل ، وقيمه عليه ، ويؤديه له ، في صورة عبادة وقرين إلى الله ٩ .
« إخوانكم خولكم » .

الأخوة هي الأساس الذي يقوم عليه عقد العمل ، بين العامل وصاحب
العمل .

الأخوة أولاً وقبل كل شيء .
أخوة مقررة ، متبادلة بين الطرفين . .
أخوة قائمة مقررة قبل أن تسكون بينهما صلة تعامل أو عمل .
أخوة إنسانية . . يلتقيان أو يفترقان دون أن ينقطع بينهما هذا الرباط
الوثيق الذي جمعهما الله فيه .

وهذا هو السر في تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » في
الحديث الشريف .

وفى قول الرسول الكريم : « استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » تبيينه قوى إلى تكريم العمل والعامل معاً ، وأن من كرامة الإنسان أن يعمل ما وسعته قدرته وكفايته ، فإذا لم يمكن فى مستطاعه الوفاء بالعمل ، فلا عليه أن يستعين بمن يجده منه العون .

فأين من هذا الإحساس اليقظ بكرامة العمل وقيمه — هذه المشاعر المريضة التى يمدش فيها كثير من الأغبياء الذين يحسبون الترفع عن العمل ، و فراغ اليد ، والعقل والقلب منه — مدرجاً إلى العظمة ، ومرقى إلى مقام السيادة ؟

إن الإسلام يدعو كل ذى طاقة جسدية أو عقلية أن يوجه طاقته تلك إلى العمل المنتج المفيد ، وأن يضم جهده إلى جهد غيره ليضاعف الثمرة وينمها .

وليس فى الإسلام ولا فى المسلمين من يقعده الترفع والتعالى عن أن يكون عاملاً مع العالمين ١٠٠ والرسول الكريم يقول: « وما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » . وكان نبي الإسلام أكل مثل وأروع شاهد لهذه الدعوة المباركة . . كان يخفض نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويقم بيته ١٠٠

* * *

هذا جانب من التشريع الإسلامى ، وأثره فى الحياة . . فهل تنقض الحياة المعاصرة شيئاً من هذا ؟ وهل تعلو الحياة فى أعلى مستوياتها على هذا المستوى الذى ارتفعت إليه الحياة فى ظل الإسلام . وعلى أيدي المسلمين فى العصر الذى عملت فيه مبادئ الإسلام عملها ، وأخرجت ثمراتها ؟

إن الذين يحاولون أن يشوهوا مبادئ الإسلام ، ويشوشوا عليها ليرتكبون إثمًا غليظاً فى حق الحق ذاته ، وفى الجناية على كثير من الناس قد يصرفهم هذا الضلال عن الوقوف على مبادئ الإسلام والانتفاع بها .

وما يضاعف من هذا الإثم ويزيده شناعه أن يكون فى هؤلاء الطاعنين على شريعة الإسلام من نهج نهجها ، ويسير عليها . وينتفع بمقرراتها فى منازع حياته ، وفى أسلوب معيشته ، ثم يلقى الناس بلسان متسلط عليها ، متسكراً لها

صياغة أحكام الشريعة :

وقد يجاوز الناقدون من علماء الذرب مفاهيم الشريعة الإسلامية إلى نقد الصياغة المقننة لهذه المفاهيم ، وذلك ليلقوا في روع من يقرأ لهم أن أسلوب القرآن ومعانيه ، وخيالاته كلها مستمدة من الحياة العربية ، مستلهمة من روحها . . ملتقطة من لسانها . . وأن الشريعة التي جاء بها القرآن ليست إلا تهذيباً ، وتنظيماً لما عرف العرب في جاهليتهم من أخلاقيات تدور معهم في مدارات الحياة التي يحيونها ويتقلبون فيها .

فمن ذلك ما يقوله مؤلف حضارة الإسلام « جرونيباوم » في أسلوب القرآن وصياغته لأحكام الشريعة . . يقول :

« وانه ليعبر — أي القرآن — في بعض الأحيان على طريقة الشعراء . »
ويضرب لهذا مثلاً ، فيقول :

« فالوحي يعترف بالثأر بقوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » (١) ولكمته لكي يزين للناس روح الصلح والوفاق في تسوية المنازعات الدموية يضيف إلى تلك قوله : « لعلكم تتقون » :

« وفي مكان آخر يستعين الوحي في هذا الصدد بقصة قابيل وقتله أخاه هابيل ويتخذ هذا المعزى الخلقى ... والنبي معارض للقصاص ، وإن رغب في إجازته في ظروف معينة ، غير أنه لم يخرج أفكاره في صيغ قانونية ودقيقة : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبيغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور (٢) » .

والإسلام ، أو بمعنى آخر القرآن ليس كتاب قانوني جنائي أو مدني ، وليس

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) حضارة الإسلام ص ١١٦ والآيات من سورة الشورى ٤٠ — ٤٣ .

لأئحة إجراءات ، كل همه تحديد الجرائم ، ووصفها الوصف الكاشف لها ،
ورصد العقوبة المشددة أو المخففة لكل جريمة .

ليس القرآن على تلك الصفة التي ينظر إليه من خلالها الغربيون ، ويحصر
نظرتهم إليه فيها ، وإنما هو قبل كل هذا كتاب تربية وتعليم ، كتاب بناء للأخلاق ،
وتقويم للسلوك ، وليست غايته ضبط المجرم متلبسا بجرمه ، وإنما مقصده الأسمى
تقويم المجرمين وصددهم عن السبيل المعوجة والمنحرفة بما يلقى في قلوبهم من هداية ،
وما يشيع في ضمائرهم من يقظة وصحو .

ذلك هو مقصد الإسلام الأول فيما يشرع من شرائع ، وفيما يرصد من عقاب .
ثم يجيء بعد هذا دور التكميل للجرائم التي تقع ، ووزنها بميزان مستقيم عادل ،
ليحسب لها الجزاء المستقيم العادل .

ويقول : « جروني أوم ، أيضاً في هذا الصدد :

« كان لعرب الجاهلية محصول لغوي غير قليل من المصطلحات الأخلاقية ،
ولكنهم لا يكادون يملكون أبسط مبادئ القانون المدني أو الجنائي .. »

ونسلم بهذا ..

ولكنه يتخذ من القول ذريعة ليقول :

« حتى إذا استن (محمد)^(١) شريعة مجتمعة أراد أن يتجاوز البت في الحالات
الفردية ، وأن يصوغ قواعد عامة .. إما على أساس العرف القديم ، أو على وفق
مراكب فيه من إحساس بالعدالة مرهف ، شديد الامتياز .

والشواهد الأدبية الوحيدة التي كان يستطيع أن يسير على هديها لم تكن سوى
عموميات بجملة كالتي ترد أحياناً في الشعر ، كما كانت إلى حد ما قواعد لاتبجء
مباشرة وصريحة ، بل ملخصة وضمنية ، وذلك عندما يمدح الشاعر بعض الناهين
من الأفراد ، أو يذمه .. لتسكبه بفضيلة من الفضائل ، أو تجافيه عنها .

(١) وليس « محمد » هو الذي يستن الشريعة الإسلامية ، ولكن هكذا يريد الغربيون .

فإذا أحببت إحدى القبائل مسعى لرجل أجنبي عنها في طلب الثأر ، وأبت
أن تتخلى عن ابن من أبنائها كان قد تورط في نزاع دموى ، راح (زهير) يمدحها
بقوله :

كرام ، فلا ذو الوتر يدرك وتره لديهم ، ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم

و فهو يصور قواعد السلوك الصائب بمتهى الزوج ، ولكن بغير الطريقة
التي ترضى المشرع . . . ثم إن أدب الحكمة كان يزود الناس بمدخرات أخاذة
من الحكم الخلقية الماثورة .

والبغى يصرع أهله والظلم مرتعه ونخيم

و ولكن الغي لم يكن ليجد أى مرجع أنهل منه عندما تقضى عليه الظروف
بتعريف الظلم ، أو تعيين الطريقة التي ينبغي أن يتبعها القانون في المنازعات
المدنية (١) . .

والمخالفات هنا واضحة مفضوحة ..

فإذا كان القرآن قد سلك الترغيب في مكارم الأخلاق مسلك الإنارة الوجدانية
فليس معنى ذلك أنه يطرق النفوس كما يطرقها الشعر وما يحمل من صور المدح
أو الذم لخلق من الأخلاق ، أو عمل من الأعمال .

و فرق كبير بين صنيع الإسلام في هذا ، وبين ما يتضمن الشعر من فصاح
وحكم . . فإن القرآن تشريع ملزم . . يتبع العمل السيء بالجزاء السيء في العاجل
والآجل معاً . . وليس كذلك ما يجيء في الشعر مما يمدح أو يذم من أخلاق ، فإنه
لا إلزام فيه ولا متوجه به إلى جهة عليا تملك من الناس ما لا يملكون هم من
أنفسهم . . . وتجازى الخير بالخير أضعافاً مضاعفة ، وتجزى بالسيئة على قدرها
أو تعفو عن مفرقتها !

* * *

هذا ، وقد اختلفت نظرات بعض الناظرين في سيرة الرسول من المسلمين ،
وغير المسلمين ، فلم يستطيعوا أن يروه بشراً رسولاً .. يعطى للبشرية فيه حقها ،
كما يعطى النبوة منه حقها ..

فلقد رأى كثير من غير المسلمين أن تابس النبي بالحياة البشرية لا يلائم النبوة ،
ولا يوائم الرسالة السماوية التي اختير لها .. فهم يكادون يقولون : إن النبي ينبغي
أن يحيا حياة الملائكة .. لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، ولا يتزوج وقد سبقوا
إلى هذا القول بما قاله كفار قريش عن النبي فيما حكاه القرآن عنهم : وقالوا
مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ؟ (١) .

وكثير من المسلمين قد دخل عليهم من هذه المقولات ما عمى عليهم الرؤية
الصحيحة . للبشرية القائمة في كيان النبي فحاولوا أن يصفوا حساب البشرية من
كيان النبي ، وأن يروا النبي ما كالأبشرا رسولاً ..

ولعل أكثر ما لهج به غير المسلمين من سيرة الرسول ، وحاولوا أن يتالوا
من مقام النبوة هو زواج النبي ، وما اجتمع في بيت النبوة من زوجات ..

فلقد كان هذا الجانب من حياة الرسول أقرب شيء يمد إليه أعداء الإسلام
أيديهم .. ويبسطوا فيه ألسنتهم كلما أرادوا أن يهاجموا الإسلام في شخص نبيه
السكريم .

ولهذا فإننا سنقف عند هذه المسألة وقفه نلقى فيها هذه المفتريات ، ونكشف
عن زيفها ، ونقول قولة الواقع عنها ، وكلمة الحق فيها .

(١) سورة الفرقان آية ٧ .

الباب التاسع

بشرية الرسول

ونعود بعد هذه الوقفة التي وقفناها مع سيرة الرسول ، وما وعى التاريخ منها ، وما ألقى إليها القصاص والمؤرخون من إضافات ، وما أدخل عليها الوضع ، وأصحاب البدع والأهواء من ألوان الباطل الزيف ، ليلبسوا الحق بالباطل ، وليشوهوا معالم هذه السيرة الوضيئة المشرقة .

نعود بعد هذا لنتنظر في موقف الرسول نفسه من جلال النبوة وروعها ، وما كان يأخذ الناس من هذا الجلال وتلك الروعة !

وليس في مقدور أى إنسان مهما يكن إدراكه لبشرية النبي وتيقنه منها ، أن يحبس في نفسه تلك العواطف التي تجيش أمام هذا الجلال المهيّب الذي لا يرى في هذا الوجود إلا في ظلال النبوة ، وفي رحابها السنى الظهور !

وحسبك أن تذكر هنا ما يروى عن موقف عمر بن الخطاب حين صدك سمعه بقولة من يقول : إن النبي قد مات وكان قد سبق ذلك توعدك وشكاة من الرسول ، حالت بينه وبين إمامة المسلمين للصلاة ، فأقام أبا بكر مقامه فيها !

لقد أنكر عمر — كما يقول المؤرخون — هذا القول ، وردده على قائله في صرامة وعنف .. بل يقال : لأنه سل سيفه ، وتوعد من يقول هذه القولة بأن يعلوه بسيفه ! ، بل ويقال أيضاً : إن عمر قال : إن رسول الله لم يموت ، وإنما ذهب لميقات ربه ، كما ذهب موسى ، وسيمود ليقطع السنة قوم كذبوا وضلوا !

وسواء أكانت هذه الروايات صحيحة في جملتها أم غير صحيحة ، فإن فيها دلالة على هذا النعور المذهل الذي طغى على المسلمين حين نعى إليهم النبي

الكريم . . حتى ليبلغ بهم هذا أن ينكروا على الموت أن يتخطى حدوده وينال من الرسول ما ينال من الناس !

ولاشك أن المسلمين كانت أسنتهم في هذا الوقت رطبة ندية بآيات القرآن الكريم التي تحدث عن الرسول ، وعن عراض البشرية التي تعرض له ، ومنها عارض الموت الذي لا مفر منه .

فلم يقف القرآن في أن يقرر للرسول نصيبه من هذا العارض الذي ينال كل نفس في قوله : « كل نفس ذائقة الموت » ، وفي قوله تعالى : « كل من عليها فان » ، لم يقف القرآن عند هذا ، بل أفرد للرسول قولاً خاصاً ، ينص في صراحة على أن الرسول ميت لا محالة ، كما يموت الناس جميعاً . . فقال تعالى : « إنك ميت ولإنهم ميتون » وقال سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

نقول : إن أي مسلم — بل إن أي إنسان — يقف من النبي موقف المتأمل في ذاته ، والمطالع لأحواله وتصرفاته ، والراصد لحر كاته وسكناته ، والمستقبل لنفحاته وبركاته — لا يستطيع أن يحبس ما يجيش في نفسه من عواطف الإجلال الذي يبلغ مبلغنا لانهاية له ، حتى ليكاد ينسى أنه أمام بشر يعين على الأرحم ، ويحيي في دنيا الناس !

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلم ما له في قلوب أصحابه والمخاطبين له من أثر قوى ضاغظ على عقولهم وقلوبهم . . لهم يرون إنساناً سماوياً يعيش معهم ، ويحيي حياتهم ثم إذا هر متصل بالسماء ، يتلقى كلام رب العالمين ، من رسول رب العالمين « جبريل » . . وإذا آيات القرآن تشرق من فم الرسول ، فتغمر المجلس نوراً علوياً ، وينتهي بها المؤمنون نشوة تكاد تطير بها الأرواح طيراناً من الأجساد إلى عالم النور !

يعلم الرسول ، بل ويرى تلك الآثار القوية التي يجدها المسلمون من شعاعات النبوة وأضوائها . . فيعمل جاهداً على أن يمسك بالمسلمين أن يذهب بهم الحال

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

إلى أن يقولوا فيه ما قال أتباع المسيح في المسيح . من أنه والله أو رب الله ، .
فما ترك الرسول الكريم حالا موأتية من أحوال أصحابه ، يكشف لهم فيه عن
الجانب البشرى منه إلا طلع عليهم به . ولقمتهم إليه ، وأمسك بعقوبتهم أن تضل ،
وبمشاعرهم أن تضطرب ، وعادتهم إلى ما يدعوم لآله دينهم من أفراد الله وحده
بالعبودية ، وإنزال المخلوقين جميعاً إلى مقام الانقياد للخالق والتصاغر أمام جلاله
وعظمته ! لا فرق في هذا بين نبي وغير نبي . بل إن النبي هو أكثر الناس معرفة
بهذه الحقيقة ، وأشدهم تنبهاً لها ، وقياماً عليها . .

شواهد من أحوال الرسول :

ولو أراد إنسان أن يقف من سيرة الرسول الكريم على شواهد هذه الحال
التي يكشف فيها لأصحابه عن بشريته ، وعبوديته ، وخضوعه لضرورات الحياة
الإنسانية ، وتلبسه بها - لو أراد إنسان أن يجد لهذا شواهد من حياة الرسول
لما كان له أن يتخير حالا دون حال ، أو يقف عند شأن دون شأن ، بل إن
سيرة الرسول كلها ، وأحواله كلها ، وشؤونها جميعاً شواهد عدول على أن
الرسول كان إلى جانب قيامه بأمر الدعوة وتبليغ الرسالة قائماً كذلك بتحديد
مهالم شخصية في نفوس أصحابه . ووضعها في إطار بشري خالص ، ليس فيه من
امتياز على غيره إلا ما فضل الله به عليه باختياره لتلك الرسالة السماوية واصطفائه
لها ، وإلباسه اللباس النفس والروحي والجسدي الملائم لها ، دون أن يخرج ذلك
كله عن أن يكون لإنسانا من الناس ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ! . .

القرآن وشخصية الرسول :

ولم تدع الشريعة الإسلامية تقرير بشرية الرسول وتوكيدها إلى الرسول وحده .
وإلى ما يقول عن نفسه من أنه إنسان قبل أن يكون رسولا ، وأنه بحكم هذه
الطبيعة يعيش في مجال الإنسانية . ويتحرك في محيطها . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا
إلا ما شاء الله !

لم تدع الشريعة الإسلامية للرسول وحده أن يكشف لأصحابه عن هذه الحقيقة، بل جعل ذلك أيضاً وحياً من السماء، مستطوراً في كتابها المنزل على النبي . . حتى لا تترك سيلاً لتأول أن يتأول فيما يقول الرسول الكريم عن نفسه . . كأن يحسب هذا القول على سبيل التواضع من الرسول لربه ، والتواضع في مقام العبودية لخالقه . . وهو في واقع الأمر حق لا مريبة فيه ، وإن حمل معه ما حمل من الولاء والخضوع والتواضع لله رب العالمين ؛

من أجل هذا تكررت في آيات الكتاب الصور التي تحدد شخصية الرسول، وتتمها في الإطار البشري ، الذي لا يسمح لتباعه أن يخرجوه من هذا الإطار، وإن بلغ ما بلغ من جلال ، وكأل .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، (١) ، فالآية تتجه إلى الرسول أولاً ، ليعلم من نفسه أنه بشر ، وهو عالم فعلاً ، ولكن ليكون ذلك تقريراً ، وتوكيداً لهذا العلم ، وتوجه تافياً إلى من يعينهم أمر النبي من المؤمنين وغير المؤمنين ، ليعلموا أن هذا الإنسان المتسل بالسماء المحلى بالسكالات ، ليس إلا بشراً من البشر ، وإنساناً من الناس . .

ويقول سبحانه لنبيه أيضاً : « قل سبحان ربي . . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » (٢) . . وهذا القول الذي أمر الله نبيه أن يقوله إنما هو رد لما كانت تريد قرين منه ، ودفع لهذا الفهم الخاطئ لطبيعة النبي ، إذ حسبوا أن النبي إله قائم في الأرض يتصرف في الوجود كيف يشاء ، فجاءوا يطالبون النبي بما حكاه القرآن عنهم . « وقالوا لنؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء . . ولنؤمن لرؤيتك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . . قل سبحان ربي . . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » . . إنه بشر . .

(٢) سورة الأعراف آية ٩٣ ،

(١) سورة السجدة آية ١٠ ،

(١) - ٢١٢ -



وكونه رسولا لا يخرج منه عن البشرية ؛ ولا يلجوع له أن يأتي بغير ما يرسل به ؛
ويوحى إليه ١ .

ولا يقف القرآن عند حد القول الصريح ببشرية الرسول ، بل يذهب إلى
أبعد من هذا فيقرر أن للرسول كل خصائص البشرية ، ومماتقتها . لأنه كسائر
الناس ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، وأنه لا يهدى من
أحب ، ولا يملك الشفاعة إلا بإذن ربه ، وأنه يحزن . ويألم . ويضيق صدره .
وتقر عينه .

وهذه هي طبيعة الحياة البشرية ، وللرسول نصيبه منها .

يقول الله تعالى : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله ، ولو
كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما صنعني سوء . . إن أنا إلا نذير
وبشير لقوم يؤمنون » (١) . . . ويقول سبحانه : « إنك لا تهدي من أحببت ،
ولكن الله يهدي من يشاء » (٢) . . . ويقول سبحانه : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق
بما يمكرون » (٣) . . . ويقول عز من قائل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون
ربهم بالنداء والشوق يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ،
ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ؛ وانبع هواه وكان أمره فرطاً » (٤) . . .
وهذه كلها منازع بشرية ، تهده إليها نفس الرسول ، كما تهده نفوس الناس ،
فيدعوه الله سبحانه إلى تجنبها ، والحذر منها ١ .

أما دور الرسول في مجال التطبيق العملي لتقرير بشريته بين أتباعه فهو كما قلنا
دور ممتد من أول بعثته إلى أن الحق بالرفيق الأعلى . . . وشواهدة تنظم حياة
الرسول كلها في هذه المرحلة العظيمة من حياته .

ولعرض هنا بعض مواقف الرسول الكريم في هذا الشأن :

١ . . . جاء أعراب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض شأنه ، فلما دافاه ليحدث إليه

(٤) . سورة القصص آية ٩

(٤١) سورة التكوير آية ٤٨ ،

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨

(٣) سورة النحل آية ١٢٧

اضطرب كيانه ؛ وتلثم لسانه ؛ لما أخذته من هيبة الرسول وجلاله . . تلك الهيبة وذلك الجلال اللذين لم يبعثهما في نفس الأعرابي ما تبعث في النفوس أبهة الملك وصوله السلطان بما يحشد لها من حرس ؛ وحجاب ، وبما يقوم فيها من ألوان الترف ؛ وعجائب التحف ونواديرها — وإنما مبعث تلك الهيبة وذلك الجلال هو ما تشع به ذات الرسول الكريم من عظمة نفسية ، وصفاء روحى . . تسرى منها إلى من حوله موجات من النور العلوى ، يجد لها الناس مسأ أشبه بمس الكهرباء ١

ونعود إلى ذلك الأعرابي ، فجدده بين يدى الرسول ، وقد علاه الهر ، وبلله العرق . . وإذا الرسول الكريم يبعث إليه نسمة فدية عطرة ، تشيع في كيانه الطمأنينة والسكينة ، ويسقيه من رحيق كلماته الطيبة ما ينهش روحه ، ويمسك أوصاله . فيقول له رسول الله ﷺ : هون عليك . . فإنى لست بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ١ . .

إنه لإنسان من الناس ، ولد لأبوين كما يولد كل لإنسان . . ثم هو — وإن كان نبياً — لم يبتعد عن الجماعة الإنسانية بما يتخذ الموك والاباطرة من أفتنة الابهة والسلطان التي تعزهم عن المجتمع الإنساني . . إنه ابن امرأة تأكل القديد .

٢ — وأخرج أبو داود في سننه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت . ثم أتى السقاية ، فقال : اسقوني . فقال له ابن عباس ألا نخوص له سويقاً (١) . . ؟ فإن هذا يتناول منه الناس ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : اسقوني بما يشرب الناس . . !!

وكيف يعتزل النبي الناس ، ويعتزل الحياة التي يحيونها وهو الطبيب الذي يعالج أدواءهم ، ويطلب علاجهم ؟ وهل يعتزل الطبيب مرضاه ؟ وهل يرضى الأب أن يكون في خير لا يصيب منه أبناؤه خطأ لحظة ؟

وهل الذين في ريب من رسول الله ، ومن رسالته أن يقنعوا عند هذه الأحوال منه ليروا ماذا كان يطلب بدعوى الثموة والرسالة إن لم يكن نبياً صريلاً ؟

(١) السويق : الناعم من دقيق الحنطة والشعير .

وما المأرب التي قصد إليها ، وما النفايات التي حققها ؟ أين المال الذي جمع ؟ وأين التاج الذي وضع على رأسه ، وأين متع الحياة التي تحف به ؟ وهل يدخل لإنسان في مثل هذه التجربة ، ويدعى مثل هذه الدعوى ، ويحتمل فيها ألوان الضرر والأذى ، ثم إذا استجاب الناس لدعوته ، وداروا حول مشيخته ، وساقوا إليه مقام النصر ... تفض يديه من كل هذا ، وعاش على الكفاف من كل شيء . . . ؟ في المطعم ، والملبس ، والمسكن . . . ؟ فكأنت حجراته التي يأوى إليها حجارة مرصوة . . . سقفها من الجريد . . . لا تزيد على أي كوخ أو خيمة . . . وكان أكثر طعامه خبزة الشعير ، وإدامه الخل . . . لا يشبع منهما . . . وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستقر قد ناراً ، إن هو إلا التمر والماء . » (١) . . . وعنها رضي الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله . » ١ .

وعنها رضي الله عنها قالت : « ولقد مات - أي النبي - وما عندي شيء يأكله ذئب كبد إلا شطر شعير في رفل . »

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء . » ١ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجه (٢) ، ولا خبز له مرقن ، ولا رأى شاة سميطاً (٣) قط . »

فهذا طعامه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الله له تلك الفتحوات التي شملت الجزيرة العربية كلها . . . طعام غليظ خشن ، وهو مع غلظه وخشونته قليل لا يشبع .

وإذا جلس صلى الله عليه وسلم للأكل جلس مستوفراً على الأرض .

(١) الشفا بحزه ص ١٩ هـ

(٢) السكرجة : الصنعة التي يوضع فيها الطعام .

(٣) الشاة : السميط التي تشوى بالنار .

لا ينصب له خوان ، ولا يتكلم على أريكته أو نحوها . وكان يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » (١) .

وأما فرشته الذي ينام عليه فكان أدمأ حشوه ليف ، وعن حفصة رضي الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلى الله وسلم مسحاً (٢) ، ثننيه ثنيتين ، فينام عليه : فثنياه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرشتهموا لي الليلة ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال : ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي » ١

لأنه نبي صاحب دعوة ، وليس طالب ملك ، ولا صاحب دنيا ... فلقد سيقت إليه الدنيا بخدافيرها ، وترادفت عليه ، فتوحها ، إلى أن توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله .. وكان يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

٣ — قالت أم العلاء الأنصارية :

لما قدم المهاجرون المدينة .. اقترعت الأنصار على سكنهم ، فصار لنا عثمان ابن مظعون في السكنى فرض .. ثم توفي .. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل .. فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب .. فشهادتي أن قد أكرمك الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ قالت : لا — والله لا أدري ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير .. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ، ولا بكم ! (٣)

ولأنه صلوات الله وسلامه عليه — وإن يكن نبياً — بشر ، مقيد بقيود البشرية .. لا يعلم الغيب ، ولا يدري ما يفعل به ولا يفعله .. فذلك مما استأثر الله سبحانه وتعالى به .. « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » (٤) .

٤ — عن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تنظروني كما أظرت النصارى ابن مريم .. إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله .

(٢) المسح : الكساء من الشعر .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٥

(١) الشفا جزء ١ ص ٦٦ .

(٣) النهوات لابن تيمية ص ٩

وعن أنس رضى الله عنه : إن كانت الأمة من إمام أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتمنطق به حيث شاءت ، حتى تقضى حاجتها .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتري سراويل ، وقال للوزان زن وأرجح . فوثب إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها ، ف جذب النبي يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بك . إنما أنا رجل منكم .. ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحملها ، فقال : صاحب الشيء أحق بشيئيه أن يحمله (١) .

أفبقي بعد هذه التربية القولية والعملية من رسول الله لأصحابه ولاتباعه ما يدع في نفوسهم إثارة من شك في بشرية النبي ؟ وأنه عبد الله ، ورسول الله ؟ كلا ، ثم كلا .

ما شهدت به الأعداء !

ولكثرة ما كان في حياة الرسول من صور التواضع ، ومن المواقف الكاشفة عن طبيعته البشرية — لم يستطع الدارسون لسيرته — من غير المسلمين — أن يخفوا هذه الحقيقة ، على رغم ما لديهم من استعداد طبيعي للبحث عن مواطن الضعف في تلك السيرة الطيبة ، والتوصل إلى ذلك بأوهى الأسباب ! هذا إذا كان الباحث طالب حقيقة ، وقليل من هؤلاء من وقف موقف الحياد والإنصاف من سيرة النبي . أما من كان من أولئك الباحثين من نصب نفسه للنيل من رسول الإسلام فإنه يتعمى عن الحقائق ، ويقف متمسكاً في ظلال الشكوك والريب التي يسوقها مساق اللمز والنمز !

نقول إن المؤرخين من غير المسلمين — منصفين أو مغرضين — لم يستطيعوا أن يخفوا ما كان في سيرة النبي . من مواقفه التي كشفت بها عن بشريته ، وعمل على إزاحة التصورات التي كانت ترتفع لأنظار أصحابه ، مما تفيض به مشاعرهم من

(١) سورة العنكبوت آية ٥١

عواطف الإجلال والتعظيم الممزوجين بالولاء المخلص ، والحب الخالص لذات
الرسول وصفاته !

١ - فهذا العالم الفيلسوف الإنجليزي ، ول ديورانت ، يقول : ومع اصطلاح
النبي بهذه الشؤون كلها - أى القيام بأمر الدعوة وتنظيم شؤون الحرب والسلام في
المجتمع الإسلامى - فقد كان حجم التواضع إلى درجة تحييه إلى النفوس ، وكثيراً
ما كان يعترف أن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتاج على الذين يظنونه أكثر من
لإنسان يجرى عليه ما جرى على الناس جميعاً . من موت ، ووقوع في الخطأ .. ولم
يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات .. (١) .
هذه قولة رجل على غير دين الاسلام ، لا يحمل عاطفة تعطفه على هذا الدين ،
وإن يكن في نفسه شيء فهو أن يمجده المغامر والعشرات !

فلقد عز عليه أن تفلت منه هذه الحقيقة ، وأن تغلبه شواهد التاريخ الصادقة عن
أن تفلت هو منها - عز عليه هذا ، فألقى على ذلك الحقيقة التي قررها مرغماً
أنفاساً من صدره المريض ، يتصاعد منها دخان خبيث يخلط بين الحق والباطل ،
ويجمع بين العسل والسقم .. فيقول بعد هذا القول الذي أرغمه الواقع التاريخي على
قوله - يقول : لكلمة - أى النبي - على هذا لم يكن يستدرك أن يستعين
بالوحي في الأغراض البشرية والشخصية كما حدث حين نزل الوحي مؤيداً
زواجه من زوجة زيد متبناه » (٢) .

وعجيب من مثل هذا العالم الفيلسوف أن يسمح لعقله بهذا العبث بالمنطق
والخروج على المثل القائل : « إذا كنت كذوباً فكنت ذكوراً » !
لأنه يعترف بأن « محمداً » نبي . .

فهل يتفق ووظيفة النبي أن يكذب على الله ؟ وأن يصطنع وحيماً يوحيه إلى
نفسه ، ثم ينسبه إلى الله ، ليخدم به حاجة من حاجات نفسه ، ويشبع به هوى
من أهوائه ؟

(١) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٤٣ .

(٢) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٤٣ .

أمن يفعل هذا يكون نبياً حقاً .. ؟ وهل يكون رسول السماء خائناً لرسالة السماء ؟ إن هذا اتهام لله - سبحانه - إذ لم يكن الرجل الذي اختاره لمل رسالته إلى الناس بالرجل الأمين الصالح لأداء هذه المهمة . . . وسوء اختيار الرسول يلقي اللائمة كلها على من أرسله !

هذا ما يجرى عليه منطق الناس في الحياة - فهل يصح أن يكون من كمال الإنسان حسن اختياره لمن يؤدي عنه أمراً من الأمور، ثم لا يكون هذا السكال لله في اختياره لأنبيائه ورسوله ؟

إن القول بأن أنبياء الله ورسوله يتقولون على الله ... فيه تجديد على الله وكفر به ! وأهون من هذا أن يشتم النبي بأنه غير نبي . . . فهذه تهمة ، وإن كانت شنيعة ، إلا أنها دون تلك التهمة التي تقر النبي في مكانه من النبوة ، ثم ترميه بالكذب على الله ، والافتراء على ما أرسل به : « ومن أظلم مما افتري على الله كذباً . . . أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء » (١) .

إن المنطق الذي يقبل مثل هذا القول في شأن الأنبياء ، منطق مقلوب ، يتأذى منه العقل ويتقزز منه . . .

٢ - وهناك عالم فيلسوف آخر كان له في هذا الجانف من حياة الرسول نظرة أشمل وأعمق من نظرة المؤرخ العالم « ول ديورانت » . . . كما كانت نظرتهم تلك أبعد من الهوى ، وأقرب إلى الحق من نظرة صاحبه ! إنه جوستاف جرونباوم مؤلف كتاب « حضارة الإسلام » . . . فقد وقف وقفة طويلة عند تلك القصص الكثيرة التي أدخلها القصاص ، ورواة الأخبار على سيرة الرسول ، وكشف عن تلك الدوافع التي نسجت من أجلها تلك القصص . . .

فهو يعترف أولاً بأن حياة الرجل العظيم تنطوي على شرارة إلهية ، تجعل لصاحبها شأنًا في نظر أصحابه ، ومكانًا من قلوبهم . . . وأن الأعمال العظيمة التي

تجري على يديه تطلق في الناس أعنة الخيال لينسجوا منها ضروباً من القصص التي لا يمسكها منطق ، ولا يحكمها عقل ..

يقول « جرونيباوم » : « إن انطواء حياة الرجل العظيم على قدر من الشرارة الإلهية أقوى بأساً مما لدى إخوانه الضعفاء لآية حافية بالمعاني للعالم كافة ا
» ذلك أن رسالته تؤذن بيده مرحلة جديدة في قصة هذا العالم .

« ولا شك أن القوى التي ينفك إساها ستكون رهن إشارته ، وستكون أهم أدوار مقامه في هذه الأرض موضع الترحاب أو المحاكاة من العالم الذي كان مجرد ظهوره فيه ذا أثر في حظه ومجراه ا

« وإن القلوب الساذجة الفقل لتروح تنسج الخوارق وشياً تحيط به حياة الرجل المزله العظيم ، غافلة عن أن هذه الخوارق تنفض من شأن النصر الإنساني الذي يحرزه بطلمبا (١) » .

وطبيعى أن « جرونيباوم » يتخذ من مدلول كلمة « العظيم » مرتقى يرتقى به إلى الحديث عن العظمة السكامة في النبي ... فهو إنما يناقش هنا قضية المعجزات التي تنسب إلى نبي الإسلام .

واللفتة الذكية البارعة من « جرونيباوم » هنا هي إشارته إلى غفلة أولئك الذين يرون أن عظمة النبي إنما تتجلى في كثرة الخوارق والمعجزات التي كانت بين يديه — وهم في الواقع إنما ينتقصون من كفاح النبي ، ويقطعون الطريق على هذا الكفاح الإنساني أن يتلبس بالحياة . ويتقى بأحداثها ، وينتصر عليها ... لأنه حينئذ انتمصار يفوح من عرق الجهد الشخصي ، وهو جهد يحسب له ، وينسب إليه .. أما الخوارق والمعجزات ، فلا يملك الرسول من أمرها شيئاً . وإنما هي أمانة تلقاها من السماء وأداها للناس !!

(١) حضارة الإسلام ص ١٢٤ .

ثم ينتقل « جرونيباوم » إلى موقف النبي من تلك الموجات التقديسية التي كانت تتدافع في عقول أصحابه وقلوبهم .. فيقول :

« حرص محمد مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله ، لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختيار رسولاً له تعالى . . .

« وفيما عدا هذه الخصوصية — خصوصية اختياره للرسالة — ليس ثمة شيء يفرق بينه وبين إخوانه من البشر .

« وإن علمه بالغيب محدود بما يريد الله أن يعلمه إياه .

« فكل ما لم يرشده إليه الوحي فأمر قد يضل فيه السبيل .

« وليس له بهمل المعجزات يدان .

« وكلما لج أعداؤه في تحديهم إياه بأن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أن ذلك ، غير عابئ بسخرية الساخرين ، وخيبة أمل المتشككين . . ذلك أن رسالته نفسها هي آيته ، وأمارته ! :

« وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أننا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . (١) ...

ثم يعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« على أن حصافة « محمد » لم تجده نفهاً . . فهما أنكر لم يكن إنكاره ليتنع العرب أنه بشر مثلهم ، تعوزه البصيرة الحارقة التي تنفذ حجب الغيب وآفاق المستقبل .

« ولم يكذب يتقاضى على وفاته طويل زمن حتى ثار الخيال الشعبي متغلباً على نصوص الوحي نفسها ، ومغظياً على الاحتجاجات الفاترة التي أبدأها ذوو الضمير الحى من الفقهاء — وراح يقص من جديد سيرة النبي ، واضعاً إياه في صورة الساحر القوى II

« ولقد رانت عليهم تلك الرغبة الساذجة في تعظيم البطل برفعه فوق درجة الإنسانية إلى أقصى حد مستطاع ، وظهرها على ذلك التقليد الهريق الذي يؤكد من أهميته الشخصية الغدة ، بما ينسب إليها من تعاون العالم الروحي كله وإياها... »

ثم يعرض المؤلف صوراً من القصص التي يرى أنها أضيفت إلى السيرة النبوية لترفع من شأن النبي — كما توهموا وأخضعوها .

وهنا يكشف عن العناصر الغريبة التي دخلت في تاريخ السيرة : وأضيفت إليها . فيقول : « وشم أقاصيص عن معجزات زرداشتمية ، وهيلينستية ، وبوذية ، تنسب بمنتهى الحرية إلى شخص الرسول ! »

ثم يقول : « وإن اللهفة على تمجيد رسول الله ، وإخراجه عن طن طبيعه البشر لأمر كانت تحركه في مدارج معينة تلك النزعة المطوية في الناس عامة ، بل في نفس محمد نفسه (٢٤) في إظهاره في صورة النبي المطابق لسنة الأنبياء كافة ! »

« فكل ما أثبتت به دعاوى الرسل يعاد قوله في «محمد» ! فليس يكفي أن تشهد له أعماله ورسالته ، بل لابد من تسويغ الإيمان برسالته ، وذلك على الأقل بإظهاره في قوة الأنبياء الآخرين المرهوبين . »

ثم يقول : إنه من المحتمل أن هذه الأساطير كانت مقصورة في بادئ الأمر على غير المتعلمين ، وأن القصص المحترف كان المسئول الأول عن صوغها ونشرها . ولكن بعد فترة وجيزة شرح جملة الفقهاء بحموم الدلائل النبوية هذه جمعاً منظم !

« كان الفقهاء بين دافعين قويين . فإن الخيال الشعري كان يصر على اعتبار رسول الله نبياً صاحب معجزات .. ثم إن إجماع المؤمنين على المطالبة بالاعتراف بالعناصر الإعجازية في حياة «محمد» كان كافياً في حد ذاته لشل الفقهاء على الاستجابة لهم .. »

« إلا أن التحدي المسيحي الذي كان يطالب المسلمين بتقديم الشواهد الخارقة على نبوة «محمد» اضطر هؤلاء الفقهاء إلى استجابة سرية ! »

وقد استمر ضجيج المجادلين المسيحيين عنيفاً لا تهدأ له مفاخرة حتى بعد أن أسرف المسلمون في الاستجابة لتلك المطالب المسيحية (١) .
وهذا الكلام كلام رجل منصف إلى حد ما ، فقد كشف عن طبيعة هذا القصاص الخرافي الذي دخل به القصاص والوضاع على سيرة الرسول ، كما كشف عن تلك الدوافع التي اندفعت منها هذه القصص في صورها الخيالية المبهلة !
على أن « جر ونيباوم » لم يرض لنفسه أن تسخو بهذه الحقيقة ، وأن تقول كلمة الحق ، ولو كانت مرة . . فرمى تلك الرمية الخبيثة الماكرة خلال كلمات مشرقة يدعمها الحق ، ويزينها المنطق حتى لتكاد هذه الرمية تمر دون أن يتنبه لها أحد . . .

فيقول فيما نقلنا عنه آنفاً : « وإن اللفظة على تمجيد رسول الله وإخراجه عن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه في مدارج معينة تلك النزعة المطوية في الناس عامة بل في نفس محمد نفسه . في إظهاره في صورة النبي المطابق لسنة الأنبياء كافة ! !

« بل في نفس محمد نفسه ، ! .

كذب مفضوح بشهادة أهله . . فقد قرر المؤلف من قبل أن النبي كان حريصاً أشد الحرص « على أن يؤكد للناس مدة رسالته أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية . . وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولاً لله تعالى . وكلمة أعداؤه تحديهم لإياه في أن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبي ذلك ، غير عابئ بسخرية الساخرين . . ولا خبيثة أمل المتشككين) . . هذا ما يقرره المؤلف ، فهل يتفق مع هذا القول أن يقول : إن في نفس محمد ، نزعة تنزع به إلى تمجيد نفسه . وإخراجه عن طبيعة البشر ؟

أهذا من ذاك ؟ كلا . فشتان بين الحق والباطل . وبين الرأي والهوى .
وما نحسب المؤلف كان على غير معرفة كاملة بسيرة الرسول حتى نجد له

(١) حضارة الإسلام ص ١٢٤ .

العذر لهذا الخلط المشين . . فالعلم الذى بين يدي الرجل من تلك السيرة الكريمة قد أتاح له أن يبني آراء سديدة ، وأن يصدر أحكاماً عادلة . . ولكن الذى أتى منه هذا الكاتب أنه لم ينظر إلى الرسول على أنه مبعوث السماء ، وترجمان الملائ الأعلى ، وإنما نظر إليه فى حدود الإنسان الذى لاصته له بالسماء ، وأن فى هذا الإنسان جانباً من جوانب العظمة التى تبرز فى كثير من الناس على اختلاف الأمم والأزمان .

ولو نظر هذا العالم الكبير إلى « محمد » على أنه نبي . لما رعى هذه الرمية الطائشة ، التى لا تستند إلى شيء من الواقع الذى يعلمه علم اليقين من سيرة الرسول والذى لم يستطع أن يخفيه ، فقرر فى أول هذا الحديث أن « محمدأ ، قد حرص مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولاً له تعالى . . فكيف يتفق أول هذا الحديث مع آخره ؟؟ لأنه نضيج حقد قديم على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام لم يستطع هذا العالم الكبير أن يحبسه فى صدره فتمثلت منه عن قصد . أو غير قصد .

إن أعظم العظمة فى « محمد ، أنه بشر ، وأنه فى ثوب البشرية هذا استطاع أن يعاو على الضعف الإنسانى ، وأن يقهر ظلام الطين الذى خلق الإنسان منه ، وأن يحيل هذا الظلام نوراً مشعباً يضيء الوجود ، ويكشف للناس الطريق إلى السماء . . إلى عالم الحق ، إلى الله رب العالمين .

إن بشرية « محمد ، وما بلغ بها الله من كمال وجلال لشهادة قائمة بين الناس ، تحلثهم أطيب الحديث وأصدقه عن الكمال والجلال المودع فى الانسانية ، والمنظرى فى كيانها ، وإن الطريق لمتنوح أمام الإنسان إلى التحليق فى آفاق الكمال إلى ما لا نهاية . على قدر ما يندل من جهد للاستسلام على نزعاته وأهوائه . . وأنه بقدر ما يمد بهمه إلى السماء ، وبقدر ما يفتح قلبه لأنوار الحق فيها ، يكون ارتفاعه وعلوه من عالم التراب .

الباب العاشر

المرأة في حياة النبي

اتخذ أعداء الإسلام من تعدد زوجات النبي ، ومن تعدد الزواج في الإسلام
مطعنا على هذا الدين ، واعتباره شريعة تركز مطالب الجسد البهيمية . ولا تعنى
بالجانب الروحي والنفسي في الإنسان !

ويصور أعداء الإسلام الشريعة الإسلامية من خلال هذه النظرة إلى تعدد
الزواج فيه — بأنه دين جماعة من الأعراب الثامهين في الصحراء ، المحرومين من
طيبات الحياة ، فكان من تدبير هذه الشريعة — لكي تجذبهم إليها ، وتفريهم
بقبولها — أن استجابات لأحلامهم التي كانت تطرق خواطرم في اليقظة
وتظهر على مسرح حياتهم في النوم ، فجعلت من مقرراتها تأويل هذه الأحلام
بإطلاق سراح هذه الخواطرم ، وإرخاء العنان لها لترعى حيث تشاء ، مما ينفذ
شهوات الجسد ، ويوسع جوعها !

فهناك النساء . . مثنى وثلاث ورباع . . للمسلم أن يتزوج أربعا ، فأربعا
يخلى فريقا ، ويمسك فريقا . . إلى غير حد محدود !

وهناك ألوان الطعام ، والمشتميات التي تمد المعدة بأوقود الذي يحيل هذا
الطعام إلى طاقات تستهلك في معركة الحياة مع المرأة !!

فإذا لم يجد المسلم بين يديه هذه المتع الجسدية كما تصورها له أحلامه وخواطرمه
في هذه الدنيا ، أحالاه الإسلام إلى وجود آخر يجد فيه تلك المتع على صورة آدم
وأوى ، بحيث جنات الخلد في الحياة الآخرة ، وحيث النعيم المقيم فيها ، وحيث
الحدود الولدان لمن يريد لها ، وحيث هناك الأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، ومن
عسل مصفى ، ومن نخر لينة للشاربين !

هذا هو المفهوم الذي يحاول أعداء الشريعة الإسلامية أن يظهروها به ويعرضوها في الناس على صورته .

وهم يتخذون من نبي الإسلام ، والقائم على شريعته غرضاً منصوباً لسبامهم الطائشة .. حين يعرضون من سيرة الرسول هذا العدد الكثير من النساء اللاتي تزوج بهن ، ويمدون تجاوز النبي عن العدد الذي أباحته الشريعة للمسلم ، وبإمساكه تسع نساء أو عشر أمعاً ، في حين أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من أربع - يعدون هذا التجاوز مما لآلة من السماء له ، إن كان ذلك بتدبير من السماء ، أو ليشاراً لنفسه ، وترضياً لها إن كانت شريعته من عمله ، ويقول أصحاب هذا القول : إن النبي جعل قانون شريعته بحيث يخضع لمطالبه ، ويستجيب لحاجته في هذا الباب .. !

فتراهم يقولون مثلاً :

« إن النبي حين يرى هذا العدد الكثير من النساء في حوزته ، ويرى أبصار المسلمين ، وغير المسلمين تتجه إليهن - حين يرى ذلك يحجى بقرآن يحرم على المسلمين أن يدخلوا بيته : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث .. إن ذلكم كان يؤذي النبي ، فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب .. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً » (١) .

ثم من جهة أخرى يقرأ على نساءه قرآناً يفرض عليهن فيه الحجاب : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقين فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً ، وقرنن في بيوتكن . ولا تبرهن تبرج الجاهلية الأولى » (٢) .

ثم من جهة ثالثة يزل قرآناً يبيح لنفسه ما لا يباح لغيره من ثم على شريعته :

(٢) سورة الأحزاب : ٣٢ - ٣٣ .

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .



« يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك
 بما آفاه الله عليك ، وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات
 خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد
 النبي أن يستنكحها ، خالصة ، لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم
 في أزواجهم ، وما ملكت أيمانهم — لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا
 رحيمًا ، ترجى من تشاء منهم ، وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت من عزلت
 فلا جناح عليك ، ذلك أذن أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ، ويرضين بما آتيتهن
 كلهن ، والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليما حكيما ، (١) »

كل هذا ، الذي يستزله « محمد » من قرآن ، أو يجيء به من عنده ، إنما ليبلغ
 به حاجة نفسه من النساء ، وليشبع شهوته منهن .

هذا هو نبي الإسلام في تصور المستشرقين له ، وفي نظر من نظر إلى الإسلام
 من الغربيين بوجه عام ..

لأنهم لا يرون حياة النبي إلا في جو « الحريم » ، ولا تقع أبصارهم من سيرته
 إلا على هذا الأفق ، لا يبرحه أبداً ، ولا يتحول عنه إلى غاية من غايات الحياة .
 أما الرسالة وأعباؤها . وأما الدفاع عن المجتمع الإسلامي وحمايته .
 وأما سياسة الحرب والسلم لهذا المجتمع . فذلك كله من وراء ظهر « محمد » ومن
 نافذة الحياة عنده .. هذا ما يقول به غير المسلمين ممن يرصدون حركات الإسلام
 ويتربصون الدوائر به .

أما مقطع الحق في هذه الآراء ، فلا نجب أن نفرده فيه بالحكم لها أو عليها
 كما لا نجب أن نقول فيها قولاً قبل أن نضع لإزائها الحقائق التاريخية الثابتة ،
 وقبل أن نشهد واقع الحياة على مضامين هذه الآراء ، وما فيها من عناصر التجاوب
 مع الطبيعة البشرية ، وتفاعلها مع الزمن ،

الرجل والمرأة :

الصلة بين الرجل والمرأة أمر طبيعي ، تدعو إليه الحياة . وتنادى به غريزة بقاء النوع .. تلك الغريزة التي تملأ كيان كل حي ، وتحمله على أن يستجيب لها . وينتهي إلى الغاية التي ترمى إليها ..

وأى خلل في هذه الغريزة يكون من أثره خمودها ، أو القضاء عليها — هو خروج على الطبيعة ، وانحراف عن الوضع السليم للكائن الحي فيها ..

فليس مما يعيب إنساناً من الناس أن يكون على الصحة والسلامة ، وأن تكون غرائزه الحيوية ، أو الجيوانية عاملة ، تؤدي وظائفها على الوجه الذي يحفظ وجوده في ذاته ، وفي نوره جميعاً .

أيعيب الإنسان أن يأكل ويشرب لأن الحيوان يأكل ويشرب ؟

أيعيب الإنسان أن ينام لأن الحيوان ينام ؟

أيعيب الرجل أن يتصل بالمرأة لأن الحيوان تتصل ذكوره بإنثاه ؟

كلا .. فإن بقاء الناس في الحياة مرتبط بما يحفظ هذه الحياة التي هي جسد ونفسي ، ويتناسل ، كما تتنسى وتتناسل الكائنات الحية جميعاً ..

نعم .. إن الإنسان يفارق الحيوان في أن له وراء هذه الحياة الحيوانية حيوات أخرى عقلية ، وروحية ، ونفسية !

ولا بقاء ، أو بمعنى آخر لاجود للحياة العقلية والروحية والنفسية لإنسان من الناس إلا في إطار هذه الحياة الحيوانية . التي من مستلزمات وجودها وبقائها الغذاء والتناسل !

وقد يقول المتفلسفة أو الروحانيون .. إن الإنسان لكي يكون إنساناً ينبغي أن يوهى الصلة بينه وبين الحياة الحيوانية ، بمعنى أن يجتزىء من الحياة الحيوانية بالقدر الذي يحفظ حياته وحسب ، وألا يتجاوز ذلك بحال أبداً ، فإن أى وقود

(م ٢٢ — النبي محمد)

ندبه الإنسان جسده . ويندئ به شهواته هو تبخير لجانب كبير من حيوانه العقلية والروحية والنفسية ، وهو تبيد لتلك الحيوانات ، وإضفاف لها ..

وفي هذا القول حق ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن التحيف على حاجة الجسد ومطالبه ، والمصادمة العنيفة لغرائزه ورغباته ، هو في الجانب المقابل للإفراط في الشهوات ، وتخممة الجسد بإشباعها .. كلا الأمرين غير محمود .. وخير الأمور أوسطها ، .. فلا الإفراط محمود النتائج ، ولا التفريط مأمون العواقب !

ولهذا كان من شريعة الإسلام القصد في كل شيء .. ومنه القصد في مطالب الجسد وحاجاته .. « وكأوا واشربوا . ولا تسرفوا .. » لأنه لا يحب المسرفين . وقد ذم الله الكافرين الذين لا يحيون إلا لأجسادهم ، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض . ولا يرجون حياة وراء هذه الحياة .. كل همهم أن تنال أيديهم ما يقدر عليهم من حياتهم الدنيا . والذين كفروا ، يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ، .. كما كان من تدبير الإسلام أنه حرم الرهبانية ، فقال نبي الإسلام : « لا رهبانية في الإسلام . » !

النبي البشر :

ونبي الإسلام بشر ، لم يقل هو أو لم يقل عنه أتباعه ، أو لم يتحدث القرآن الذي نزل عليه - إنه غير بشر . بل إنه يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، وكونه رسول الله ، ومصطفاه لرسالته لم يخرج ذلك عن طبيعة البشر ، ولم يخله من ضرورات الحياة البشرية .. فهو يجوع ، ويظأ ، ويشبع ، ويروي ، ويتزوج ، وينام ، ويستيقظ ، ويحزن ، ويسر ، ويتألم ، ويشكو .. ويبول ، ويتغوط .. إلى غير ذلك مما هو من شأن الناس ، في هذه الحياة !

وإذن فزواج النبي شأنه شأن كل مطلب من مطالب الحياة ، وضرورتها عند الناس ، فليس بدعاً إذن أن يتزوج ، وأن تكون له زوج وولد !

فالزواج في الإسلام - كما هو في الحياة - شريعة من شرائع هذا الدين ،

وسنة من سنه ، كما هو سنة من سنن الحياة ، وشريعة من شرائعها . لا يعدل
عنه إلا جائر ، ولا يزهده فيه إلا معتل سقيم !

يقول النبي الكريم ، النكاح سقئ ، فمن رغب عن سقئي ، فليس مني ، !

وهنا اعتراض لا بد منه ؛ وهو أن الذين أرادوا أن ينالوا من نبي الإسلام
وأن يشوشوا على شريعته لم يفتقروا عند زواجه لمجرد الزواج ، وإنما كانت
وقفهم وتطاولهم عند هذا العدد الكثير من الزوجات اللاتي تزوج بهن الرسول ،
من ثيبات وأبكارا ، ومن أجناس وألوان .

فإن هذا العدد الكثير من الزوجات المختلفات سنياً ، ولوناً ، وجنساً ، ماذا
كانت غاية النبي منه إلا المتعة ، وإلا الإسراف الشديد في هذه المتعة ؟
وظاهر الأمر يعطى لهذا القول شيئاً من المنطق الذي يقيمه على تلك الصورة ،
ويلبسه لباس القبول والتسليم .

إنسان يضم إلى بيته اثنتي عشرة زوجة ، فيهن غير واحدة من ذوات الجمال
والشباب . فماذا وراء ذلك إلا التمتع بهن ، ووصل حياته بحياتهن ؟ وماذا يقال
عن مثل هذا الإنسان إلا أنه مزواج منم ، وأنه زير نساء ، وأسير شهوة ؟

وماذا يبقى لإنسان من متجه آخر في الحياة ، يسكون له فيه شأن ومكان بعد
أن صرف وقته كله . وجهده كله في عالم الحريم . ودنيا النساء ؟

وهذا الظاهر الذي يوضع على أفواه الواقعين في سيرة النبي هذه المقولات
الزائفة — يخفي وراءه الحقيقة التي تقوم وراء هذا الظاهر شاخحة ، مشرقة ،
واضحة ، حتى ليسكون هذا الظاهر بمنزلة الظل الواقع تحت قدمي الإنسان في
رابعة النهار .

الحقيقة ، والظل :

والذي يعنى عن هذه الحقيقة ، ويفتح عينيه على الظل المرتسم منها ، لا يمسك
من الحق بشيء ، ولا يستدل على الحقيقة بدليل . . .

وكيف تقول عن إنسان إنه إنسان من صفته كذا ، وكذا ، وأنت لا تنظر



منه إلا إلى ظله الملقى على الأرض ؟ وكيف تأخذ من هذا الظل صفاته التي
تحدد شخصيته ، وتحدث عن ملامحه ؟ إن موقف الذين نظروا في سيرة الرسول
من غير المسلمين لم يكن أعدل من هذا الموقف الذي يقفه من ظل إنسان من
يريد أن يتعرف على صفات هذا الإنسان . . وهم من أجل هذا لم يروا محمداً
النبي ، وهم ينظرون في سيرته ، وإنما رأوا سواداً حسبوه سواد إنسان !

وهم من أجل هذا أيضاً راحوا يلتقون على هذا السواد أحكاماً مختلفة مضطربة ،
ليس فيها من الحق شيء ، وليس فيها من واقع أمره كثير أو قليل !

ومن عجب أن يضل كثير من المسلمين بهذه النظرات الخاطئة ، وأن
يجرفهم الخماس فيبادروا إلى خوض المعركة في هذا المستوى المنحدر في منخضات
التضليل ، ومناهات الخداع !

فزواج النبي بأكثر من امرأة وقد ذهب به أعداء الإسلام هذا المذهب من
التشنيع والتضليل ، ولم يحتسبوا فيه إلى عقل ، أو ضمير . بل استجابوا لنوازع
السكرامية والحقد — هذا الزواج وإن يكن ذهب به أعداء الإسلام — هذا
المذهب . فإننا نحن المسلمين . وأعني أولئك الذين تصدوا للرد على هؤلاء
الطاعنين — لم نحسن الرد على هذا التشنيع . ولم نقل ما ينبغي أن يقال من حق
في هذا الأمر . . إذ لم ننظر إليه في واقعه مجرداً عن هذا التصوير الخاطيء الذي
صوره الخصوم به ، ولم نخرجه عن هذا الإطار المصطنع الذي احتجروه فيه ،
فاندفعنا وراء هذه التصورات الخاطئة ، وعيننا بالرد عليها بما يشبه أسلوب
المخالفة في قضايا المنطق . . فإذا قال الخصم هذا ليل ، قلنا هذا نهار . وإذا قال
هذا الشيء أسود ، قلنا إنه أبيض . . نقول ذلك مجرداً عن القائل بهذا معروف لنا
مقدماً بأنه لا يقول في الإسلام وفي نبي الإسلام إلا مقولات الحقائق وأضدادها ،
وهذا الإحساس المتسلط على المسلمين من جهة غير المسلمين يجعل الذين ينتصبون
منا للرد على مقولات أعداء الإسلام لا يكفون أنفسهم أدنى جهد في هذا .
ولمّا حسبهم أن يأتوا بقلب الصورة التي جاء بها الخصم . لتكون هي صورة
الحق عندنا ، الذي نرضى عنه ، ونسعد به .

وقد عرفنا في مواقف كثيرة من قبل أن خصوم الإسلام لا يذهبون هذا المذهب الساذج في الهجوم على حقائق الإسلام . . لأنهم لا يقبلونها هكذا على هذا الوجه المكشوف ، بل لأنهم يرضون الواقع الإسلامي في صورته التي يعرفها المسلمون ولا ينسكرون بها ، ثم يسلمون على هذه الصورة — في حرص وحذر — سحياً رقيقة ماكرة لا تسكاد ترى ، تحمل في طياتها ألواناً متممة ، تتكاتف شيئاً فشيئاً حتى تلمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لذلك أحد ، إلا بعد أن يقضى الأمر وتذوح رائحة الكذب والافتراء !

وفي موقفنا نحن المسلمين من زواج النبي لم نكن لنذهب إلى أبعد من هذا المذهب الذي أشرنا إليه . وهو أن نلقى الخصم بحد ما يقول به . . وكفى !!

ومثل هذا الأسلوب لا ينجح الخصم ، ولا يخدم الحقيقة . . لأنه لا يقوم إلا على أكثر من التماس الادعاءات التي يلقى بها إلى الخصم في مقابل ادعاءاته . . سواء أكان ذلك مما يقتضيه الواقع ، ويتطلبه الحال ، أم كان بما حكمة وتسكناً . .

وفي هذه القضية بالذات وقع أكثر علمائنا في هذا ، وتورطوا فيه . .

فإذا قال أعداء الإسلام : إن « محمداً ، قد ركبته شهوة طاغية نحو المرأة فراح يتزوج الواحدة بعد الأخرى حتى بلغ نساؤه اثنتي عشرة زوجة — كان ردنا على هذا في كثير من الأحيان لا يتجاوز النظر إلى زوجات النبي ، ووضعهن جميعاً — عدا واحدة أو اثنتين موضع المحاللات على المعاش ، اللاتي لا يصلحن للرجال ، وإن صلحت منهن واحدة أو أكثر فقد كانت والنبي عنها في شغل شاغل بالدعوة وبلقاء الأعباء الثقيل ، ومواجهة الأحداث الموهلة التي جاءت من قبل أعداء دعوته ، ثم باشتغاله بالدفاع عن المجتمع الإسلامي وملاقاة أعدائه في ميادين القتال ، ثم في القيام على تربية المسلمين ، وشرح مبادئ الشريعة لهم . . وهكذا . .

وهذا دفاع حق ، ومقبول بلاشك . . ولسكنه إن أرضى الحقيقة ، ورضى عنه المسلمون فإنه لن يجد مقنعاً عند غير المسلمين . . بل وعند بعض المسلمين !

فلقد غفل هؤلاء المحامون عن حياة النبي قبل البعثة . وقبل أن يحمل هذا العبء الثقيل ، الذي نذبه السماء له ، وشغلته به !
فإذا كانت حياة النبي قبل البعثة ، وقبل حمل أعباء الدعوة . . في عهد الصبا والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته في الاستبداد والتحكم في كيان الإنسان ؟؟

لا بد أن يكون محمد ، شبابه ، وفتاه ، وما تدعو إليه دواعي الشباب والفتاه ! كان سليم البدن ، معافى من كل داء ، فكان من السلامة والصحة والقوة بحيث لا يرى إلا على أتم صورة للشباب العربي الممتلئ قوة وصحة ، في هذه البيئته التي لا يحيا فيها إلا الأقوياء الأصحاء !

وسيرة النبي الكريم تحدث عن قوته وبطولته التي ظل محتفظاً بها بعد أن قارب الستين من عمره ، وبعد أن مر بهذه الأحداث ، واحتمل ما احتمل من أعباء . . فكان يشهد الحرب ، ويخوض غمارها ، في ثبات وقوة وعزم . . وقد كان موقفه يوم أحد ، حين هزم المسلمون ، وفي حنين يوم انكشف عنه أصحابه مما أثار عجب أعدائه قبل أصدقائه الذين بلوا شجاعته عن قرب ، وخبروه عن تجربة . . .

يقول علي بن أبي طالب : « كمننا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . »

فإذا عن شباب النبي ، وهو ما هو هذا الشباب من القوة والفتاه ؟

إن من ينكر أن محمدًا ، كان في كيانه من الرغبة في المرأة ما في كيان أقوى شاب في بيئته إنما ينكر حقيقتين معاً . حقيقة تاريخية ، سجلتها مواقف النبي في الحرب . . وحقيقة شرعية هي سلامة البدن ، وصحة الجسد ، وكال بنائه لأنبياء الله ورسله . . وقد شهد الواقع لأنبياء الله جميعاً بهذه القوة الجسدية ، إلى جانب قواهم الروحية والنفسية .

وقد تحدث القرآن عن قوة موسى . . « قالت ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين » (١) .

(١) سورة القصص : آية ٦٢

وعن قوة يوسف : « قال اجعلني على خزائن الأرض .. إني حفيظ علم » (١) .
وعن قوة داود « وقتل داود جالوت » .. وكان جالوت هذا فارس الفرسان
ويطال الأبطال في عمره .

ونعم . إن « محمداً » كان له من القوة الجسدية رصيد كبير إلى جانب هذا
الرصيد العظيم من القوة الروحية والنفسية .

وهو بهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه ، وأن يغلب
دواعي القوة الجسدية ، وأن يحمي شبابه من أن تستبد به شهوة ، أو تغلبه
نزوة .. وهذا هو فارق ما بين السكال والنقص ، ويفصل ما بين الإيهان
والحيوان : توازن القوى الجسدية والروحية ، وتبادل بين مطالب الجسد
وأشواق الروح

فالنبي إذن على ما به من قوة جسدية ، وعلى ما فيه من رغبة قوية للرأفة ، كان له
من قوته الروحية ما يستطيع به أن يملك زمام أمره ، ويتحكم في هذه الرغبة ،
وينفق من هذه القوة بالحساب الذي لا يجور على شيء من حياته الروحية ،
ولا يوهن من هذه الصلة الوثيقة التي بينه وبين الملائ الأعلى !

وشواهد السيرة النبوية قائمة تحدث بلسان صدق مبين عن هذه القوة الروحية
التي كان يسيطر بها النبي على قوته القوية المنبثقة من الجسد نحو المرأة !

إن هذه القوة الجسدية ، والرغبة القائمة فيها للرأفة عند النبي — شأن كل
قوة جسدية عند أي إنسان — هذه القوة وما فيها من رغبة للرأفة لو أنها كانت
في كيان إنسان آخر غير النبي لجمت حياته كلها مغامرات في مراتع الشهوة ،
ولما تركت له لحظة يفرغ فيها لشيء آخر وراء هذا السعير المضطرم ، ولما كان له
في حياته حال غير هذه الحال !

ولكن « محمداً » بما أراد الله به من كرامة ، وما أفاض عليه من فضل قد أعطاه
حظه كاملاً من هذه القوة ، كما أعطاه حظوظه كاملة من قوى النفس والروح ،

(١) سورة يوسف : آية ، هـ

بُثرت قوته الجسدية في هذا المستوى العالى الذى كانت تجرى فيه قواه الروحية والنفسية ، بعيدة عن الرجس والدنس ، مبرأة من كل شائبة ، نقية من كل سوء ، لم يتزوج ، محمد ، إلا في الخامسة والعشرين من عمره .. ومع هذا فما أخذت عليه في فترة شبابه تلك الفترة الحرجة ، التى يحتل فيها توازن كثير من الشباب — ما أخذت عليه ميالة هوى ، ولا نظرة سوء ، وما كان منه غدوة أو روحة إلى مراتع اللهو ، ومواطن السمر التى كان يفضاها شباب قريش ، حيث يلهون ، ويسرون . .

لقد سلطت قريش كل ماتملك من قوى لتقع على سقطة أوزلة محمد ، فتأخذها بها ، وتفضحه على الملأ بأنه جاء بشريعة تحرم الزنا ، وتحرم الخمر ، وهو الذى كان من شأنه كيت وكيت ، ومن أمره مع فلانة وفلانة كذا وكذا . .

لم تجد قريش شبهة من الشبه في هذا المجال ، تقيم منها حجة لإسقاط دعواته ، وكان هذا الصنيع أقرب شئ وأيسره لينهى ما بينها وبين محمد ، من خصام ، لو أنها وجدت سبيلا إليه .

وهذه الحقيقة السافرة عن نقاء صفحة محمد ، قبل النبوة قد حملت غير المسلمين على أن يعترفوا بها ، لأنها أكبر من أن تنسكروا ، وأعرف من أن تخفى . . يقول «ول ديورانت» :

ولم يتعاط «محمد» الخمر التى حرمها هو على غيره ، (١) .

لم يكن ما عرف عن «محمد» من عفة وطهارة قبل البعثة ناجماً عن ضعف ، أو نخود في رغبته للبرأة ، وطلبه لها ، وإنما كانت تلك العفة وهذه الطهارة عن نفس نقية ، وروح طاهرة ، تأبى الخبث ، وتتأذى منه ، وتضيق به ! قال ، أبو العباس المبرد :

قسم كسرى أيامه ، فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج . . . !

قال ابن خالوية تعليقاً على هذا . ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم : ويعلمون
ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ا

و ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزءاً يرمه ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ،
و جزءاً لأهله ، و جزءاً لنفسه . ثم جزءاً لأجزاءه - أى الجزء الذى لنفسه -
بينه وبين الناس ، فكان يستعين الخاصة على العامة ، ويقول : أبلغوا حاجة من
لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم
الفرع الأكبر ، (١) .

هذه هى العظمة فى أرفع منازلها ، وأكمل أحوالها . إنه يملأ بشخصيته
الحياة كلها ، ويأخذها من جميع أطرافها . يتحكم فى كل شىء ، ولا يتحكم فيه
أى شىء . ا

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم
لإربه ، . . (صحيح مسلم جزء ٣ / ص ١٣٥) (٢) .

هذا ، وقد طلق النبي نساءه جميعاً شهراً كاملاً . فكيف كان صبره على هذا
الاتصال بينه وبين المرأة ؟

ولقد كان يطوف على نسائه جميعاً فى ليلة واحدة . فكيف هجرهن هذا الهجر
الطويل وقدر عليه ؟

إنه كما قلنا - قوة النفس ، و سمو الروح ، اللذان يتحكمان فى شهوة الجسد ،
ولا تتحكم فيهما شهوته ا

وإنه لمن الخطأ الفاحش أن يقول الدافعون لهذه التهمة الملققة : إن النبي

(١) الشفاء الجزء الأول ص ١٠٦

(٢) الإرب الرغبة ، والشهوة ، والمباشرة : الملامسة ، والمداعبة : مما ان يكون
الرجل والمرأة قبل اتصالهما .



صلى الله عليه وسلم كان قليل الرغبة في المرأة ، أو أنه قتل في كيانه الشهوة الداعية إلّا .

إن ذلك نقص في الرجولة ، وليس كالأكل كما يفهمه - خطأ - بعض من يطلب من بدأ من العصمة للنبي ، أو يسوق كالأكل إليه على تلك الصفة . . والنبي في هذا الذي كان عليه من قوة رغبته في المرأة ، وشدة طابه لها ، مع قدرته على مجرّها ، وإمساك نفسه عنها - أكل كالأكل ، وأسمى عصمة . . من كل كمال ، ومن كل عصمة .

يقول القاضي عياض :

النكاح دليل الكمال ، وصحة الذكورية .

وإن قلت : كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل ، وهذا يحيى بن زكريا عليه السلام قد أتى الله تعالى عليه أنه كان « حصورا » ، فكيف يثني الله عليه بالعجز لما تعدّه فضيلة ؟ . . وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام تبتل من النساء ، ولو كان كما قررته لنكح ؟ ؟

ويجيب القاضي عياض على هذا الاعتراض . . فيقول :

وفا علم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه « حصور » ليس كما قال بعضهم لأنه كان هيوياً (١) ، أو لا ذكر له ، بل لقد أنكر هذا بعض حذاق المفسرين ، وتماد العلماء ، وقال هذه تقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها ، كأنه حصر عنها ، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة في النساء .

وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها ، إما بمجاهدة النفس ، كعيسى عليه السلام ، أو بكتمانها من الله كيحيى عليه السلام ..

(١) أي يتهبب لقاء النساء ، والاتصال بهن .

ثم هي - أى القدرة على النكاح - فى حق من أقدر عليها ، وملكها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا . وهى درجة نبينا صلى الله عليه وسلم ، الذى لم تشغله كثرتهم - أى كثرة النساء - عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة لتحسينهن ، وقيامه بمحقوقهن ، واكتسابه لهن ، وهدايته لهن ، (١) .

على أن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبي مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة الإنسانية ، ويفضل الجوانب الأخرى التى تتجه إليها نزعات الإنسان ، ورغباته اتجاه أقوى لا يقل عن الاتجاه إلى المرأة ، والرغبة فيها !

فهناك إلى جانب المرأة شهوات أخرى تستبد بالإنسان ، وتغلب مراجلها فى كيانه .. كشهوة المال ، والجاه ، والسلطان ، وكشهوة الطعام ، واللباس ، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التى يقتتل من أجلها الناس ..

وزين للناس حب الشهوات من النساء ، والبهين ، والقناطير المقنطرة من الذهب ، والفضة ، والحليل المسومة ، والأنعام ، والحارث .. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، (٢) .

ففى هذه الشهوات يتقلب الناس ، إليها يتسابقون ، وعليها يتزاحمون .. وليست واحدة منها بمنغية عن الأخرى .. بل إن بعضها لينزى ببعض ، حتى لكأنها كائن واحد ، وهى منه بمنزلة الأعضاء فلا يكمل وجوده إلا بها ، ولا تؤدى هى وظيفتها إلا معه !

وخذ أى مطلب من هذه المطالب ، تجده لا يمكن أن يستكمل وجوده ، ويستوفى حقيقته إلا إذا رفدته هذه المطالب الأخرى وخذته ، كما ير فدهاهو ويغذيها .
مطلب المرأة مثلا ..

هل يكفى أن يجد الرجل الذى ركبته الشهوة إلى النساء - امرأة أو أكثر وهو جائع فارغ الجيب والبطن ؟

(١) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ٦٨

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤

لأنه لا بد له من أن يتغذى الغذاء الليب ، ولا بد أن يوفر لجسده الراحة ، وأن يتيح له فرص الاستجمام من عناء ما بذل في لقائه بالمرأة ، كي يجد القدرة على الاستجابة لداعى شهوته إليها .

ثم لا بد لمثل هذا الإنسان أن يطلب المال ، ويلج في طلبه ، ويتهالك على جمعه ، كي يجد حاجته من النساء ، وكي يجدن في جواره من تنوع الحياة ما يرغبهن في السكن إليه ، والرغبة فيه وهل يسكني المرأة أن تجد رجلاً يضمها إلى نساها . ويمنحها حظها منه . ثم لا تطعمهم بعد هذا الطعام الشهى . ولا تحيا الحياة التي تجد فيها مطالبها المادية موفورة ، قريبة من يدها ؟

ثم لا بد له أيضاً من أن يطلب الجاه والسلطان فإن هذا مما يهيء له حياة تقدره على أن ينال كثيراً مما يطلب ، وتدني منه كثيراً مما يشتهى !

قلنا : إن الذي يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبي مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على حاله مع المرأة ورغبته فيها ، بل ينبغي أن تمتد نظره إلى المطالب الأخرى التي لها سلطانها على النفوس ، والتي لا تقل الرغبة فيها عن الرغبة في المرأة ، والتي لا يمكن إشباع الرغبة في المرأة إلا بها .

قلنا هذا — ونقول للذين قالوا في نبي الإسلام من استكثاره من النساء . وإفراطه في الحياة معهن ..

نقول لهؤلاء — انظروا هذا الجو الذي كان يحيط بالحياة الزوجية التي كان يحياها أزواج النبي معه ؟

أكانت هذه الحياة ، حياة ترف ، ومتع ، ولذات جسدية ؟ وهل من أجل هذه الحياة أحببت النبي ، وحرصت على السكن إليه ، والحياة في ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها أن الحياة المادية في بيت النبوة كانت حياة كفاف ، بل وجوع يكاد يكون متصلاً . . .

فالنبي كان يلقي أهله فيسأل هل من طعام ؟ وكان أكثر ما يكون الجواب : لا طعام ! فيحمد الله ، ويطوى نهاره صائماً . . . هكذا كان أغلب أيامه . . .

تقول السيدة عائشة رضی الله عنها : « ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى لسبيله . »

وتقول : « لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وما في بيته شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رق لي . »

أما فراشه فهو كما تقول السيدة عائشة : « كان فراشه الذي ينام عليه صلى الله عليه وسلم آدمياً ، حشوه ليف . »

أما البيت الذي يضم نساءه فهو « خوخات ، أشبه بالأكواخ التي يتخذها رعاة البدو في الصحراء للوقاية من الحر أو البرد لعدة أيام . »

يقول : « ولديورات ، »

« كانت المساكن التي أقام عليها — النبي — واحداً بعد واحد كلها من اللبن لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل ، (١) . »

هذا هو ما أمسك به رسول الله من الحياة الدنيا ، وما ضم إليه من حظائها ، ولو شاء أن يأكل في صحاف من ذهب ، وأن يتخذ له قصر أشبه بقصر كسرى ، يسوق إليه ألوان الحياة ومفاتيحها — لو شاء ذلك لكان حاضراً عتيداً عنده ، بعد أن استجابات الجزيرة العربية كلها لدعوته ، وآمنت برسالاته ، وجعلت كل حياتها رهن كتابته وإشارته !

ولسكنه رسول السماء ، ما جاء بتلك الرسالة العلوية لتكون لحسابه ، وإنما هي لحساب الإنسانية كلها ، ولم يطلب بجهاده في سبيلها ما عند الناس ، وما في دنيا الناس ، وإنما طلب بها ما عند الله من رحمة ورضوان !

ونساء النبي شاركنه هذه الحياة ، ووجدن في جوارحه من أنوار النبوة ، وجلالها ما أسعدهن ، وأنساهن شظف العيش ، وخشونة الحياة . . فلقد كان

(١) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٤٥

الغذاء الروحي الذي وجدته في ظلال النبوة زاداً طيباً ، ملاً حياتهن راحة ورضى !

ومع هذا ، فقد شعر الرسول الكريم بأن الحرمان الذي يعيش فيه نساؤه ربما كان مفروضاً عليهن بحكم الطاعة للرسول ، والولاء له . . . فهن كمسلمات مفروض عليهن أن ينزلن عند حكم الآية الكريمة : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . . والنبي الكريم يريد أن يمنحهن حق المرأة في اختيار حياتها التي ترضاها . . . وأن يكن منه زوجات وزوجاً ، لامسلمات ونبياً . . .

وقبل أن يقول النبي كلمته في هذا الذي دار في خاطره ، وقبل أن يلقى نساءه ليخبرهن بين الحياة معه ، واحتمال العيش على تلك الصورة التي يعشنها ، وبين أن يطلق سراجهن — قبل أن يفعل النبي هذا جاءت كلمة السماء لتقول عنه ما كان يريد أن يقول هو لهن . . .

يا أيها النبي قل لأزواجك . . . إن كنتن تردن الحياة الدنيا ، وزينتها ، فتعالين أمتعنكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . . . وإن كنتن تردن الله ، ورسوله ، والدار الآخرة ، فإن الله أعد للحسنات منكن أجراً عظيماً ، (١) .

فهاتان الآيتان تسجلان في غير لبس : أي حياة كان يحياها النبي في نساءه ، وأي حياة كان يحياها نساؤه معه ؟

إنها حياة لا يراد بها الحياة الدنيا وزينتها . . . فإن كن يردن الحياة الدنيا وزينتها فإنهن ان يحدنهن عند النبي ، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يحول بينهن وبين هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من زينة إن أردنها ، بل سيختل بينهن وبين ما يردن ، بعد أن يتمتعن بمتعته المطلقات . . .

هاتان الآيتان وثيقتان تاريخيتان ، ليس بين وثائق التاريخ كلها ما يدان بهما صحة

وثبوتاً .. لإنهما في صدور الألوفا والملايين من البشر وعلى أفواههم وألسنتهم منذ عهد النبوة إلى اليوم ، مخفوظتين أو وثق الحفظ من أى تعديل أو تحريف ! ليست الحياة الدنيا وزينتها من مطالب النبي ، ولا من مطالب من يسكن إليه من زوج وولد !

هذا ، ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبي الكريم . . ورأوا واقعه رأى العين في حياة النبي ، وحياة زوجاته معه . . فهل يعقل عاقل أن يكون النبي على غير ما نطق به القرآن في هذا الشأن ؟ وهل يعقل عاقل أن يحيا النبي حياة منعمة رافهة ، ثم يحى القرآن لينفي عن هذه الحياة ما فيها من نعم ورفه ؟

ماذا يقول أعداء النبي إذ ذاك من يهود وغير يهود ؟ بل ماذا يقول المسلمون أنفسهم من الصحابة وغير الصحابة . . ماذا يقولون عن النبي ، وعن القرآن ؟ ولو أن هذا القرآن لم ينزل كله على النبي ، ولو أن هاتين الآيتين لم يسكن لهما شأن خاص ، وملايسات ذات دوى وقت نزولهما — لكان هنا مكان للتأويل المنحرف ، والتخريج المريض . . ولكن القرآن نزل كله على محمد ، وهاتين الآيتين فاضت عنهما أحاديث وأخبار في سيرة النبي . وفي سيرة زوجاته ، وفي سيرة آباء زوجاته ، كآبي بكر وعمر .

وبعد . .

فنعوذ ونقرر مرة أخرى لأنه لا يضير النبي أن يكون آخذاً بحظ الرجل من المرأة ، فذلك — كما قلنا — من ضرورات الحياة البشرية ، ودعوة من دعواتها . والعجز عنها — إنما ينشأ عن خلل في تكوين الجسد وسلامته !

لا يضير على النبي إذ أن يكون على ما كان عليه من سلامة الجسد وصحة الاعضاء ، وقوة البنية ، ثم يسكن له إلى المرأة داع ، وله فيها رغبة . . لأنه إنسان ونبي معاً . . ومن السكال أن يعطى الإنسانية فيه حقها ، وأن يؤدي للنبوة حقوقها !

ولسكن ينبغي ألا يفهم هذا على أن زواج النبي من كل هذا العدد من نسائه كان لإشباع حاجته من المرأة وقضاء رغبته فيها .

فكثير من زوجات النبي كان زواجه بهن لغير هذا ..

كان زواجه بهن من تطليبا لحاظرهن ، أو عزاء لهن ، أو رحمة بهن .

فإنه مع ما في كيان النبي من قوة بادية ، وحيوية ظاهرة ، لم يكن مصرف هذه القوة وتلك الحيوية في جانب واحد من جوانب الحياة ، بل لقد كان أكثر هذه القوة وتلك الحيوية منصرفا في القيام بأمر الدعوة في ميادين السلم والحرب ، وفي التمسك لها في قلوب المؤمنين ، ولقائهم أفرادا وجماعات ، ويسألونه في أمور دينهم ، ويحظون بالحديث إليه ، ويسعدون بالقرب منه . . فإذا جاء الليل ، وسكنت الحياة ، وآوى الناس إلى مضاجعهم قام ليله أو شطراً كبيراً منه ساجداً ، وقائماً ، يناجي ربه ، ويقرأ ما نزل عليه من كتابه . . وكان ذلك دأبه حتى تورمت قدماه !

ومع هذا ، فإن ما بقي له بعد ذلك من وقت ، ومن قوة وحيوية كان كافياً لإرضاء نسائه وقضاء حق الزوجية لهن .

فمن أنس رضي الله عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدور على نسائه في الساعة من الليل أو النهار ، وهن إحدى عشرة » .

وعن طاوس ، قال : « أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلا » .

وعن سلمى مولاة رسول الله قالت : طاف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة على نسائه التسع ، ويطهر من كل واحدة منهن قبل أن يأتي الأخرى ، وقال : « هذا أطهر وأطيب » .

ونظر نظرة سريعة في زوجات النبي ، والاحوال والظروف التي تزوجهن فيها ...

١ - خديجة بنت خويلد :

أول امرأة تزوج بها النبي . وقد تزوجها قبل البعثة ، وكان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، وهن في نحو الأربعين ؟

ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم . وقد تجاوزت الستين ، كما قارب هو صلوات الله وسلامه عليه الخمسين .

ومن هذا نرى أنه قد ذهب أكثر شباب النبي مع امرأة واحدة ، قد كبرت ، ولم يكن فيها مأرب للرجال .

ومع هذا ، فقد كانت أحب نساء النبي إلى النبي . . . وقد ظلت ذكراها الطيبة تجرى على لسانه بين نسائه ، فيجندن في أنفسهن غيرة منها .

عن عائشة رضى الله عنها قائت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فادركتني الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ؟

« فغضب حتى اهتز مقدم شعره ، ثم قال : « لا والله ، ما أبدلني الله خيراً منها . . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي لا أذكرها بسيدة أبداً » ؟

وانظر سبب هذا الحب الذي كان من الرسول الكريم للسيدة خديجة ؟ أكان لجمالها ؟ أو لشبابها ؟ لأنه لم يمكن لشيء من هذا وإن كان لها جمال ، ولها شباب وإنما لأنها كانت أول من استجاب لدعوته وآمن برسالته ، ووقفت إلى جواره تشد من عزمه ، وتخفف من آلامه .

وكان هذا الحساب للمرأة في نظر الرسول يقنى عن متابعة النظر في زيجاته الأخرى ، للتعرف على الغايات التي كان يبغيها النبي الكريم من الزواج بمن تزوج بهن .

(م ٢٣م النبي محمد)

ويكنى أن نذكر هنا أنه قضى شبابه مع امرأة واحدة ، وأن هذه المرأة كانت تكبره بأعوام ، حتى لقد أدركتها الشيخوخة ، ولم يكن هو قد بلغ الخمسين من عمره .

ويكنى أن نذكر أنه — صلوات الله وسلامه عليه — لم يذكر في معرض الكشف عن حبه لها شيئاً مما كان لها من جمال وشباب في أيامها الأولى معه ، وإنما ذكر نبلها ، ومثانة خلقها ، وعظمة وفائها ، وسابقة إيمانها .

كان يكنى هذا أو بعض هذا .. ولكن لا بأس من أن نمضى في النظر إلى هذه الزيجات .. ففيها عظات ، وعبر ، وفيها دروس نافعة ، وحكم بالغة .

٢ — سودة بنت زمعة :

تزوجها النبي بمكة بعد موت السيدة خديجة .

وكانت حين تزوجها الرسول في سن متقدمة ، وهاجرت مع النبي إلى المدينة وتقدمت بها السن ، وبدت بين نسائه في موقف حرج ، فهم النبي بطلاقها فقالت له : لا تطلقني . وأنت في حل من شأني ، وإنما أريد أن أحشر في أزواجك ، وإني قد وهبت يومي لعائشة ، وإني ما أريد ما تريد النساء ، فأمسكها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصار يقسم أيامه لبقية نسائه دونها ، ويجعل نوبتها لعائشة ، .

وواضح من هذا أن النبي إنما هم بتطليقها ليعفيها من عبء الزوجية ، بعد أن أصبحت في هذه السن المتقدمة . وقد كان النبي حريصاً على أن يعطيها نصيبها كبقية نسائه من المبيت عندها في يومها الذي لها . فلما نزلت عن هذا الحق ارتفع الحرج الذي كان بينه وبينها .. فأمسكها عنده بين نسائه .

٣ — عائشة بنت أبي بكر :

تزوجها النبي وهي بنت تسع سنين ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد شارف الخامسة والخمسين .

والجدير بالنظر هنا ، أننا نرى النبي . وهو في مطلع شبابه ، واكتمال قوته يتزوج بمن هن أكبر منه سناً ، بل ومن تكون قد بدت عليها الشيخوخة ، كما رأينا في الزيجتين الأوليين له من السيدتين « خديجة ، وسودة » . ثم هو وقد ولى شبابه ، وجاءته أعباء الرسالة . وأثقالها ، وما لاقى من أجلها من ضروب الآلام ، وشقى المسئوليات - يتزوج فتاة في التاسعة من عمرها !

أفهدنا زواج يراد به المتعة حقاً ؟

قد يكون ذلك نشاب في مستقبل العمر . يرقب نمو شبابه وشبابها معه ، ففي مستقبل أيامهما فسحة فسيحة للمتعة !

أما والزواج في مثل هذه السن ، في الخامسة والخمسين .. فماذا ينتظر من مرور الأيام والسنين إلى أن تفتضح فتاته ، وتصبح أهلاً للقاء الرجل ؟
كم حاماً تقدر لهذه الفتاة حتى تصلح لأن تكون زوجة .. ؟ سنتين ؟ ثلاثة ؟
أربعة ؟ .. خمسة ؟

إن أدنى هذا العدد لا يصبر عليه من في هذه السن إذا كان يريد بزواجه مجرد الزواج ، ومجرد المتعة به ! .. فإن الأيام التي تمضي تخطو به نحو الشيخوخة والضعف ، بينما تخطو بفتاته نحو الشباب والاكتمال !

لإذن فلا بد أن يكون للزواج هنا غاية غير المتعة ، ومطلباً أسمى من الزواج لمجرد الزواج ..

والمعروف أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو والد السيدة عائشة ، والمعروف أيضاً أن مكانه من رسول الله ، كان المكان الأول من الحب والتقدير ، لما كان من موقفه في الإسلام ، وبلائه مع رسول الله ، واحتماله الهدمات الأولى في سبيل الدعوة الإسلامية ..

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات — فهو بهذا كان ثاني اثنين — الرسول ، وهو — في الإسلام ، كما كان ثاني اثنين إذ هما في النار كما يذكر القرآن الكريم .



وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة ، ولم يأذن
لأبي بكر ، ليكون ظهيرا له ، وسنداً .. فذا هاجر النبي إلى المدينة كان أبو بكر
رفيق هجرته دون المسلمين جميعاً !

ومن أجل هذه المواقف التي وقفها أبو بكر من الإسلام ومن رسول الله
كانت له تلك المنزلة عند الله ، وعند رسول الله ، وعند المسلمين !

فلقد رفع الله شأن أبا بكر ، وأذاع في العالمين ذكره وفضله ، فأشار إليه
في القرآن أكثر من مرة ..

ففي هجرته مع رسول الله ، وتخفيه معه في غار ثور .. يقول الله سبحانه
وتعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما
في الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لا تحزن .. إن الله معنا » (١) . وصاحب الرسول
في الغار هو أبو بكر الصديق ، بإجماع لم يخرج فيه أحد .

وفي حديث الإفك .. الذي امتحنتم فيه السيدة عائشة . كان الذي تولى كبر
هذا الإثم ، وأطلق لسانه بالفاحشة قريب لأبي بكر ، اسمه مسطح .

فلما برأ الله السيدة عائشة ، وقطع السنة السوء فيها بمآزل من القرآن ، حلف
أبو بكر ألا ينطق على قريبه هذا ، وكان من قبل محسناً إليه ، باراً به .. فنزل قوله
تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين
والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ،
وانه غفور رحيم » (٢) . وكان أبو بكر هو المشار إليه هنا في هذه الآية ، فامتثل
لأمر الله ، وعاد بالفضل والإحسان على قريبه هذا !

هذا هو أبو بكر ، وقد أسبغ الله عليه هذا الفضل ، واختصه بهذا الإحسان
فذكره في القرآن ورفع ذكره بهذا الذكر !

فماذا يصنع رسول الله لأبي بكر لقاء ما صنع أبو بكر معه ؟ وماذا يعمل
ليجرى إحسانه بإحسان وفضله بفضل ؟

(٢) سورة النور : آية ٢٢

() سورة التوبة : آية ١٠

لقد رضو رسول الله عنه كل الرضا ، ورضا رسول الله ربح عظيم في الدنيا والآخرة ، لأنه من رضا الله ورضوانه !

ومن تمام هذا الرضا أن يدنى الرسول أبا بكر منه إلى أقرب مكان يمكن أن يكون . . لأنه لا يكتفى لأبي بكر أن يلقاه في مجالسه بين المسلمين في المسجد ، وفي الصلاة ، وفي غير المسجد ، وغير الصلاة . لأنه يريد أن يتحلى له من يداً من الفرص للقاء الرسول ، ويؤثره من بين أصحابه بأن يدخل عليه بيته متى أحب . . فكان أحكم تدبير لهذا أن يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة . ليكون في ذلك زيادة في إدفاء أبي بكر منه . وباب يدخل منه إلى بيت الرسول ، ويجلس إليه في خلوته مع أهله . . وكان في التمجيد بزواج الرسول من السيدة عائشة قبل أن تنضج . وتصبح أهلاً للزواج — كان في هذا مبادرة بالخير لأبي بكر وتعجيل به له .

ولعلنا نستطيع إذ نلتمس أسباب هذا الحب والتدليل الذي كان من الرسول الكريم لزوجته عائشة أن نضيف ذلك كله ، أو أكثره إلى حب الرسول لأبيها أبي بكر ، وجهل هذا الحب والتدليل الذي يضيفه الرسول عليهما زيادة في الحب والإيثار الذي أضفاه على أبيها . .

« روى عن عمرو بن العاص قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أحب الناس إليك ؟ قال . عائشة . قلت : فمن الرجال ؟ قال : أبوها ؟

ولقد أكتست السيدة عائشة من حب رسول الله لها بركات من السماء والأرض . . فكان لها هذا الذكر العظيم بما حملت من العلم ، والمعرفة ، وما حفظت من حديث الرسول ووعت من آثاره ، على حدائث سنّها ، إذ توفى عنها رسول الله وهي ابنة ثمانية عشر عاماً !

ثم كان لها من الله ذكر عظيم في القرآن إذ نزلت آيات الكتاب مبرئة لها ، ناطقة بعبثها وطهارتها : فقال تعالى في حق من أذاعوا هذا السوء فيها ، وافتروا هذه الفرية عليها « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

بل هو خير، لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإيمان، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم» (١).. ثم قال فيمن استمع إلى هذا الحديث ، وأعطاه أذنيه : ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفاك مبين» (٢). ثم التفت القرآن إلى أصحاب هذا الإفك يسأطهم البيضة عليه ، وما بيدهم من حجة . ولولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» (٣) ثم يلتفت مرة أخرى إلى الذين استمعوا لإفاك الآفكين : ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك .. هذا بهتان عظيم» (٤) ، والذي يتدبر آيات القرآن التي جاءت في هذا الشأن يجد فيها شواهد ناطقة على ما للسيدة عائشة من منزلة كريمة عند الله ، إذ دفع عنها القرآن هذا الإفك دفعاً قوياً ، وكان في هذا الإفك خير كثير ، ونعمة من الله ورضوان للسيدة عائشة ، ولا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم .

عن القاضي أبي بكر الطيب قال :

وإن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبته إليه المشركون سبح نفسه لنفسه ، كقوله وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه» (٥) في آي كثير . وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة ، فقال : ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك» (٦) سبح نفسه في تنزيهها من السوء ، كما سبح نفسه في تنزيهه من السوء» (٧).

هذه هي الزوج الأثيرة عند رسول الله ، وأحب الناس إليه ! لم يكن زواجه منها صلى الله عليه وسلم لشهوة ، لأنه حين تزوجها لم تكن بلغت بعد سن الاشتهاء ، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية بقدر ما كانت غاية ذلك تكريم أبي بكر ، وإيثاره وإدناؤه إليه ، وملء قلبه غبطة ورضى في ضم فلذة من كبده إليه ، وإنزالها أكرم المنازل في بيت النبوة .

(١) سورة النور : آية ١١

(٢) سورة النور : آية ١٢

(٣) سورة النور : آية ١٣

(٤) سورة النور : آية ١٦

(٥) سورة الأنبياء : آية ٢٦

(٦) سورة النور : آية ١٦

(٧) نهاية الأرب — الجزء الثامن عشر ١٧٦

٤ — حفصة بنت عمر :

وما يقال في زواج الرسول الكريم من عائشة ، يقال كثير منه في زواج حفصة بنت عمر بن الخطاب . . وإذا كان شأن عمر في الإسلام في المنزلة الثانية بعد أبي بكر ، وإذا كان مكانه من رسول الله بالمكان التالي لأبي بكر . . . وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، إذ كان لشهرته ، وإفاضة أخباره أظهر من أن يدخل عليه شرح أو بيان !

كانت حفصة من المهاجرات ، وكانت قبل زواج رسول الله بها عند خنيس ابن حذافة السهمي ، وكان من شهد بدراً . . فلما مات عنها ، وتأيمت ، ذكرها عمر لابن بكر وعرضها عليه ، فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة ؛ ففضب من ذلك عمر ، ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم ، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه عثمان وأخبره بعرضه « حفصة » عليه . . فقال رسول الله : « يتزوج « حفصة » من هو خير من عثمان ويتزوج « عثمان » من هو خير من « حفصة » . ثم خطبها رسول الله من عمر ، فتزوجها ، فلقى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ، فقال : لا تجرد على في نفسك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر « حفصة » فلم أكن لأفشي سر رسول الله ، ولو تركها لتزوجتها . ثم زوج رسول الله « عثمان » بابنته « أم كلثوم » . . ولهذا سمي عثمان بندي النورين ، إذ تزوج بابنتي رسول الله : رقية ، وأم كلثوم . . ولما ماتت أم كلثوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : ولو كانت عندنا ثالثة زوجنا كما يا عثمان ، (١) .

وأنت ترى من هذا أن الزيجات كانت بين النبي وأصحابه ، وبين الصحابة والصحابة قائمة على معيار التوثيق للصلوات التي بينهم وشدها أو اصرها بلحمة النسب ، والمصاهرة .

(١) انظر نهاية الأرب جزء ١٨ ص ١٧٧

٤ — زينب بنت خزيمة :

كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين . . وكانت قبل رسول الله عند الطفيل ابن الحارث بن عبد المطالب بن عبد مناف ، فطلقها ، ثم خلفه عليها أخوه عميدة ابن الحارث ، فقتل عنها يوم بدر شهيداً ، فتزوجها رسول الله (١).

وقد مكثت عند الرسول ثمانية أشهر ثم ماتت .

٦ — أم سلمة ، هند بنت أبي أمية :

وكانت قبل رسول الله عند أبي سلمة بن عبد الله المخزومي . وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة ! فلما مات عنها زوجها تزوجها رسول الله ، وأصدقها فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وحنطة ، وخبثاً (٢).

٧ — زينب بنت جحش :

كان اسم زينب برة ، فسماها رسول الله زينب . . وقد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة متبناه ! وقد وقعت بينها وبين زيد نفرة ، إذ كانت قرشية ، وزيد غير قرشي . . وللتسب وزنه عند العرب ، رجالات ، ونساء ! ولما لم يستقيم الأمر بينهما طلقها زيد . . فتزوجها رسول الله .

وقد لفظ المنافقون بهذا الزواج في عهد الرسول ، وقالوا حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه ؟ فأنزله الله سبحانه وتعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣) . . وقال تعالى : « ادعواهم لأبائهم هو أوسط عند الله » (٤) . . فدعى زيد « من يومئذ زيد بن حارثة » وكان من قبل يدعى زيد بن محمد .

(١) في بعض الروايات أنها كانت عند عبد الله بن جحش ، فأتى عنها شهيداً يوم أحد فتزوجها رسول الله .
(٢) الحنطة : الرحي .
(٣) سورة الأحزاب : آية ٤٠
(٤) سورة الأحزاب : آية ٥

وبهذا التدبير العملي أ بطل الإسلام عادة التبنّي التي كانت شائعة عند العرب ... ولو اقتصر فيها على حكم القرآن اطلت، بعض علائق هذا التبنّي قائمة مقام العادة في النفوس، ولظل في الناس من لا يرضى بزواج من يجعل منزلته عنده بمنزلة ابنه، وإن رضى بحكم الإسلام فدعاه باسم أبيه الذي ولده.

٨ - جويرية بنت الحارث :

وهي من سبي بني المصطلق، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس .. تقول السيدة عائشة : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكانت بنته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحه (١)، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله تستعمنه في كتابتها - أي في عتقها - ؛ قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى - أي النبي - منها ما رأيت .. فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله : أنا جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد وقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، فكانت بنته على نفسي، فثمنتك أستعنيك على كتابتي ؛ قال : « فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقض عنك كتابتك وأتزوجك ؛ قالت : نعم يا رسول الله قال : وقد فعلت .. قالت - السيدة عائشة - نفرح الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بجويرية بنت الحارث، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فأرسلوا ما بأيديهم .. فلقد أعتق بتزويجه - أي النبي - إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق .. فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على أهلها منها، (٢).

وطبيعي أن الجبال وحده لم يكن هو داعية الرسول إلى زواجه من جويرية

(١) أي: بالغة قدراً كبيراً من الملاحه والحنن

(٢) نهاية الأرب جزء ٨ ص ١٨٣

هذه ، بل كان من دواعي هذا الزواج لإكرام عزيزة قوم ذات كما يقول الرسول
السكريم : « وأكرموا عزيز قوم ذل » . . كما كان من دواعيه لإكرام أهلها الذين
دخلوا في الإسلام بهذا الذي صنعه المسلمون مع من وقع في أيديهم منهم .

٩ - أم حبيبة بنت أبي سفيان :

كان زوجها عبد الله بن جهش من مهاجري المسلمين إلى الحبشة ، وقد
هاجرت معه . . ثم ارتد زوجها عن الإسلام هناك ، وثبتت هي على إسلامها ،
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له
ويزوجها إياها ، فخطبها النجاشي لرسول الله . وأصدقها أربع مئة دينار .

وواضح من هذا الزواج ما فيه من ترغيبية لهذه السيدة الكريمة وهي في غربة
عن أهلها . بعد أن فارقها زوجها كما فارق دينه ! كما أن فيه أيضاً استرضاء
لأبي سفيان .

وتخفيف من حدة العداوة التي في قلبه لرسول الله (١) .

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب :

كان أبوها سيد بني النضير . . من بني إسرائيل . . من سبط هرون بن عمران
عليه السلام . . فلما غزا الرسول بني النضير . ووقع حصن « أبي العقيق »
في يد المسلمين جرى إليه بسباياهم . . وكانت فيهم صفية بنت حيي . . فأعتقها
رسول الله ، وتزوجها !

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها — بعد أن تزوجها
وهي تبكي ، فقال ! ما يبكيك ؟ قالت ؛ بلغني أن عائشة وحنيفة تنالان مني
وتقولان : نحن خير من صفية ! نحن بنات عم رسول الله وأزواجه !
فقال لها : ألا قلت لمن ؛ كيف تسكن خيراً مني وأبي هرون ، وعمي موسى ،
وزوجي محمد ؟ !

(١) نهاية الأرب : جزء ١٨ ص ١٨٣ .

١١ - ميمونة بنت الحارث :

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة سبعم من هجرته ، في عمرة القضاء ، وقد خطبها عليه جعفر بن أبي طالب ، وكانت أختها أسماء زوجة الجعفر ، وأختها سلمى عند حمزة ، وأختها أم الفضل عند العباس بن عبد المطلب .

١٢ - ريمانة بنت زيد بن عمر بن خنافة بن شمعون :

وهي من يهود بنى قريظة ، وكانت قد وقعت في السبي يوم قريظة ، فكانت صني (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام ، فأعتقها وتزوجها .. وقيل إنه لم يتزوجها ، بل كان يطؤها ملك اليمين ، وأنه خيرها بين العتق والتزويج ، أو تكون في ملكه ، فقالت : أكون في ملكك أخف على وعليك ، فكانت في ملكه حتى توفي عنها .
والرواية الأولى أثبت وأرجح .

• • •

هذه هي زيجات النبي ، وأولاء كن زوجاته .. والاحوال والملايسات التي تزوجن فيها .

ولأن يستطيع منصف ، يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول إن هذا العدد الكثير من النساء اللاتي جمعهن الرسول في بيت الزوجية - كن لإشباع رغبته في النساء وإرواء ظممه مشن ا

إن ذلك افتراء على التاريخ ، واعتداء على الواقع ، ولاجترأ على الحق .

يقول ول ديورانت في شأن زيجات النبي :

و ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفي عنهن أتباعه أو أصدقاؤه .. وكان بعضها زيجات سياسية ، كزواجه بحفصة

(١) العني : ما يختاره الرسول من الفتيمة .

بذت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، ركز واجء من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد^(١)

فإذا تعلق مغيظ من الإسلام ، محقق على شريعته . بهذا اللون الظاهري للصورة التي يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء في بيت النبوة — إذا تعلق بهذا اللون الظاهر . من الصورة . وعمى عن إيجاباتها . وتناقل عن المعاني الجليلة السامية التي تنطق بها — فحسبنا أنه لن يستطيع أن يجد حتى كلمة زور تستجيب له ليهتم النبي مع ما يدعيه له من قوة شهوته إلى المرأة — في شيء من عنته وطهارته . في حياته كلها . قبل البهثة وبعدها . وذلك بما يزيد النبي عظمة إلى عظمته . وجلالا إلى جلاله .

• • •

(١) قصة الحضارة المجلد الرابع جزء ٢ ص

الباب الحادى عشر نبى المسحمة

الخير والشر ، والنور والظلام ، والطمأنينة والقلق ، والرجاء واليأس ،
والعافية والسقم ، والفقر والغنى ، واليسر والعسر ، والسعادة والشقاء . هذه
وكثير غيرها من المتناقضات هى دنيا الناس ، التى قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وأن
تدور أمورهم على هذه الاضداد المتقابلة المتناقضة فى كل شىء منها .

فليس فى هذه الحياة شىء لا يصاده شىء ، ولا يقف له ، حتى لسكان ميزان
الحياة لا يقوم إلا على هذا التراجع بين السكفتين . . فى إحداها النوى ، وفى
الأخرى تقيضه !

انظر إلى الحياة بالمنظار الذى يروك تجد أنها ليست لوناً واحداً أبداً فى أى
حال من الأحوال . . إن نظرت إليها بمنظار أسود حالك السواد . بدا لك من
خلال هذه الظلمات الكثيفة التى تسد وجه الأفق شعاعات من النور ، ولمعاً من
الضوء تخلط السواد بالبياض ، وتفسد عليك هذه الصورة السوداء ، التى
وقعت فى شباك تشاومك ويأسك ، فإذا أنت ممسك بخيوط هذا الضوء ، متعلق
بشعاعات الأمل والرجاء . . وإن نظرت إليها بمنظار سحري يريك الأشياء فى
حلل عروس تحف بها الهجة ، وترف عليها أطيايف السعادة طلع عليك من
خلال ذلك وجوه كئيبة كالحة تدخل فى هذا الفرع القائم ، وتضرب بيدها فى
عقده المنتظم ، فيتناثر ، وتنفخ بأفواهما فى أنواره ، فتضطرب ، وإذا هذا المنظر
البهيج الجميل تظلمه سحابة كثيفة ، كما تكسف السحب وجه الشمس فى يوم مشرق
من أيام الربيع !

تلك هى الحياة . . ليست خيراً محضاً ، ولا شراً خالصاً ، وإنما هى

— ٢٦٦ —

مزاج من الخير والشر معاً ، لا ينفرد أحدهما في هذه الحياة ، ولا يستقل
بوجوده فيها ! .

وكذلك الناس .. أختيار وأشرار . ان تخلو الحياة أبدأ من وجهيهما معاً ..
فما خلاصت الحياة للأختيار ، ولا وقعت كلها ليد الأشرار ..

وتمثل هذا في الإنسان الفرد . تجده تركيبة ، من الخير والشر .. فليس
هناك ذلك الإنسان الذى يحسب خيراً لا شر فيه ، كما أنه ليس هناك ذلك
الإنسان الذى يحسب شراً لا خير معه !

ولإنما الحياة في شئونها ، والناس في جهلتهم ، والإنسان الفرد في خاصته —
خير وشر ، أشبه بتلك المركبات الكيميائية التى تمزج بين حمضين ، وتوافق
بين عنصرين ..

على هذه الصفة قامت الحياة ، وعلى تلك الصورة صحبت الناس ، وصحبها
الناس ، فألفتهم وألقوها .. سنة الله .. ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

° ° °

نقول هذا ليستقيم في فهمنا أن الرحمة الخالصة ليست هى الدواء في كل حال،
وليست الطعام السائغ الذى تحميا عليه النفوس في كل حين .

وأنبياؤه الله ورسوله هم أطباء الإنسانية وأسائها . ومن تدير الطيب الحكيم
أن يجعل لكل حال حالاً ، وأن يصف لسكل داء دواء . فهناك داء دواؤه الحمية
والإمساك عن الطعام زمناً ، وهناك داء دواؤه طعام دون طعام .. وهناك
داء تقضى مصلحة الجماعة أن ينيب مع صاحبه في التراب اتقاء لعدواه ، ودفعاً
للبلاء الذى ينجم عنه إذا لم يكن من الممكن شفاؤه من هذا الداء .

وحين يحمل رسل الله إلى الناس رحمة السماء فإنما هى دواء تستقيم عليه نفوس ،
وتضيق به نفوس ، وتمفتح له قلوب ، وتستغلق دونه قلوب .

إن النور الذى يغمز الوجود ، نعمة يعيش فيها الناس ، ويحميها الأحياء ،

وتتكشف به مسالك الطريق إلى أبواب الرزق . . ولكنه عدو مبين للخفاش
مثلاً . . يمزله عن الحياة ويعص عيونه عن موارد الرزق ، ومواقع الخير . .
لأنه لا يحيا إلا في الظلام الخالك ، ولا تنهأ له الحياة إلا في ظلمات الليل البهيم .

وفي الناس من ارتكست نفسه وانكست طبيعته ، فلا ينتفع بأشوار السماء ،
ولا يتقبل الرحمت التي تجيء منها على يد رسل الله وأنبيائه ثم لا يقف الأمر به
عند هذا ، بل يحاول جاهداً أن يطفىء هذا النور ، ويبدد تلك الرحمت . . فإنها
— في تقديره — العدو المبين له . . ولو استطاع الخفاش أن يسد وجه الشمس
بجناحيه لفعل ، ولو غرق الناس والأحياء في بحار الظلام . . إنه لا يريد
نوراً أبداً !

وإنه لسكى يصل هذا النور السماوي الذي تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم
لا بد أن يندفع عنها كل ما من شأنه أن يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها
إلى غاياتها . .

ومن أجل هذا كانت كل رسالة سماوية تحمل معها من القوى المضاربة على
يد المعتدين عابها ، والمعوقين ، والواقفين في وجهها — تحمل القدر الذي يناسب
قوى الشر والعدوان المواجهة لكل رسالة .

فإذا كان العناد إجماعياً . وكان الشر مستولياً على الجماعة كلها . . كان العقاب
على قدر الجرم . . فناءً إجماعياً ، وهلاكاً كامبياً يأتي على كل شيء . .

أما إذا كان في الجماعة راشدون : رأوا الهدى فاهتدوا ، وسمعوا منادى
الحق فأجابوا ، فإن العقاب لا يقع إلا على الميئوس من هدايتهم ولتقادم .

و قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم . وجعلناهم للناس آية ، (١) .

وكان ذلك بعد أن لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . يدعوهم إلى
الله . ويرفع لهم أعلام الهدى والرشاد . فما استقاموا ولا استجابوا . .

(١) سورة الفرقان : آية ٣٧

وكان أن دعا، نوح، عليهم دعوته . فاستجاب الله له ..
« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم
يضلوا عبادك : ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (١) ..

« إنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ،
وأصروا . واستكبروا استكباراً ، ثم إنى دعوتهم جباراً ، ثم إنى أعلنت لهم
وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم
مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ..
مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » (٢) ..

فاذا بعد هذه المصابرة ، وهذا الغدو الروح بالدهاء ؟ لم هذا والمرضى
يشورون فى وجه الطبيب ويحسبونه بكل ما يقع فى أيديهم .

وهكذا كان الشأن فى قوم : عاد ، وثمود ، وقوم لوط .. عصيان عنيد :
عقابه الإبادة الشاملة التى لا ينجو منها إلا القليل .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان .. ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد
ومنافع للناس » (٣)

يقول ابن قيم الجوزية فى تفسير هذه الآية : « من عدل عن الكتاب قوم
بالحديد .. وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « أمرنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا
» يعنى المصحف » (٤) ا

فالإسلام دين قام على الدعوة بالحق ، فمن لم ير فى الحق مقتنعاً .
فالسيف ..

(٢) سورة نوح الآيات من ٧ — ١٤

(١) سورة نوح : آية ٢٧

(٣) سورة الحديد : آية ٢٥

(٤) السيرة النبوية : لابن تيمية ص ١٢ ،

لأنه لا بد للحق من قوة تزيده ، وتدفع عنه يد المعتدين الظالمين . . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله ، (١) .

الإسلام والسيف :

من مقتريات الغرب على الإسلام ، ومحاولاتهم النيل منه ، والزراية عليه القول بأن العقيدة الإسلامية إنما قامت على السيف واستندت إليه في حمل الناس عليها . وإلباسهم لبأسها ، وأنه لو لا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت في رقاب الناس لما كان للإسلام أن يبلغ هذا المدى الذي بلغتته دعوته . ولا يسطر سلطانها على هذا الآفاق البعيدة في الشرق والغرب التي يسطر سلطانها عليها .

ولوا نزاحت عن عقول هؤلاء الغربيين حماية الحق على الإسلام . وتبخرت من أدمتتهم أذخنة الغل الدفين له ، لرأوا أنهم قد خانوا الأمانة العنابية التي جاءوا إلى الناس بها . ودخلوا عليهم من أبوابها ، بهذه المقررات التي تقولوها على الشريعة الإسلامية ، وعلى رسولها الأمين . . .

ولو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين منهم . . . من الذين نشئوا على التعصب لعقيدتهم وخلع المجادة عليها ، والقداسة لها ، وإيثارها بالحسن الجميل من كل شو . دون غيرها ، ولظهار محاسنها بإلقاء الريب والشكوك على من يناقسها أو يهددها في وجودها - لو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين من هؤلاء العلماء ، فإننا لن نجد مثل هذا العذر للعلماء غير الدينيين ، الذين تخصصوا بالبحث العلمي . ونذرنا أنفسهم له . . .

ولو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به للعلماء العصور الماضية حيث استحكم الجدل ، وسيطرت السفسطة على عقول العلماء ، وحيث كانت مذاهب الكلام ، وتركيبات المنطق هي المادة التي يقيم منها العلماء مذاهبهم ، ويعلون بها صروحها - لو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به هؤلاء العلماء الثغابرين لما وجدنا شيئاً من ذلك للعلماء المعاصرين الذين أدخلوا ردهم ومهم تلقينات العلم التلقيني ، وأفرغوا عقولهم من تلك المسلمات التي آمن لها الناس من غير بحث أو تمحيص ، حين أعادوا بناء العلم على أساس التجربة في

(١) سورة الحج آية ٤٠

(٢١) النبي محمد

سقط الحياة ، وتحيص الحقائق وتنقيتها بمعطيات الحس والمساهمة .

إن هذه القولة التي يقوها العلماء الغربيون المعاصرون عن الإسلام هي إحدى رمياتهم الهزيلة الطائشة فيما يرمون به الإسلام من أباطيل ومفتريات ؛

* * *

ونحن لاندفع أن الإسلام قد أعمل السيف في رقاب أعدائه وخصومه ، وأنه أطاح به وسأ وقلق هجمات ، وأراق دماء .

هدد حقيقة غير منكورة ، فلم يحاول الإسلام أبداً أن يقول إن شريعته لاتتمسك بالسيف ، بل إنه دعا إلى استعمال السيف وعرض عليه نحره أيضاً شديداً ، لأنه لم يجعل إلى أتباعه قولة السيد المسيح : « من ضربك على الخد الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، بل حمل إليهم : « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، (١) بل دعا إلى أكثر من هذا ، دعا إلى أن يستبسل المسلم في ميدان المعركة إذا لم يكن له بد من لقاء العدو . فليقتل خصمه قبل أن يقتله الخصم . قال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين ، (٢) . فالتقتل بين المؤمنين هو الجزاء الذي يجب أن يكون للكافرين ، وهو الحساب الذي ينبغي أن تختم به المعركة بين المؤمنين والكافرين ؛

لقد دعا الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله ، وإلى الإقدام في الحرب ، والثبات في وجه الأعداء ، ومجد الاستشهاد في ميدان القتال ، وجعل منازل الشهداء مع النبيين والصديقين . وحسنا أن نقرأ في كتاب الله قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الاثبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهم وبئس المصير » (٣) وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، (٤) ، وقوله جل شأفه : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا آمنتموهم فشدوا الوثاق ، (٥) وقوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص ، (٦) . » حسبي أن نقرأ مثل

(٢) سورة البقرة : آية ١٩١

(٤) - سورة الأنفال : آية ٥٥

(٦) سورة الصف : آية ٤

(١) - سورة البقرة : آية ١٩٤

(٣) - سورة الأنفال : آية ١٦

(٥) - سورة محمد : آية ٤

هذه الآيات ، من كتاب الله لنعلم أن الإسلام قد جعل الجهاد بالسيف في سبيل الدعوة والديار عنها أمراً واجباً ، من نكل عنه ، أو تخاذل في ميدانه ، أو قبح في الانطلاق إليه ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الفسوق والعصيان ، واستوجب غضب الله ومقته (١) .

هذه حقيقة لا ندفعها ، ولكن ليست هي الحقيقة كلها . . لأنها شطر الحقيقة أو بعضها . أما الشطر الثاني من الحقيقة ، أو القدر الأكبر منها فهو الدعوة الإسلامية ذاتها ، أو بمعنى آخر حتمات هذه الدعوة ، وما تحمّل إلى الناس في يديها من خير كثير ، ورحمة واسعة . وأن هذا الخير ، وتلك الرحمة هما مقصد الدعوة وغايتها . أما السيف الذي قام إلى جانب هذا الخير وتلك الرحمة ، فإنه ليس أمراً مقصوداً لذاته . وإنما هو شيء عارض ، لا ينبغي أن يكون من مقومات الدعوة ولا أن يحسب عليها . إنه الحارس الذي يقف وراء هذا الكنز الثمين ، يدفع عنه غارات اللصوص ، والمتهين ، والخطافين .

أرأيت إلى هذا العدد من الشرطة ، يقوم على حراسة هذه الخزائن التي تضم الأموال الطائفة وكرائم الجواهر والخلي في مصرف من تلك المسارف العالمية ؟ ثم أرأيت إلى اللصوص يتسللون إلى هذه الخزائن ، يريدون الاستيلاء على ما يقدرون على حمله منها ؟ ثم أرأيت إلى الشرطة وقد انهبوا إلى هؤلاء اللصوص ؟ ثم أرأيت هؤلاء اللصوص وقد تنهبوا إلى ما يريد الشرطة بهم ؟ ثم أرأيت إلى تلك المعركة التي نشبت بين الثريين ؟ وإلى الدماء التي سالت ، والأرواح التي ذهبت ؟ ثم .. ماذا ؟ ماذا ترى فيما حدث ؟ هل يذتقص ذلك من قيمة الخزائن وما أودع فيها ؟ وهل يقع لوم على الشرطة وما نالت أيديهم من المعتظين ؟ وهل تأخذك هؤلاء اللصوص أو يقتلهم وجرحهم مرحمة ؟ إنهم أئمة معتدون ظالمون . . قتلهم اليد الأمانة الحارسة . . وذلك جزاء الظالمين . .

(١) تأمل هذا الإنجاز في تلك الكناية اللطيفة الرائعة التي قصد منها تنفير المؤمنين من الفرار عند ملافة الأعداء في قوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » حتى لسكان الذي يفر إنهما يكشف عن - و - .



إن أمر الدعوة الإسلامية - وكل دعوة سماوية - ليس دون هذه الخزائن وما تشمل عليه من أموال ، وإن بلغت ما بلغت من تنافسه ووفرة : فإن الروح الذي تقولاه رسالات السماء أهم بكثير من أمر الجسد الذي تتجه إليه هذه الأموال ، ومن جهة أخرى . فإن الإسلام ليس وحده هو الذي دفع بالسيف بنى الباغين عليه ، وكيد الكائدين لدعوته ، فإن الرسائل السماوية جميعها قد حملت الناس مع ما حملت من أفوار الهداية والرحمة صوراً مختلفة من النذر ، وأرواها متعددة من النكال لمن كذب برسول الله ، ووقف في سبيل دعوتهم ، وبسط يده أو لسانه بما يسوؤهم !

وهل طوفان نوح أو صواعق عاد ، أو رسائل هود ، أو لوط ، أقل أهلاكاً وتدميراً مما فعلت سيوف الإسلام بالعصاة والملاحدين ؟

وهل لما وقع في بني إسرائيل من مسخ ، وارتكاس من الطبيعة البشرية إلى طبيعة الفردة والخنزير دون ما أحدثت سيوف الإسلام فيمن أصيبوا بها ، وكانوا من إصرعها ؟

ليس الإسلام إذن بدءاً بين الرسائل السماوية في الالتجاء إلى السيوف حين لم يجد النصيح ، ولم تكن البينات ؟ بل إن السيوف لأرحم كثيراً مما حل بالمعاندین الخالفين للرسل في الأمم السابقة !

يقول الله سبحانه وتعالى في شأن المكذبين بالرسول : « فكلما أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً . ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١) وقد كانت السماء في الرسائل السابقة هي التي تتولى تأديب العصاة ، والتبكيل بهم ، على حين أن الرسالة الإسلامية قد جهلت أمر ذلك إلى النبي ومن اتبعه من المؤمنين ، ليبتلي ما في قلوبهم ، وليحص ما في صدورهم ، حتى ترسخ قواعد الإسلام ، ويتأكد مقامه في الحياة ، وليكون للمؤمنين في كل زمان ومكان يشاركه في هذا الغرس الطيب الكريم الذي غرسه النبي ، حتى يرووه حق وعاقبه ، وحشي

() ورة العنكبوت آية ٤٤

يجد الناس فيه ربيع الإنسان، فيأفسموا إليه ، ويخططوا أنتمسبهم به . . وفي هذا ما ينبغي
عن أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسانية كلها ، وأن الناس قد شاركوا في رعايتها
والقيام عليها .

وفي الرسالة الموسوية أول دعوة إلى الجهاد في سبيل الله . . وهي أشبه بالطلاقة
الأولى في المعركة الإنسانية بين الإيمان والكفر . ولكنها حركة لم تبدأ إلا في
الرسالة المحمدية . .

لقد سأل موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وأن يظهروها من
الملاحدين ، فأبوا أن يسمحوا له ، وأن يلقوا عادوهم هناك .

ويقص القرآن الكريم هذا الذي وقع بين موسى وقومه . . فيقول سبحانه
وتعالى : « ولذا قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم
أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ، ادخلوا
الأرض المقدسة ، التي كتب الله لكم ، ولا ترمدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . .
قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا إن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن
يخرجوا فإننا نأخذونهم . . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا
عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ،
قالوا يا موسى : إنا إن تدخلها أبداً ما دموا فيها . . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا
ههنا قاعدون ، قال : رب إنى لأملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم
الفاستقين . . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض . . فلا تأس على
القوم الفاسقين » (١) .

لم يقدر لبني إسرائيل أن يحملوا هذا الشرف الذي ندمت به السماء له ، ودعتهم
إليه ، بل استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فكان هذا الإجماع الآثم على النكول
عن الجهاد في سبيل الله ، وعن تلقي هذا الشرف بإهلاك العصاة . . الذي كانت تتولاه
السماء وندمت الإنسان له ، ليكون له شرف المشاركة في هذا الأمر العظيم .

(١) هذان الرجلان هما موسى وأخوه هرون كما يدل عليه سياق الآيات : « ولا أملك

إلا نفسي وأخي » وهي في المساندة من ٢٠ — ٢٦

وعمل الزمن عمله في بني إسرائيل من بعد موسى ، وولدت الحياة منهم من يرضى الجهاد في سبيل الله . . . ولسكنهم قلة لا تستند إليهم دعوة ، ولا يشتههم دين .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا مسلماً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ » (١) . . . فإذا كان من أمرهم بعد أن كتب عليهم القتال ؟

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم . والله عليم بالظالمين . . . » (٢) الآيات . . . لأنها ثلثة من فلتات الحياة أن يوجد في القوم من يقاتل في سبيل دعوة الله ، ينصر بها دينه ، ويؤيد كلمته ، ولو كان ذلك من قلة بحيث لا يذكر .

ولسكن ما هكذا كان الشأن حين دعا محمد ، إلى الجهاد . . . لقد استجاب له المؤمنون جميعاً . وألقوا بأنفسهم في أحضان الموت . لا يباليون أن يلقوه مصعبين أو محسين . إن المسلمين جميعاً كتيبة معبأة للحرب ، والجهاد في سبيل الله . . . « ما كان للمؤمنين أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » .

فلقد كان من فضل الله على العرب أن فتح قلوبهم لدعوة الإسلام ، ثم ضاعف هذا الفضل بما حجب إليهم من أمر الجهاد في سبيل الله ، وجعلهم أهلاً لحراسة هذا الدين ، ودفع بهم كل يد آئمة تريد أن تنال منه .

لقد كانت الدعوات السماوية في الأمم السابقة تؤيد من السماء بالقوى القاهرة الملسكة : من طوفان ، وصواعق ، وعبارة من سمجيل ، وريح صرصر عاتية ، وغيرهما مما يذهب بالمسكدين المعاندين ، وبما معهم من مال وبنيان .

(١) وقد كانت سابقهم مع موسى لاتزال مائلة . والآية من سورة البقرة رقم ٢٤٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٧

لأنه لم يكن آنذاك في الإنسانية مكان لمل هذه المهمة النبيلة : ولم يكن في الناس - غير رسل الله - من يستحق أن يقوم بالحراسة على الدعوة السماوية وحمايتها من السفهاء . وهذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من قبل أن الإنسانية كانت قبل الرسالة الإسلامية في أطوار لم تبلغ بها مبلغ الرشد . . ولهذا لم يصح أن يقوم في الناس أوصياء على الناس . . لأنهم جميعاً في طور مادون الرشد، ولا يقوم بالوصاية إلا من كمل ورشد .

فلما أن جاءت الرسالة الإسلامية التقت مع الإنسانية وقد طلعت فيها طلائع الرجولة ، وبزغت من بينها بواكير الرجال - نذبت السماء من آمنوا بهذه الدعوة أن يكونوا هم حمايتها، والذائمين عنها . لأنهم - وقد أصبحوا الإنسان الذي خلق على صورة الله - أن يكونوا خلفاء الله في الأرض وعلى الناس .

هذه حقيقة من حقائق الدعوة الإسلامية، وفضل من أفضالها على أهلها المؤمنين بها . ثم هي من جهة أخرى شهادة للعرب أنهم كانوا البواكير المتمتعة في الإنسانية كلها، وأنهم أول من التقي بالسماء، واستأهل حمل رسالتها، وحمل مسؤولية حمايتها والدفاع عنها (١) .

وندع هذه المقارنة بين الديانات السماوية ومواقع العقاب وصوره فيها للبعادين والمكذابين ، لننظر في تلك الدعوات والمذاهب غير الدينية التي تتجه إلى تغيير الأوضاع والنظم القائمة في المجتمعات الإنسانية . . ماذا أربق في سبيل هذه الدعوات وتحققها من دماء؟ وماذا أزهد لدعائها والتمكين لها من أرواح؟ ولا نسأل إذا كانت هذه الدعوات وتلك المذاهب صالحة أم فاسدة، ولزناً . . تلد خيراً أم شراً . . أم عقياً لا تلد شيئاً ! فإنها على أي حال لا ترتفع إلى مستوى الدعوات السماوية التي خلصت للخير ، وخلت من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية ؛ لأنسأل عن هذا ، ولسكن لننظر كيف سارت هذه الدعوات في طريقها، وكيف كان بدؤها ونختمها؟ وكيف ذهب بريقها الذي استهوى الناس

(١) لعل هذا الرأي يفتح مجالاً للنظر عند علماء الحياة - في مدى تأثير البيئة الصحراوية وخاصة الصحراء العربية - في السكبان الإنساني وإيضاح ملامكاته : فإن المواطن المختلفة من الأرض أشبه بالأبرحام، والناس في كل موطن هم الأجنة في هذه الأبرحام .

لأول أسرها ، ثم تحول هذا البريق إلى نار تالظن . . استرقق بها أولياؤها قبل
أعدائها . . وخذ لذلك مثلا : الثورة الفرنسية . . لأنها قامت على مبادئ إنسانية
رفيعة ، رسمتها أقلام الكتاب ، ولونتها قصائد الشعراء ، وهامت بها أفئدة
الجمهير . فكأن هتافاً يملأ الآفاق بالحرية والإخاء والمساواة . . وانذفع الناس
ثورة عارمة وفي زحف مجنون ، يبشرون بهذه المبادئ ، ويجلون للناس عن أسس
علمها بهجة المرس ، وفضرة النعيم . ولكن سرعان ما تحولت هذه الثورة إلى مجزرة ،
فسالت الدماء ، أنهاراً بلا حساب ولا صراخ . . لا يدرى أحد الطريق إلى النجاة . .
فلا يكفي أن ينضم إلى صفوف الثائرين ، ولا أن يتحلى بشايرهم ، ولا أن يردد
هتافهم . . فلن يجنيه ذلك من أن يساق إلى القصلة . مادام هناك من يدس له
ويشؤ به ، ويكيد له عند من صارت إليهم مصائر الأمور .

فأين هذا من دعوة الإسلام ومبادئه ؟ لقد كشف الإسلام للناس عن دعوته ،
ورفع لهم أعلام النجاة . . فمن استظل بها فقد ضمن السلامة لنفسه وماله . . من
قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد أصبح في الإسلام مسلماً ، لا سبيل لأحد
عليه . . يقولها بلسانه ، وإن لم يمتددها في قلبه . لأنها جواز المرور إلى الأمن
والسلامة . . وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر . لأنها حسابها في الدنيا ، يصدق
فيها بقوله . . أما ما في قلبه فحسابه على الله الذي لا تخفى عليه ما تخفى الصدور .

فلم يترك الإسلام الأمر في دعوته هوى الناس وشهواتهم ، يسكيلون بالكيل
الذي يرضى منازعهم ، ويجري مع أهوائهم . . وإنما الذي صنعه الإسلام هو أن
أقام إلى جانب دعوته حجازاً بين الحق والباطل هو شهادة الله لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله . . يقولها الإنسان فيتحول من الكفر إلى الإيمان ، وليس
لأحد عليه بعد هذا من سبيل !

أما القلوب وما تنطوي عليه فأمرها إلى الله . . ليس لأحد أن يدعى الكشف
عها فيها من خير وشر . . من إيمان أو كفر . .

يقول النبي الكريم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد
رسول الله ، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم . . وحسابهم على الله » !
وفي حديث ذي الخويصرة ، وقد استبان منه للمسلمين ما استبان من ربح

الغفاني . . . وبدأ لأحد الصحابة أن يستأصل هذه الجير ثمرة الفاسدة . . . لم يمكنه
النبي منه ، وقال : « هلا شئت عن قلبه ٩ » . . . ومن أجل هذا احتفى بالإسلام
كثير المنافقين عن لاخلق لهم ، ولا مروة عندهم ، وإفه على الرغم من أمارات
النفاق البادية عليهم . فإن الإسلام قد تركهم وشأنهم ، وجعل الكلمة التي نظموا
بألسنتهم دون أن تدخل قلوبهم - وقاية لهم ، وستاراً يستترون فيه ومدخل يدخون
به في المجتمع الإسلامي .

ولا شك أن هذا المنهج على ما فيه من ثغرة ينفذ منها ذوو النفوس الضعيفة
هو أعدل منهج يمكن أن يقوم بين الناس ، ويصممهم من الدسائس والوشايات التي
إن أدانت مذنباً فإنها تدين لإزائه عشرات من الأبرياء الذين لا ذنب لهم . . . ولهذا
كان من مبادئ الإسلام : « الخطأ في العفو عشرات المرات خير من الخطأ في
العقوبة مرة واحدة » .

ونخذ مثلاً آخر - غير الثورة الفرنسية ومذابحها - الثورة الروسية . لأنها
جاءت باسم الاتصاف للطبقات الفقيرة الكادحة وتخليصها من العبودية والإذلال
لأصحاب رؤوس الأموال ، من طبقات الأمراء وأصحاب الأعمال .

كذهب في سبيلها من ملايين البشر الذين حصدهم من أجل قادة الحركة رز عماءها ؟
وكيف غرق الناس في بحار من الفوضى فلا يدري أحد ما المصير الذي يصير إليه
في مصيحه أو عساه ؟ ولا يدري أحد الاتجار الذي يتجه إليه فيجد عنده الأمن
والسلامة ، إن مشى في ركب الثائرين لم يأمن أن يجيء من يشهد عليه أنه ليس
على دين الثورة . ولم ؟ لأن أسارى وجهه تقول هذا ، أو أنه سمع يقول كلاماً
يشتم منه ربح العداوة للثورة ، أو أن فلاناً سمعه يقول كذا وكذا . . . أو لا هذا
ولا ذلك . . . إنه ليس من شأنه أن يسأل : لم ؟ إن عليه أن يمد رقبتة لسيف
الجلاد وحسب ، دون أن يفتح فمه .

هذا شأن كثير من المذاهب والدعوات المدنية التي ربما تكون قد نشأت عن
دوافع إنسانية كريمة ، وقامت من أجل مقاصد طيبة نبيلة ، ولمكتمها عند دخولها
في دور التطبيق العملي اصطدمت بالمماندين ، أو الخاقدين أو الجاهلين ، فكان

صراعاتهم صراعاً لا تحكمه قاعدة عامة شاملة تفرق بين الأولياء وبين الأعداء، وإذا الناس جميعاً متهمون، وإذا كل إنسان متهم إلى أن تثبت برأته، وذلك على عكس القاعدة القضائية التي تقول: «كل إنسان بريء إلى أن تثبت إدانته».

* * *

ولا يأس من أن نستطرد هنا بعض الاستطراد، فنبسأل: ترى لو أخذت الدعوات والمذاهب المدنية بالمبدأ الإسلامي وطبقته في مجال الحياة العامة لنشر مبادئها، والتسكين لها - أكانت تصادف بعض النجاح الذي صادفته الدعوة الإسلامية؟ أو بعناية أخرى: لو أن كل دعوة من هذه الدعوات المدنية حملت لها شعاراً مادياً يعرف به الأولياء من الأعداء هذه المعرفة الظاهرية التي لا تكشف عن الواقع الذي عاينه الناس - أكان ذلك يلفتها للغاية، ويدفع عنها كيد الكائدين، ومكر الماكرين؟ ونقول في غير تردد: أن نعم! فليس بعد هذه التجربة الكبرى التي أتبعها الإسلام في دعوته - من يستطيع أن يدفع هذا الجواب أو ينقضه!

أستطيع الدعوات المدنية أن تقفو أثر الدعوة الإسلامية، وتستطيع أن تضمن - مقدماً - نجاحاً مؤكداً، وأن تأمن النكسات التي تعترى كثيراً من الدعوات.. ولكن.

ولكن ليس هذا على إطلاقه..

فليس كل دعوة صالحة لأن تدخل في مثل هذه التجربة الإسلامية، وأن تظهر ببعض النجاح الذي قدر لها.

فهناك دعوات هوجاء طائشة، تمنحنت عنها عقول مضطربة، وتنفست بها صدور محمومة، ونزوات طائشة. ومثل هذه الدعوات لا يمكن أن تحتفظ بحياتها إلا كما يحتفظ الدود الذي يتولد من الجيف. لأنه لا يتحرك إلا ليوت وفي التاريخ - في الشرق والغرب - شواهد كثيرة لهذا..

دعوة بابك الخرمي مثلاً (١). وهو فارسي ظهر أيام «قباد» بذهب لإباحي

(١) الخرمية: نطفة أعجمية تدل علي ما يلد وما يشتهي.

دعا فيه إلى انتهاب كل شيء ، واستحلال كل شيء .. فاجتمع إليه الجياع والمخرومون ، والمنهلون . وتهاقت أصحاب اللذات على دعوته تهاقت انذباب على العسل ١ .

هذه الدعوة قد صادفت في أول أمرها نجاحاً ملحوظاً ، واجتماع الناس عليها ومظاهرتهم لها .. ولما كان سرعان ما عصفت بالناس أعاصيرها ، فأفقدت حياهم وقلبت أوضاعهم ، وانقلب أكثر الناس من دعايتها حرباً عليها .

وهكذا شأن الدعوات التي تخرج على طبيعة الحياة ، وتقلب أوضاعها .. لأنها حينئذ لا تجد من الناس من يسندها ويشد أزرها ، لأنها لا تتصل بمقلد أو بقلبه .

فلكى تجد الدعوة مدخلاً للتجربة الناجحة يجب أن تكون دعوة إنسانية . بمعنى أنها تستخدم الصالح العام للناس وترعاه ، فلا تكون لحساب فرد ، أو جماعة ، أو طائفة ، وإنما هما للناس ، ولخير الناس . إن لم يكن كل الناس فالناتية العظمى فيهم . ثم لا يكفي أن تكون هذه الدعوة كلاماً يصاح في عبارات طلية ، أو أساليب منطقية ، وإنما يجب أن يكون الداعي أو الدعاة لها مؤمنين بها عن فهم ، متحمسين لها من غير تعصب . يدعون لها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحيثون بها إلى الناس عن إقناع .

إن مثل هذه الدعوة لا تثبت أن تجد كل يوم ، لأمؤمنين بها فاعسب ، بل دعاة يسندون الدعاة ، ويقفون إلى جوارهم ومن وراءهم .. لأنها ليست دعوة فرد ، ولسكنها دعوة الحياة .. دعوة الناس جميعاً .

وفي الناس دائماً — في كل عصر ، وفي كل أمة — منحرفون ، لا يستجيبون لدعوات الخير ولا يستقيمون عليها .. وهؤلاء ينبغي — لكي تسلم الدعوة ، ولكي يصل الخير إلى أهله — أن يضرب على أيديهم ، وأن يرصد لهم العقاب الرادع الذي يناسب كل حالة ..

وهنا ممكن الداء وموضع الخطر ، فما أكثر ما تختلط الأمور . وتختل

الموازن ويفلت الزمام من يد القائمين على الدعوة، فيسكون البلاء، وتكون الفتنة .

يحف دائماً بأصحاب الدعوات كثير من أصحاب الأهواء والاضلالات. يزينون لهم الشر، ويفتخون لهم أبواب السكيد والانتقام، في صورة من يبغي النصح، ويريد الخير.. وقد يتخذ هؤلاء الناصحون من القول. ولطف المدخل ما يفرى أصحاب الدعوة بالاستماع إليهم، والأخذ بمشورتهم، وهنا ينفتح الباب الذي لايسد أبداً. بل يزداد على الأيام اتساعاً، وتزداد الفتنة به عمقاً وامتداداً..

ولعلنا نجد العبرة ماثلة في فتنة وقعت في المجتمع الإسلامي — هي فتنة خفاق القرآن - التي قسمت المسلمين شيعاً وأحزاباً. وحملت الخليفة المأمون، على ما به من عقل وما عنده من حكمة — حملته على جناحها وأشرقت به على هاوية كادت تذهب بخلافته .

ولم يكن المأمون هو الذي يطرق هذا الأمر، ولا أن يفتح له عقله أو أذنه، لولا أن النف حوله عصية أرادت أن تنتقم من خصومها، فلم تجد سبيلاً غير هذه السبيل التي تضعهم أمام الخليفة موضع المخالف لرأيه، الخارج على عقيدته !

وانظر كيف كان مكر هذه العصابة وكيف كان تدبيرها !

فأولاً : أوقعت في نفس المأمون ، بعد دراسات ومباحثات في مجالسه العلمية — أن القرآن مخلوق ! لأن كل شيء مخلوق لله ، والقرآن شيء وإن كان كلام الله فهو مخلوق !

وثانياً : كل من لا يعتقد هذا المعتقد فهو مشرك بالله . مستوجب العقاب ، وكان أن فوجيء الناس بهذا الرأي ، ووقع العلماء في عنة ! الخليفة — وهو القائم على حماية العقيدة — لا يرى المؤمن مؤمناً حتى يقول إن القرآن مخلوق ، ! والعلماء يرون هذه القولة بدعة ، لأنها لم تكن من مقولات السلف ، ولم تكن موضع نظر ومبحث ، ولم يكن لها مكان في مقررات العقيدة .

ولك أن تقرأ صحفنا من أخبار هذه المحنة ترى كم أذيت الناس فيها من بلاء
وكم نزل بهم من كرب؟ حتى أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل قد قيد، وحبس
وضرب، وكادت تذهب روحه مما نزل به من بلاء!

نقول هذا لتقرر أن الدعوات المدنية كثيراً ما تدخل عليها العناصر الغربية،
فتفسدها على القائمين بها تدبيرهم المستقيم، وتلتوى بمقاصدهم الطيبة.

والناس هم الناس، أياً كانوا من رجاحة العقل وسمانة الخلق يخضعون
للمؤثرات الخارجية، ويتأثرون بالذوايق الشخصية، والريغيات الذاتية.

وليس هناك من عاصم لمن يقوهون على أمور الناس إلا الرجوع إلى
« قانون » يحتكمون إليه، هم وشعوبهم على حد سواء.

لا بد من شريعة تحكم بين الناس.. لكل جريمة جزاؤها، من غير إفراط
ولا تفريط.

و « الإسلام » يهضم دماء الناس وأموالهم إلا بحق.. هذا مبدأ قرره الإسلام
من أول يوم جاء!

فشكل ما وقع من الذين عارضوا الدعوة الإسلامية، قبل أن يدخلوا في
الإسلام — كل ما وقع منهم من أذى للرسول الكريم قد سماه الإسلام، منذ اللحظة
الأولى التي دخلوا فيها مع جماعة المسلمين في الإسلام.

فدخل أولئك الذين حاربوا الدعوة وأذوا رسول الله حين دخلوا في الإسلام
بصفحات بيضاء ناصعة، لم يعلق بها شيء مما كان منهم قبل أن يسلموا.

فهذا « وحشي (١) » قاتل حمزة، أسد الله، وعم النبي، وأحب الناس
إليه.. يدخل في الإسلام ويعيش في المسلمين مسلماً، لا يناله لسان بسوء ولا تاء
إليه يد بأذى.

وهمر بن الخطاب يرى قاتل أخيه زينداً، فلا يزيد على أن يقول له: « والله

(١) وحشي هذا عبد حبشي، كان يجيد استعمال الخربة، وقد جعل له سيده الخلاص
من الرق إذا هو قتل حمزة في غزوة أحد: وقد فعل، فقتل حمزة، وتحرر من الرق.

لا أحبك أبداً حتى تحب الأرض الدم المسفوح ، فيقول الرجل : وهل ذلك يمتنعى
-تقاً هو لي ؟ فيقول عمر : أما هذا فلا . فيقول الرجل : لا بأس . إنما تبكى على
الحب النساء !

« العدل » القائم على مهيار ثابت مستقيم هو الذى ثبت أركان الدعوة
الإسلامية ، ويمكن لها فى القلوب .

« والعدل » الذى يقول به الإسلام هو « العدل » المطلق ، العدل الذى لا يتغير
وجهه أبداً ، ولا يخاله أسد دون أحد .

* * *

ونعود إلى حديثنا عن الإسلام . وأن السيف لم يكن الأداة العامة فى انتشاره .
ودخول الناس فيه أفواجا .

فيقول - إلى ما قلناه ، من قبل - إن سيف الإسلام قد أغمد منذ أكثر من
ألف عام . . ولا زال الإسلام يهمر القلوب فى أربع مئة مليون من البشر ،
ولا زال الناس يدخلون فى الإسلام أفراداً وجماعات وأما ، وليس للإسلام سيف ،
بل إن السيف تشهر ضد الإسلام فى صور من حملات التبشير ، والاضطهاد
للمسلمين فى المواطن التى يتجه أهلها إلى الإسلام عن اقتناع ، دون أن يدلهم
عليه لغراء بهال أو منصب وإنما دليلهم لإيه مبادئه الإنسانية العادية ، وشريعته
السهجاء .

وانظر فى آفاق العالم الإسلامى تجد أن كثيراً من هذه الآفاق قد دخلها
الإسلام دون أن يسبل فيها سيف ، أو تراق قطرة دم . .

فشلا أندونيسيا ، وأطراف الصين ، وسومطرة وجاوة وفيها جميعها أكثر
من نصف العالم الإسلامى . . هل كانت ميادين حرب بين الإسلام والإلحاد ؟
وهل شهدت جيوش المسلمين تطؤها بخيلها ورجلها ؟ إن الإسلام قد دخل تلك
الأوطان فى غير جلبة ولا صنب . . دخلها كما يدخل شعاع الشمس على الناس

في يمتطئهم أو نومهم دون أن يظرق باباً أو يكسر نافذة . . إنه يتحسس المنافذ المفتوحة فيتسلل منها في رفق إلى الحجرات، والساحات، فيضمرها بالنور والدفء، على حين يقف مترصداً النوافذ المغلقة والأبواب الموصدة حتى تفتح فيندفق منها تدفق السبيل الغامر .

هكذا دخل الإسلام على أهل تلك البلاد كما دخل على أوطان كثيرة أخرى في أفريقيا مثل السنغال ، والسومال ، وأوغنده ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها .

o o o

وندع هذا كله ، ونسلم جدلاً ، للقائلين — كيداً أو جهلاً — بأن الإسلام قامت دولته على السيف ، وأن السيف وحده هو القوة العاملة فيما كان للإسلام من امتداد في المشرق والغرب .

نسلم بهذا جدلاً .

ولسكن لنا سؤال نريد جواباً عليه من أصحاب هذا القول : ما الذي يمسك بنظام الإسلام اليوم ؟ ومن الذي يقوم عليه ، فلا تقلت منه من هذه الأمم والشعوب التي تتدين به ؟ إن النظام الذي يقوم بالقوة ويعتمد عليها لا يبقى في الحياة لحظة واحدة إذا ذهبت عنه تلك القوة أو ضعف شأنها .

وواتع الإسلام اليوم ، وقبل اليوم ينبىء عن أن القوة التي صحبت الدعوة في أول أمرها لم يعد لها مكان .. وأنه لا سلطان لأحد على أحد في مواطن الإسلام في أن يدين بأى دين ، أو لا يدين بدين أصلاً .

وأكثر من هذا . . الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صراحة لا تقبل جدلاً في أنها لا تعتمد بشيء . . حسناً كان أو شيئاً — إذا جاء عن طريق الإكراه .

فمن آمن مكرهاً ، فلا إيمان له . . كمن كفر مكرهاً ، فليس من الكفر في شيء . يقول الله سبحانه وتعالى :

و من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ، وقلبه مطمئن بالإيمان . . . ولكن

من شرح بالسكر صدرأ فلهيهم غضب من ربهم ولهم عذاب عظيم» (١) .
ويقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « رفع عن أمتي الخطأ ،
والنسيان ، وما أكرهوا عليه » .

الدين . . . إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان في ماله
أو دمه أو عرضه .

الدين . . . هو إيمان . . . والإيمان حب وتقديس وإجلال لما يقع الإيمان به . .
فسكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد . . . إن النفس
لا تنضح على مثل هذا الدين إلا السكره والمقت والأزدراء ، وإنها ستلغظه كما
تلفظ المهدة الطعام الفا . . .

وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا إكراه في الدين ، حتى تنفتح
له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب ، يخالطها مخالطة الروح للجسد .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . .
فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام
لها ، والله سميع عليم » (٢) . .

فالسيف لم يستعمل إلا ليمسح الطريق للدعوة حتى تبلغ أسماع الناس ،
وحتى يدفع عنها حملات التضليل أو الإرهاب التي كان يقوم بها أعداء هذه
الدعوة . . . من المشركين ومن أهل الكتاب . . . وحسبنا أن قلب الصفحات
الأولى من حياة الدعوة لئرى ما لقي النبي والنفر القليل من صحبه السابقين إلى
الإسلام من بلاء ، وما احتملوا من شدائد . . . حتى أنهم قد سدت عليهم منافذ
الطرق إلى الهجرة عن الأهل والوطن ، فراراً بدينهم وتنفيذاً لهذا الضيق الذي
بلغت به القلوب الخفاجر !

وارى من جانب آخر تلك المفترقات الخبيثة والمزاحرات الدنيئة التي كان

(١) - سورة النحل : آية ١٠٦

(٢) - سورة البقرة : آية ٢١٦

يذيعها اليهود في الناس ، ويدبرونها للكيد للإسلام ولنبي الإسلام ، ولمن دخل في الإسلام .

فكان لا بد أن يسكون لل سيف موقف هنا . . وأين يكون موقفه إذن إذا تخلف عن هذا الموقف ، ليمضي بقافلة الرحمة والخير إلى حيث تنتظرها الإنسانية لتجد فيها زادما العتيد لحياتها ، ولما بعد حياتها ؟ . .

فاذا سلمت القافلة من يد اللصوص وقطاع الطريق ، ووصلت إلى أهلها سالمة فقد آن للسيف أن يغمد . . إلا أن تسول لقطاع الطريق ، وللصوص ، أن يحركوا النتن ، أو يعينوا عليها .

« لا إكراه في الدين .. قد تبين الرشد من الغي » .. فهذا هو مبدأ الإسلام الذي تقر به بعد أن رسخت قواعد الدين ، وبعد أن وجدت الدعوة طريقها مفتوحة بينها وبين الناس . . يجيئون إليها أو تيجيء إليهم . . على حد سواء .

ودع عنك ما يذهب إليه بعض من يستبد بهم الحساس الكاذب من العلماء والفقهاء الذين يقولون — بغير علم — إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى أطلقوا عليها آية السيف ، وهي قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .
« وقاتلوا المشركين كافة » . . هذا المقطع من الآية هو الذي تعلق به من تعلق من الفقهاء والمفسرين ، فجعلوا منه وثيقة إعلان حرب على غير المسلمين ، إعلاناً عاماً ، قائماً أبداً ، لا فرق بين أن يسكون ذلك في مقام الدفاع أو العدوان .
وتحصيل هذا المقطع من الآية هذا المعنى هو مما لا تعين عليه دلالة النص ، ولا يلتقي معه المقطع الآخر من الآية نفسها ، كما لا يشهد له الحال الذي نزلت الآية فيه . .

فأولاً : « وقاتلوا المشركين كافة » لا يمكن أن يفيد العموم المطلق ، وإلا كان على المسلمين أن يشتبكوا في حرب شاملة مع جميع المشركين على هذه الكرة الأرضية . وإلا كانوا في حكم المخالفين لأمر الله ، الخارجين عن طاعته ، إذا هم لم يفعلوا ذلك ويحققوه .

(١) - سورة التوبة : آية ٣٦

(٢٥١ - النبي محمد)



ومحاربة المسلمين للمشركين على هذه الصورة أمر مستحيل لا يمكن أن يتحقق في أي ظرف، وفي أي حال. والتكليف به تكليف بما لا تسعه النفوس، ولا تقوم له.. وشريعة الإسلام شريعة يسر لا حرج فيها.. « ما جعل عليكم في الدين من حرج » (١). « يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر » (٢). « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٣).

وثانياً: المقطع الثاني من الآية: « كما يقاتلونكم كافة » هو في مقابل « قاتلوا المشركين كافة ». وهذا يدل على أن المسلمين ليسوا هم البادئين بالحرب، ولا بقتال جماعى الجماعات المشركين؛ وإنما المشركون هم المعتدون، فسكوا اعتدوا في جموع جمعوا لها الشيع والأحلاف، فعلى المسلمين أن يجمعوا جموعهم لهم وأن يقاتلوهم جميعاً.. « قاتلوا المشركين كافة.. كما يقاتلونكم كافة ».

وثالثاً: نزلت هذه الآية في غزوة الأحزاب « الخندق ».. وفيها جمعت قريش جمعوا، وأحلافها من كل ملة وقبيل.. وبهذا الجمع الضمير رمت قريش المسلمين، فكان لزاماً على المسلمين أن يسكنوا جميعاً جهة واحدة ضد المشركين جميعاً.

وعلى هذا فليست هذه الآية - آية سيف - كما يسمونها. وليست ناسخة للآية المحكمة: « لا إكراه في الدين؛ قد تبين الرشد من الغي ».

ثم كيف يستساغ أن يقول الله لنبيه « لا إكراه في الدين ».. ويقر له أن الدين لا يكون عن إكراه. ولا يثمر ثمرة طيبة إذا جاء عن هذا الطريق، ثم يأمره أن يعان هذه الحرب الجماعية على غير المسلمين أياً كانوا، وأن وجدوا؟ أم هذا منطقي يقبل لإنسان أن يكون له، وينسب إليه؟ فكيف بالحكيم الخبير.. رب العالمين؟

وكيف يلتقي النبي والمسلمون مع المشركين في حرب عدوانية عامة، والله سبحانه وتعالى يقول له: « أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٤)؟ ويقول له:

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥

(٤) سورة يونس: آية ٩٩

(١) سورة الحج: آية ٧٨

(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٦

المبيرة المبيدة لهم .. ولكنه سمح لهم إن يطرفوا بالبیت ، وأن يملأوا حاجتهم منه .. لأنه لم يكن أنذرهم بذلك من قبل ..

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) .

ومجىء هذه الآية بعد الآية السابقة بيان كاشف للعلة التي من أجلها ينبغي أن يضحي المسلمون بما كان يعود عليهم في موسم الحج ووفود المشركين إليه ، ومشاركتهم في هذا الزواج المادى الذى يكون عادة في مثل هذا الموسم ..

إن على المسلمين أن يضحووا بهذا النفع المادى في سبيل تطهير المسجد الحرام من هذا الرجس الذى يطوف به ، مع المشركين الذين يقتربون منه .. وعلى المسلمين أيضاً أن يعملوا على تطهير المجتمع الإنسانى من الشرك والمشركين ، وخاصة فى مواطن الطهور والقداسة « الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب » .. قاتلوهم « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية وسابقتها فى مساق واحد .. لقتال المشركين الذين يطوفون بالبیت الحرام بعد أن أنذروا بالألا يطوفوا بعد عامهم هذا .. فإن عادوا بعد هذا الإنذار وجدوا المسلمين لهم بمرصد ..

الجهاد .. فى الإسلام :

الحرب شر لا بد منه .. ودواء من تقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية لعلاج الأدواء الخبيثة ، والعمل المستعصية .

وفى الشر نجاته حين لا ينجيك إحسان

لأنها سنة الحياة .. سلام وحرب .. وخير وشر .

(١) سورة التوبة : آية ٢٩

والإسلام دين النظرة . وتهالجه وأحكامه قائمة عليها ، مقدره بمقدارها .
فما كان على فطرة الناس من أمور فهو دين وشريعة . . وما خرج على الفطرة
وخالف طريقها ، فليس من الدين ، ولا من الشريعة .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحرب التي قامت في ظلال الدعوة الإسلامية
كانت حرباً دفاعية لاهجومية ، وأن غاية هذه الحرب كانت اقتلاع الأشواك ،
ورفع الحواجز التي اصطنعها المشركون في طريق الدعوة ليمسدوا الناس عنها ،
وليحولوا بينهم وبين الاتصال بها ، والتعرف عليها !

وقد عرفنا أيضاً أن آيات القتال التي جاءت في القرآن داعية إلى قتال
المشركين والضرب على أيديهم أين كانوا ، وحيث وجدوا — كانت غايتها تعبئة
شعور المسلمين ، واستثارة حميتهم للذود عن الدعوة وإرهاب أعدائها حتى
لا يجدوا فيها مطعماً ، وحتى يتجنبوا الأمر بين الإسلام والكفر ، ويوضع حد للفتن
التي يدفع بها المشركون إلى مواطن المسلمين . . . وقتاؤهم حتى لا تكون فتنة ،
ويكون الدين كله لله ، (١) . . . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم ، (٢) !

عرفنا هذا ، وقلنا إنه بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وانحجر أعداؤه ،
أخذت الآيات القرآنية تنزل بالدعوة إلى إغمد السيوف التي لم يعد لها مكان بعد
أن أدت مهمتها ، وبلغت غايتها . . فما كان بالإسلام حاجة إلى إراقة ما أريق
من دماء ، لولا أن هذه الدماء كانت إراقتها أمراً تدعو إليه المصلحة العامة لسلامة
الإنسانية وخيرها . . لأنها دماء فاسدة في السكبان الإنساني ، وفي إراقتها شفاء من
هذا الصداع الذي يزعج راحة هذا السكبان وسلامته . . لأنها أشبه بعملية الفصد
تذهب ببعض الدم وإن كان الدم ينبوع الحياة ، وسرها الممسك بها :

وكذلك الجصورم وهي أمراض بعض أعضائها لبعض وقاه
هذا هو صميم الإسلام في تشريعه للقتال : « لا عدوان إلا على الظالمين »
فما جاء الإسلام ليقم بين الناس العداوة ، وليوقد بينهم نار الحرب . . وما جاء
عقيدة سماوية لذلك ، وإنما جاء ليزرع الود ، والمحبة ، وليؤلف بين القلوب

(٢) سورة الأنفال: آية ٦٠

(١) سورة المائدة: آية ٣٩

المتنافرة وليجتمع بين الشيع المباعدة ، ولتبت العصبيات التي تولد الحقد والضغينة بين الناس والناس .

والمجال التطبيقي لدعوة الإسلام أصدق شاهد لهذا ، فقد انضوى تحت لواء الإسلام السادة والعبيد ، والأشراف والسوقة ، ووقف الناس جميعاً في مقام واحد ، ليس لأحد فيه فضل على أحد إلا بالتقوى .

فما اختلفت الدعوة قريشاً بشيء ، ولا ميزت العرب بشيء ، لأنها دعوة الله لعباده جميعاً ، وهي رحمة للناس جميعاً . . . كالشمس ، والهواء . لا يجهبان عن أحد ، ولا يؤثران بلداً عن بلد .

وأيها الناس : إن رسول الله إليكم جميعاً ، . . . ليس للغرب ولا للعجم ، وإنما لهم جميعاً .

وليس بين المسلم — في شريعة الإسلام — وبين غير المسلم عداوة . . . فهما إن فرق بينهما الدين ، فقد جمعتهما أوامر الإنسانية ؛ وهي أوامر يمكن أن يعيها الناس فيها على مودة ووفاق ، فإن دعوة الإسلام — في صميمها ليست إلا توثيقاً لهذه الصلات الإنسانية ، وإقامة قواعدهما على أسس ثابتة ، ودعائم متينة ، تمسك بميزان العدل والحق والخير بين الناس . فلا يضطرب ولا ينحرف !

ولا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ، ولم يخرجوك من دياركم أن تروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . . . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين ، وأخرجوك من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (١) !

فأى سماحة بعد هذه السماحة ، وأي دين مثل هذا الدين في سماحته تلك ؟ أو أى مذهب مثل هذا المذهب يسع الأولياء والأعداء ، ويبسط لهم يده جميعاً ؟ أى دين أو أى مذهب رفع هذه الحواجز القائمة بين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والعقائد ، والألسنة ، والمشارب ، وجمعهم على

مائدة الحياة ، في مودة ووفاق ، كما فعل الإسلام بالمجتمع الإسلامي في المجتمع
الإنساني ؟ .

ودع ما يتحدث به الغربيون من تسامح الديمقراطية وإنسانيتها ، فإنها لا تعدو
أن تكون أحاديث منمقة مزوقة ، ينكشف زيفها ، ويبطل عملها ، عند التطبيق ،
وعند ملامسة الواقع الذي يعيش فيه الناس .

إن العصبية لون ، وللجنس ، وللعقيدة ، مازال يملأ نفوس الغربيين ، ويتحکم
في تصرفاتهم ، فإذا الناس عندهم بيض وسود . . وإذا العالم في نظرهم غرب
وشرق ، وإذا الشعوب في حسابهم مسيحيون ومسلمون !

ولو أخذنا نحصى الشواهد ، ونضرب الأمثال لهذا ، لاستولى ذلك على زمام
الموقف منا ، وخرج بنا عن موضوعنا الذي نهالج به .

ولكن حسبن أن نأظر إلى مأساة فلسطين نظرة خاطفة . . ففي هذه النظرة
السريعة ينكشف تعصب الغرب ، ويفضح زيف دعواه التي يدعيها عن مبادئه
الإنسانية الديمقراطية . .

فلو كان الفلسطينيون غير عرب . . أكان يلقي بهم في العراء يموتون جوعاً ،
وبرداً ومرضاً ؟

وهل شهد التاريخ أمة تجلى عن وطنها في القرن العشرين ، وعلى مرأى ومسمع
من جمعية الأمم المتحدة ، بل وبتدبير الأمم المتحدة التي يسيطر عليها الغرب ،
ويوجه سير الأمور فيها ؟

وهل كانت الهدنة الأولى بين العرب واليهود في سنة ١٩٤٨ وقد أوشك
العرب أن يدقوا بجيوشهم تل أبيب ، هل كانت هذه الهدنة التي دعت إليها
الأمم المتحدة إلا الخنجر المسموم الذي أغمد في صدر الشعب العربي لينزع
تلك القطعة الغالية من الأرض المقدسة لتكون مرتعاً خصباً لعصابة من جرائم
اليهود ، تستوطن فلسطين ، وتخرج منها أهلها مشردين ، مجردين من كل ما كان
لهم من مال ومتاع وديار !

وقد عاشت هذه المأساة ، وسلخت من عمرها قرابة خمسة عشر عاماً إلى يومنا هذا ولا ندرى إلى متى تعيش . . . ولكن الذي ندرية ويسجله التاريخ أن العالم الغربي الذي يزعم لنفسه الوصاية على العالم باسم الإنسانية والديمقراطية قد استساغ هذه المأساة ، وكأنها أمر مألوف لم يدخل على العالم بما يزعج ضميره ، ويؤذى وجدانه !

ولو كان أبناء فلسطين غير عرب لما استساغ الغرب هذا المسير الذي صاروا إليه . فقد كانت الحرب العالمية الأخيرة — مثلاً — بما وقع فيها من أحداث قادرة على أن تبيد أمماً وتمحو شعوباً وتجلبها عن أوطانها في الميدان الأوربي ، ولكنها مع ذلك احتفظت لكل أمة بأهلها وبأرضها ، وبعضها لا يعدو أن يكون في صغره قرية من القرى « كإمارة موناكو » مثلاً ؟ ولم ؟ لأن أبناء أوروبا — مهما يكن الأمر بينهم — لا يمكن أن يسرقوا ، وأن يباعوا في الحياة بيع العبيد . . .

أما غيرهم من أمم الشرق فلا عليها أن تطرد ، وتشرذ ، وتهم على وجهها . ومأساة أبناء فلسطين لم تقع على الصورة التي وقعت بها لأنهم عرب وحسب ، ولكنهم عرب ومسلمون معاً . . . وهذا مما ثبت أقدام المأساة ، وأكدها ، ويمكن لها . . . فإن كون الشعب الفلسطيني شعباً مسلماً هو جريمة غليظة ، إلى كونه شعباً عربياً . . . لأن الغرب على رغم لادينيته اليوم وعلى رغم دعوى التسامح التي يدعيها حيال المعتقدات الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها ، فإنه مازال يحمل للإسلام بنوع خاص دون سائر المعتقدات والمذاهب — مازال يحمل قدراً كبيراً من البغض والكراهية للإسلام والمسلمين ، وإن الحرب الصليبية التي وجهها الغرب إلى الإسلام منذ تسع مئة عام وإن سكن طيها فإنها ما تزال تخفي تحت رمادها جمرأ يتضرم حنقاً وغيظاً على الإسلام ، وما زال يرمى دين آونة وأخرى بشرر وشر ينال من الإسلام ومواطنه ما ينال من ضرر وأذى .

وارجع البصر إلى مواطن الإسلام خلال موجة الاستعمار التي اجتاحت قارتى آسيا وأفريقيا خلال القرنين الماضى والحاضر تجد أن ما وقع على الإسلام ومواطنه من آثار الاستعمار وسيئاته أضعاف ما وقع على الشعوب غير الإسلامية

التي أصيبت به ، فإذا كان ما وقع عليه الاستعمار أمة ينسب أهلها إلى المسيحية
كانت يد الاستعمار رفيقة عليها رحيمة بها ، بل إن الاستعمار لا يجد له مقاماً
فيها ، فسرعان ما يجلو عنها وينسحب منها إلى أقطار إسلامية جديدة به
الحبشة - مثلاً - أمة المسيحية مكان فيها . فما حدث لها ؟

إنها الدولة الوحيدة بين دول أفريقية هي التي سلمت من الاستعمار ومن
جرائمه ، فلم يدخلها في حسابها ، ولم يضمها إلى قائمة الأمم التي يتعامل معها ؟
ولم ؟ ألأنها مما يزهد فيه الاستعمار لقلّة مواردها ، وضآلة شأنها ؟ كلا ، فإن
فيها موارد كثيرة ، وخيرات موفورة ، ومجالات للاستغلال ، ومواقع
« استراتيجيّة » لها شأنها في الحرب ، وفي السلم .

فإذا إذن ؟ إنها في حساب الدول المسيحية وهذا وحده كاف لأن يمر لها
عن موكب العبيد الذي ينتظم الشعوب المستعمرة .

لقد كانت قبيل الحرب العالمية الأخيرة حرب بين إيطاليا والحبشة . وفيها
استولت إيطاليا الفاشية ، التي كانت تنفتح فيها في شهية محمومة إلى التوسع
والاستعمار ..

وكانت هذه فرصة لإيطاليا الوحيدة للتوسع والاستعمار الذي تنزده
إلى ذلك ، ولم يكن لها فرصة غيرها .

فماذا حدث ؟

الذي حدث هو ما كان ينبغي أن يحدث لأية دولة « مسيحية » غابت على
أمرها في مجال الحرب ، ووطئت أرضها حيرش أعدائها .

لقد طلبت عصبة الأمم ، - وكانت هي المنظمة الدولية إذ ذاك - طلبت
إلى إيطاليا أن تنسحب من الحبشة .

فلما تلسكات فرضت عليها « عصبة الأمم » هذه حصاراً اقتصادياً ، وطلبت
إلى جميع الأمم المتمثلة فيها أن تنفذ هذا القرار ، وألا تتعامل مع إيطاليا ، حتى
تصاع لطلب العصبة ، وتجلو عن الحبشة . وقد كان فلم تحمل إيطاليا مقاطعة
العالم لها ، فجلت عن الحبشة بعد بضعة أشهر من احتلالها .

أولو كانت الحبشة دولة إسلامية ، - دولياً - وهي في حقيقتها دولة إسلامية لأن غالبية أهلها من المسلمين ، ولكن ضعف أحوال المسلمين قد مكنت للناصر المسيحية القليلة أن تسود وأن تحكم لو كانت الحبشة دولة إسلامية دولياً أكان جلاء إيطاليا يحدث . . وعلى تلك الصورة ؟

ولماذا إذن لم تجل الجيوش الإنجليزية عن مصر إلا بعد نحو ثمانين عاماً ؟ ولماذا لم تجل فرنسا عن الجزائر إلا بعد قرن وثلاث قرن ولا بعد أن استتبسل أهلها - وبعد أن استتبسوا - فدخلوا في صراع غير متكافئ مع المستعمرين وضجوا بأكثر من مليون شهيد ؟

ومثل آخر أوضح من كل هذا وأكثر دلالة على ما عند الغرب من حقد دفين على الإسلام الدولة العثمانية . . كانت تضم تحت سلطانها شعوباً إسلامية وغير إسلامية . . فاذا حدث عندهما وهنت قوة العثمانيين ، ولانت شوكتهم !

لقد أقام الغرب حرباً صليبية جديدة على الدولة العثمانية فنشبت حرب البلقان ، التي حشدت بها أوربا قوى كثيرة - ظاهرة ومستترة - في ميادين الحرب ، وفي مؤتمرات - أو مؤامرات - الصلح ، وانتهى ذلك الدور بقطع الاوصال الأوربية من جسم الدولة العثمانية . . فانسلخت بلاد البلقان كلها ، وخرجت من الدولة العثمانية : - اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، الصرب ، ومقدونية الأوربية وغيرها !

أهو موقف إنساني وقفته أوربا مع الدول المغلوبة على أمرها والخاضعة لسلطان العثمانيين ؟ قد كان ذلك يمكن أن يسجله التاريخ ! ولكن ماذا يقول في الوجه المقابل لهذا الموقف ؟

لقد هزمت تركيا مع حليفاتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى . . وكالحال مع كل مهزوم فرضت عليها عقوبات . . وكان من تلك العقوبات أن تنسأخ عنها الدول الباقية تحت سلطانها ، وهي دول إسلامية كلها ! وكان المنطق يقضى - كما حدث في الولايات التي كانت تابعة لتركيا من القطاع الأوربي ، كان المنطق يقضى أن تحكم كل دولة من الدول الإسلامية نفسها بنفسها . .



ولسكن الذى حدث كان على غير هذا الا لاهلها إلا أن هذه الدول تدين
بالإسلام، وتلك جريمة لا تنسل أضرارها إلا بالاستعمار !!
ولقد قسمت التركة على الغرب المستعمر، فهو الوارث الشرعى، لتلك
التركة . .

فذهبت فرنسا بالشام، وجعلت منه دولتين: سوريا ولبنان .
ووضعت إنجلترا يدها على العراق، وشرق الأردن، وأقامت فى الأولى
حكماً ملكياً وأقامت فى الثانية أميراً على إمارة — وكلا المملك والمؤمر لا يملك،
ولا يأمر .

أما فلسطين — الجزء الباقى من بلاد الشام — فقد جعلت إنجلترا وصية عليه
وصاية انتهت بتسليم فلسطين لليهود !!
وهكذا تم توزيع الأسلاب والغنائم .
أفرايت إذن كيف كان نضيج هذه الضغائن التى يحملها الغرب للإسلام
والمسلمين ؟

على أننا لسنا فى مقام الكشف عن جنائيات الغرب وآثامه فيما جر على البلاد
الإسلامية من مصائب ومحن . . . لسكننا هنا إزاء مقايضة بين مبادئ الإسلام فى
الأخوة والمحبة والبر بالناس جميعاً وبين دعوى الغرب فى ظل المدنية الحديثة لتلك
المبادئ الكريمة، والتهم التى يرمى بها الإسلام من أنه دين حرب وعداوة يثيرها
أتباعه فى وجه من يخالفهم ولا يدخل فى دينهم !

ونسأل عن السلام الذى نعم به العالم فى ظل المدنية الحديثة فلان نجد إلا حروباً
قائمة فى كل مكان، تتجمع شيئاً فشيئاً حتى تكون حرباً عالمية يصلح العالم كله
بنارها، ويحترق فى لهيبها . . .

فى خلال النصف الأول من هذا القرن قامت حربان عالميتان بسبب أطماع
الغرب ومدنية الغرب . . . وبسبب هذه الأطماع لم يبت العالم ليلة واحدة دون أن
تسكون هناك حرب فى جزء من أجزائه . . . هذا إلى جانب الحرب الباردة التى
تهدد العالم فى كل لحظة بحرب عالمية ثالثة، تنطلق فيها الصواريخ محملة بالقنابل
الذرية والهيدروجينية . وحسبك أن تتصور وقوع هذه الحرب، لتعرف المصير

الذي يصير إليه العالم . . إنه الفناء الذي لا يبقى على صورة من صور الحياة على هذه الأرض .

فإن هذا من دعوة الإسلام إلى السلام ، دعوة مختصة ، تنبع من أعماق حقيقة من كل مبادئه ..

فكل ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من مبادئ إنما غايتها تقويم الإنسانية كلها في أفرادها وجماعاتها ، حتى يقوم بين الناس ميزان العدل ، فلا عدوان على الضعفاء ، ولا اعتماد على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم . . فنخرج عن هذا الطريق القويم وجد العقاب العاجل الذي يردعه . إلى جانب العقاب الآخروي الذي ينتظره .

لقد أقام الإسلام من مبادئه سياجاً متيناً يحمي الناس - كل الناس - من الناس - كل الناس . . إن المجتمع المثالي الذي أقامه الإسلام بمبادئه ليس مجتمعاً مفلقاً على نفسه بما فيه من خير وشر ، وإنما هو مجتمع أشبه بالشجرة المثمرة الطيبة ينتفع الناس بثمرها . . فنقاته ثمرها فلن يفوته الانتفاع بظلها . . ومن حرم من هذا وذاك فلن يحرم النظر منها إلى منظر معجب يسر الناظرين .

فما عند المسلم من مبادئ دينه وأحكام شريعته لا يتعامل به في المجتمع الإسلامي وحده وإنما يتعامل به مع الناس جميعاً . . مسلمين وغير مسلمين . .

فالمسلم شخصية واحدة . . لا تنقسم إلى شخصين أو أشخاص ، فيكون لها مع المسلم حال ، ومع غير المسلم حال أو أحوال . . كلا .

فإذا أمر الإسلام بالوفاء بالعهد ، فإنما هو وفاء واحد لكل الناس وفي جميع الأحوال . قال تعالى : « وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتم » . . ويقول نبي الإسلام : « من أمن رجلاً على نفسه فقتله ، فأنا بريء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً ، هو قول واحد للناس جميعاً ، وتشريع واحد ينزل عليه الناس جميعاً .

وإذا دعا الإسلام إلى العدل وأمر به ، فإنما هو عدل واحد ، لكل الناس وفي جميع الأحوال . .

يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكوا بالعدل، (١) . . بين الناس عامة ، وليس بين المسلمين وحدهم؟
ويقول سبحانه وتعالى : « ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو
أقرب للتقوى ، (٢) .

هكذا كل مبدأ كريم ، وخلق قويم جاء به الإسلام ، وكل ما جاء به كريم
وقويم إنما هو خير عام يعود فضله على القريب والبعيد على المسلمين . وغير
المسلمين جميعاً .

كالبحر يلقي للقريب جواهرها منه ، ويرسل للبعيد سحائبها

• • •

عودة على بدء :

قد يشير دعاة التشجيع على الإسلام ، والتشويه لحقائقه اعتراضات على هذا
القول فيلقونك بعدد من الأسملة الخبيثة المأكورة . . وكأنهم يجولون جوابها
ولا يعرفون وجه الحق فيها . .

فتراهم يقولون مثلاً : لماذا يدفع الإسلام بأتباعه زمراً إلى ميادين الحرب
ويصور لهم الموت في ساحة القتال بصورة شبيهة ، يحرصون على الفوز بها : حتى
ليتدافعون إلى ساحة القتال تدافع الإبل العطشى على موارد الماء ؟

ولماذا يمجّد الإسلام البطولة ، والفروسية على هذا النحو الذي يمثل حياة
الفروسية في العصور الوسطى ؟

أذلك مما يعده الإسلام لقيام السلام في الحياة ؟ وهل سلام مع هذه النفوس
المعبأة للقتال ، والموطنة على الموت للانتقال في رحلة سعيدة إلى عالم الخلود ؟ إن
مثل هذه النفوس إن لم تجد باباً مفتوحاً للقتال عملت بكتنا يديها على فتحه
أو تحطيمه ، لتجد طلبتها ، ولتحقق الأمنية التي تحرص عليها !!

وقد يبدو لهذا القول ظاهر مقبول إذ أنه يجري على مألوف الحياة التي لا تقوم
على دين ، ولا ترجع إلى شريعة إنسانية كشرعية الإسلام

(٢) سورة المائدة : آية ٨ .

(١) سورة النساء : آية ٥٨

« فالنازية ، حين عبأت شعور الشعب الألماني للحرب ، ومآلات رهوس الشباب بهذا الهوس المسعور باستعلاء الشعب الألماني وامتيازه عنصريه ، وحققه في السيادة على العالم - حين عملت النازية على هذا وحققته اندفع الشعب الألماني نحو الحرب بكل قواه ، وكان من هذا أن قامت الحرب العالمية الأخيرة !
وشيء مثل هذا كان من « الفاشية » الإيطالية التي أرادت أن تحذو حذو النازية الألمانية وأن تجرى معها .

وشتان بين ما صنع الإسلام في أتباعه ، وبين تلك النزوات التي دعت إليها النازية الفاشية وما على شاكتهما من دعوات .

وشتان بين إنسان تنمى فيه ملكاته الإنسانية ، فتملأ كيانه قوة ، وعزماً كما تملأ عقله حكمة ورشداً ، وتملأ قلبه مودة ورحمة .. وبين إنسان تغذيه بطبايع الحيوانات المفترسة . وتستنبت له مخالب الأسود وختل الذئاب ، ومكر الشعالب !

فالإسلام حين دعا إلى القوة ، وحين مجد الأقوياء ، فإنما لتكون هذه القوة قوة عاملة لحساب الخير ، قائمة على ميزان الحق والعدل .. قوة يحكمها خلق ، ويصممها دين ، وإلا كانت غير محسوبة على الإسلام ، ولا عاملة تحت لوائه .
القوة في ذاتها كمال مطلوب ، وعدم بلوغها نقص وقصور .. واسكنها تكون عيباً حين تتحول إلى أداة شر ، وتستحيل إلى إحصار مدمر .

وقد أراد الإسلام لأتباعه القوة المادية والمعنوية معاً .. قوة الروح ، وقوة الجسد ، لا ليكروا فورا وأسوداً يأكلون الناس ، وإنما ليكروا أعزاء ، أقوياء ، تجدد مبادئ الإسلام في كنفهم حتى كريماً تنتج فيه أزهارها . وتوضح ثمارها ، أشبه بالأرض الطيبة التي تستعمل على عناصر القوة والخصب . فالنبت الطيب لا يؤق ما عنده إلا في أرض طيبة .. فإذا ضمت أرض سيخة فكدة ذبل ومات .. « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ، (١) .



فالقوة حين تضبطها قوى الخير والعدل تسكون رحمة وبركة على نفسها وعلى
من حولها ، أما حين تنعزل عن هذه الضوابط أو تنمات منها ، فإنها تسكون
شراً وبلاءً ، على نفسها ، وعلى من يتصل بها ، أو يدنو منها !

والقوة التي يزكها الإسلام ، ويحث أتباعه على تحصيلها هي هذه القوة
الملازمة بلجام العقل والحكمة ، والحب والرحمة . . قوة مستبصرة ، تعرف
طريقها ، وتوجه إلى غاياته ، ولهذا لمحمد القرآن القوة لإلا ومعها الأمانة . .
الأمانة التي تمسك بالقوة أن تجور على حق ، أو تعتدى على ضعيف . . قال
تعالى على لسان ابنة نبي الله شعيب في مرسى عليهما السلام : ديا أوت استأجره . .
إن خير من استأجرت القوى الأمين (١) قوة ترفنها أمانة . . أمانة هي اليد
الممسكة بزمام القوة أن تميل إلى ظلم أو فساد في الأرض ، أو يفتن أو عدوان
بغير حق !

إن الإسلام ليدعو كل مسلم أن يكون قوياً ، ممسكاً من القوى بأقوى
أسبابها ، محصلاً لأكرم جواهرها . . قوة عامة شاملة . . قوة في الروح ، وقوة
في الجسد . . وقوة في الخلق . وقوة في العلم . . قوة في كل جانب من جوانب
الحياة ، وفي كل كنف من أكافها . .

لأنه حين يحصلها المسلم تسكون . . طاقة ، كبيرة من القوى ، يشتمل عليها
كيانه ، ويدفع بها في مجالات الحياة فتملأ يديه من كل خير فيها . .
فإذا كانت داعية الحرب خف إلى ميدانها منطلقاً كالريح المرسله ، فإذا
واجه الأعداء كان إحصاراً عاتياً لا يريم مكانه حتى تقتل أو يقتل !

إن الإسلام كان يعطى كل حالها . .
وحال الحرب ليست لهو ولا لعباً . . إنها الحرب . . وليس لمن يشهدها
إلا أن يكون على حال من حالين : قاتل أو مقتول . .

فهل ترى يدع الإسلام أتباعه أن يكونوا في عداد القتلى ؟ فمن إذن لجهة
الخير يحمياها ؟ ومن الدعوة السماء يقوم عليها ؟

(١) - سورة القصص : آية ٢٦

وهل من شريعة العدل أن يقتل دعاة الإصلاح ويسلم الطغاة والمفسدون ؟
إن ذلك تأباه الحكمة والعدل !

فليكن إذن ما يجب أن يكون . . وهو أن يلقي المسلمون أعداءهم في المعركة وهم مزودون بالقوى النفسية والمادية ، ليكونوا أقدر على أن يصيبوا من أن يصابوا . . واستمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . بأنهم قوم لا يفقهون » (١) . « الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ، (٢) .

فإنك تجد في هاتين الآيتين الكريمتين كثيراً من مواقع العجب والدهش :
فن ذلك أن هذه المقابلة النسبية بين قوة المسلم وبين قوة خصمه في الآية الأولى تنبئ فيما تنبئ عنه أن المسلمين في أول أمرهم كانوا قلة . . وهم — فوق هذا — جهة الإسلام والسابقون إلى غايات الخير من الناس — ومن أجل هذا كان الحرص عليهم أشد ، والضن بهم أزم . . فلا يقتل أحد منهم إلا في مقابل عشرة يقتلون من الجهة المعادية !

ومن ذلك أيضاً أن الخير لا يوزن بالشر . . والحسن لا يباع بالسيئ . فإن كان ذلك أمراً لا بد منه — وهو أمر لا بد منه — فليكن الطيب الواحد في مقابل عشرة ؟ !

ولهلك تذكر هنا تدبير الإسلام في الحسنات والسيئات . فإن الحسنات تذهب بعشر سيئات . « إن الحسنات يذهبن السيئات » (٣) . وهذا وجه يمكن أن نرى فيه المعنى الذي أشرنا إليه في الآية السابقة من تقويم المسلم بعشرة من مقاتليه في ميدان الحرب ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، .

« والفقه ، الذي ختمت به الآية وجعلته صفة منفية عن مقاتلي المؤمنين هو الفقه الذي يمنح المرء وعياً مبصراً ، مستقيماً مع الفطرة ، فيولد في كيانه إيماناً

(١) سورة الأنفال: آية ٦٥ (٢) سورة الأنفال: آية ٦٦ (٣) سورة هود: آية ١١٤

راسخاً بالخير والعدل . . وكراهية بالفة للعوج والانحراف . . فإذا قاتل قاتل عن عقيدة واضحة بيّنة . . وليس كذلك غير المؤمن . . إن فؤاده فارغ من كل معنى من معاني الخير والحق ، وإنما تدور في فؤاده خيالات من أوهام وأباطيل لا يجد منها في مجال القتال مداد يمدّه بالصبر ويلقى إليه بالعزم . وهذا المعنى ذاته نجدّه في المنافق . . فإن أبرز صفاته ألا صفة له . . إنه أشبه بالجرّاء ، يتلون كما تتلون ويدور كما تدور . . ولهذا كان وصف المنافقين الذي وصفهم الله به هو أنهم لا يفقهون : قال تعالى ، ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، (١) .

فالفرق بين المسلم وبين غير المسلم هو هذا ، الفقه ، الذي عبأ به الإسلام نفوس المسلمين ، بما كشف لهم من معالم الخير . وما أراهم من آيات الحق . وانظر كيف تفعل أجهزة الدعاية في نفوس المقاتلين ، وكيف تقدم إلى جانب العتاد والسلاح ، عتاداً أقوى من أي عتاد ، وسلاحاً أمتنى من كل سلاح . إن غاية هذه الأجهزة هي تعبئة النفوس ، بما تلقى إليها من التصورات ، وما تحمل إليها من المعاني ؛ التي تزيدها معرفة وفقهاً — إن حقاً ، وإن كذباً — بموقفها من عدوها هذا الموقف الجائر ، الظالم . . أبدأ !!

وفرق كبير بين قضية الحق التي يدافع عنها الإسلام ويجمع عليها الانتصار ، ويبدل من أجلها المهج والأرواح ، وبين قضايا مختلطة ظاهراً حق منفرى ، وباطنها أحقاد وأطباع، ونزوات وشهوات .

وإذ لم يعرف أعداء الإسلام من الإسلام إلا جانب السيف الذي قام بين يدي الحق ؛ يرد عنه هجمات المبطلين ، ومضلات المضللين — فإننا نريهم جانب الرحمة التي حملها الإسلام إلى الناس ، وحمل معها السيف الذي يحمها ، ويثبت مغارسها في الأرض .

* * *

(١) - سورة المنافقون : آية ٣ .

الباب الثاني عشر

نبي الرحمة

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

- ١ -

النبوة :

النبوة رحمة ورحمة حيث كانت ، وخير غدق حيث أصابت . لأنها تحمل كلمة السناء إلى الناس محملة برحمة الله لعباده ، موقرة بالخير لمن اتصل بها ، وفتح قلبه لها .

فما بزغ في الناس نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله ، إلا والناس منه في معرض الرحمة ، وفي عارض عطر بالرفد والخير العميم .

فبين يدي كل نبي نور يضيء دنيا الناس ، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الخير والحق . . وعلى لسان كل نبي كلمات ربانية ترسم للناس مناهج العمل لغايات الخير والسعادة . . يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١) . . ويقول سبحانه : « رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) ويقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣) . . فأنبياء الله ورسله هم حجة على عباده . . لأنهم يحملون إلى الناس « أطواق النجاة » ، حين تضطرب بهم سفينة الحياة ، وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق إلى شيطان الأمن والسلامة ! فمن استجاب لهم ، وتناول ما في أيديهم من أضواء الحق ، وأطواق النجاة ،

(٢) سورة النساء: آية ١٦٥ .

(١) سورة الحديد: آية ٢٥

(٣) سورة الإسراء: آية ١٥

سلم ونجا ، وكان من الفائزين برحمة الله ورضوانه . . ومن أبي واستكبر أن يمد يده إلى هذا الحبل الممدود لنجاته ، واستنقاذه من الهلاك المطل عليه ، فلا ينومن إلا نفسه؟ . . من اهتدى فيما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإيما يضل عليها . . (١)

إن أنبياء الله ورسوله هم رحمةخالصة ، لا أجر عليها ، ولا من معها . إنهم من الله ، وإلى عباد الله ، ويقوم لا أسألكم عليه أجرأ ، إن أجرى لإعلى الله (٢) .

فما حملت دعوة نبي ، أو رسالة رسول شيئاً من شأنه أن يضيق به الناس أو يشقوا به . إنها دعوة تحمل إلى الناس الحياة لموات القلوب ، والهدى لضلالات العقول ، كما يحمل النيث الحياة لصنوف الأحياء ؛ أو مامن شأنه أن يكون في الأحياء : أو من كان ميتاً فأحييناه وجهلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله الظلمات ليس بخارج منها؟ ، (٣) .

نعم . . قد يضيق بعض المنحرفين ، والمسلطين بدعوات الأنبياء لأن انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يجيأ في ظلها . . إذ هي دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضى على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

وهن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويعسدون الناس عنهم هم دائماً أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، إذ يحسبون في هذا الذي تحمله الدعوة النبوية إلى الناس من عدل وإخاء — تضديعاً لما معهم من سلطان وجاه ، وذهاباً لما بين أيديهم من مال وحظام 11 أو هو أقل تقدير لإزعاج لما هم فيه من حال رضوا بها وأطمأنوا إليها . .

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبي لا يترع سلطانهم ليضعه في يده ، ولا يأخذ ما لهم ليضيقه إلى نفسه . . فما جاء رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور والاستكثار من الحشم والخدم . . إن دعوة النبي وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل ، وليس له من شيء إلا ما فضل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة . ولما لقي في سبيلها من عنت وأذى : « إن أجرى لإعلى الله ،

(٢) سورة هود: آية ٢٩ .

(١) سورة الإسراء: آية ١٥ .

ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء ، لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والإحسان ، والعدل والبر ، وأنها لا تتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجهه الغنى ، إذا كان فيه حق الله وحق السائل والمحروم .

قد يصاب بعض الناس من الشمس بضربة . أو من الماء بفضة . . ومع هذا فإن الشمس هي سر الحياة ، والماء هو أصلها وممسكها . فالتطلع الشمس في كل مكان وليجبر الماء في كل صوب ، وإن أودى بالشمس خلق ، وغرق أو غص بالماء خلق ، فإن هذا الذي يذهب هو ضريبة الحياة للأحياء .

وكذلك دعوات الأنبياء قد تصيب بها بعض النفوس ، وقد يهلك بها بعض الناس ، ولكن ذلك لا ينقص من قدرها ، ولا ينال من جلالها ، فإن الذي يذهب ويعطب لا يعد شيئاً إلى جانب الذي يبقى ويسلم .

الرسالة المحمدية :

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمت وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة محمد ، رحمة شاملة ، وبركة عامة ، للناس جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل جنس ، على مدى الأيام والدهور .

إنها رسالة لا تخص أمة من الأمم ، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان . . فهي ليست للعرب وحدهم ، وليست لعصر النبوة وحده . . فما العرب فيها إلا لسانها وترجمانها ، وما عصر النبوة إلا مطالعها ، ومجلى أنوارها . . ثم هي بعد ذلك رحمة مشاعة في الناس كلهم ، وحظ مقسوم لجميع الأزمان ؛ « قل يا أيها الناس : إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فأمنوا بالله ورسوله . . النبي الأمي . . الذي يؤمن بالله وكلماته . . » (١)

ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله إلى الناس كافة ، إذ كانت الآية شارحة لتفضية الإنسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ،

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٩ .

فليس لأمة ، ولا لشعب فضل أو امتياز في الأصل والنشأة . . ولا في الدم
أو الموطن ، ولا في الزمن السابق أو اللاحق .

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق » (١) .

فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء ، وتفتتح بها رسالته : الله هو خالق
كل شيء . . والإنسان هو من مخلوقات الله . . قد خلق من علق !

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : « الإنسان » . . الإنسان مطلقاً ، في أى
مكان ، وفي أى زمان !

والقرآن الكريم كله ، في أحكامه وتشريعاته ، وفي أوامره ونواهيه ، وفي
نصائحه ووصاياه — يخاطب الناس جميعاً ، ويدعو الناس جميعاً . . بهذه الكلمة
العامة الشاملة : « يا أيها الناس » أو « يا بني آدم » أو « يا أيها الإنسان » ، ولم يختص
العرب أو قريشاً بخطاب أبدأ ، فلم يقل يا أيها العرب ، أو يا بني إسماعيل ، أو يا أبناء
عدنان وقحطان . . كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسله في أقوامهم ، ومن أرسلوا
إليهم . . فكان كل نبي يدعو قومه خاصة كما حكى القرآن الكريم ذلك في قصص
الأنبياء : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب
أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين » (٢) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً .. قال يا قوم . . . » (٣) .

« وإلى عاد أخاهم هوداً .. قال يا قوم . . . » (٤) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال يا قوم . . . » (٥) .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ،
وذكّرهم بأيام الله . . » (٦) .

(٢) سورة نوح: آية ١

(٤) سورة هود: آية ٥٠ .

(٦) سورة إبراهيم: آية ٥ .

(١) سورة العلق: آية ١

(٣) سورة هود: آية ٨٤

(٥) سورة هود: آية ٦١

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني ، وقد تعلمون أني رسول الله

إليكم ؟ (١) »

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، (٢) .

وهكذا كانت دعوات الأنبياء في أقوامهم خاصة ... ولم تتعد أقوامهم ، ولم

تجاوز حدود أوطانهم .

وأكثر من هذا .. فالذي يقرأ التوراة والإنجيل — على ما هما عليه الآن — يجد فيهما حرصاً شديداً على احتجاز الرسالة الموسوية ، والرسالة العيسوية عن الناس ، وقصرها على بني إسرائيل خاصة .. فلم يكن لهاتين الرسالتين متوجه لغير بني إسرائيل ، ولم يكن لهذين النبيين الكريهين — موسى وعيسى — شأن بداية أحد من الناس غير شعبيهما الذي بعثا إليه .. والقرآن الكريم يذكر ما بين موسى وفرعون فيحدد الغاية التي من أجلها أرسل موسى إلى فرعون . وهي تخليص بني إسرائيل من قبضته ، وإخراجهم من تحت سلطانه ، الذي بسط عليهم فيه يد القهر والاذلال « يقتل أبناءهم ؛ ويستحي نساءهم » . ولم يكن لموسى دعوة مباشرة إلى فرعون ليؤمن بالله ، اللهم إلا ما قد يلح فرعون من دلالات تدل على الله ، فيما قدم له موسى من معجزات ، تصدق دعواه أنه رسول رب العالمين ، قد أرسله إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل .. يقول الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ؛ فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى ، فإنا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا ، إني معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى ، (٣) .

ويقول سبحانه على لسان موسى يخاطب فرعون : « يا فرعون ، إني رسول

(١) سورة الصف: آية ٥

(٢) سورة البقرة: آية ٦٧ .

(٣) سورة طه: الآيات : ٤٣ — ٤٧ .

من رب العالمين حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم بآية من ربك ، فأرسل معي بنى إسرائيل ، .

والتوجهيات التي يلقى بها موسى إلى فرعون لإلقاء مباشر آهي في الواقع لحساب الغاية الأصلية من الرسالة الموسوية ، وهي تخليص بنى إسرائيل من العذاب المميين ، فإذا دعا فرعون إلى الله فإنما ليستقيم على الحق ، وليأخذ بنى إسرائيل بالرحمة والعدل . . التي يأمر الله عباده بها . . يقول سبحانه وتعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتحشى ؟ » (١) أى ليخشى الله في بنى إسرائيل ، ويرضى يده القابضة على رقابهم !

وليس معنى هذا أن فرعون لا تقوم عليه الحجة بدعوة موسى له إلى الإيمان بالله . . كلا ، فإن موسى قد دعاه إلى الإيمان بالله ، وأقام عليه الحجة بتلك الدعوة ، وما قام على دلائل صدقها من آيات معجزة قاهرة ! ولكن لم يكن ذلك إلا لأن لفرعون شأناً في حياة بنى إسرائيل ، فهم في ملكه ، وتحت سلطانه ، ولأنهم ، لسكى يخرجوا من هذا السلطان كان لابد أن يكون ذلك عن رضى من فرعون ، ولا يرضى فرعون حتى يخرج عن طيبة البطش والقهر والظلم ، التي تستبد به ؛ ولا يكون ذلك إلا عن إيمان بالله وعن مراقبته وخشيته . . ومن هنا كان موسى رسولا إلى فرعون ، وداعياً له إلى الله ، وإلى الرفق بعباد الله . . فلما لم يستجب فرعون لهذه الدعوة ، ولم يرسل بنى إسرائيل مع موسى ، كان لله تدبير . . فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بنى إسرائيل متخفياً بالليل ، وأن يهرب إلى حيث لا سلطان لفرعون . . : « أن أسر بعبادى ليلا ، إنكم متبعون ، واترك البحر رهواً . . إنهم جنود معرقون » (٢) .

أما التوراة فإنها كلها لبنى إسرائيل ، ليس فيها شيء لأحد من الناس غيرهم . . حتى أن الله هو لإهم وحدهم دون الناس ، لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا ينال برحمته وفضله سواهم . . هو رب الجنود ، وهو ، « رب إسرائيل » ، وليس رب الناس ، ولا رب العالمين !

(٢) سورة الدخان: آية ٢٣ ، ٢٤

(١) سورة النازعات: آية ١٧ - ١٩

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل وقل لهم : أنا الرب إلهكم ، مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل أرض كنعان التى أناأت بكم إليها لاتعمالوا ، وحسب فرائضهم لا تسلكوا » (١) .

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إلى مقدمة .. من كل من يحته قلبه تأخذون تقدمتى ، وهذه التقدمة التى تأخذونها منهم .. ذهب وفضة ونحاس .. » (٢)

وهكذا كل ما حملت التوراة من تشريع هو موجه إلى بنى إسرائيل ، لا يراد به غيرهم من الناس . إنه تشريع « مفصل » على « كياس » هذا الشعب ، وهو « دواء » لا يصلح إلا لهذه الجماعة التى حملت فى كيانها تلك الجراثيم الخبيثة التى أفسدت فطرة الله فيها ، وكان أصدق وصف ما وصفهم به المسيح فى قوله : « يا أولاد الحيات .. »

وكذلك « الإنجيل » .. وصاياه كلها لبنى إسرائيل ، ومهجرات « عيسى » كلها لبنى إسرائيل .. فهو إذا أبرأ الكمه ، والعمى ، والبرص فى بنى إسرائيل لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا يمد يداً إلى سواهم :

فى إنجيل متى : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى فواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ، وصرخت إليه قائلة : ارحمنى ، ياسيد ايا ابن داود اابنتى مجنونة جداً .. فلم يجبهها بكلمة .. فتقدمت تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ! فأنت وسجدت له قائلة : ياسيد .. أعنى ! فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البدين ، وي طرح للكلاب الضالة ! فقالت : نعم ياسيد : والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها » (٣) .

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين .

(٢) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر الخروج .

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

فانظر كيف كان موقف السيد المسيح مع هذه المرأة التي علقت آمالها به ؟ وكيف أذلت كبريائها ، ونزلت إلى منزلة الكلاب ، لتنال من فتات المساندة الممدودة لبنى إسرائيل ؟ !

وليس في هذا ما يؤخذ على الرسالة ، العيسوية . . فهو رسول الله إلى قومه . . مهمته محددة بهؤلاء القوم . ليس له شأن بما عداهم من الناس . . وذلك شأن جميع الرسل المبعوثين من قبله . . كل رسول داعية إلى الله في قومه ، مشغول بهم عن كل ما عداهم .

ولكن الذى لا يستقيم مع هذه الدعوة المحددة القول بأن عيسى ، هو ابن الله أو هو الله ، أو ما شاكل ذلك من الادعاءات . . وأنه إنما جاء على تلك الصورة البشرية المجسدة ، ليكون له مكان بين الناس ، يعيش فيهم ، ويحيى معهم ، ثم تختم حياته بالصلب ليكفر الخطيئة التي تعيش في الناس . من ميراث أبيهم آدم ، وليطهرهم منها !

وفي هذا القول تماهات ، وبطلان من وجوه كثيرة :

فأولاً : لو كان المسيح هو الله أو ابن الله تجسد في صورته التي عاش بها في الناس لما كان له مكانة في بنى إسرائيل خاصة ، ولا قصر دعوتهم عليهم . . وإلا لما كان الإله الذى يقرم على السموات والأرض ، ويديطر رحمته للناس جميعاً .

وإذا كان من تدبير عيسى — وهو الله أو ابن الله — أن يكفر خطيئة آدم في أبنائه ، فكيف يحمل هذا التكفير لبنى إسرائيل وحدهم دون أبناء آدم ، وكلهم أخذ بنصيبها من تلك الخطيئة ؟ . . معقول جداً أن يحيى النبي إلى جماعة من الناس ، وأن يطلع عليهم بالهدى والرحمة والبركة ، كما يصيب الغيث جانبا من الأرض فيمضب ويمرع على حين تظل هناك كثير من وجوه الأرض مغبرة كالحلة مجدبة ! ولكن معقول أن يحيى الله في صورة بشر ليخلص الناس من الخطايا ، ثم يختص هذه الرحمة التي أرادها للناس — فريقاً منهم ، ويحجزها عن

القالية العظمى من الناس . . إن ذلك تدبير لن يدخل في حكمة الله ولا يحى مع عدله . . فأين يذهب الناس بعد أن قبض الله عنهم يده التي بسطها لحفنة قليلة من الناس هم بنو إسرائيل ؟

وثانياً: إذا كان المسيح الإله قد جاء لينخلص الناس ، وليحمل عنهم خطيئتهم ، فذلك — إذا سلمنا به — إنما يكون للجيل الذى أدركه المسيح الإله من أجيال الناس ، وقد يمتد للأجيال اللاحقة لهذا الجيل . أما الأجيال السابقة لظهور المسيح من عهد آدم إلى يومه الذى ظهر فيه فإنهم بمعزل عن هذا الذى جاء المسيح من أجله ، لا ينالهم منه شيء ، لأنهم لم يؤمنوا به ، ولم يعمدوا بماء المعمودية الذى باركته يد المسيح !

وإذا كان ذلك كذلك ، فما شأن هذه الأجيال الكثيرة التى تقدمت لظهور المسيح من آدم إلى يوم ظهوره . لماذا لم تأخذ فرصتها من التطهير ؟ ولماذا لم يحىء لإيها المسيح فى الصورة التى جاء بها ، وللغاية التى قصد لإيها منذ هبط آدم إلى الأرض ؛ ليحى بيده على ظهر آدم أو أبنائه فيطهرهم ويحمل خطيئتهم وخطايا الأجيال المتعاقبة من ذرائعهم ؟ ألم يكن ذلك هو الذى تقتضيه الحكمة والعدل ، إن لم يكن من مقتضيات المنطق والعقل ؟

والم يكن ذلك هو الذى يناسب الغاية التى يدعيها المدعون لحىء المسيح الإله ، وهى تطهير خطايا الناس وحمل أوزارهم ؟

إن القول بأن السيد المسيح هو الله أو ابن الله هو قول أبتى ، لا يستقيم أبداً ، على تملك الصورة التى يدعيها المدعون له .

إن المسيح إلهاً فليكن شأنه عاماً فى الناس ، ورحمة شاملة لهم فى أجيالهم جميعاً . . من آدم إلى أن ينتهى دور الناس على هذه الأرض لا أن يكون ذلك لبنى إسرائيل خاصة . . وإن لم يكن المسيح إلهاً ، وكان نبياً من أنبياء الله ورسولا من رسله ، فلتكن دعوته فى بنى إسرائيل ولبنى إسرائيل ، شأن الرسل والأقبياء من قبله !

المسيح إله أو نبي . . إله للناس جميعاً . . أو نبي في بني إسرائيل ، ولا تمالك وراه هذين الأمرين

الرحمة الدائمة الشاملة :

وعجب أن تقصر يد المسيح الإله ، أو الإله المسيح عن أن تمس برحمتهما الناس جميعاً وأنها تضيق بهم إلى الحد الذي لا يسع أحداً غير بني إسرائيل . . ثم يكون لإنسان من الناس ، ولبشر من البشر محض الإنسانية ، خالص البشرية ، ليس إلهاً ولا ابن إله ، — يكون لهذا الإنسان أن يحمل رحمة السماء إلى الناس جميعاً . من كل أمة وفي كل جيل !

عجب هذا . عجب ألا يتساوى الإله مع الإنسان . . وأن يكون المسيح الإله دون محمد ، والإنسان النبي !

فهذه رسالة محمد ، قد حملها صاحبها — بتدبير السماء — إلى الناس كافة . . فأذنهم من أول يوم بما أمر الله سبحانه وتعالى أن يؤذنهم به : « يا أيها الناس . . إنني رسول الله إليكم جميعاً » (١) . وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة للإنسانية كلها : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) . . « يا أيها الناس اتقوا ربكم . . إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (٣) . . « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (٤) . . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (٥) « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » (٦) . . « يا بني آدم لا يفتننك الشيطان كما أخرج أبويك من الجنة » (٧) .

(٢) سورة البقرة : آية ٢١

(٤) سورة لقمان : آية ٣٣

(٦) سورة الانطار : ٦ - ٨

(١) سورة الأعراف : آية ١٥٨

(٣) سورة الحج : آية ١

(٥) سورة يونس : آية ١٠٨

(٧) سورة الأعراف : آية ٢٧ .

وهكذا تتكرر دعوة الإسلام على لسان الرسول ، وفي آيات القرآن في تلك الصورة العامة للناس جميعاً ، لا يأتيس بها شيء من التخصص بأمة دون أمة ، أو بجيل دون جيل . . فهى خير مطلق للناس جميعاً ، ورحمة مبسطة لكل من يتعرض لها ، ويمد يده إليها !

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للإسلام، فدخل فيه منذ أيامه الأولى ، بل منذ يومه الأول العبيد والأحرار ، والعرب ، والعجم ، فكان بلال ، - العبد - وسليمان - الفارسي - من أول الناس إسلاماً !
سئل النبي صلى الله عليه وسلم : من أول من بايعك على الإسلام ؟ قال :
« حر وعبد - . . قيل : إن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال .

ولعل في هذا البدء الذى بدأ به الإسلام من أن يكون أول المستجيبين له حر وعبد - لعل في هذا ما يفيد عن طبيعة هذه الرسالة المحمدية ، وأن حظ الناس فيها سواء ، وأن للعبد مثل ما للحر منها . وأن العبيد والأحرار فيها في كفتى ميزان . لأنهم جميعاً أبناء طينة واحدة . . كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، كذلك كان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبي للملوك والقيصرة ، والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبي بكتبه ومبعوثيه إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المقوقس رئيس القبط في مصر ، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله والاستجابة لله ولرسوله . . فالملوك والسوقة والأحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعون إلى الإيمان بالله والاستجابة لداعى السماء . . ثم لأنه لم تمر سنوات على الدعوة الإسلامية حتى دخل في دين الإسلام كثير من الأمم والشعوب ، من جميع الأجناس . ومن مختلف الأمم . . وكان مكانهم في الإسلام بمنزلة واحدة . . لأفضل لعربي على عجمي ، ولا لاسود على أحر . . إلا بالتقوى . . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . (١) .

فأين من هذا ما ادعى لدعوة المسيح الإله أو الإله المسيح ؟

(١) سورة الحجرات : آية ١٣ .

ولا تنظر إلى ما صارت إليه دعوة السيد المسيح بعد أن انتهى دوره فيها ،
وبعد أن ردّها أمحاجها من بني إسرائيل ، وأبوا أن يقبلوا هذا الرسول الكريم ،
وأن يعترفوا به وبرسالته . . فلم يؤمن به إلا نفر قليل لا يسكاد يذكر من بني
إسرائيل . . لا تنظر إلى هذا ، ولا إلى من دخل في دعوة المسيح من غير اليهود . .
فإن دعوته لم تكن إلا لليهود خاصة ، ولم يكن للسيد المسيح تدبير فيما حدث بعد
ذلك من دخول غير اليهود في دعوته . . فإنه لم يتجه بدعوته إلى أحد غيرهم ،
ولم يحاول أن يقول كلمة واحدة لقيصر أو لجنود قيصر الذين كانوا يحكمون
إسرائيل ، ويعيشون بين اليهود . .

فإذا قدر لدعوة السيد المسيح أن تخرج من محيطها إلى محيط آخر ، وأن
تتحول من شعب إلى شعوب أخرى ، فإن ذلك لم يكن من طبيعة الرسالة ، ولم
يكن من أهدافها .

ذلك لأن الوصايا التي حملتها رسالة السيد المسيح لا يمكن أن تقبلها الحياة ،
وأن يعيش فيها الناس أجيالاً وأزماناً ، وإنما هي دواء مر المذق لشعب إسرائيل
الذي كان قد أصيب في روحه بداء ذهب بكل ما فيه من مقومات الإنسانية ،
وبالعناصر الطيبة فيها . فكان لابد من هذا الدواء المر الثقيل ، ليخلص هذه
النفوس المنكوسة من دائها الويل .

ومن أجل هذا نرى هذا التفاوت البعيد بين حياة المسيحيين ، وبين الدعوة المسيحية ،
فما استقام المسيحيون على تلك الدعوة في أي دور من أدوار حياتهم فيها . . لأن
مقررات هذه الدعوة لم تكن للحياة العامة ، ولم تكن للناس جميعاً ، وإنما هي
لفترة من فترات الحياة ، ولجيل معروف من أجيال الناس .

ولو أراد المسيحي أن يكون مسيحياً حقاً ، مستقيماً على دعوة المسيح . لكان
راهباً يعيش في إبطار من الإذلال لنفسه ، والانطواء على ذاته . . !

ولا شك أن مثل هذه الحياة لا تستقيم بها حياة الناس ، ولا يصبر عليها
كثير من الناس .

وكيف يستطيع الناس أن يحيوا حياة طبيعية في ظل هذه الوصايا التي ألقاها السيد المسيح في أسماع اليهود فجعلوا أصابعهم في آذانهم دونها؟

وهل يستطيع الناس أن يقوموا على الوفاء لمثل هذه الوصايا؟

يقول السيد المسيح في بعض وصاياه : « قد سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بمن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين !

و سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعينكم . . ١ . ١ (١)

وأحسب أن النفس البشرية لا تتسع لهذه الوصايا ، ولا تستقيم عليهما . . إن الناس هم الناس ، ولينسوا ملائكة يمشون في الأرض . . وما نحسب أن الحياة على هذه الأرض تسمح بتجربة ناجحة لهذه الوصايا في أى مجتمع بشري .
يقول « جان جاك روسو ، في مدى التطبيق العملي لتعاليم المسيحية :

« ويقولون لنا إنه إذ وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فإنهم يؤلفون مجتمعاً هو أكثر المجتمعات التي تتصورها كلاً . وأنا لا أرى في هذا الفرص سوى صعوبة كبرى واحدة ، هي أن المجتمع المسكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً بشرياً . . بل أقول أيضاً إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون رغم كل كآله أقوى المجتمعات ولا أدومها ، فبقدر كآله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكة في كآله ؛ ذاته . .

ويقول : إنني أخطيء إذ أتحدث عن جمهورية مسيحية ، فالكلمتان متناقضتان : إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً ، (٢) .

ويقول « نيتشه » في سنخريته : « إن المسيحي الوحيد مات على الصليب !! ، .

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس .

(٢) العقد الاجتماعي ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

نستطيع بهذا أن نقرر في يقين نقض ما يدعيه المدعون بالمسيح من أنه خارج عن طبيعة البشر ، وعن سنة الأنبياء من قبله . فنقول إنه بشر ، وإنه هو نبي ورسول إلى بني إسرائيل وخدمهم دون الناس .

وأكثر من هذا ، فإننا نستطيع أن نقرر أيضاً أن الذين تابعوا السيد المسيح وآمنوا بدعوته من غير اليهود هم دخلاء على هذه الدعوة ، يتناولون من طعام غير معد لهم ، وغير متناسب مع طبيعتهم . لا يصلح لهم ولا يسبحون له . إن الرسول ليس رسولا لإيهم ، والرسالة لم تكن شرعاً لهم . فكيف يدعون بدين لم يدعوا إليه ، وشرعية لم يحسب لهم حساب فيها ؟

ولو كانت شريعة موسى ، أو المسيح شريعة عامة شاملة لكان إيمان المؤمنين بهما من غير اليهود إيماناً صحيحاً ، لا شائبة فيه ، بل هو الإيمان الواجب على كل عاقل أن يدين به ، ويستقيم عليه .

ولسكن الأمر — كما قلنا — على خلاف هذا ، فالديانة الموسوية ليست لأحد غير اليهود ، ولا متوجه لها إلا هذه الجماعة من الناس ، لئعالج داء «مخلياً» ، متوطناً فيهم ، متمكناً في نفوسهم . . . وليس الدواء الذي تحمله شريعة موسى وتؤكدده وصايا المسيح إلى هذه الجماعة المريضة بالذي تصلح عليه نفوس غير تلك النفوس ، أو يداوى به داء غير هذا الداء !

وهل رأيت مريضاً بالحمى — مثلاً — يتداوى بالدواء الذي يوصف للبرد؟ وهل يغير ذلك من واقع الأمر شيئاً أن يكون الطبيب الذي شخص داء الرمد ووصف علاجه . . . هو ماهو في العلم والمعرفة ؟ ذلك هو الحال سواء بسواء في الديانة العيسوية فهي امتداد لشرعية موسى وتأكيدها . بل هي تكرار للدواء لذات الداء الذي يكمن في كيان بني إسرائيل .

• • •

وقد يقول قائل : إن شريعة الإسلام ذاتها تدعو إلى الإيمان بالشريعتين الموسوية والعيسوية ، وأن القرآن يقول : «قرلوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ،

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، (١) .

ونقول في إيجاز : إن الذي تدعو إليه شريعة الإسلام من الإيمان بالنبيين وما أنزل عليهم ، هو التصديق بالرسول ، والتصديق بما جاءوا به ، إذ أن ما جاءوا به هو الهدى والخير ، وهو الحق من عند الله ، وليس المراد بهذا التصديق العمل بالشرائع التي جاءوا بها ، فقد جاء القرآن بهذا الخير كله ، وبهذا الهدى كله .

o o o

وندع هذا كله لنعود إلى حديثنا عن الرسالة المحمدية من جانب الرحمة العامة فيها ، فنقول إننا قبل أن نأتسبب الشواهد والأدلة على هذه الرحمة العامة في الرسالة المحمدية نجد القرآن الكريم قد تولى تجاية هذه الحقيقة ، فجاء فيها بالقول الفصل في غير موضع منه ، وفي غير آية من آياته . فقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وقال سبحانه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٣) فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعاً . . . وليس شيء في باب الرحمة بالناس أفضل من استنقاذهم من الضلال ، وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس . إن ذلك يعادل الحياة بعد الموت ، والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم . « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (٤) ورسالة محمد ، تحمل للناس جميعاً الهدى في رفق ، وفي لين . فليس فيها هذا البريق الذي يخطف الأبصار ، ثم يخبو ، وليس فيها هذا العنف الذي تنقطع له الأنفاس ، وينقطع دونه جهد كثير من الناس .

لإنها ليست رسالة طوارئ ، كما جاءت كثير من الرسالات في أحوال مضطربة ، وظروف قاسية . قد ركب الناس فيها ظهر الفتنة ، ولإواظبات

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦
(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧
(٣) سورة التوبة : آية ١٢٨
(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٢

الروحوس الكاسرة .. فكان مجيء الرسول في مثل هذه الأحوال ، وفي مواجهة تلك الظروف ، إنما هو للإنقاذ الحاسم السريع ، الذي لا يحتمل مهلة أو تطاولاً في مدة الإنقاذ .. ومن أجل هذا كان إعلان حالة الطوارئ ، هو العلاج الحاسم في مثل هذه المواقف ، ومن أجل هذا أيضاً كانت عملية الرسول أحياناً تنتهي بالبتر الحاسم ، والتدمير الكامل للجمع المريض الذي بعث إليه ، حين لم يكن ينفع العلاج ، ولم يفيد الدواء .. فقد شهد كثير من الرسل مصرع أقوامهم واستئصال فروعهم وأصولهم .. لم ينج منهم إلا قلة تعد على الأصابع .

« الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة .. كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية . (١) .. « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل .. إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، (٢) »

فالإهلاك الجماعي ، والإبادة العامة ، والاستئصال الشامل لهُؤلاء المنحرفين داعية من دواعي التأمين للإنسانية ، وحماتها من عدوى هذا الانحراف الذي لا يرجي له شفاء ، والذي إن عاش في الناس امتدت عدواه إلى غير المصابين به ، فتعم به البلوى ، ويشمل البلاء .

أما الرسالة المحمدية فإنها لم تجيء من أجل أمر عارض ، ولا لحالة طارئة في جيل من أجيال الناس .. وإنما جاءت للناس جميعاً في جميع أحوالهم وأزمانهم .. ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الإجراءات السريعة الحاسمة التي تنهى الموقف بين النبي وقومه في لحظة واحدة ينتهي فيها كل شيء ، ويسكن فيها كل شيء ، فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .. بل إن تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، وإعطائهم الدواء جرعة جرعة ، على فترات متفاوتة ، وأزمان متباعدة .

(١) سورة الحاقة: الآيات من ١ - ٨ (٢) سورة النجم: الآيات ٥٠ - ٥٢

(٢٧ - النبي محمد)

ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجيء على غير هذا التدبير والتقدير ، لكي تنجح في مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

وإنك لترى هذا في التشريعات والقوانين الوضعية . . فهي في أحوال الطوارئ تكون حاسمة قاطعة ، لا تحتتمل تأويلا ، ولا تقبل تحويرا ، ولكنها في الأحوال الطبيعية وفي الحياة المستقرة تجيء في صورة تتسع للاحتتمالات المختلفة ، وللتأويلات المتعددة . . التي تفرضها الحياة المتطورة المتشعبة بالناس من حال إلى حال . . ولهذا فإنها لا تتناول إلا الأصول العامة ، وأمهايات المبادئ دون الفروع والجزئيات ، التي تختلف صورها وأشكالها ، حالا بعد حال ، وجيلا بعد جيل .

والذي ينظر في الشريعة الإسلامية يجد أنها تناولت الحقائق العامة والأحوال الثابتة التي تعيش في الناس ، ويعيش بها الناس ، في جميع الظروف والأحوال ، ولم تقف عند الحالات التي لا تقع إلا في الفلوات النادرة الشاذة من الحياة !

ولك أن تأخذ أي مبدأ من مبادئ الإسلام ، وأي حكم من أحكامه ، وأن تنقل به عبر الأزمان وأن تطوف به في مختلف الأمم والشعوب ، فإن رأيت فيه نبوا عن الحياة ، أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفاً عن مواطن الخير والفلاح لمن اعتقده وعمل به — فلك أن تسوء الرأي بهذا الدين ، وأن تنضم إلى الجهة المعادية له . . واسكن أنا زعيم لك إن أنت نظرت فأحسنست النظر ، وقدرت فأحسنست التقدير ، وحكمت فعدلت في الحكومة ، ووقفت إلى جانب الحق — أن تعود بعد هذا وملء كيانك لإيمان بأن هذا الدين هو الدين الحق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وليس من ههنا هنا أن نعرض حقائق الإسلام ، وأن نكشف عن جوهرها الحر الكريم ، فذلك ليس من موضوع هذا البحث ، وإنما يكفي أن نشير إلى بعض تلك الحقائق لإشارات سريعة ، وأن نضعها في إطار البقاء والخلود ، وأن ننتهزها بالصلاحية في كل زمان ولكل مكان . . ثم ليقم من يجد في وسعه القدرة على دفعها من مسكانها هذا ، وإخراجها عن صفتها تلك ! فإن

من يقم لذلك ويجد الدليل عليه — وهيات — فإن له ، كما قلنا — أن يسء
الرأى بالإسلام ، وأن يفضم إلى الجهة المعادية له . . والإسلام في هذا إن بخسر
شيئاً ! لأن الذي ينتهى به الأمر مع الإسلام إلى هذا الموقف فهو أحد رجلين :
إما رجل يحمل العداوة الموروثة للإسلام ، ويمتلئ دماغه بما نشىء عليه
وغذى به من صخره من مفتريات على الإسلام ، وطمس لحقائقه . . وإما رجل
أحق مغرور يريد أن يلفت إليه الأنظار فيتملق بأذيال العطاء ، ويندس في
ركب المفكرين . . ليحسب في الرجال . لأنه كالوعل ينطح بقرنيه جبلاً شامخاً . .
يقف منه موقف الند للند !

ونعرض هنا بعض الاصول التي شرع لها الإسلام ، وبين معالمها وحدودها
فن ذلك : —

١ — الإيمان بالله :

وقد رسم الإسلام إلى التعرف على الله طريقاً واضحاً لا يتعثر فيه إنسان ،
ولا يضل . .

والعقل في شريعة الإسلام هو الذي يهدى إلى الله عن طريق النظر في ملكوت
السموات والأرض . .

فهذا الوجود لا بد له من صانع . . والله هو صانع هذا الوجود ، وهو القائم
عليه . . والله في مفهوم الشريعة الإسلامية إله واحد . . أزلى أبدي . . لا تدركه
الابصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

ذلكم هو الله رب العالمين !

لا يبعد مفهومه عن أحد من الناس .

ولا يحتاج لإنسان في طريقه إلى الله إلى أكثر من نظرة يديرها في هذا الوجود . .

فلا أستار ولا حجب بين الله وبين الناس جميعاً . . . !

والعقل هو في كيان الناس جميعاً . . لم تختص به أمة دون أمة ، ولم يستأثر به
جيل دون جيل . . بل لأنه في الناس جميعاً . . فرداً فرداً . . لا تزيده الأيام
إلا قوة وعمقاً .

فالإسلام يدعو الناس إلى الله ، ويدلهم عليه ، وفي كيأهم جميعاً الدليل الذي يدلهم عليه ، ويكشف معالم الطريق .

٢ — ما يتصل بالإنسان في حفظ حياته :

وفي هذا يقرر الإسلام القصاص في القتلى والجرافات . . قال تعالى : « كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى : فمن نفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » (١) وقال سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، (٢) وقال : « وإن عاقبتم فمأقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خبير للصابرين » (٣) .

فالقصاص مبدأ من مبادئ الإسلام ، يتولاه ولي الأمر كما أمر الله . .

ومن تدبير الإسلام في هذا أنه أبطل التضحية بالنفس الإنسانية ، وتقديمها على مذهب القربان لله . . فقد كان ذلك مباحاً حتى في الشرائع السماوية . . ولكن الإنسان الذي أدركته شريعة الإسلام لإنسان قد بلغ رشده ، وارتفعت قيمته عن أن يكون قرباناً ولو لحالقه . . فإنه وقد بلغ رشده يستطيع أن يتقرب إلى الله بالمعرفة الواعية لجلاله وعظمته ، وهذه المعرفة في ذاتها قربان إلى الله أعظم من التضحية بالجسد ، وأعظم دلالة على حب الإنسان لحالقه .

ومن تدبير الإسلام في هذا أيضاً أنه جعل قتل النفس من أكبر الكبائر ، فلا يتطهر القاتل بأية وسيلة من وسائل التطهير أبداً . . قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليماً حكيماً . . ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٤) .

(١) سورة البقرة: آية ١٧٨
(٢) سورة الشورى: آية ٤٠
(٣) سورة النحل: آية ١٢٦
(٤) سورة النساء: الآيات ٩٢ ، ٩٣

وليس معنى استبعاد أن يقتل المؤمن مؤمناً أن للؤمن أن يقتل غير المؤمن .
ولكن المراد بالآية هنا الإطلاق والتعميم ، فلا يقتل المؤمن المؤمن أبداً في جميع
الأحوال ، على حين أنه قد يقتل المؤمن غير المؤمن في حال الحرب بين المؤمنين
وغير المؤمنين . أما في غير هذه الحالة فإن دم غير المؤمن حرمة مثل دم المؤمن .

٣ — ما يتصل بالإنسان في ماله :

وللبال في الإسلام حرمة كحرمة النفس ، ولهذا وضع الإسلام - حماية للبال -
حداً للسارق ، والنابح ، والمختلس . كما حرم الإسلام الربا وأكل أموال الناس بالباطل ،
كالنفس في البيع ، وتظيف السكيل ، وخسران الميزان ، كما حرم الاحتكار ،
والرشوة ، وغيرها مما من شأنه أن تصيب الإنسان في شيء من ماله . . يقول
الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه » .

٤ — ما يتصل في حياته مع الناس :

(١) الرجل والمرأة :

مكان المرأة في الحياة ، وموضعها من الرجل لم تأخذ صورة مستقرة في الحياة ،
وما زال وضع المرأة قلقاً مضطرباً حتى في تلك المجتمعات التي تدعى أنها ساوت
بين المرأة والرجل ، وجعلتها بمنزلة سواء . . فما زالت المرأة هي المرأة . . لأنها غير
الرجل ، وستظل أبداً هكذا . . شيئاً آخر غير الرجل ما دامت تختلف عنه في
تكوينها العضوي وفي وظيفتها لحفظ النوع . . لأنها أنثى . . وليس الذكر
كالأنثى . (١) .

ولسنا هنا في مقام الموازنة أو المقاضاة بين الرجل والمرأة ، فذلك ليس في
موضوع بحثنا ، ولا يدخل في مقرراته ، . وإنما الذي نريد أن نقرره هو ما لا
يشير خلافاً بين أنصار المرأة وخصومها ، وهو أن المرأة غير الرجل . . وأنها وإن
اتفقا في كثير من الصفات فإنها يختلفان أيضاً في كثير من الصفات ، كما أنها
يختلفان فيما اتفقا فيه من صفات كما وكيفاً . . ذلك أمر لا يمارى فيه أحد . .

(١) سورة آل عمران : آية ٣٦ .

وهذا القدر يكفيننا لما نريد أن نقررره ، وهو أن الحياة قد سارت بكل من المرأة والرجل في الاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه كل منهما كي تحقق من سيرها الغاية التي خلقا لها ..

وإن أي انحراف يحدث لهما أو لأحدهما في الطريق الطبيعي يضر بها ، كما يضر بالحياة التي يعملان فيها .

وإن أي تشريع سماوي أو غير سماوي لا يقوم على هذا التقدير ، ولا يتخذ أساساً في تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفي وضع كل منهما بالموضع المناسب له — كل تشريع لا يقوم على هذا التقدير لا يمكن أن ينتظم به ركب الحياة ، بل لا يمكن أن يعيش في الحياة ، وإن قدر له أن يقوم في حال من الأحوال وفي زمن من الأزمان . فلن يكون ذلك إلا أمراً عارضاً لا يلبث أن يزول .

ولا تتخذ لما يبدو اليوم في المجتمع الغربي ، من إدماج الرجل والمرأة في كيان واحد ، تبدو فيه الحياة وكأنها أخلت من الرجال ، أو تعرت من النساء .. وأن الناس قد أصبحوا كائناً واحداً .. لك أن تقول فيهم لإنهم جميعاً رجال أو هم جميعاً نساء .. لا تتخذ لهذا ...

لا تتخذ لهذا ، فما هو إلا عارض لا يلبث أن يزول ، ويعود كل شيء إلى وضعه الذي لا يصلح شأنه إلا عليه .

والإسلام قد جعل تشريعه في العلاقة بين الرجل والمرأة قائماً على ما بينهما من ضروب الاتفاق والاختلاف .. فألف بينهما من جهة ، وفرق بينهما من جهة أخرى .. جمعها في كائن واحد هو الإنسان ، وفرق بينهما داخل إطار الإنسانية: رجلاً وامرأة ، ذكراً وأنثى .

وهو بهذا التدبير الحكيم وضع الأمر في مكانه الصحيح السليم .
فها من حيث الإنسانية كائن واحد : المرأة والرجل سواء .
يتكافئان في الدم ، والعرض ، والمال !

فتمتلك المرأة بالرجل . ويقتل الرجل بالمرأة فى القصاص عند قتل أحدهما الآخر عن عمد . فإذا قتل رجل امرأة عامداً كان القصاص قتله . وكذلك الشأن فى المرأة . إذا قتلت رجلاً قتلت به . والرجل والمرأة إذا فاحشة أقيم عليهما حد واحد . . وهو جلد كل منهما مئة جلدة إذا كانا غير محصنين ، أو رجماً إذا كانا محصنين .

وفى المال : يسرق الرجل فتمتطع يده اليمنى ، وتسرق المرأة فتمتطع يدها . وحرمة ما فى يدها من مال كحرمة ما فى يد الرجل من مال ، لا يؤخذ إلا بحق ، والاعتداء على ما بيدها من مال مثل الاعتداء على ما فى يد الرجل من مال ، يقام فيه الحد على السارق ، وتوقع العقوبة على الخاطف والمغتصب .

والقرآن الكريم يوجه أو امره ونواهيته إلى الناس جميعاً ، لم يفرّد النساء بلون خاص من الأهر أو النهى إلا ما كان من مستلزمات طبيعتهن ، وما يقتضيه الحياء الذى ينبغى أن يكون سمة بارزة فى المرأة ، ليظل لها مكاناً فى قلب الرجل . وذلك كالنهى عن التبذل والخلاعة فى الزنى والحركة .

أما فيما عدا هذا الذى تقتضيه طبيعة المرأة فالأوامر والنواهي متوجهة إليهما معاً وبقدر واحد . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وقبلها جميعاً الإيمان بالله وبرسوله . هى جميعها للرجال والنساء على حد سواء ، لا يكمل إيمان الرجل أو المرأة إلا بهما . والمرأة والرجل فى مرقف الجزاء سواء . الحسنة بوثر أمثالها ، والسيئة بمثليها .

وأكثر ما يتوجه الخطاب إلى الرجل والمرأة فى القرآن على صورة الجمع بينهما فى مثل : « يا أيها الناس . ويا أيها الذين آمنوا ، » .

ولكى لا يكون هناك أدنى لبس فى أن المرأة والرجل على حد سواء تجاه أوامر الله ونواهيته - جاء القرآن الكريم بصور من الخطاب يزاوج فيه بين الرجال وبين النساء مثل قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات » .

والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين
فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة
وأجرأ عظيماً» (١) .

فهذه تسوية مطلقة بين الرجل والمرأة في مجال الطاعات والعبادات ، وفي مقام
الجزاء الطيب للعمل الطيب . ويقول سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات
من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فقيراً » (٢)
ويقول جل شأنه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياً
طيباً ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) . هذا هو وضع المرأة
مع الرجل في إطار الإنسانية .. هما في مقام واحد ، لأنهما من نفس واحدة ، كما
يقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ،
وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً » (٤) . ويقول سبحانه : « هو
خالقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (٥) . . . ويقول سبحانه
أيضاً : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة » .

فأما في غير المجال الإنساني للرجل والمرأة فهي رجل وامرأة .. ذكر وأنثى ..
فلسكل منها طاقاته واتجاهات طبيعته !

فالجهاد - مثلاً - الذي فرضه الإسلام على المسلمين عند اقتضاء دواعيه وقيام
أسبابه ، قد أعنى الإسلام منه المرأة أن تدخل ميدان الحرب مقاتلة ، تقتل
أو تقتل .. لأن ذلك لا يناسب طبيعة المرأة ، ولا يتفق مع وظيفتها في الحياة .
لأن الحرب شر يشع الوجه .. دماء تراق ، وأشلأ تتناثر ، وأرواح تزهرق ..
منظر مفرع مروع .. تطيرله نفوس الأبطال شعاعاً وتنخلع قلوبهم هلعاً .. فكيف
بالمرأة وما في طبيعتها - معها تكن - من رقة ؟ وما في عزيمتها من خور ؟

(٢) سورة النساء : ١٢٤
(٤) سورة النساء : آية ١
(٦) سورة الروم آية ٢١

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٥
(٣) سورة النحل : آية ٩٧
(٥) سورة الأعراف : آية ١٨٩

أستطيع المرأة أن تصبر على هذا المرقف ، وأن تهاك أوصالها فيه ؟ ذلك شيء فوق طبيعتها من غير شك . . وقد دارت الحرب بين الناس والناس في ملحمة متصلة من أول الحياة إلى اليوم ، ولم يشهد الميدان جيوشاً من النساء ، ولا عرف فوارس منهن إلا في فلتات نادرة ، وظروف قاهرة — لا تكاد تذكر في هذه الملحمة الطويلة التي عاش فيها الناس محاربين . . وحتى في هذه الفلتات كانت المرأة لا تخرج للحرب إلا وقد لبست ملابس الرجال ، وشدت نفسها وعزمها بهذا الثوب المستعار .

ومن جهة أخرى ، فإن المرأة وهي التي كانت مصدر الحياة ومستودعها ، وهي التي حملت الإنسان جنيناً ونشأته في كيانها ، وغذته بدمها ولبنها ، وشاظرته — روحها — هذه المرأة كيف تحمل على أن تغدو إلى ميدان القتال لتهدم ما بنت ، وتقتل أبناءها بيدها . إن ذلك لا يمكن أن يستقيم مع طبيعة المرأة ، وإن استقام — على عوج — عند أفراد في الحياة الإنسانية من النساء . . لا يحسب لمن حساب . وهناك — غير هذا — واجبات كثيرة أعفت الحياة منها المرأة ، وألقت بها على عاتق الرجال ، كالقوامة على الأسرة وتدبير شأنها وحمل أعبائها ، كأن هناك واجبات أعفت الطبيعة الرجال منها وجعلتها منوطة بالنساء ، كالخل والرضاعة .

(ب) الزوج والزوجة:

وحيث يجتمع الرجل والمرأة كزوج وزوجة يكون للرجل المقام الأول ، وللمرأة المركز التالي له . . إن اجتماع الرجل والمرأة كزوجين هو نواة لمجتمع صغير ، ولا بد أن يكون لهذا المجتمع — على صغره — من أمير يقوم عليه ويتولى تدبير أمره وتوجيه شؤونه .

إن الإسلام لا يدع أي مجتمع — مهما صغر — دون أمير يقوم عليه ، ويتولى حمل المسؤولية عنه . . يقول النبي الكريم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه . »

فلسكل من الرجل والمرأة نصيب من حمل المسؤولية في مجتمع الصغير .. ومع هذا فلا بد - لهذا المجتمع الصغير من مسئول عام ، يتولى - إلى جانب مسؤوليته الخاصة - المسؤولية العامة .. وعلى هذا ، كان لابد أن يكون الرجل - لا المرأة - هو الذي يتولى القيام على شؤون هذا المجتمع الصغير ، ويكون منه بمنزلة الرأس من الجسد .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أفضقوا من أموالهم » (١) .. ويقول سبحانه : « وللرجال عليهن درجة » (٢) .

ومع هذا ، فقد نبه الإسلام على رعاية الحقوق التي ينبغى أن تكون للزوجة في هذا المجتمع لئلا يطغى عليها الرجل ويسقط بها ، وتطغيه الإمارة ، فلا يرى للمرأة مكاناً معه ..

فالتقوية التي جعلها الإسلام في يد الرجل ليست قوامة جبرية ، أو استبداداً ، وانتقاماً ، وإنما هي قوامة ألفة ، وحب ، ومودة ، قوامة غايتها إسعاد أفراد المجتمع الأسرى ، فرداً فرداً ، لأن في إسعادهم سعادة لرب الأسرة لأنه إنما يسعد نفسه في أبنائه الذين هم بضعة منه ، وفي زوجه التي هي بعض نفسه كما يقول القرآن : « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجماع بينكم مودة ورحمة » (٣) .

الرحمة الشاملة أيضاً :

ونعود إلى حديثنا عن جانب الرحمة في الرسالة المحمدية بعد أن عرفنا شمول هذه الرسالة وعمومها ، وامتدادها عبر الأزمان والأجيال .. وبعد أن عرفنا أنها لم تكن رسالة طوارئ ترى مهمتها في وقت محدود .

وقد استبان لنا مما تقدم أن الناس في ظل الرسالة المحمدية في أمن من الضربات المفاجئة القاصمة ، فلا ينزل بهم ما نزل بأقوام الأنبياء من قبلهم من خسف ، وإغراق ، ومن صواعق ومهلكات تحملها حجارة من سجيل تَطْرُقُها السماء .. « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٤) .

ولا شك أن هذا رحمة واسعة وفضل كبير اختصت به الرسالة المحمدية ،

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٨

(١) سورة النساء: آية ٣٢

(٤) سورة الأنفال: آية ٣٣ .

(٢) سورة الروم: آية ٢١

التي ما كان غير « محمد » في كاله الكامل أن يحمل مثل هذه الرسالة العامة الشاملة .
يقود فيها الإنسافية كلها إلى شيطان السلامة والأمن ، محتملاً ما احتمل من أذى ،
وعنت ، وألم ، دون أن تطاوعه نفسه الرحيمة بالانتقام من آذوه . . ولو دعا
دعوة عليهم لتفتحت لها أبواب السماء بالقبول ، واصبغت المهلكات على أعدائه
صباً . . ولكن صبر وصابر ، واحتمل أن يلقى عليه الروث ، وأن يري بالأحجار
من سفهاء تقيف حتى تدمى قدماه ، وأن تتبادره سهام في غزوة أحد حتى ينغرز
المغفر في جبهته وتنكسر ربايعيته ، ويسيل دمه ، ثم يسأله بعض أصحابه : ألا تدعو
على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم ؟ فيجيب الرسول الرحيم : « لانا بعثت هادياً ،
ولم أبعث لعاناً . . » ويخفق قلبه الكبير بعواطف الجنو والرحمة ممزوجة
بالإشفاق والأمل ، وتتحرك شففته ، بهذه الكلمات الخالدة : « اللهم أهد
قومي ، فإنهم لا يعلمون » .

وقد تندافع في صدر الرسول دوافع النفيظ والألم . وتتحرك في نفسه الرغبة
في الانتقام من المعتدين الظالمين . فتصرف السماء هذه الرغبة إلى ما هو أليق
بالرسول العظيم ، وإلى ما هو أنسب لرسالته الرحيمة . . تصرفه إلى التسامح والعفو ،
فالعفو والتسامح من شريعة الإسلام . « وأن تغفروا أقرب للتقوى » « ولمن صبر
وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (١)

في غزوة أحد قالت قريش من المسلمين ، فقتل عدد كبير من خيار الصحابة ،
وأصيب الرسول بجراحات في جسده الشريف . . ولم تقف قريش عند هذا ،
بل مثلت بقتلي المسلمين ، وتولت هند بنت عتبة ، وزوج أبي سفيان - كبر هذا
الإثم . وقادت حملة التمثيل ، فبقرت بطن حمزة عم النبي ، وأسدت الله والإسلام ،
وتناولت مرقه من كبده ولا كتها في فيها . . تشفياً وانتقاماً من قتلى بدر ، وفيهم
أبوها عتبة ، وأخوها الوليد بن عتبة .

ولما رأى الرسول الكريم ما فعلت قريش بعمه ، وبصحابته من تقميل
وتمثيل قال : لئن كان لنا غلبه على قريش لثمنان بقتلاهم أكثر مما فعلوا بنا . . فنزل
قوله تعالى : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خبير

(١) سورة الشورى : آية ٤٣ .

للسابرين .. واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق
 بما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١)

فانظر إلى أدب السماء مع رسول رب العالمين إلى العالمين .. لأنها ترضى في
 نفسه جانب البشرية ، فلا تمد عليه منافذ التنفيس لعواطفه وافتعالاته ،
 فتأذن له بأن يعاقب ولكن بمثل ما عوقب به . فذلك هو شرع الله مع الأعداء
 والأولياء .. وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به .. لا حرج في هذا .. وهنا
 يتنبه الرسول إلى أنه قد بعد شيئاً عن هذا الأدب السماوي في تلك العزمة التي
 عزمها للانتقام من قريش ، لأنه لا يعاقب بمثل ما عوقب به بل بأكثر مما عوقب به،
 وهذا ما تأباه شريعة العدل الذي يمسك «محمد» بميزانه المستقيم .. ولو انتهت الآية
 عند هذا الموقف لكان فيها العظة البالغة للنبي في أن يدع عزيمته في الانتقام من
 قريش حتى بمثل ما كان منهم ، فذلك هو الذي يراه مناسباً لهذا العتاب الخفي
 الذي شعر به من الآية الكريمة ، والذي لا يشعر به إلا قلب متعصل بالملا الأعلى ،
 موصل بأنوار السماء ..

ولكن الآية لم تقف عند هذا .. « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به » .
 بل أظهرت المفهوم الذي فهمه النبي منها .. « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »
 فجاءت الدعوة عامة للنبي وأتباع النبي بالصبر على أذى الأعداء ، وعلى مبالغتهم
 في هذا الأذى بالتمثيل بالقتل .. ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يختص النبي بتوجيه
 خاص .. « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق
 بما يمكرون .. » عزاء جميل من رب العالمين لنبيه الكريم في هذا الموقف الذي
 فقد فيه سببين شهيداً من أكرم صحابته ، وأعز أوليائه !

ثم يحتمل المشهد بهذه الخاتمة التي تدعو إلى التقوى وإلى الإحسان : « إن الله
 مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .. ومن التقوى والإحسان .. العفو عن
 الجاهلين وملافة إساءتهم بالإحسان ، والغفران .. « ويدعون بالحمسة السيئة » ..
 « ادفع بالتي هي أحسن » (٣)

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ — ١٢٨ (٢) سورة الرعد: آية ٢٣.

(٣) سورة فصلت: آية ٣٤

أرأيت إلى هذا اللطف الذي يحف الله به نبيه في هذه المحنة القاسية التي مسته
شغاف قلبه؟ ثم أرأيت إلى تدبير الله سبحانه وتعالى في هذه المداخل التي دخل
بها إلى قلب النبي ليتجه به إلى جانب العفو والمغفرة؟ لقد عاتب الرسول في رفق،
وعزاه في حكمة، ودعاه إلى حضرتها في إعزاز وتسكريم.

ويلقى الرسول هذا التوجيه السماوي بالرضا والقبول. فيقول: «بل
تتق ونصبر»!

• • •

ومن ينابيع الرحمة، التي تفيض بها الشريعة الإسلامية هذا اليسر الذي
تقوم عليه أحكامها. فإنها الشريعة التي اختير لها الطريق الوسط بين الشرائع
السماوية كلها. وهو سمة الإسلام، وسمة أهله. قال تعالى: «وذلك جعلناكم
أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً» (١).

والوسط في كل شيء هو مركز الاعتدال فيه، ومكان القلب منه. ا
وطبيعي أن فوق الوسط منزلة أعلى منه، وأنه ليس هو غاية السجّل ..
ولكنه مع هذا هو خير في مجموعه مما فوقه .. لأنه أثبت وأدوم، ولأنه أقرب
إلى متناول الناس .. إن لم يكن الناس جميعاً، فالأغلب الأعم منهم ..

إن الاعتدال في أي شيء، وفي كل شيء يحتمله الناس، ويقدرّون على
الوفاء به، ويصبرون على مكروهه .. أما ما فوق الوسط فهو أمر لا يحتمله
أكثر النفوس، ولا تصبر عليه .. وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل،
فيختل توازنه، ويسقط في الهاوية، ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث
الاعتدال الذي يجد فيه الإنسان القدرة على التحرك إلى فوق أو إلى تحت، وهو
في تلك الحركة لا يخرج عن المقام السكريم اللائق به حيث يظل بالمنزلة التي
يشرف منها على الأرض، ويشارف فيها السبأ!

(١) سورة البقرة: آية ١٤٣.

قد يقول بعض الناس إن الوسط ، لا طعم له ، ولا ذاتية له .. إنه أشبه
شئ بالخط الوهمي .. إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شئ .. إن القسمة في الأهور
إنما هي الشئ وما يقابله : الخير ، والشر .. الأبيض ، والأسود .. الحلو ،
والمر .. الجميل والقيبح .. والوسط الذي يفصل بينهما ليس إلا خطأ وهمياً .
أما الذي يأخذ صفته من هذين الطرفين ، فيأخذ شيئاً من هذا وشيئاً من ذلك
فهو دخيل عليهما ، لصيق فيهما .. يضاف لك هذا مرة ، ولك ذلك مرة حسب
الصفة الغالبة عليه من أي منهما .

والشئ الذي على تلك الصفة شئ باهت اللون ، واهي الأساس .. لا يمسك
بشئ ، ولا يمسك به شئ !

انظر .. الماء الفاتر .. وهو وسط بين الحار والبارد .. لا يصلح للاستحمام
ولا يساغ للشرب !

والشراب المز .. وهو وسط بين الحلو والمر .. لا طعم له .. قد جمع بين
الضدين ، وخلط بين المتناقضين .

هذا في الماديات . فإذا ذهبت إلى المعنويات وجدت أن التوسط فيها ،
والوسط منها ليس هو غاية السكال فيها ، ولا نهاية الخير منها .. بل إنه كلما بلغ
المرء فيها منزلة وجد فوقه منازل أخرى أكرم وأفضل .. ولهذا كان التفاضل
بين الفضلاء ، وكان الفضل للسابق المتقدم ، والحظ الأوفر لمن جد في الطلب .
وتقدم الركب .. فالعلم والتقوى ، والإحسان ، والجهاد في سبيل الله ، والصبر
على المكروه ، وغيرها من الفضائل التي يتميز بها الأخيار من الأشرار ، هذه
الفضائل لا ينازع أحد في أن الاستزادة منها استزادة من الخير ، وأن القول
بالتزام حد الوسط منها هو غاية الغايات فيها قول مردود . وكيف وقد علم
الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم أن يدعو فيقول : « رب زدني علماً (١) » .. وهو
الذي بلغ غاية العايات من العلم الذي لا يبلغه من البشر غيره ؟ وكيف والله

(١) سورة طه : آية ١١٤ .

سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق في مجال الخير فيقول سبحانه : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » (١) . ويقول : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) . لقد فتح المجال للتنافس بين المتنافسين على مصراعيه بلا حدود .. فما تأويل هذا ؟

وقول إنه غير منكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها . . . إن الطريق إلى السكك مفتوح للناس جميعاً . . . ليس عليه حارس . . . فلعل من وجد في نفسه القدرة ، وأنس منها الاستعداد على مجاوزة « نقطة » المرور أن يضع قدمه على الطريق ، وأن يسير إلى حيث يبلغ جهده !

ولكن هذا شيء ، والتشريع العام شيء آخر ..

التشريع إلزام . وهذا عن تطوع واختيار !

التشريع عقد بين صاحب الشريعة وبين أتباع هذه الشريعة . . فهم مطالبون بالوفاء بها . . إذا قصرُوا حوسبوا على تقصيرهم وأخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار ! يستطيع الإنسان أن يمضيه ! ويكف عنه !

والتشريع حين يكون عاماً تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائماً على معيار يسع الناس جميعاً . الأقياء والضعفاء . كما تقتضى رحمة الخالق بعبادة أن يكون التكليف مقدرأعلى ما يحتمل الضعفاء لا الأقياء ، وأن يكون مافي الأقياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم . . يردادون به كما لا فوق الكمال الذي بلغوه بأداء ما كلفوا به .. فإنه « ما على المحسنين من سبيل » !

وهنا يتضح معنى الآية الكريمة « لا يكاف الله نفساً إلا وسعها » (١) ، فإن أي نفس لا تضيق بالتشريع الذي قد على قدر الضعفاء ، وفصل على مدى احتمالهم ! وما تسع نفوسهم .

لهذا كان تشريع الإسلام كله مضبوطاً على هذا التقدير . وكانت سيرة الرسول

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

في المسلمين ، وأدبه لهم ، قائماً على هذا الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له
مافي السموات وما في الأرض ..

يقول الرسول صلوات الله ، وسلامه عليه : «سيروا بسير أضعفكم»
فوكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء في ماديات الحياة
ومعنوياتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالأقدام ، ولا يتخطاهم الركب . . .
وهذا إعلان من نور ، وصحيفة مشرقة مسطورة بيد الرحمة والحكمة السماوية
بمكانة الإنسان ، وقيمته عند الله .

فالإنسان شيء عظيم عنده . . . ينبض ألا يضيع بحال أبداً . . . وعلى الجماعة ،
أن تتقيد به ، لا أن يتقيد هو بها ، ومن حق الإنسان الفرد أن يجيأ في الجماعة ،
وأن ترعى الجماعة هذا الحق ، بل وأن تضحي بالكثير من جانبا لاجله . . .

فأين هذا مما تدور عليه حياة كثير من المجتمعات في هذا العصر ، عصر المدنية،
وعصر النور كما يسمونه ؟

إن الإنسان في كثير من هذه المجتمعات لا يدور أن يكون أداة من أدوات
الإنتاج ، وأن مكانه في الجماعة على قدر ما يعطى من محصول ! فإن لم يكن من القوى
المنتجة فليلق به في عرض الطريق ، وليذهب طعاماً للجوع والحرمان !

وأين هذا الذي يلقاه الضعفاء في ظل المدنية الحديثة من امتهان وازدراء
من هذا العطف والحنو ، والرعاية التي يلقونها في ظل الدعوة الإسلامية وتحت
جناحها ؟

رأى نبي الإسلام شيخاً من اليهود قد ضعف بصره ، وذهبت قوته وهو
يتكفف ، فقال الرسول الرحيم . . . «ما أنصفناك ..» ثم فرض له في العطاء !

وليس هذا شأن الإسلام مع الإنسان وحده ، بل إنه مع كل حي . . . من
حيوان وإنسان ..

فقد نهى الإسلام عن تجريح الحيوان ، أو إرهابه بالعمل . . فإن ذلك ظلم
كظلم الإنسان للإنسان . . له جزاءه السيء عند الله . .

ويكشف نبي الإسلام للناس عن صور من هذا المصير الذي يصير إليه أولئك
القنساء الذين يؤذون مخلوقات الله . .

يقول النبي الكريم : عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها
النار . . فلا هي أطعمتها ، ولا سقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . .

كما يكشف النبي الرحيم عن المصير الكريم ، والجزاء الحسن الذي يلقاه أصحاب
القلوب الطيبة الرحيمة فيقول صلوات الله وسلامه عليه : وبيننا رجل يمضى فاشد
عليه العطش فوجد برأ ، فنزل ، فشرب ، ثم خرج . . فوجد كلباً يلمث ، يلعن الثرى
من العطش فنزل فملاخفه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . .

والحيوانات التي أحل الله لنا أكلها بعد ذبحها . يجب أن نرفق بها إلى آخر
لحظة من حياتها . . يجب أن نذبح ذبحاً حسناً . فلا يطول لإيلامها وتعذيبها ؛ فيقول
النبي الرحيم : وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، .

والحيوان المؤذى كالعقرب والشعبان ، وغيرها مما يتأذى الناس بمقامه بينهم
يلبغى إذا قتلناه أن نقتله من غير تهذيب له . . فنقتله لنُدفع أذاه ، لالنتسفي منه :
« وإذا قتلتم فأحسنوا القتل » .

ذلك هو تدبير الإسلام في رعاية الضعفاء والرفق بهم ، سواء أكانوا من
الإنسان أو الحيوان .

فإذا ظهرت في هذا العصر بعض الدعوات التي تنادي بالرفق بالحيوان ،
فإنها على ظاهرها الطيب الجميل - ليست نابعة عن طبيعة أعمىة ، وإنما هي
صورة من صور التثويض عن الجوانب المفقودة في الإنسان من عاطفة الحب
والرحمة ، حيث استحكمت في الناس رغبات التحكم والقهر والتسلط من جانب
الأقوياء على الضعفاء ، أمم وأفراداً ، وحين تجلت هذه النزعات الخبيثة الوحشية
(٢٨ - النبي محمد)

في تلك الحروب المروعة المدمرة التي تأتي على الأمم ، وتحصد الناس بنير حساب ، وتغرق في مجورها العميقة الاطفال والشيوخ والنساء بلا رحمة . فكان هذا العطف البادي على الحيوان هو في الواقع تكفير عن هذه الجرائم ، وتبرير لها ، في حال معاً .

وقد يسأل سائل : كيف تمضي الحياة بهذا الركب الذي يدعو الإسلام الناس فيه إلى أن يسيروا بسير أضعفهم ؟ وهل يستطيع مثل هذا الركب « السلحفائي » أن يبلغ غاية : أو يحقق مقصداً ؟ أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامي وسبب ضعفه وتخاذله بين المجتمعات الإنسانية ؟ وماذا يرجي لسائر يسير هذا السير الواهن المتخاذل بينا الناس يشدون وينطلقون ؟ ماذا يرجي لهذا الإنسان غير التخلف والضعف والقصور عن أن ينال شيئاً من طيبات الحياة التي تمتلئ بها أيدي الجادين المنطلقين فيها ؟

ونقول : إن الذي يدعو إليه الإسلام في أن يسير المجتمع الإسلامي بسير الضعيف ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المتقددة فيهم — بقدر ما هي سبب للضعفاء على إطلاق القوى الكامنة فيهم ، وبهئها من رقدتها . عن طريق العبرة والتنافس والهدوى التي تصيهم من جانب الأقوياء .

إن تدبير الإسلام في هذا هو أن يجعل من طاقات الأقوياء ، ومن الحرارة والحماس الذي مالا صدورهم — دفئاً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطرد من كيانهم هذا اليأس الذي يفتال كل رغبة دافعة إلى السير في ركب الحياة . إن الذي يريده الإسلام بهذا التدبير هو استنقاذ هذا العدد العديد من ضعفاء النفوس . أصحاب الهمم الفاترة ، والعزمات الخائرة ، حين يصطف عليهم الركب القوى فيضمهم إليه ، ويدعوهم إلى السير معه .

ولا شك أن في هذا كسباً كبيراً للجماعة ، وزيادة غير قليلة في رصيدها من القوى العاملة في الحياة ، بهذا العدد الكبير الذي يضاف إليها من الضعفاء الذين لولا هذا التدبير الحكيم لذهبوا مذاهب الضياع .

إن إنطلاق أقوياء إنطلاقاً لا التفتات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس في قلوب المتخلفين فيظنون حيث هم ، إذ لا أمل لهم في اللحاق بالناس .

وربما بدا لبعض القائلين أن يقول : ولم لا يقع العكس ، وهو أن تبنى العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى سلحفأة ، لا تتحرك أبداً . أو تتحرك إذا تحركت في تناقل وبطء ؟

ونقول أياً : إن هذا القول مردود لأمور :

منها أن الإنسان مدعو من جانب ذاته وحب تحصيل الخير لتخصه أن يسمى ويعمل ، وأنه إذا وجد الجادين العاملين استولى عليه دافع يدفعه إلى مساهمة الناس واللحاق بهم . وخاصة إذا وجد أنه لن يفرق في لجج الحياة أبداً إذا اندفع مع المندفعين وخاتته قواه . إنه سيجد أيدياً كثيرة تمتد إليه ، وتستغفده ، ولا تدعه وشأنه يلقى مسيره .

وهذه هي فائدة السير بسير الضعفاء . . إنه يعطى إحساساً للضعفاء أنهم لو اندفعوا وانطلقوا ، فلن يتركوا إذا شاركت قواهم ، وأدركهم الجهد والإعياء . وهذا لا يترددون عن الإقدام والمناصرة والاندفاع .

ومنها أن الإنسان - في الركب الإسلامي - مدعو إلى العمل والكفاح ، وذلك فوق ما في نفسه من دوافع للعمل والكفاح حفظاً لكيانه - وأنه إذا قصر في ذلك عند مخالفاً لتريعة دينه التي تحت على العمل وتدعو إليه . وتجعله ضرباً من ضروب العبادة والقربى إلى الله .

يقول النبي الكريم : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ، وليس اتقان العمل في مجرد تجويده ، وإحسان صنيعته كما يفهم كثير من الناس ، وإنما من تمام إتقانه الجدي في أدائه . وإفراغ ما في الوسع لإنجازه في سرعة . وفي إتقان .

هذا ، وليست دعوة الإسلام - هذه بالتي تأخذ على الأفراد طريقهم

في الانطلاق إلى غاية ما تحتل طاقتهم . فإن كل فرد له في مجال عمله أن يطلق كل قواه ، وأن يتحرك في كل مجالاته ، ما دام لم يعتمد على أحد ، أو لم يفوت حقاً على أحد . . .

فالناس في ظل هذه الدعوة في حرية مطلقة للعمل حسب طاقتهم واستعداداتهم . . . ولكن الذي تدعو إليه تلك الدعوة هو أن تنسق حركات الناس حين يكونون في عمل جماعي يقتضى أن يعملوا له جميعاً ، سواء أكان ذلك في شئون الدنيا أم في شئون الدين كالسير إلى الجهاد لملاقاة العدو . فإن واجب الجماعة أن تسير في ركب واحد وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ما عند الأقوياء من قوة . . . أما إذا لاقوا العدو فعلى كل مقاتل أن يعطى كل ما عنده من قوة . . . فلا يقع - مثلاً - أن يسير على بن أبي طالب في مضاربة العدو بسير حسان بن ثابت ، وإن كان ذلك واجباً أن يكون في حال السير إلى جبهة القتال ، لا في ميدان القتال ، والنحام المعركة .

وفي الصلاة - صلاة الجماعة - ينبغي أن يكون أداء الصلاة على قدر طاقة الضمءاء ، حتى لا يكون في أدائها ما يشق على المرضى والمعجزة والشيوخ . . . وهذا ما يشير به الحديث : « من أم فليخفف » .

ومن جهة أخرى . . . هل مطلوب الحياة من الناس أن يهروا حتى يلهثوا ، وحتى تقطع أنفاسهم ؟

إن الاعتدال في العمل ، والموازنة بين الحركة والسكون ، وبين العمل والراحة ، فيه الكفافية كل الكفافية لحاجة الإنسان في الحياة ، وتكميل مطلوباته منها .

ومن جهة ثالثة ، فإن دعوة الإسلام هذه رحمة بالأقوياء أن يشقوا على أنفسهم وأن يهروا كل طاقتهم في سكرة الانطلاق وحميا التزامهم والتنافس . . . فكثيراً ما يذهل الإنسان عن نفسه ، وينسى ما ينبغي أن يكون لبدنه ، وعقله

من حق في الدعة والراحة . . وكثيراً ما يكون هذا سبباً في انحلال قوى الإنسان ، انحلالاً مفاجئاً ، فيفسد جهازه ، وتعطل ملكاته ، ويعصيغ غير صالح للعمل القليل ، فضلاً عن الكثير . وفي هذا يقول الرسول الكريم : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، . . ولعل فيما نرى في المجتمعات الأوربية والأمريكية التي جرفت تيارات الحياة المادية ، وألغتها سيئات التنافس ، والتسابق في الحصول على المال — لعل فيما نرى من الآثار السيئة التي أصيب بها الناس من انحلال في القوى الجسدية والعقلية فوق ما أصيبوا به في قواهم الروحية — لعل في هذا شاهداً ودليلاً .

نعود بعد هذا إلى ما في مقررات الدعوة الإسلامية من مظاهر اليسر والرحمة بالناس . . ففي القرآن الكريم ، وفي سنة النبي القولية والعملية منهج واضح متكامل لتربية المجتمع الإسلامي وإقامته على طريق الاعتدال في أموره جميعها ، الديني منها والدنيوي على السواء ففي القرآن الكريم :

يقول الله سبحانه وتعالى: « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) . ويقول سبحانه: « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدره مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويجل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (٢) . لقد كانت الديانات السابقة تأخذ أتباعها بأفواج من العقاب ، لما كان منهم من عناد ، وبغى وظلم ، فتحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت من قبل حلالاً لهم ، كما يقص القرآن من أنباء بني إسرائيل : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكفهم أموال الناس بالباطل » (٣) ، « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر

(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٧

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦

(٣) سورة النساء : آية ١٦١

والنعم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط
بمعظم ، ذلك جزيناهم بينهم ، (١) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية فرفعت هذا الحظر ، وأباحت لاتباعها كل
طيب : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ،
وطعامكم حل لهم ، (٢) . « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه
إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل
لغير الله به » (٣) . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من
الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، (٤) .
ثم إن القرآن قد حمل إلى المسلمين دعوة يدعون بها الله : « ربنا ولا تحمل
علينا بصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، (٥) .
وفي هذه الدعوة الضارعة إلى الله تخفيف ورحمة .

وكثير من آيات القرآن تحمل إلى المسلمين هذه الدعوة إلى الرفق ، وإلى
القتصد في الأمور : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك
قواماً ، (٦) . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد
ملوماً محسوراً ، (٧) .

وهل منهج أعدل وأكمل من هذا المنهج الذي دعا الله إليه نبيه ، وهل أدب
يتناظر هذا الأدب الذي أخذ به في قواله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ،
وأعرض عن الجاهلین ، (٨) .

فهل رحمة بعد هذه الرحمة التي تحف بالمسلم ، وتترف عليه من ظلال شريعته
السمحاء ؟ إن الذي يستقيم على شريعة الإسلام لا تتمثر خطاه ، ولا يتقل

- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الأنعام آية: ١٤٦ | (٢) سورة المائدة: آية ٥ |
| (٣) سورة الأنعام: آية ١٤٥ | (٤) سورة الأعراف: آية ٣٢ . |
| (٥) سورة البقرة: آية ٢٨٦ | (٦) سورة الفرقان: آية ٦٧ . |
| (٧) سورة الإسراء: آية ٢٩ | (٨) سورة الأعراف: آية ١٩٩ . |

ظهره ، إنه يلب في ركب الحياة نشيطاً قوياً ، لا تثقله قيود ، ولا توهن نواه
أعباء . إذ أن كل ما تكلفه الشريعة به هو في واقع الأمر زاد عتيد ، يعينه على
الحياة ، ويثبت أقدامه فيها ، وليست تلك التكاليف مما يهبط الإنسان ويحطم
ظهره ، هي حمل على كل حال ، وليكنها لا تعدو أن تكون ذلك الحمل الذي
يحملة المسافر من زاد يتزود به ، وعتاد يعينه على الطريق !

الرحمة عنان الإسلام : والإله الذي يتوجه إليه المسلمون بصلاتهم وولائهم
هو « الرحمن الرحيم » ، وليس « رب الجنود » كما تدعوه اليهود . . !

الإنسان في القرآن :

الإنسان — من حيث هو ذات لها وجودها الخاص هو في واقع الأمر
متوجه الرسائل السماوية ومناطق أوامرها ونواهيها . . فغاية هذه الرسائل
هداية الناس ، وإسعادهم ، وتوثيق روابط الألف والمودة بينهم .

والفرد هو القوة العامة في الخليقة الإنسانية . فإذا صلح الفرد كان لبنة صالحة
في بناء تلك الخليقة . وعلى قدر ما في الخاية من أفراد صالحين يكون حظها من
الصلاح ، ومكانها في بناء المجتمع الإنساني !

الحياة تجري على هذا النموذج . من الذرة يتكون الجبل . ولا تقوم
الشجرة العظيمة إلا من البذرة ، ولا النخلة الباسقة إلا من النواة . ولا تكونت
الأنهار العظيمة إلا من قطرات المطر . . قطرة قطرة .

كذلك المجتمع الإنساني . هو مجتمع لم يأخذ هذه الصفة . ولم يجرى على تلك
الصورة إلا لأنه فرد يقوم إلى جانب فرد ثان إلى جانب فرد ثالث . . وهكذا .
إلى ملايين ومئات الملايين من الأفراد .

والإسلام ينظر إلى المجتمع الإنساني من خلال « الإنسان » الفرد ، فلا يرى
المجتمع كتلة متضخمة من لحم ودم . وإنما يراه أفراداً مجتمعين . كل فرد له

وجوده الخاص ، وله حساب المستقل . ثم له حساب آخر في رصيده المجتمع
الإنساني الكبير .

يتحدث القرآن عن الإنسان في أول آية نزل بها جبريل على الرسول الكريم :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق . . خالق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم
الذي علم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

فأفراد الإنسان هنا غاية الإلفات إلى ذاتية الإنسان الفرد ، وأنه خلق خلقاً
مستقلاً . خلقاً سبق خلق الناس . فالإنسان هو الأصل . . والناس لامفهوم لهم
إلا بالإنسان . ويتكرر هذا المعنى في القرآن أكثر من مرة . فيقول تعالى في
موضع آخر : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (٢) . فإله خلق
الإنسان . . ومن الإنسان كان الناس ، ويقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان
من سلالة من طين » (٣) والإنسان هو مخلوق الله ، والناس من الإنسان . ويقول
سبحانه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبئليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً » (٤) .

لأفراد الإنسان في تلك الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسانية ونشأتها
لا يمكن أن يكون لغير علة . فما وردت إشارة في القرآن إلى خلق الإنسان إلا في
هذه الصورة المفردة ، وحق حين يخاطب الناس ويلفتون إلى نشأتهم لا يطلق
الخطاب عاماً . وإنما يردده إلى الإنسان الفرد . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » (٥) .

فالشعوب والقبائل لم تخلق هكذا شعوباً وقبائل ، وإنما جمعات من المخلوق
الفرد ، وهو الإنسان ، من ذكروا أنثى . فالفرد أصل ، والمجتمع وليد هذا الفرد ،
وثمره بذرتة .

- (١) سورة العلق : آيات ١ - ٥
(٢) سورة ق : آية ١٦
(٣) سورة المؤمنون : آية ١٢
(٤) سورة الإنسان : آية ٢
(٥) سورة الحجرات : آية ١٣

وبهذا التقدير كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع الإنساني . الفرد أولاً ، ثم الجماعة بعد هذا ، فهو يشد بناء الفرد ، ويقوم وجوده ، ويدعم كيانه ، ثم يبعث به عضواً صالحاً يأخذ مكانه في كيان أكبر منه هو كيان الأسرة ، ثم هو مع الأسرة في كيان أكبر .. هو المجتمع .

والتشريع الإسلامي يخاطب الفرد ويوجه إليه أوامره ونواهيه . . يخاطبه باعتباره ذاتاً مسؤولة عن أعماله ، محاسباً عليها . ويخاطبه باعتباره خلية حية في كيان المجتمع ، يصيبه ما يصيب هذا المجتمع من خير أو شر .

ثم يكون حصاد هذه الأعمال الذي يحصده المجتمع من الخلق الإنساني للحياة موزعاً على العاملين جميعاً . كل حسب ما بذل من جهد ، وما عمل من عمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » (١) . « من يعمل سوءاً يجز به » (٢) « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٣) .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم الإنسان . وفيها الخطاب موجه إلى الإنسان الفرد في آياتها الأولى ، وموجه إلى الإنسانية في الآيات التالية . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خالقك ، فسواك فعدلك ، في أى صورة ما شاء ركبك . . كلا ، بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون . . » (٤) .

والذى يتدبر آيات الكتاب في هذا الأمر يجد تصرفاً عجبياً في توجيه الأوامر والنواهي هذا التوجيه المردد بين الفرد والجماعة . .

فآيات الأحكام كان من شأنها أن تجيء في صورة الخطاب الجماعي ، لأن شريعة الإسلام شريعة عامة لكل من يدين بها من الناس - فالصلاة ، والزكاة ،

(٢١) سورة النساء : آية ١٢٣

(٤) سورة الاطفال : الآيات ٦ - ٩

(١) سورة فصلت : آية ٤٦

(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

والصيام ، والحج فرائض عامة على المسلمين جميعاً — هذه الآيات قد جاء فيها الخطاب جمعاً كما جاء مفرداً .. يخاطب الجماعة حيناً ويخاطب الفرد حيناً .. وأحياناً يزوج بينهما ، فيجمل الخطاب في صدر الآية للفرد ، ثم يجعله في آخرها للجماعة ، أو العكس .. فن الآيات التي توجه فيها الخطاب للجماعة ، قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » (١) . وقوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (٢) . وقوله سبحانه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٣) .

ومما جاء فيه الخطاب مفرداً قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً . فهو له قرين » (٤) . « من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (٥) . « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، ويتمقلب إلى أهله حسرواً » (٦) .

ومما توجه فيه الخطاب إلى الفرد والجماعة معاً على الوجهين تقدماً وتأخيراً :

قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » (٧) .

وقوله سبحانه : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٨) .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس المصير » (٩) .

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| (٢) سورة المنيد : آية ٧ | (١) سورة البقرة : آية ٤٣ |
| (٤) سورة الزخرف : آية ٣٦ | (٣) سورة النبوة : آية ٢٩ |
| (٦) سورة الانشقاق : الآيات ٦ — ٩ | (٥) سورة فصلت : آية ٤٦ |
| (٨) سورة النور : آية ٢ | (٧) سورة المائدة : آية ٣٩ |
| | (٩) سورة الأتفال : آية ١٦ . |

ونقف هنا وقفة قصيرة عند تلك الآيات التي زاوجت بين خطاب الفرد وخطاب الجماعة . . نقف لنشهد منهداً رائعاً من مشاهد الإعجاز القرآني ففي الآيات من روائع الإعجاز ما يملك على الرء مشاعره ، فلا يكاد يدرى ما يصنع إزاءها . . ولو جاز السجود لغير الله لكان هذا القرآن أحق ما يسجد له !

فانظر في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فانطعوا أيديهما » !

جاء الخطاب في صدر الآية محدثاً عن المفرد : السارق ، والسارقة ، ثم جاء الحكم موجهاً إلى الجماعة . .

ذلك أن السرقة إنما تقع في أغلب الأحيان من الفرد الواحد ، ولا تنتفع من جماعة إلا نادراً ، وفي هذه الحال تأخذ صورة غير صورة السرقة فتكون غصباً ، أو قطع طريق .

أما تنفيذ الحكم ، وإقامة الحد على السارق ؛ فهو إلى الجماعة التي خرج الفرد على نظامها . وخالف شريعتها !

فإقامة النظام وتنفيذ أحكام القافون — الشرعى أو الوضعى — واجب على الجماعة . . إن فرطت فيه ، أو تخاذلت عنه كانت آثمة في حق نفسها معرضة للفوضى والضياع .

وكذلك الشأن فيما في الآية الثانية : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

أما الصورة الثالثة : « يأبى الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال . أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . وماواه جهنم وبئس المصير » .

ففي هذه الصورة : جاء التوجيه عاماً للذين آمنوا عند لقاء الكفر ، ونهوا عن أن يولوا عدوهم الأدبار . وأن يفروا من ميدان المعركة .

وهذا التوجيه ملزم للمسلمين جميعاً أن يستقيموا عليه في ساحة الحرب . .

وقد تسمح قيادات المسلمين جميعاً ، وينعقد عزمهم على تنفيذ هذا التوجيه الملزم ،
والأخذ به .

ولكن حين تدور رحى الحرب ، ويحصى الوطيس ، قد تنحل بعض العزائم ،
وتستكره بعض النفوس ربح الموت . فيدعوها ذلك إلى التفسكير في الفرار .
أو المسارعة إليه . .

وهنا موقع الإعجاز فيما جاء في الآية من إحكام وتدبير ؛

ومن يولهم يومئذ دبره الامتحرراً للقتال أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب
من الله . . .

إنها تمسك بالمقاتلين من المسلمين فرداً فرداً . لتقول له : اذكر أنك إذا وليت
ظهورك للعدو - إلا متحرراً للقتال ، متحيزاً مكاناً مناسباً ، أو منضماً إلى جماعة من
إخوانك - إنك إن أعطيت العدو ظهورك فأراً من ميدان القتال ، فقد رجعت
محملاً بغضب من الله ، على حين ترجع جماعة المسلمين بثواب عظيم ورحمة
ورضوان . سواء منهم من رجع إلى الله مستشهداً في ميدان القتال ، أو رجع إلى
بيته سالماً أو جريحاً . .

* * *

ونهود لك موقف القرآن من الإنسان . .

ولسأل بعد هذا ؟

أهناك نظام اجتماعي سليم معاني من أدواء الانحلال والتفسيخ - يقوم على
وحدات من الأفراد لا ترابط بينهما . كل فرد فيها عالم وحده . يعيش بنفسه
ولنفسه . أو يقوم على جماعة قد اندمجت فيها الأفراد اندماجاً كاملاً حتى ذابت
ذاتية الفرد . وذمبت معالمه ؟ ؟

هل هناك مجتمع على هذه الصورة أو تلك ؟

ربما ؛

يحدث جان جاك روسو في كتابه «المقدد الاجتماعي» عن صورة متخيلة غير
مختلفة فالمجتمع الأول . . المجتمع الذي تتأثر فيه الأفراد كما تتأثر قطع الأحجار
على صمد الصخراء . . كل فرد يعيش متعلقاً على نفسه . لا يشعر بأحد
ولا يشعر به أحد . .

يقول « روسو » :

« ولا يبقى بعد ذلك سوى دين الإنسان (١) ، أو المسيحية . . لا مسيحية
اليوم ، ولكن مسيحية الإنجيل وهي تختلف عنها تماماً .

« فبمقتضى هذا الدين المقدس السامى يعترف الناس - وهم جميعاً أبناء نفس
الرب - بأن الجميع إخوة ، وأن المجتمع الذي يؤلف بينهم لا يحل حتى الموت .

« بيد أن هذا الدين المالم تكن أية علاقة خاصة بالجسد السياسي - فإنه - يترك
للغوازين - السامرية - القررة الوحيدة التي تستمدتها من ذاتها ، ولا يتصف إليها أية
قوة أخرى . .

« وبذلك تظل رابطة من روابط المجتمع الخاصة - بلا أثر . .

« وأكثر من ذلك . . فبدلاً من أن يربط قلوب المواطنين بالدولة ، يبعدها
عنها . باعتبارها من أسماء الدنيا . .

« ولست أعرف شيئاً أكثر تناقضاً مع الروح الاجتماعية من ذلك .

ويستطرد روسو فيقول :

« ويقولون لنا : لأنه إذا أوجده شهب من المسيحيين الحقيقيين . فإنهم
يؤلفون مجتمعات ، هو أكثر المجتمعات التي نستطيع أن نتصورها كالأ . .

(١) أي النظام الذي يجعل الإنسان وحدة فائضة بذاتها ، لا صلة لها بمن حولها .

« وأنا لا أرى في هذا الفرض سوى سموية كبرى واحدة ، هي أن المجتمع
المسكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعا من بشر .
بل وأقول أيضاً إن هـ . المجتمع المزعوم لن يكون - رغم كل هذا -
أقوى المجتمعات ولا أدومها .
فبقدر كماله ستهوز الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكة في كماله ذاته . . .
- أي في هذا المجتمع المثالي -

« فكل إنسان سيقوم بواجبه : يخضع الشعب للقانون ، والرؤساء عادلون
ومنعمنون . والحكام مخلعون ولا يفسدون . والجنود يحترمون الموت .
ولن تكون هناك خيلاء ولا ترف وكل ذلك جميل جداً .

« ولكن دعنا ننظر فيما هو أبعد من ذلك :

« إن المسيحية دين روحاني تماماً . لا تشغله سوى أمور السماء وحدها .
فوطن المسيحي ليس في هذا العالم .

« وصحيح أنه يقوم بواجبه : ولكن يقوم به بعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعمد
به لإليه أو فشله ، فهو إذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه . لانه كثيراً أن يسوء
الحال أو ييسن على هذا الأرض .

« فإذا ازدهرت الدولة لا يكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة . ويخشى أن
يفخر بمجده بلاده . وإذا هلكت الدولة يبارك به الرب التي ألقى ثقلها على
شعبه !

« ويستطرد روسو أيضاً هذا الموقف فيقول :

« ويجب في هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين صالحين
على السواء . حتى يود السلام المجتمع ، ويهم التوافق .

« ولكن إذا وجد - سوء الحظ - رجل واحد طموح . . وراء واحد
تأملنا ميلا - أو كروموبل - فإنه سيوجد بلا ريب سوقاً رائجة في مواطنيه
الاتقياء . فإذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض نفسه على مواطنيه

ويستولى بخدعة ما على جزء من السلطة العامة ، فسرعان ما يصير موضع كل
تسكيريم ، فمن إرادة الله أن يكون موضع احترام . وسرعان ما يصير صاحب
سلطان ، وإرادة الله أن يطاع . ١١٠

ثم يقول روسو :

« بيد أني أخطيء إذ أتكلم عن جمهورية مسيحية . . . فالكلمتان متناقضتان . .
« إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . وروحها ملائمة أكثر مما ينبغي للطنيان .
ويستغل الطغيان دائماً هذه الحقيقة لصالحه . . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا
ليكونوا عبيداً . .

ثم يقول أيضاً :

« ويقال لنا : إن الجنود المسيحيين يمتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من
يثبت لي ذلك !

« أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية !

« وسيدكر لي البعض الحروب الصليبية . ولمكني دون أن أناقش في قيمة
الصليبيين أقول إنهم لم يكونوا مسيحيين ، بل جنود القساوسة ، ومواطني
الكنيسة . . فالوطن الذي قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً ، ولست أدرى كيف
جهلته الكنيسة زمياً (١) ٤٤ ،

وليس بعد قول هذا الكاتب الاجتماعي العظيم الذي أشهل ناز الثورة الفرنسية
بكتائبه وآرائه — ليس بعد قوله من يقول إن النظرة المتوازنة التي نظر إليها
الإسلام إلى الإنسان ، حين جهل له ذاتية ، ثم جعل هذه الذاتية تتمثل بإرادة .
وضمير وعقل في كيان المجتمع الإنساني — ليس من يقول بعد هذا إن الإسلام كان
جائراً على الفرد ، محترماً من شأنه . وخاصة أولئك الغربيين الذين يحاولون دائماً
أن ينزلوا من قدر الإسلام بحسبان أن ذلك مما يعلى قدر المسيحية . ويرفع شأنها!

(١) المقدم الاجتماعي من ٢٣٥ وما بعدها .

ولكن أكثر هؤلاء القوم يعلنون من أمر الإسلام ما يعلم هذا الكاتب الحز، إلا أنهم يعز عليهم أن يقولوا كلمة الحق، إذا كان فيها ما يركز الإسلام، أو يكشف حقيقة من حقائقه المشرقة.

يقول جرونيباوم في كتابه « حضارة الإسلام »:

« والإسلام... من بدايته - لم يعترف للإنسان إلا بتقليل من التقدير، وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدي، فيصنف خاق الفرد وتكوينه تفصيلاً: ، ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً» (١).

فإذا يريد هذا السيد من القرآن أن يقول غير هذا في الإنسان؟ الإنسان الذي ينسى دائماً أنه من سلالة يرجع إليها أصل كل إنسان؟ ماذا يقال للإنسان الذي يحقر أخاه الإنسان، ويتخذ لنفسه نسباً آخر غير هذا النسب الذي يلتقي فيه مع الناس جميعاً؟

أليست هذه حقيقة خلق الإنسان؟ ثم أليس هذا هو موقف كثير من الناس من الذهول عن هذه الحقيقة؛ وتقسيم الشعوب إلى منازل ودرجات، حسب ما يجرى في عروقها من دم، وحسب ما يكون لبشرتها من لون؟

إن الإسلام لا يكافئ للإنسان عن أصله هذا إلا ليقتل نوازع التفرقة العنصرية التي عانت البشرية منها ما عانت من ألوان التسلط والقهر، ومن صور الاستهلاء والاستعباد... ولا يزال هذا الداء يخامر أمماً وشعوباً إلى يوم الناس هذا.

يريد الإسلام بهذا أن ينزل الإنسان - كل إنسان - على حكم الآية

(١) حضارة الإسلام ص ٢٨٣، والآيات من سورة المؤمنون من ١٢ - ١٤

الكريمة: «يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وتبائن لتعارفوا.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. إن الله عليم خبير» (١) .. وأن يكون سلوك الإنسان — كل إنسان — قائماً على هدى الرسول الكريم: «يا أيها الناس إن أباكم واحد وإن أصلكم واحد.. كلكم لآدم.. وآدم من تراب، لأفضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى».

* * *

تلك هي الرسالة التي تلقاها «محمد» من ربه، ونصب نفسه لها، وجاهد في سبيلها، واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضر من أجلها.. فكان له هذا النصر المبين، وكان لرسائله هذه الثمرات الطيبة المباركة في الحياة، بما غرست في القلوب من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.. وبما سمعت للناس من مناهج الحق، والخير والإحسان.. وتلك عقبى الدعوات الصادقة، والنيات الخاصة.. لا يخطئها النجاح أبداً وإن قامت في وجهها العواصف، واعترضت طريقها المعثر، فإن يد الله قائمة عليها، تشد أزرها وتثبت خطوها، وتمكن لها أسباب البقاء في الحياة.

(١) سورة الحجرات: آية ١٣

(٢٩ — النبي محمد)

خاتمة ... ومفتتح !!

وبعد ..

فهل فرغ حديثنا في سيرة الرسول !

وهل أخذت النفس بحفظها من حديث السيرة ، على الوجه الذي قصدت إليه ،
وتصورته ، وخطت حدوده ومعالجه ؟

والحق أن حديث السيرة النبوية — حسب ما أردت — لم يبدأ بعد . .
لإذ أني حين أقلب هذه الصفحات الكثيرة التي كتبتها هنا ، والتي تبلغ المثلث
عداً — أكاد أنكرها ، لأنها لم تكشف لي من سيرة الرسول بعض ما عرفت من
آياتها الوضيمة المشرقة ، ولم تفض على من الصفحات الزكية الطيبة ما كنت أجد
حين أمسك بطرف من أطراف السيرة الكريمة ، أو أورد الخاطر على منهل
من مناهلها !!

وأشهد لقد غلبني على أمرى في هذا البحث ما وجدت من مفتريات وأباطيل
رمى بها المفترون المبطون في دهاء خبيث وفي حقد أعشى — رموا بهذه
المفتريات في ثنايا السيرة الكريمة ، رجاء أن يكسفوا من أضوائها ، أو يصبجوا
من أنوارها ، ثم ليكون لهم من ذلك الضلال طريق إلى الشريعة الإسلامية وإلى
كتابها الكريم ، حين قدروا ألا قيام للشريعة ولا احترام لكتابها إذا كان في
صاحب الشريعة وحامل كتابها ما يريب أو يعاب . وهم في هذا التمهيد مهبطون
إلى حد بعيد ، لو أنهم بلغوا ما ينفون ، ونالوا ما يمشنون ، وهيبات ، وهيبات

وكما قلنا من قبل: لأنه وإن كانت النبي ذاتيته . والقرآن ذاتيته — فإيهما في
واقع الأهر كيان واحد ، وإن أي مثلية نصيب أحدهما — وهيبات — هي
قسمة سواء بينهما . إذ كان القرآن هو شريفة الإسلام قولاً ، ولأذ كان النبي

هو شريعة الإسلام عملاً ، فإذا خالف قول صاحب الشريعة عمله ، أو كذب عمل صاحب الشريعة قوله لم يكن للشريعة ، ولا لصاحب الشريعة سلطان على الناس ، ولا مقام في الحياة . .

ولهذا كان أبلغ وصف وأصدقه للنبي ما وصفه به ، « السيدة عائشة » وقد سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » أي أنه والقرآن كيان واحد ، فالنبي هو التفسير الحق لما نزل عليه من آيات الله .

وإذن فلم تكن هذه المفتريات التي زحف بها الجهلة والمضللون على سيرة الرسول — لم تكن مقصوداً بها الرسول لذاته ، وإنما كانت غايةا تدمير الشريعة وساحب الشريعة جميعاً ، ثم يأتي من وراء ذلك تدمير المجتمع الإسلامي كله ، وتضييع أكثر من أربع مئة مليون إنسان يدينون بهذه الشريعة ، ويجهلون مصيرهم إليها !

أرأيت إذن جنابة آثم من هذه الجنابة ، وأغلظ جرماً وشناعة منها ؟
فإلى أين توجه هذه الملايين ؟ وإلى أي مساق تساق هذه الأمم إذا صح تقدير هؤلاء المضللين ، فتخطت هذه الملايين عن شريعة الإسلام وبنذمتها وراء ظهورها ؟

أتذهب إلى المسيحية ؟ إن أصحاب هذه المفتريات لا يؤمنون بالمسيحية ولا يعترفون بها ، وإن نسبوا إليها ، وحسبوا من أهلها ؛ لأنهم أعداء المسيحية ، وعدو لكل دين !

وما للإسلام عندهم من ذنب إلا أنه دين ! . . دين نزل من السماء ، ولم يخرج من التراب والطين !!

وإذا كان في المسيحية وفي أسرارها ومستغلفات الثلاث فيها ما لا تستسيغه عقول هؤلاء الذين كفروا بالمسيحية ولا تفهمه فليستهم . . فهل كان ذلك شأن الإسلام عندهم ، وهل جاموا إليه بقلوب سليمة . وعقول صحيحة فوجدوا فيه شيئاً لا يستقيم مع العقل أو يخرج على شرائط التفكير . . في أوسع مجالاته وأعرق أغوارها ، وأدق مسائله ؟

هذا هو الإسلام — عقيدة وشريعة — في معرض النظر لكل ناظر ، لا يقوم
دونه سدة أو كهان ، ولا يستأثر بشيء منه أحد دون أحد . فهل جاءوا عليه
بشاهد واحد من العقل يقول فيه قولاً ينسكركه عاقل ، أو ترده الحياة ، ويأباه
نظامها وعمرانها ؟

وكذب واقتراء ، وإمعان في الكذب والافتراء أن ينظر في الإسلام ناظر
منصف ، بعيد عن الهوى ثم يجد في الإسلام ما لا يستقيم مع الحياة ، أو ما لا يجري
مع من الطبيعة ونواميسها !

لقد بذر الإسلام بذوره الأولى في أفقر مكان وأجدبه ، وفي أفسى قلوب
وأصلدها ، وفي أظلم عقول وأضلها ، ثم لم يمض جيل من أجيال الناس حتى أمر
هذا البذر أطيب ثمرات الإنسانية وأكرمها ، فخرج في جيل واحد من العلماء ،
والفقهاء ، والساسة ، والقادة ، أعداداً وفيرة ، يصلح كل فرد فيها أن يكون قائد
ركب الحياة كلها ، إلى مواطن الخير والفلاح !

ولم تكن ممارس الإسلام هذه في أمة من الأمم ، أو في شعب من
الشعوب ، بل كانت ممارسه في الإنسان من حيث هو إنسان . ففرس في قریش
كما غرس في الفرس ، والروم ، والحبش ! ! لجمع إبلالا الحبشى مع عمر القرشى ،
مع عمار الفارسي مع صهيب الرومي ، ليقم لمن ذلك شاهد على أنه دين الإنسان
— من حيث هو إنسان — مجرداً من الجنس واللون والمواطن ! وأن أي إنسان
يشجه إليه ، ويرد موارده يجد أطيب زاد للدنيا والآخرة جميعاً .

ذلك هو الإسلام .

أفليس من العذوان على الحق ، والتضييع للخير أن تسكدر موارد هذا المورد
الغني ، وتعمى تنبله ، وتطمس معاملته ، أو يضل الناس عنه أو يحال بينهم ويبدنه
بهاك الأراجيف وهذه المبطلات ؟

ثم هذا نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام .

ماذا أخذ من دنيا الناس ، وماذا جمع من أموال ، وحصل من ذهب وفضة ،
وماذا اقتنى من ضياع وقصور ؟

أيحسب في المخادعين ، والكذابين والمضللين من يرد كل هذه الدنيا التي وقعت
بين يديه ؟ .

وماذا ينفى الخاتل بختله ، والكذاب بكذبه ، والمنافق بنفاقه ، والمدعى
بإدعائه ، والمشعوذ بشعوذته — ماذا يريد هؤلاء ومن على ساكتهم إلا أن
يفيدوا مالا . أو يحصلوا ثراء ، أو يستكثروا بما عندهم من المال والثراء ؟

ولقد عرفت الحياة كيف كان طعام محمد ، وكيف كان لباسه ، وكيف
كان مأواه وفراشه .

أما ماخلفه وراءه من حطام الدنيا . . فلا شيء ، إلا درعاً مرهونة عند
يهودى ، في قوته وقوت أهله .

ثم كان أن حسم الأمر جميعه فيما فرض على ورثته من بعده ألا يرثوا شيئاً
من ممتلكاته إن ترك وراءه ما يورث . فقال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ،
ما تركنا فهو صدقة » .

فلن كان هذا الجهاد الذى جاهد ، وهذا الضر الذى وجد ، وهذا الأذى
الذى احتمل ؟

لأنه الله ، وفى سبيل الله ، والحق الذى بين يديه ، وفى سبيل الأمانة التى حملته
السماوات إياها ، وكلفته أداءها إلى الناس جميعاً . . . قل ما سألكم عليه أجرأ ، إلا
المودة فى القربى ، (١) .

فلو لم يكن محمد ، نبياً . . . أفما كان من حقه على الإنسانية — كإنسان —
أن يمجده وأن يكرم ، وأن تكون سيرته فى مسمع الحياة وبصرها ، آية
للتوسمين ، ودرساً للدارسين ، وقدوة للمقتدين . لهذه المعاني الكريمة التى اشتمل
عليها ، ولهذا المثل العالى التى عاش بها ، ولهذا السمو الروحى الذى خلق فيه ؟

(١) سورة العنكبوت : آية ٢٣

فأى خير في الحياة ، وأى صلاح يرجى للناس إذا كان يحفظ الماملين المخلصين
الشرفاء الأطنبار أن يلقوا من الناس إنكاراً ، ووجوداً ، وأن يكون في الناس
من يفتق لهم الأكاذيب ، ويزيف عليهم الأباطيل ؟

ومع هذا . . . فإن الخير هو خير حيث كان ، وإن السكامة الطيبة لا تسقط
أبدأ . . . لأنها كشجرة طيبة . أصابها طيب وفروعها في السماء تؤتى أكلها كل حين
بإذن ربها . . .

وقد وفي الله سبحانه « محمداً » أجره ، وأجزله المشوية ، فرفع ذكره في
العالمين ، ومكان لدعوته في الحياة ، وجمع قلوب الملايين من الناس على حبه
والولاء له ، جيلاً بعد جيلاً ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو
خير الراشدين ؟

ولقد شهد « محمد » بنفسه منزلته في قلوب أصحابه ومكانته من نفوسهم ،
حيث كان أثر عندهم من أنفسهم ، وأحب إليهم من آبائهم وأزواجهم
وعشيرتهم ، ففر بذلك عيناً ، وطاب نفساً . . . هذا إلى ماقرت به عينه ، وطابت
به نفسه مما له عند ربه من رضى ورضوان ، بشر به الوحي ونطق به القرآن :
« ولسوف يهطيك ربك فترضى » (٢) .

* * *

أقول : إن همى هنا - في هذا البحث - كان منصرفاً إلى مواجهة تلك
المبطلات ، والمدعيات التي ادعانا خصوم الإسلام على نبي الإسلام ، وعلى الكتاب
الذي أنزل عليه .

وكنت أقدر أن هذا الموقف لا يصرفنى عن الغاية التي قصدت إليها من هذا
البحث ، وهي الوقوف على موارد السيرة النبوية ، وإرواء النفس من رحيقها
الطيب الطهور . . .

ولكن جرى الأمر على غير ما كنت أحسب وأقدر . . . فلقد وجدت بين
يدى كثيراً من المفتريات والباطيل والخرافات التي تحتل مكاناً كبيراً يزحم
الحقائق المعتمدة في السيرة النبوية ، ويكاد يغلها ، ويحزها عن مواضعها .

ولقد شغلني هذا الموقف ، الذي ربما أكون قد أسرفت فيه بعض الشيء ،
والذي ربما يكون قد حملني فيه الحماس الديني ، والغيرة على حمى الرسول — أن
أشدد الحساب على أولئك المفترين ، وأن أضرب حتى في تلك المفتريات الميعة
التي نزع الباطل طأ كفافاً من يوم أن ولدت . . . ولم آخذ نفسي فيها بالقول
المعروف : « الضرب في الميت حرام » بل كنت أضربها مرة بعد مرة ، ولم يشفع
لها علمي أنها ميعة بأن أتركها وشأنها . . . بل كان هذا العلم عندي داعية للزيد من
توجيه الضربات لها ، إذ كان مما أعلم أيضاً أن البتة الحبيثة تستمسك بالأرض
الحبيثة ، وإن تسكن ما تسكون من الفساد والعطب . . .

وهذه المفتريات النكدية وإن تسكن ميعة ، خامدة الأنفاس ، فإنها قد
تصادف قلباً مريضة ، أو عقولاً فاسدة ، فتبيض فيها وتفرخ ، وتنتج أشأم
مواليد . . . تتصاح في كيان أصحابها بالمروق من الدين ، وبالتجديف بالكفر
والإلحاد فيه .

من أجل هذا جاء ما كتبه في السيرة ، وإن كان محققاً - على ما أرجو -
لبعض الواجب في الدفاع عن حمى الرسول ورسالته - أقول قد جاء ما كتبت
في السيرة شيئاً أشبه بمن يقف إزاء المجاني الطبية من غسل النحل ، ثم يجد هو لها
جماعات من الزنابير والأفاعي ، فيشغل نفسه بإجلائها عن هذا الرزق الحسن ،
والزاد الطيب ، ليأخذ ما يشاء من رزق ، ويحمل ما يستطيع من زاد . . .
له والناس!

كان ذلك هو موقفي تماماً!

فلقد جمعت إلى السيرة النبوية الكريمة ، فوجدت رزقاً غنياً ، وزاداً كريماً
طيباً ، واسكن وجدت زواحف كثيرة من الضلالات ، والمفتريات . والجهالات .
تأخذ على الطريق ، وتحول بيني وبين مواردها الصافية ، ومجانيتها الطيبة .

وكنت - والحال كذلك - بين أمرين:

إما أن أمضى في طريق ، متخبطاً بين سحب متكاثفة من الضباب والدخان وأقنع بصحبة السيرة في هذا الجو المظلم العاصف ، وأرضى بما يلوح لي خلال تلك الصحبة من شعاعات .

وإما أن أكشف معالم الطريق ، وأجلى هذا الضباب والدخان عنه ! حتى أملا العين بهذا النور العاوى . . لا يتحول بيني وبينه ضباب أو سحب .

وغير منكور أن علماءنا - قديماً وحديثاً - قد كانت لهم ضربات قاصمة لتلك الضلالات والمفتريات . وأنهم قد استطاعوا أن يجلووا عن حى السيرة النبوية هذه المنكرات ، وأن يضعوا على الطريق معالم كاشفة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال . . وليس على من يرد موارد السيرة الكريمة إلا أن يأخذ طريقه إليها ، وأن يسلك أى طريق من تلك الطرق الكثيرة المستقيمة الممهدة .

وكان يمكن أن آخذ طريقاً من تلك الطرق الممهدة ، وأن أتفقد آثار من سبقوا من الرواد . . كان يمكن أن أفهل هذا ، وأن أوفر الجهد الذى بذلته في محاربة هذا الباطل ، وإذاقته موتاً بعد موت !

ولكنى آثرت أن أمهد لى نفسى طريقاً إلى السيرة النبوية المطهرة ، وأن أجلى بيدى عنه هذه الضلالات وتلك البدع ، ليكون لى من هذا العمل ثواب المجاهدين أولاً ، ثم ليكون لى ثانياً من الطمأنينة ما يثبت أقدامى على الطريق ، فلا تهجم على خاطرة من تلك الخواطر السوداء التى ترصد غفلة القلب ، أو ضعف النفس ، فتفسد على صحبى للسيرة المطهرة ، وتقطع أمداد النور التى تفيض منها . . .

• • •

ولست أزعم أنني شنيت ما بنفسى من الخواطر التى كنت أجدها حيثما التقيت بهذه المفتريات والباطيل التى تسلفت إلى حى السيرة المطهرة . . .

لا أزعم أنني شفيت بما بنفسى من هذه الخواطر المزعجة ، فإزالت أجد بين
يهدى كثيراً من هذه الأباطيل ، لم أعرض لها في هذا البحث ، ولم ألقها لقاء
مباشراً . ولو وقفت منها هذا الموقف لأنفقت أضعاف هذا الجهد الذى بذلته في
تلك المحاولة دون أن تبلغ النفس غايتها من مجاهدة تلك الأباطيل ، وتعريتها من
أساليب الخداع والتويه الملفة فيها !

لهذا ، فقد اكتفيت بهذه الإمثلة القليلة التى سقتها في هذا البحث ، فإنها على
قلتها تمثل أوجهاً كثيرة من وجوه الباطل التى تظهر شائبة كالحبة في معرض السيرة
النبوية ، وتطل متلصصة بين أحداثها وشخوصها المشرفة الرضية !

* * *

وعلى أى ، فإن ما ضمت عليه فصول هذا الكتاب يمكن أن تكون مدخلا
إلى السيرة النبوية لمن يريد أن يلتقى بها ، وأن يعطيها عقله كله وقلبه كله ، دون
أن يلتفت إلى هذه الأباطيل التى تصادفه ، ودون أن يدخل عليه منها ما يزيد به
قلبه ، أو يضطرب له عقله ، فقد عرف فيما جاء في هذه الفصول — إن لم يكن قد
عرف من قبل — عرف بما جاء في هذه الفصول أن نبي الإسلام فوق الشكوك والريب ،
وأن القرآن أرسخ من الجبال في مراسيمها ، وأسمى من الكواكب في مداراتها ..
إنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « تنزيل من حكيم
حميد » .

فأى كلام ينال من مقام النبي في عليائه ، وأى كلام يشتم منه رائحة الشك في
أنه كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب النبي الكريم — إن أى كلام
من هذا أو ذاك هو زور وبهتان ، جاء به عدو منيظ محقق ، أو ولي جاهل أحمق .
وما كان للزور أن يصد الحق عن وجهته ، ولا أن يقف له في طريق إلا كما يقف
الغشاء وصغار الحصى في مجرى السيل العتي المتدفق .

إن الذى يطالع السيرة النبوية المطهرة لا يستطيع أن يتخلص إليها إلا بعد أن
يجتاز هذه المرحلة من القلق والأسى لما يجد في ثنايا هذه السيرة من شفاخ منصوبة ،

وشباك مهيأة ، لاصطياد الجبهة والسذج ، ومن في قلوبهم مرض — بما يلتقى
لايهم من مقابله القول ، وما يزين لهم من زور ويهتان .

على أن من كان سليم القلب ، معافى من آفات الضلال والهوى لا يحتاج إلى علم
العلماء وحكمة الحكماء حتى يجتاز هذه المرحلة ، في أمن وسلام ، وأن يلتقى بالسيرة
كما يلتقى بالقمر في ليل تمامه ، وقد خرج من وراء السحاب ا

* * *

وأحسب أن هذا الكتاب ، يمثل تلك المرحلة ، التي تجابه قارئه السيرة
النبوية — وهي كما قلنا — مرحلة يعانى فيها المرء أزمت نفسية ، ووجدانية ،
وذهنية ، من هذه الضلالات والمفتريات التي اندست في ثنايا السيرة ،
وتلبست بها ا

وإذن ، فليذكر هذا قارئه الكتاب ، وليعلم أنه لم يقرأ فيه سيرة الرسول
السكريم ، ولا بعضاً منها ، وإنما الذى قرأ هو إشارة بالإصبع إلى الطريق المستقيم
لإيها ، وإنما هو زاد يتبلغ به من يزعم لقاء السيرة والقبس من أفواها ا

ومن يدري؟ فلهل كتاباً آخر يجيء وراء هذا الكتاب . . يتحدث عن السيرة
حديثاً بعيداً عن هذا الجو الذى انعقدت فيه سحب الخصومة وثمرات الجدل . .
حديثاً يقف على حمى السيرة وقمة لإجلال ، وخشوع ، وصلاة .

فإن يبسر الله يكن من وراء هذا الكتاب ، كتاب ، وربما أكثر من كتاب ،
والله المستعان ، وهو ولى التوفيق ؟

(تم بحمد الله)

المراجع

نُتبت هنا أهم المراجع التي كانت تحت نظرنا في إعداد هذا الكتاب

أولاً: الكتب المقدسة

القرآن الكريم . . . التوراة . . . الإنجيل

ثانياً: كتب التفسير والحديث

تفسير ابن كثير .. تفسير الزمخشري .. تفسير البيضاوي
صحيح البخاري .. صحيح مسلم .. بلوغ المرام من أدلة الأحكام

ثالثاً: كتب العقيدة والشريعة

الرسالة للإمام الشافعي . . . تحقيق أحمد محمد شاكر - ١٩٤٠
مقدمتان في علوم القرآن . . . (مطبعة السنة المحمدية)
النبوات لابن تيمية . . . المطبعة المنيرية - ١٣٤٦ هـ
المياسة الشرعية لابن تيمية . . . المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ
الإسلام والنصرانية .. للإمام الشيخ محمد عبده .
فضيلة الألوهية . للمؤلف (جزءان) . الناشر: دار النكر العربي .

رابعاً: كتب في التاريخ والسير

الشفاعة بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض .. المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢ هـ
السيرة لابن هشام (أربعة أجزاء) . المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ
السيرة الحلبية طبعة مصر سنة ١٣٣٠ هـ
الطبقات ، لابن سعد طبعة صادر بيروت .
زاد المعاد ، في هدي خير العباد ، لابن القيم (أربعة أجزاء) مطبعة السنة المحمدية.

محمد رسول الله .. لإييين دينيه . . . ترجمة الدكتور عبد الحلين محمود.
حياة محمد ، لإميل در منجم . . . ترجمة عادل زعيتر

خامساً : كتب فلسفية واجتماعية

مقدمة ابن خلدون المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ
حضارة الإسلام ، تأليف جوستاف جروندياوم (الألف كتاب) مكتبة مصر .
قمة الحضارة ، تأليف : ول ديورانت . طبعة جامعة الدول العربية .
تجديد التفكير الديني الإسلامي . تأليف : محمد إقبال ترجمة : عباس محمود .
رسائل الجاحظ ، مجموعة رسائل . . . (للسندوبي) .
الزوميات ، للمعري (طبعة صادر) بيروت .
العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسو (الألف كتاب) ترجمة عبد الكريم أحمد .

سادساً : كتب أدبية

نهاية الأرب في فنون الأدب ، للنويري (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٤٩ هـ
أدب الكاتب ، للصولي طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .
البيان والتبيين للجاحظ (طبعة السندوبي) .

الفهرست

صفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٨	مقدمة الطبعة الثانية
٩	صلوات وإبتهالات (الكلمة الطيبة)
الباب الاول	
٢٥	الاسم والمسمى
الباب الثاني - النبوة .. والنبي	
٤٦	هل النبوة ضرورة لإنسانية
٥٠	بشرية الرسل
٥٢	الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس - صفوة الحق
الباب الثالث - المعجزة .. والإعجاز	
٥٧	المعجزة
٦٥	إمكان اتصال الانسان بالملا الأعلى
٦٧	رأى ابن خلدون
٦٨	اختلاف المعجزات باختلاف الامم
الباب الرابع - مصائد الرسالة الإسلامية	
٧٤	شخصية الرسول
٧٥	تخطيط وهديان
٧٧	عظمة محمد
٧٧	عظمة الانسان .. وعظمة النبي
٧٩	موقف .. وموقف
٨٠	ما أشبه الليلة بالبارحة
٨١	محمد ... بعد القرآن

صفحة

الموضوع

مع الجادين والمنصفين: ٩٣
لأمارتين ٩٣ -- ول ديورات ٩٤ -- ستافلي لين بول ٩٧
فوستيل ذوكولاوتر ٩٧ -- بار تلي هيلر ٩٧ -- جويستان
لوبون ٩٧ -- كارليل ٩٨ -- ولیم میود ٩٨ -- سبورت
اسم ٩٨

دعوات الحق و نزوات الباطل ١٠٠
النبي والمتبي ١٠٢
أبي أم عظيم ١٠٨

الباب الخامس -- خاتم النبيين

و الله أعلم حيث يجعل رسالته ١١٣
محمد والوحي ١٣١
الحق والباطل ١٣٧
وما صاحبكم بمجنون ١٣٨
نمار الصرع والجنون ١٤٥
ابن صياد واختبار النبي له ١٤٧
الفرافقة العلي ١٥

الباب السادس -- الداعي وموطن الدعوة

مفارقات ومقابلات ١٦٣
حساب غير هذا الحساب ١٦٤
ماذا هناك ما معنى هذا التوافق ١٦٥
هذا النبي الأبي ١٦٧
النبي العظيم هدمه العاصفة ١٦٩
مولد النبي ١٦٩

الباب السابع -- الرسول ومهجرات الرسالة

أصحاب النبيل ١٧٢
فداء النبي ١٧٧

صفحة	الموضوع
١٨٥	ماذا في جبين عبد الله
١٨٩	حلم آمنة
١٩٤	قصة الختان
١٩٥	قصة شق الصدر
١٩٨	لرهاصات بين يدي النبوة
٢٠٢	دين الحس
٢٠٥	رجال في الطليعة
٢٠٧	الرهبان والسكبان
٢١٢	من أخبار والسكبان
٢٢٤	معجزات الرسول .. بعد البعثة

نبع الماء ٣٢٨ — شجرة تتكلم ٢٣٢ — معجزة النبي
للنبي ٢٣٤ — إنك على الحق المبين ٢٣٥ — انشقاق
القمر ٢٢٧ — قصة الإسراء ٢٤٢ — مد غير منتظر ٢٥١ .

الباب الثامن - الرسول . . والمعجزة الكبرى

٢٦٥	لو أنزلنا هذا القرآن .. الآية
	الرسول الكريم ٣١٩ — أسلوب القرآن ٢٨٣ — محمد والقرآن
	عند غير المسلمين ٢٨٤ — التشريع في القرآن ٣٠١ —
	صياغة أحكام الشريعة ٣١٤ .

الباب التاسع - بشرية الرسول

٢٢٥	شواهد من أحوال الرسول - القرآن وشخصية الرسول
٢٢٦	ما شهدت به الأعداء

الباب العاشر - المرأة في حياة النبي

٢٥٢	الرجل والمرأة ٣٢٧ - النبي البشر ٣٢٨ - الحقيقة والظل ٣٣٤
	زوجات النبي

صفحة	الموضوع
	الباب الحادى عشر -- نبى الملاحمة
٢٦٦	الاسلام والصفى
٢٨٨	الجهاد . . فى الاسلام
٢٩٧	عود على بدء
	الباب الثانى عشر -- نبى الرحمة
٤٠٢	النبوة
٤٠٤	الرسالة المحمدية
٤١١	الرحمة العاملة الشاملة
	الإيمان بالله ٤١٩ -- ما يتصل بالإنسان فى حفظ حياته ٤٢٠
	ما يتصل بالإنسان فى ماله -- ما يتصل فى حياته مع الناس .
	(ا) الرجل والمرأة ٤٢١
	(ب) الزوج والزوجة ٤٢٥ -- الرحمة الشاملة أيضاً ٤٢٦ .
٤٣٩	الإنسان فى القرآن
٤٥٠	خاتمة . . ومفتتح
٤٥٩	المراجع
٤٦١	الفهرس



